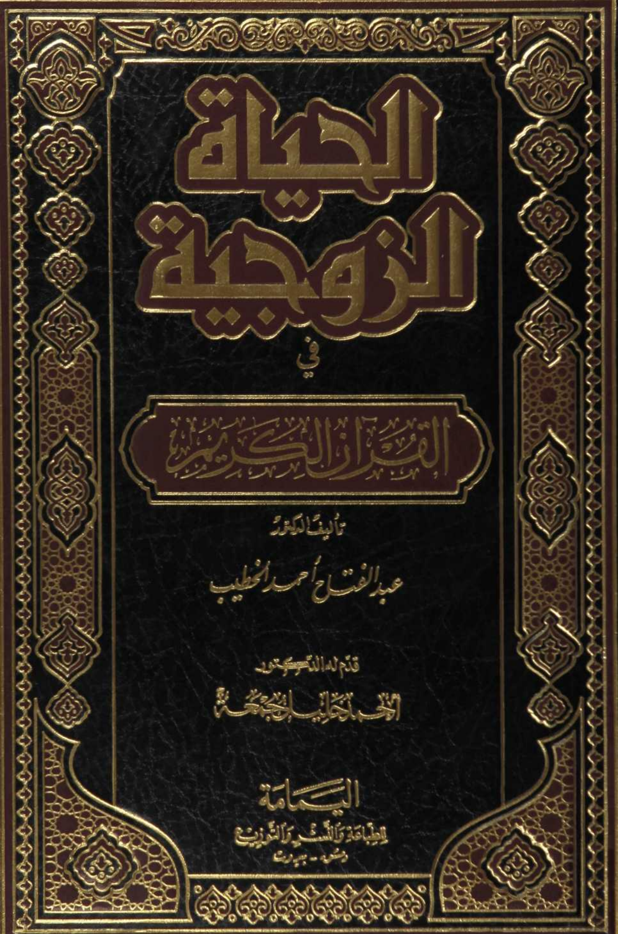

الحياة الزوجية
في
القرآن الكريم
تأليف الدكتور
عبد الفتاح أحمد الخطيب
قدم له الدكتور
أحمد خليل جمعة
اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت


مركز المراة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف : ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)


الحياة الزوجية
في
القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥

بيروت - ص.ب ٥٤٨٨ / ١١٣ - تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ٠١ - جوال ٨٥٣٥٨٦ ٠٣

Http://www.dar-alyamama.com

e-mail: alyamama@scs-net.org

الحياة الزوجية

في



تأليف الدكتور

عبد الفتاح أحمد الخطيب

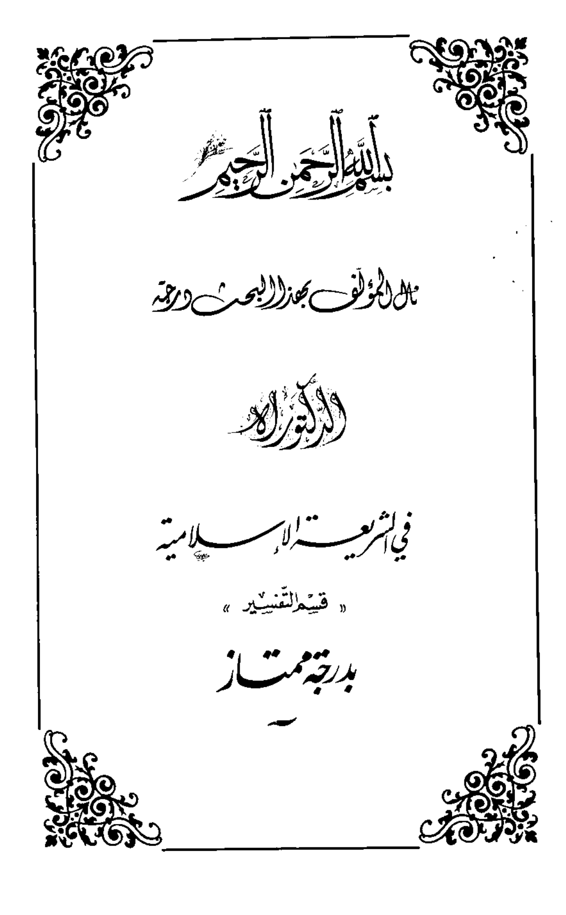
قدم له الدكتور

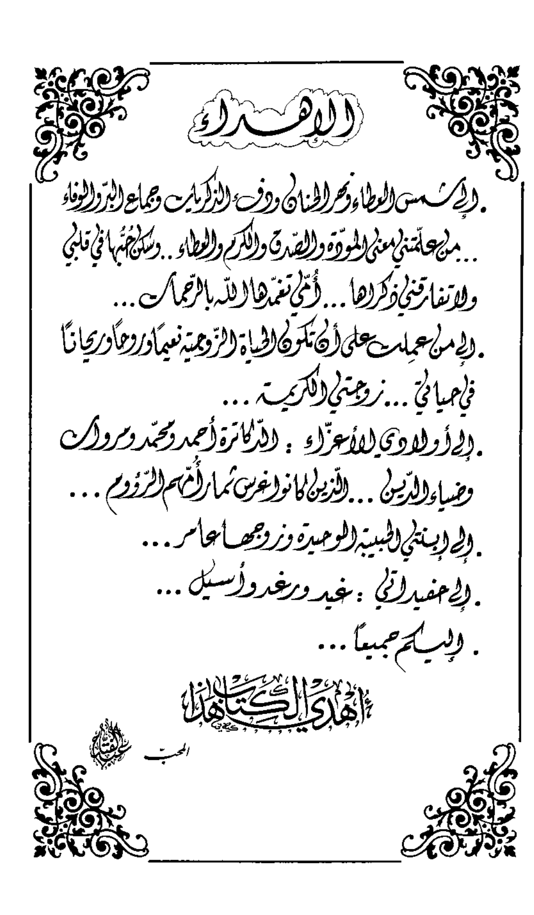
أحمد خليل جمعة

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم
نال المؤلف بهذا البحث درجة
الدكتوراه
في الشريعة الإسلامية
« قسم التفسير »
بدرجة ممتاز



الإهداء

. إلى شمس العطاء ونهر الحنان ودفء الذكريات وجماع البرّ والوفاء ... من علّمتني معنى المودّة والصدق والكرم والعطاء .. وسكن حبّها في قلبي والتفّ قلبي ذكراها ... أُمّي تغمّدها الله بالرّحمات ...

. إلى من عملت على أن تكون الحياة الزّوجية نعيمًا وروحًا وريحانًا في حياتي ... زوجتي الكريمة ...

. إلى أولادي الأعزّاء : الدّكاترة أحمد ومحمّد ومروان وضياء الدّين ... الّذين كانوا غرس ثمار أُمّهم الرّؤوم ...

. إلى إبنتي الحبيبة الوحيدة وزوجها عامر ...

. إلى حفيداتي : غيد ورغد وأسيل ...

. إليكم جميعًا ...

أهدي الكتاب هذا

المحب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

بقلم الدكتور
أحمد خليل جمعة

ـ الحمدُ للهِ الذي أنزلَ الكتابَ المكنون ، خلقَ الإنسانَ مِنْ صلصالٍ مِنْ حَمأ مسنون ، وإذا قضى أمراً فإنّما يقولُ له كُنْ فيكون ، وله مَنْ في السّماواتِ والأرض كلٌّ له قانتون ، أحْسَنَ خَلْقَ الإنسانِ وفصَّلَ الآياتِ لقومٍ يفقهون .

ـ والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ المصطفى ، والرّسولِ المجتبى ، الذي جعلَ المرأةَ ترتقي المنزلةَ العُليا ، بعد أنْ كانت في المكانةِ الدُّنيا ، فكانت دعوتُه الحِصْنَ الحصين ، ورسالتُه رحمةً للعالَمين ، صلى الله عليه وسلم .

ـ وبعد :

ـ فقد رسَمَ القرآنُ الكريمُ الحياةَ الزَّوجيّة بصورةٍ موحيةٍ في أجمل عِظَةٍ وأبلغِها ، وأفصحِ عبارةٍ وأجملِها؛ فالأسرةُ هي اللبنةُ الأولى في تشييدِ صَرْحِ المجتمع ، وتماسكِ العلاقاتِ بين أفراده؛ وأساسُ ذلك كلّه التزامُ الزَّوجَيْن بِشَرْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ لبناء حياةٍ سعيدةٍ روحُها المودّةُ ، وشعارُها الرّحمةُ ، ودثارُها الأُلفة .

ـ ومن الطَّبيعي في استقرارِ الحياةِ الزَّوجيّةِ أنْ تكونَ المرأةُ الحصيفةُ هي المحورُ فيها ، فهي القادرةُ على أنْ تجعلَ من بيتها مِهَاداً مونقةً لأُسْرتها ، وذلك بالقدوةِ الحسنةِ ، والرّعايةِ المستمرّة ، وتخطّي المتاعب ، كيما تصلَ إلى شاطىء الأمنِ والهدوءِ والاستقرار .

ـ ولما كانتِ الحياةُ الزّوجيّةُ استمراراً لحياةِ بني الإنسان ، وبقاءً للنَّسْلِ البشَريّ ، فقد استروحَ الباحثُ الدّكتور عبد الفتّاح بن أحمد الخطيب أفياءَ الحياةِ الزّوجيّةِ بأشكالِها وألوانِها ، ودخلَ روضاتٍ جميلةً ، اقتطفَ من أغصانِها أجملَ طاقاتِ الزَّهْر المندّى بِعَبيرِ القُرآن الكريم من خلالِ دروسهِ وعبره ، ومن ثمَّ رَبَطَ ذلك بالحياةِ المعاصرة بدقّةِ الخبير ، ومعرفةِ البصير .

ـ لقد حرصَ الباحثُ على أنْ يستوفيَ معظمَ جوانبِ رسالته ، ويوضحَ بعضَ المفاهيم الإسلاميةِ الصّحيحةِ التي غابتْ عن بالِ بعضِ النّاس في هذا العَصْر المشحونِ بشتّى الأغلاطِ والالتواءات؛ كما أنّه لَفَتَ النَّظَرَ إلى بعضِ العاداتِ والتّقاليدِ التي ينبغي على المجتمعِ المسلم أنْ يجتنبَها .

ـ ومن خلالِ رحلته الجمليةِ مع الحياةِ الزّوجيّةِ في القرآنِ الكريم استَحْلى الباحثُ الموفّقُ صُوراً لطيفةً لحياةِ بعضِ نساء الأنبياء ، فاستَجلى دورهنّ ومهمتهنّ في بيوتِ أزواجهنّ ، وكيف أدَّتْ كلُّ واحدةٍ منهنّ عملاً سَعَتْ من خلاله لِتَنالَ مرضاةَ اللهِ تعالى .

ـ وقد رسمَ الباحثُ الموفّقُ نموذجاً لبعضِ النّساءِ العاصيات اللواتي خالفْنَ الأمْرَ الإلٰهيَّ ، فحظينَ بالخسرانِ المبين ، وكُنَّ من أصحابِ الجحيم .

ـ هذا ، وإنَّ جهدَ الباحثِ واضحٌ في هذه الرّسالةِ القيّمةِ التي تفصحُ عن دأبهِ المتواصلِ في تتبّع المصادرِ العديدة ، وعيونِ الآثار ، وبطونِ الأسفار ، ثم غزارةِ التّفاسير الكثيرة التي تزينُ جِيْدَ الرّسالةِ ، وتجعلُها حليةً تصلحُ لسائرِ طبقاتِ النّاس .

ـ إنَّ هذه الرّسالةَ القيمةَ يَحْسُنُ أنْ تكونَ في كلِّ بيتٍ ، لتفوحَ من أردانِ أفيائهِ أنسامُ السّعادةِ الزّوجيّة .

ـ جزى اللهُ الباحثَ الموفّق خيرَ الجزاء ، وأجزلَ له العطاء ، وجعلَ عملَه خالصاً لوجهه الكريم ، ووفّقهُ لأعمالٍ أخرى تثْري العقولَ ، وتغذّي الأرواح ، وتزيد من رصيدِ المكتبةِ الإسلاميّة في هـذه الأيّامِ التي تحتاجُ منّا إلى وقفة تأمّل .

ـ وصلى الله على سيّدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه وسلم .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

دمشق ـ حرستا ٢٤/ ٧/ ١٤٢٤ هـ	وكتب
٢٢/ ٨/ ٢٠٠٣ م	الدكتور أحمد خليل جمعة

المقدمة وعرض البحث

الحمد لله ربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١]؛ وخلق الإنسان وعلم ما يصلحُه في حياته، فخلق له زوجه ليسكنَ إليها، وجعل ذلك آية من آياته فقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

والصَّلاة والسّلام على خير الأنام، محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين ليبيّن لهم ما يجعلهم سعداء في دينهم ودنياهم، وخصوصاً في الحياة الزوجية والأمور التي تتعلق بحقوقها.

وبعدُ:

فإن الحياة الزوجية ودراستها في ضوء القرآن الكريم من الأمور التي شغلت الناس قديماً وحديثاً، ولـمّا كان هذا الموضوع ذا أهمية بالغة في العصر الحاضر، رأيت من الضروري أن أبحث فيه، وأجْلُوَ الصورة الحقيقية للحياة الزوجية التي أشار إليها القرآن الكريم، والتي تحدَّث من خلال آياته عن الأساسيات التي تهمُّ المجتمعات الإسلامية جميعها.

ومن أجل هذا رحت أجمع مادة هذه الرسالة من بطون المصادر التي كثرت أمامي، ولكن على الرغم من كثرتها إلا أن استخلاص المعلومات لم يكن بالأمر اليسير. لأن كثيراً مما تناولتُه مفرّق في ثنايا كتب التفسير القديمة والحديثة، وكذلك كتب علوم القرآن والأحكام، والسيرة والتاريخ، والطبقات، بل وكثير من البحوث والرسائل التي ملأت رفوف المكتبات، بَيْدَ

أني لم أجد ـ في حدود اطِّلاعي ـ من جعل قسماً للأمثلة العملية في بحثه، وهذا هو السبب الرئيسي الذي حدا بي أن أتحمل صعوبة هذه الرسالة التي تبدو سهلة بادئ الأمر.

وقد جعلت هذه الرسالة من مقدمة ، وبابين، وخاتمة.

وكان الباب الأول حول مفاهيم الزواج في القرآن الكريم، وقسمت هذا الباب إلى اثني عشر فصلاً استوفيت من خلالها معظمَ جوانب الحياة الزوجية وربطها بواقعنا المعاصر.

فقد تحدَّثتُ عن مفهوم الزواج في مصادر اللغة ومصادر كتب الشريعة، وذكرتُ اهتمام القرآن بأمر الزواج وفوائد واختيار الزوج، والأسس التي ينبغي توخيها في اختيار المرأة للزواج.

ثم إني أفردت فصلين عما يتعلَّق في أمور الخطبة ومتعلقاتها، وبينت بالدلائل الأخطار التي يرتكبها بعض الناس في هذا المجال من الإفراط والتساهل في زمن الخطبة.

ولما كان الزواج ذا أهمية بالغة، فقد أفردت فصلاً تحدَّثْت من خلاله عن عقد الزواج وما يترتب عليه، وكيف تحدَّث عنه القرآن الكريم لحفظ الحقوق الاجتماعية للمرأة والرجل.

وبعد ذلك أودعتُ الفصل التاسع الحقوق الواجبة للمرأة في حياتها الزوجية، وشرعت في الحديث عن حفظ القرآن الكريم لهذا الحق المرتبط بالزوجة لتشعر بالأمن والاستقرار في حياتها الزوجية.

ومن خلال الفصل العاشر تحدثتُ عن حقوق الزوج الواجبة على زوجته، وكثيراً ما كنت أشير إلى الاهتمام بأمور الرجل لتستمر عُرى الحياة الزوجية موثقة من خلال معاملة المرأة لزوجها.

ثم تحدثت عن الحقوق المشتركة بين الزوجين ، وختمت الباب بالحديث عن نماذج من قصص الزواج الموفَّق في تاريخنا الوضيء، وأشرت إلى نساء عصرنا بأن يقتدين بأسلافهن ليقمن حياة ناجحة قائمة على سوق الوئام والمودة.

ومن الجدير بالذكر أنني لم أتعرض إلى بعض أمور الحياة الزوجية؛ كالطَّلاق ونكاح المتعة والـخُلع وغير ذلك، لئلا يطول البحث، وفضّلت أن يكون الحديث عن الجوانب الإيجابية في الحياة الزوجية، لأن حياتنا المعاصرة بحاجة إلى التوجيه والرفق، ولأن كثيراً من الأبحاث والدراسات قد تكفَّلت بالحديث عن هاتيك الأمور، وخصوصاً كتب الفقه في جميع المذاهب.

وقد أشرتُ من خلال الباب الأول بفصوله العديدة إلى كثير من الأخطاء والأخطار التي يقع فيها كثير من الناس في هذه الأيام ناسين بأن القرآن الكريم لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً في هذا المجال إلا أشار إليها ورسمها بوضوح لكي يسعد الناس في حياتهم الزوجية.

كما أنني أشرت إلى بعض المخالفات التي لا أساس لها في الشريعة الغراء وفي المنهج القرآني وخصوصاً فيما يتعلق بأمور اختيار الزوجة والزوج، وأمور الخطبة، حيث حرص بعض الناس على أن يتبعوا سنن من خالف القيم الإسلامية، وَلَهَجَ وراء عاداتٍ وتقاليدَ ترهق الزوج والمجتمعات، وتكلفهم ما لا طاقة لهم به.

أما الباب الثاني فقد سميته: صور من الحياة الزوجية في القرآن الكريم. وقسمته إلى قسمين بارزين:

الأول: تحدثت من خلاله عن زوجات صالحات في حياة أنبياء الله ورسله.

الثاني: تحدثت من خلاله عن زوجات عاصيات ذكرهن القرآن الكريم.

ففي الفصل الأول تحدثت عن حواء أول امرأة في تاريخ البشرية، وكيف كانت حياتها الزوجية مع آدم عليه السلام، وكيف رسمها القرآن الكريم، ثم قفّيت الحديث عن الحياة الزوجية لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع زوجتيه سارة وهاجر، وكيف كانتا مثلاً طيباً في مكارم الأخلاق والصبر والتسليم لأمر الله تعالى.

وأوردتُ بعد ذلك الحياة الزوجية لنبي الله موسى وأشرت إلى دور الحياء في حياة زوجته، ثم تحدثت عن زوجة أيوب وصبرها وزوجة زكريا وعبادتها،

ونوَّهت إلى الاقتداء بسيرهن لتكون السعادة الزوجية مرفرفة على البيوت في كلِّ زمان ومكان.

ثم ختمت الحديث في القسم الأول عن اثنتين من أمهات المؤمنين وهما: عائشة بنت أبي بكر، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما، وتحدثت عن دور كل واحدة منهن في بيت النبوة، وكيف كانتا تعملان على مرضاة الله ورسوله في جميع مجالات الحياة الزوجية وخصوصاً في نقل العلم إلى نساء الأمة المحمدية عن طريق الرواية، بالإضافة إلى العبادة والذكر وعمل الخيرات.

أما القسم الثاني فقد أوردت فيه أربع نماذج لنساء عاصيات وهن: امرأة نوح وامرأة لوط حيث خالفتا الأمر الإلٰهي، ولم تؤمِنَا بما جاء به زوج كل واحدة منهما، فاستحقَّتا النار بكفرهما.

ثم تحدثت عن أم جميل امرأة أبي لهب وعداوتها للنبي ﷺ حتى صارت من أهل النار تصلى مع زوجها ناراً ذات لهب.

وتعرضتُ بعد ذلك للحديث عن أم سعد بن أبي وقاص التي حاولت بكل ما تملك أن تصد ابنها سعداً عن سبيل الله وعمّا نزل من الحق، لكنها لم تفلح في ذلك وخسرت مع الخاسرين.

ومن الواضح أن الحديث في الباب الثاني كان للتأثير عملاً وقولاً في مسيرة النساء في العصر الحاضر، حيث إن القسم الأول منه يترجم لنساءٍ هُنّ القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لكل نساء العالم، وخصوصاً اللواتي يردن إنشاء حياة سعيدة في ظلال بيت الزوجية، فإذا ما قرأت النساء حياة هؤلاء النخبة من النساء الصالحات في حياة خير الناس، تأثرن بهن، وبفكرهن وسلوكهن، وجوانب حياتهن عامة، ومن ثم يتم التحول إلى سلوك الطريق الأخلاقي والعملي الذي قصدته من خلال سيرهن، لأن القول والعمل يجب أن يكونا مقترنين دائماً، وعليهما ينبني نجاح الحياة الزوجية السعيدة.

وأودُّ أن أشير الآن إلى أنني حاولت قدر الجهد أن أتحرَّى الأخبار

الصحيحة، وأن أنقل ما جاء في الصحيح أولاً، وأن أختار الخبر الذي يتفق مع منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وكانت مصادر الرسالة كثيرة تجاوزت المئات، وقد أوردت ثبتاً بآخر الرسالة ذكرت خلاله أهمها.

وكان في مقدمة المصادر التي تكونت بها نواة الرسالة:

- القرآن الكريم وعلومه وأحكامه.
- كتب التفسير القديمة والحديثة.
- كتب الحديث والآثار والمسانيد.
- كتب التراجم والسير والطبقات والتاريخ.
- كتب الثقافة العامة والمعاجم والجغرافيا وغيرها.

وقد حاولت أن أزين هذه الرسالة بالحواشي المهمة التي تزيد من قيمتها، والتي تطلّبَتْ مني جهداً كبيراً، ومراجعة دقيقة خصوصاً فيما يتعلق بالتراجم وذكر الأحكام، أو التذييل على بعض الآيات بالشرح والتحليل والدروس المستفادة.

وختاماً فإنني أشكر الأستاذ الدكتور أحمد الحسن الذي أشرف على هذه الرسالة، والذي أتحفني بكثير من ملاحظاته القيِّمة والمهمة وخصوصاً فيما يتعلق بالفرق بين لفظ: الزوج والمرأة، وإلى أشياء كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، فجزاه الله خيراً وأجزل مثوبته.

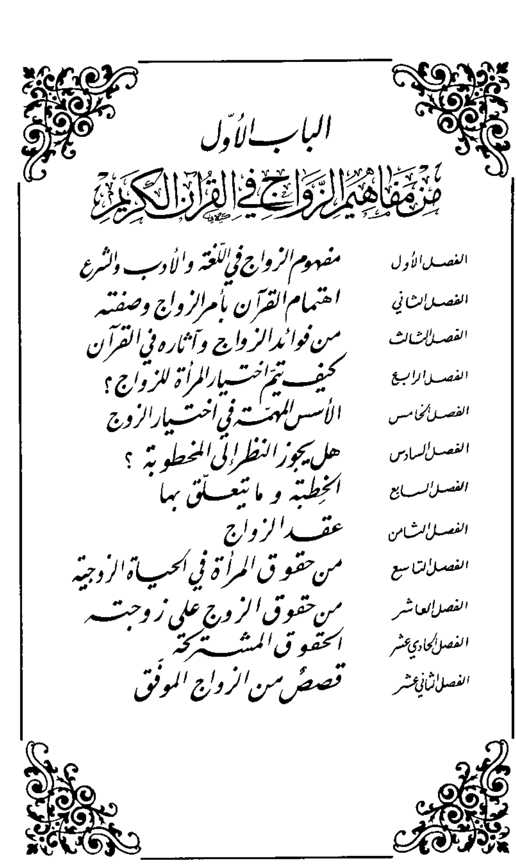
وأتقدم بخالص الدعاء لكل من ساعد في إبراز هذه الرسالة إلى الوجود وخصوصاً زوجتي وأولادي فلهم مني كل حب وتقدير.

اللهم تقبل عملنا هذا، وانفع به، واجعل كل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم، والحمد لله أولاً وآخراً.

دمشق ـ عسال الورد — وكتب

٢٤/ ٧/ ١٤٢٤ هـ — **عبد الفتاح أحمد الخطيب**

٢٢/ ٨/ ٢٠٠٣ م



الباب الأوّل

من مفاهيم الزّواج في القرآن الكريم

الفصل الأول	مفهوم الزواج في اللّغة والأدب والشرع
الفصل الثاني	اهتمام القرآن بأمر الزواج وصفته
الفصل الثالث	من فوائد الزواج وآثاره في القرآن
الفصل الرابع	كيف تتمّ اختيار المرأة للزواج؟
الفصل الخامس	الأسس المهمّة في اختيار الزوج
الفصل السادس	هل يجوز النظر إلى المخطوبة؟
الفصل السابع	الخِطبة وما يتعلّق بها
الفصل الثامن	عقد الزواج
الفصل التاسع	من حقوق المرأة في الحياة الزوجية
الفصل العاشر	من حقوق الزوج على زوجته
الفصل الحادي عشر	الحقوق المشتركة
الفصل الثاني عشر	قصص من الزواج الموفّق

الفصل الأول

مفهوم الزواج في اللغة والأدب والشرع

كتب اللغة والأدب ومصادر علومها؛ تمدُّ الباحث بكثير من المعاني الواسعة حول مفهوم الزواج ومعانيه واشتقاقاته، وبالتالي تتوضح الصورة بشكل أفضل في أذهان القراء، وطلاب المعرفة.

وتطالعُنا كتب اللغة بعامّة بأن معنى الزواج هو: الازدواج والاقتران والارتباط.

يقال: زوّج الرجل إبلَه: أي قرن بعضها إلى بعض، ومنه قول الله تعالى في الذكر الحكيم: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧]؛ أي: قُرنت بأبدانها يوم القيامة.

قال الشوكاني: «وإذا النفوس زوّجت؛ أي: قُرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء في النار.

وقال عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ: زُوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقُرنت نفوس الكافرين بالشياطين. وقيل: قرن كل شيء إلى شكله في العمل، وهو راجع إلى القول الأول. وقيل: قُرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما في قوله تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال عكرمة: وإذا النفوس زوجت؛ يعني: قُرنت الأرواح بالأجساد. وقال الحسن: أُلحِق كل امرئ بشيعته؛ اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم

ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين، وقيل: قُرنت النفوس بأعمالها»[1].

ويدخل في معنى ذلك: اقتران الرجل بالمرأة، ومن ثم ارتباطه بها من أجل الائتناس والتناسل والتكاثر؛ وقد ذاع استعمال الزواج وانتشر ضمن هذا المعنى، حتى إنه غدا سابقاً إلى التصوُّر وإلى الفَهْم، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤].

ومن الجدير بالذكر أن كلمة النكاح في اللغة يمكن أن تستعمل في معنى الزواج، وهو الغالب والكثير في ألفاظ القرآن الكريم ولغته، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، أي: عقدة الزواج؛ وقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، أي: تزوَّجوا ما طاب لكم منهن. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، أي: لا تتزوَّجوا المشركات.

وقد توسَّع ابن منظور في مادة زوج في (لسان العرب)؛ فقال ما مفاده وملخصه: «الزوج: خلاف الفرد. يقال: زوج أو فرد. ويقال: هما زوجان للاثنين، وهما زوج. قال ابن سيدة: الزوج الفرد الذي له قرين، والزوج الاثنان، وعنده زوجا حَمام، يعني: ذكَرين أو اثنين، ولا يقال: زوج حمام، لأن الزوج هنا هو المفرد، وقد أولعت به العامة. والعامة تخطئ فتظن أن الزوج اثنان، وليس ذلك من مذاهب العرب، إذ كانوا لا يتكلمون بالزوج مُوَحّداً في مثل قولهم: زوج حَمَام، ولكنهم يُثَنُّونه فيقولون: عندي زوجان من الحمام، يعنون ذكراً وأنثى، ويوقعون الزوجين على الجنسين المختلفين نحو الأسود والأبيض، والحلو والحامض».

قال ابن سيدة: ويدل على أن الزوجين في كلام العرب اثنان قول الله عز وجل:

---

(١) فتح القدير (ص ١٥٨٩ و١٥٩٠) طبعة دار المعرفة الأولى ٢٠٠٢م.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥]؛ فكل واحد منهما كما ترى زوج، ذكراً كان أو أنثى.

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾، وكان الحسن يقول في قوله عز وجل: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ قال: السماء زوج، والأرض زوج، والشتاء زوج، والصيف زوج، والليل زوج، والنهار زوج، ويجمع الزوج أزواجاً وأزاويج.

وقال ابن شميل: الزوج اثنان، كل اثنين زوج، واشتريت زوجين من خفاف: أي أربعة، والزوج: الفرد عندهم، ويقال للرجل والمرأة: الزوجان، قال الله تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ يريد ثمانية أفراد. وقال: ﴿ ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾.

يقال للمرأة: إنها لكثيرة الأزواج والزّوجَةِ؛ والأصل في الزوج الصنف والنوع من كل شيء، وكل شيئين مقترنين، شكلين كانا أو نقيضين، فهما زوجان، وكل واحد منهما زوج. وزوج المرأة: بعلها، وزوج الرجل: امرأته؛ والرجل زوج المرأة. وهي زوجه وزوجته.

قال بعض النحويين: أما الزوج فأهل الحجاز يضعونه للمذكر والمؤنث وضعاً واحداً، تقول المرأة: هذا زوجي، ويقول الرجل: هذه زوجي، قال الله عز وجل: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾، وقال: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾، وقال: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾؛ أي: امرأة مكان امرأة. ويقال أيضاً: هي زوجته؛ قال الشاعر:

يا صاحِ بلّغْ ذوي الزّوجات كلِّهمُ ... أنْ ليسَ وصْلٌ إذا انحلّتْ عرى الذّنَبِ

وتقول العرب: زوّجته امرأة، وتزوجت امرأة، وليس من كلامهم: تزوجت بامرأة؛ ولا زوّجْتُ منه امرأة، قال الله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي: قرنّاهم بهنّ، من قوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ أي: وقرناءهم.

وتزاوج القوم وازدوجوا: تزوج بعضهم بعضاً، صَحّت في ازدوجوا،

لكونها في معنى تزاوجوا. وامرأة مزواج: كثيرة التزوج والتزاوج...»[1].

وكلمة الزوج والزواج من الكلمات التي دارت عليها معانٍ كثيرة في القرآن الكريم، وقد ورد عدد من الاشتقاقات لكلمة زوج على النحو الآتي: «زوجناكها ـ زوّجناهم ـ يزوّجهم ـ زُوّجت ـ زوج ـ زوجاً ـ زوجك ـ زوجه ـ زوجها ـ زوجان ـ زوجين ـ أزواج ـ أزواجاً ـ أزواجك ـ أزواجكم ـ أزواجنا ـ أزواجه ـ أزواجهم ـ أزواجهن»؛ وقد زاد عدد هذه الاشتقاقات عن تسعين مرة في القرآن الكريم.

وقد تصدى أبو البقاء الكفوي لمعنى الزوج، فقال في كتابه المفيد (الكليات): «الزوج: كل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً يقال له: زوج، وتقول: عندي زوجان من الحمام، تعني ذكراً وأنثى، وكذلك كل اثنين لا يستغني أحدهما عن صاحبه.

وزوّجته امرأة وبامرأة، وكذا تزوجت امرأة وبامرأة. وقيل: لا يتعدى بواسطة حرف الجر إلا باعتبار ما في ضمنه من معنى الاتصال والإلصاق، ولا يتعدى بـ (مِنْ) وإن كثيراً في كلامهم، ولعل ذلك من إقامة حرف مقام حرف، كما قال الكوفية؛ وذا غير عزيز عند البصرية، والقرآن كله على ترك الهاء في الزوجة نحو: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

قال الراغب الأصفهاني: ولم يجئ في القرآن: وزوجناه حوراً؛ كما يقال: زوجته امرأة، تنبيهاً على أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا بالمناكحة»[2].

ولا نجد مانعاً في الإبحار أكثر في مظانّ اللغة ودواوين الأدب لاستخراج كنوز نُثْري بها هذا البحث المهم في هذه الأيام التي غاب مفهوم الزواج عن أذهان كثيرين من أهل الحل والعقد.

قال الجوهري في مادة «زوج» ما مفاده: «زوج: زوج المرأة: بعلها، وزوج

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٣) باختصار وتصرف.

(٢) الكليات (ص ٤٨٦) مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٨م.

الرجل: امرأته، قال الله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ويقال أيضاً: زوجته؛ قال الفرزدق:

وإنّ الذي يسعى ليفسدَ زوجتي كساعٍ إلى أُسْدِ الشّرى يَستَبيلُها

قال يونس: تقول العرب: زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، وقول الله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]، أي: قرناهم بهنّ. وقال الفراء: تزوجت بامرأة: لغة في أزد شَنُوءَةَ.

وامرأة مزواج: كثيرة الأزواج، والتزاوج والمزاوجة والازدواج بمعنى.

والزوج: خلاف الفرد، يقال: زوج أو فرد. ويقال: هما زوجان للاثنين، وهما زوج، كما يقال: هما سِيّان وهما سواء»[1].

وفي (أساس البلاغة) يطلع علينا الزمخشري بمعانٍ مفيدة عن معنى الزوج والزواج فيقول: «زوج: هو زوجها، وهي زوجه وزوجته، وهما زوجان، وله عدة أزواج وزوجات. وله زوجان من حمام، وزوجا حمام، واشتريتُ زوجَيْ نعال. وخلق الله النبات أزواجاً: أصنافاً وألواناً، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [قٓ: ٧]: من كل لون، وهذا زوجه: أي قرينه، أنشد ابن الأعرابي:

لنا نَعَمٌ لا يعتري الذّمَّ أهلُها سواءٌ علينا ذاتُ زوجٍ وطالِقُ

أي ذات ولد مفرد ومنفردة. وزوجت إبلي: قرنت بعضها ببعض، وتزوجت فلانة وبفلانة، وزوجنيها فلان وزوّجني بها. وتزوج في بني فلان، وتزوجت فيهم، وبينهما حق الزواج والزوجية. ومن المجاز: تزاوج الكلامان وازدوجا، وأزوج بينهما وزاوج»[2].

وفي رحاب التفسير، ننتعش في استخراج مكنوناتها بما تضمَّنته عن معاني الزوج والحياة الزوجية في جواهر القرآن الكريم، فمِمّا جادت به قريحة الإمام القرطبي هذه الفوائد؛ حيث قال عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ

---

(١) الصحاح للجوهري (١/ ٢٩٥)، دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨م، بشيء من الاختصار.

(٢) أساس البلاغة (ص ٢٧٧)، دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.

﴿وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]: (قوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾ لغة القرآن «زوج» بغير هاء، وقد جاء في صحيح مسلم: «زوجة»، عن أنس أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه، فمرّ به رجل، فدعاه، فجاء فقال: «يا فلان هذه زوجتي فلانة»، فقال: يا رسول الله: مَنْ كنتُ أظنُّ به فلم أكن أظنُّ بك. فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم». وزوج آدم هي حواء، وهو أول من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يَحُسّ آدم عليه السلام بذلك؛ ولو أَلِـمَ بذلك لم يعطف رجل على امرأته؛ فلما انتبه قيل له: مَنْ هذه؟ قال: امرأة.

قيل: وما اسمها؟

قال: حواء.

قيل: ولِمَ سُمّيت امرأة؟

قال: لأنها من المرء أُخِذَتْ.

قيل: ولِمَ سُمّيت حواء؟

قال: لأنها خُلقت من حيّ...)[1].

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾: «أي حواء، وهذه هي اللغة الفصيحة بغير هاء...»[2].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]: «زوجه: حواء. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل: زوج، ويجمعونها: الأزواج. وتميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون: زوجة، ويجمعونها: زوجات.

قال الشاعر:

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٠٦ و٢٠٧) دار المعرفة ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) تفسير الشوكاني (ص ٤٧).

فإن الذي يسعى يحرشُ زوجتي كَماشٍ إلى أُسْدِ الشّرى يستبيلُها[1]

وأنشدني أبو الجراح:

يا صاحِ بلّغْ ذوي الزوجات كلهم أنْ ليس وصْلٌ إذا انحلت عُرى الذنب[2]

وقال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]: «وذلك أن آدم لم يكن له في الجنة من يجانسه، فنام نومة، فخلق الله زوجته حواء من قُصيراء، أي من شقه الأيسر، وسمّيت حواء لأنها خلقت من حي، خلقها الله عز وجل من غير أن يحسّ به آدم ولا وجد له ألماً، ولو وجد ألماً لما عطف رجل على امرأة قط، فلما هبَّ من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما في خلق الله، فقال لها: مَنْ أنت؟

قالت: زوجتك، خلقني الله لك تسكن إليّ وأسكنُ إليك»[3]. .

* * *

(١) البيت للفرزدق، ومعنى يستبيلها: أي يأخذ بولها بيده، كما في لسان العرب.

(٢) زاد المسير في علم التفسير (ص ٥٥) طبعة المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

(٣) تفسير البغوي (ص ٢٧) دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

الفصل الثاني
اهتمام القرآن بالزواج وصفته

لا ريب في أن القرآنَ الكريم ربيعُ قلوب الأبرار وبستانٌ يتنـزه به العلماء الأخيار، وينبوعٌ يشرب منه الأولياء والأصفياء، وملاذٌ يلجأ إليه الفقهاء والنبلاء.

ومن هنا ندرك أن القرآن العظيم قد عُني بالعلاقات الزوجية أيّما عناية، حتى إنه لم يُعْنَ بأية علاقة أخرى من العلاقات الاجتماعية كما عني بالعلاقة الزوجية، إذ هي روح الحياة، ومادة العيش.

والذي يتابع آيات الله تعالى من خلال سور القرآن الكريم، يجد أن الله تعالى قد ذكر مراحل هذه العلاقة المباركة بين الزوجين، ووضّحها بشكل يفيد المجتمع المسلم في علاقاته ومعاملاته وحياته.

لقد اهتم القرآن العظيم بمراحل العلاقة الزوجية اهتماماً واضحاً ومفصَّلاً من الألف إلى الياء ـ إن صحّ التعبير ـ، ولم يكد يترك مجالاً إلا تحدَّث عنه وأوضحه.

من ذلك أن القرآن قد نوّه إلى الخطبة التي تسبق عقد الزواج، وتعرض لها بشكل لطيف وموحٍ فقال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ والجناح: الإثم، والمعنى: إنه لا إثم عليكم في ذلك.

والتعريض ضد التصريح، وهو: من عرض الشيء، أي: جانبه، كأنه يحوم به حول الشيء، ولا يظهره، وقيل: هو من قولك: عرضتُ الرجل؛ أي أهديتُ

له. ومنه أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ، وأبا بكر ثياباً بيضاً، أي: أهدوا لهما. فالمعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاماً يفهم معناه[1].

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ..﴾ [البقرة: ٢٣٥]: «هو أن يقول لها: إنك لجميلة، أو صالحة، أو نافقة، ومن غرضي أن أتزوّج، وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهِم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرّح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أتزوجك، أو أخطبك»[2].

وذكر العلماء أن التعريض كأن يقول كلاماً محتملاً غير صريح بالخطبة كقوله: رُبّ متطلّع إليك، وراغب فيك، وحريص عليك؛ أو أن يقول: إنك علي لكريمة، وإن الله لسائقٌ إليك خيراً أو رزقاً.

ومن العلماء من يرى أن التعريض أن يقول: أنتِ جميلة ومرغوبة فيك، أو نحو ذلك[3].

ونجد من ناحية ثانية أن القرآن الكريم قد بيّنَ للمسلم مَنْ يحلُّ له أن يتزوج بها من النساء، ومن يحرم عليه منهنّ، وذلك كي تستقيم أمور الحياة، وتغدو قائمة على أساس صحيح وصافٍ ونقيٍّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٢ ـ ٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أهل الجاهلية يحرّمون ما حرّم الله إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين فنزلت هذه الآية»[4].

---

(١) فتح القدير (ص ١٦٠) بشيء من التصرف اليسير.
(٢) تفسير الكشاف (ص ١٣٧)، وانظر: المغني (٩/ ٥٧٣).
(٣) انظر: المغني (٩/ ٥٧٣)؛ وأحكام الزواج للدكتور عمر الأشقر (ص ٤٢).
(٤) زاد المسير (ص ٢٦٨)، وتفسير الطبري (٨/ ١٣٣).

وقال البغوي: «كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم. قال الأشعث بن سوّار: تُوفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأة أبيه ـ واسمها كُبيشة بنت معن الأنصارية ـ، فقالت: إني اتخذتك ولداً وأنت من صالحي قومك، ولكني آتي رسول الله ﷺ استأمره، فأتته فأخبرتْه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]»[1].

وقد كان العرب في الجاهلية يسمون نكاح امرأة الأب: مقتاً، ويسمون الولد منه: المقتي. وذكر أهل التفسير أن هذا العمل مسبب مقت الله لفاعله.

وذكر القرطبي بأن الناس كانوا يتزوجون امرأة الأب برضاها حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ . . . ﴾ فصار حراماً في الأحوال كلها، لأن النكاح يقع على الجماع والتزوُّج، فإن كان الأب تزوج امرأةً أو وطِئَها بغير نكاح حرمت على ابنه. . . وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه. . . فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم من هذه السيرة الممقوتة في دين الله وشرعه[2].

ولم يتوقف القرآن الكريم عند هذا الحد فحسب، وإنما بيّن كثيراً من الأشياء المهمة التي تفيد المسلم في حياته، من ذلك أن القرآن الكريم قد تحدَّث عن عدد أزواج الرجل، وقصرها على أربع زوجات، قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣].

قال الشَّوكاني: «وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الأربع، وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة، وأن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد. . . والمعنى: لينكح كل فردٍ منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، هذا ما تقتضيه لغة العرب، وهو وإن كان خطاباً

---

(١) انظر: تفسير البغوي (ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦) بشيء من التصرف؛ وانظر: تفسير القرطبي (٥/ ٦٨ و٦٩).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٦٨ ـ ٨٩) بتصرف واختصار.

للجميع، فهو بمنـزلة الخطاب لكل فرد، فرد»[1].

وأوجب القرآن الكريم كذلك أن تُبنى العلاقة الزوجية والحياة الأسرية على وشيجة يرضى من خلالها الزوجان أن يرضيا بالاقتران الدائم، وأن يتعاهدا على أداء ما فرض الله عليهما من حقوق، ولذا فقد سمَّاهُ القرآن ميثاقاً غليظاً، قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[النساء: ٢١].

والميثاق هو العهد المؤكَّد الذي يربطكم بهن أقوى رباط وأحكمه.

وذكر المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] قال: «قال قتادة: هذا الميثاق هو ما أخذ الله للنساء على الرجال بقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال الأستاذ الإمام[2]: إنّ هذا الميثاق لا بدّ أنْ يكون مناسباً للإفضاء في أن كلاًّ منهما شأن من شؤون الفطرة السليمة، وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١]، فهذه آية من آيات الفطرة الإلٰهية هي أقوى ما تعتمد عليها المرأة في ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها، والاتصال برجل غريب عنها تقاسمه السَّرَّاء والضَّراء، وتسكن إليه ويسكن إليها، ويكون بينهما من المودة أقوى مما يكون بين ذوي القربى، ثقة منها بأن صلتها به أقوى من كل صلة، وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة. هذه الثقة وذلك الشعور الفطري الذي أودع في المرأة، وجعلها تحسُّ بصلة لم تُعْهَدْ من قبل لا تجد مثلها لدى أهل من الأهل، وبها تعتدّ أنها بالزواج مقبلة على سعادة ليس وراءها في الحياة، هذا هو المركوز في أعماق النفوس، وهذا هو الميثاق الغليظ، فما قيمة من لا يفي بهذا الميثاق، وما هي مكانته من الإنسانية؟»[3]

وعند الزمخشري نجد لهذه الآية معنى آخر جميلاً وموحِياً، يشير إلى

---

(١) فتح القدير (ص ٢٦٨) باختصار.

(٢) يعني: محمد عبده.

(٣) تفسير المراغي (٢/ ١٨٠) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.

استيعابه لمعنى الآية، ومن ثم توجيهها توجيهاً سليماً نحو هدف المحافظة على رابطة الحياة الزوجية، يقول الزمخشري: «والميثاق الغليظ: حقُّ الصُّحبة والمضاجعة، كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً، أي: بإفضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه. فقد قالوا: صحبة عشرين يوماً قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج. وقيل: هو قول الولي عند العقد: أنكحتك على ما في كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»[(١)].

وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوانٌ في أيديكم؛ أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[(٢)].

وقد بيّن القرآن الكريم ما يترتب عليه الميثاق من حقوق ومن واجبات لكل واحد من الزوجين، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وبيّنَ القرآن هذه الدرجة التي تعني زيادةً في الحق والفضيلة فقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [النساء: ٣٤].

قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: «قوّامون على النساء، يقومون عليهن آمِرينَ ناهين، كما يقوم الولاة على الرعاية، وسُمُّوا قُوّاماً لذلك، والضمير في «بعضهم» للرجال والنساء جميعاً. يعني: إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم، وهم الرجال على بعض، وهم النساء، وفيه دليل على أن الولاية إنما تُستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة والقهر، وقد ذكروا في فضل الرجال: العقل، والحزم، والعزم، والقوة، والكتابة في الغالب، والفروسية،

---

(١) انظر: الكشاف (ص ٢٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع برقم (١١٦٣)، وابن ماجه في النكاح برقم (١٨٥١)، والبخاري بلفظ آخر برقم (٥١٨٦)، ومسلم (٢٩٤١ و٣٦٣٢).

والرمي، وإن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى، والجهاد، والأذان، والخطبة، والاعتكاف، وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة، والشهادة في الحدود، والقصاص، وزيادة السهم والتعصيب في الميراث، والحمالة، والقسامة، والولاية في النكاح، والطلاق، والرجعة، وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب، وهم أصحاب اللّحَى والعمائم»[1].

وقد وضع القرآن الكريم الأساس السليم للمحافظة على عُرى الحياة الزوجية، فنراه قد أمر كلاً من الزوجين بأن يحسن معاشرة الآخر، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقد جاء هذا المعنى في قول النبي ﷺ: «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة إن كَرِه منها خُلُقاً رضي منها آخر»[2]. كما أنه ﷺ حبّب إلى المرأة إرضاء زوجها، إذ إن رضاه ثمنه الجنة، فقال: «أيّما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»[3].

وإذا ما انعقدت الأواصِرُ الزوجية بين الرجل والمرأة، وسارت الحياة بينهما على ما يرام، فإن القرآن الكريم قد أوجب عليهما أن يبادرا إلى العناية البالغة والمتزنة بالأولاد الذين هم ثمرة حياتهما الزوجية، والذين هم زينة الحياة الدنيا، وبهجتها، ونعيمها، قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ومن الأشياء الطبيعية في حياة البشر، وفي الحياة الزوجية ألاّ يكون الوداد على حال واحدة، فقد يقع الخلاف بين الزوجين، وقد تتباين وجهات النظر، وتختلف الآراء والأمزجة، وربما الأهواء، ومع وقوع مثل هذه الأشياء نجد

---

(١) تفسير الكشاف (ص ٢٣٤ و٢٣٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٦٩)، ومعنى يفرك: يبغض ويكره.

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٥٤).

القرآن الكريم يرشد هذين الزوجين إلى الإصلاح، إذ الإصلاح والصلح خير من الشقاق؛ قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨][1].

وإذا ما تعثر الإصلاح، وضاقت الصدور بما رَحُبت من مضايقات الزواج وأموره بعث وليّ الأمر من أهلهما من يغرس غراس الودّ والصلح بينهما، فلعل هذا الحكَمَ يسعى لإيجاد الصلح، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥][2].

ويتابع القرآن الكريم مراحل الحياة الزوجية في هذا المجال، فإن لم ينفع إصلاحٌ بين الزوجين، وإرجاع المودة والألفة إلى ساحتهما، عندها تبدأ معالجة أخرى في حدود ضيقة دفعاً للضرر الذي قد يحدث، فقد شرع الله الطلاق، إذ إن حياة النكد والبغض والكره حياة سقيمة قد تعوق مسيرة كثير من الواجبات على كلا الزوجين، وعلى الرغم من أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى إلا

---

(١) لا شك في أنّ الصلح خير من الفرقة، أو من النشوز، والإعراض، وسوء العشرة، أو هو خير من الخصومة في كل شيء، أو الصلح خير من الخيور، كما أن الخصومة شر من الشرور. (الكشاف ص ٢٦٣).

(٢) ها هنا وقفة لطيفة أحب أنوه عنها، وهي أن الشقاق والخلاف قد يقع ويحصل بينهما، والخطاب هنا في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ إنما هو للأمراء والحكام، وذلك ليبعثوا إلى الزوجين مَنْ يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما ويكون المصلح ذا دين وعقل وإنصاف، ويكون المصلح من الأهل خاصة لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وإليهم تسكن نفوس الزوجين، ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة وموجبات ذلك ومقتضايته، وهذا لا يتوفر في الأجانب وإن كانوا مصلحين.
وعلى الحكمين أن يسعيا في إصلاح ذات البين جهدهما، فإن قدرا على ذلك عملا إليه، وإن أعياهما إصلاح حالهما عملا ما يرضي الله. ومعنى ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ أي الحكمان يريدان إصلاحاً بين الزوجين يوفق الله بينهما، والمعنى: إذا أراد الحكمان الإصلاح يوقع الله الموافقة بين الزوجين حتى يعودا إلى الألفة وحسن العشرة وذلك بحسن نية المصلحَيْن.
وقد فهم بعض الناس أن معنى: ﴿يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ هما الزوجان، والحقيقة هي أنهما الحكمان لذا أحببت التنويه والإبانة ليستقيم المعنى.

أنه هو الحل عندما تتفاقم الأمور إلى ما لا تُحمد عقباه وعاقبته.

ومن الواضح أن القرآن الكريم قد تحدَّث عما يقع فيه الرجل المُطلّق من خطأ، أو من سوء تقدير، أو من غضب وما شابه ذلك؛ وربما يورث طلاقه الحسرة والندم، لذا فقد جعل الطلاق على مرحلتين اثنتين ليتسنّى للزوجين أن يراجعا أنفسهما، أو ينظرا بتأنٍّ وهدوء وروية فيما أقدما عليه من هذا القرار الذي يحسم حياتهما الزوجية بحسام الفراق، لذا فإننا نقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومن الملاحَظ في قوله تعالى: ﴿مَرَّتَانِۖ﴾ أن في هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة، لا طلقتان دفعة واحدة، ولذا لم يقل: طلقتان، وفي هذا دليل على التأنّي والهدوء، وعدم الإسراع والإفراط في اتخاذ القرارات الطائشة.

قال الزمخشري: «الطلاق: بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم، أي: التطليق الشرعي، تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة، ولم يَرِدْ بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٤]، أي: كرة بعد كرة، لا كرتَـيْن اثنتين، ونحو ذلك من التثاني التي يُراد بها التكرير كقولهم: لبيك، وسعديك، وحنانيك، وهذانيك، ودواليك»[1].

ونتابع الحياة الزوجية في ظلال القرآن الكريم وأفيائه وأندائه، حيث نجده يتحدَّث عما يترتب عن الفرقة بين الزوجين ـ إما بطلاق أو بوفاة ـ من حقوق وواجبات، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال أيضاً في اللواتي يتوفّى عنهن أزواجهن: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقال: ﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

وهكذا يتحدث القرآن العظيم عن أمور الحياة الزوجية، ولم يَدَعْ أمراً من

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (ص ١٣٣).

أمور العلاقات بين الجنسين إلا بيّن وفصّل الحكمَ في ذلك، حتى تعمّ السعادة الزوجية والحياة الأسرية بين الناس.

ومع هذا الذي قرأناه في الصفحات السابقة نجد أن القرآن الكريم يحثُّ على الزواج، ويرغب فيه، ويدعو إليه في مواضع كثيرة من آياته وسوره، وذلك لتبقى الحياة قائمة، وتستمر مسيرة الأسرة[1] في هذه الدنيا إلى أن يشاء الله تعالى.

أما صفة الزواج الشرعية فهي ما يحكم به الشارع على أفعال الإنسان، أو أقواله، من وجوب، أو حرمة، أو ندب، أو إباحة، أو غير ذلك. وصفة الزواج الشرعية تختلف باختلاف حال الزوج في طبيعته البشرية، وقدرته المالية؛ وبالتالي هناك بضع صفات شرعية للزوج، وبضع حالات يمكن أن نجمل معظمها في الأهداف والنقاط الآتية:

● **أولاً**: يكون الزواج سنة مؤكدة إذا كان الرجل قادراً على أداء مطالب الحياة الزوجية من الناحية المالية، وذلك من عمل في يده يجني منه المال، ويكون كذلك معتدل الطبيعة البشرية، وأن يكون واثقاً من تحقيق العدل في معاملة زوجه، وهذا الهدف هو الغالب والكثير في حياة الناس وأحوالهم؛ وبالتالي فإن الإنسان المسلم عندها يحصل على الثواب والأجر من الله إن ابتغى من ذلك تحصين نفسه، وتحصيل النسل والولد.

---

(١) رغّب القرآن الكريم أهل الإيمان وأبناء الإسلام في الزواج وتكوين الأسرة المسلمة، وحثَّ على الزواج وأبان مقاصده، وما فيه من مصلحة إعمار الكون واستمرار الحياة على هذه الأرض. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . .﴾ [النحل: ٧٢]. وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].
وقد رغب النبي ﷺ في الزواج وحث عليه، ودعا إليه، والذي يبحث في الهدي النبوي يجد الآثار والأحاديث والقصص التي تحثّ على الزواج وترغب به كثيرة لا تحصى ومنها قوله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». أخرجه البخاري برقم (٥٠٦٦) ومسلم برقم (١٤٠٠).

وكان النبي ﷺ قد تزوج عدداً من النساء، وتحققتْ سِمَةُ العدل بينهن، في حين أنه ظلَّ ﷺ عابداً قانتاً يفي كل شيء حقه، فهو القدوة والأسوة الحسنة.

وفي الحديث التالي يظهر لنا موقف رسول الله ﷺ في هذا المضمار، إذ فيه نواحٍ تربوية متعددة المشارب والألوان من تهذيب وصلاح وإصلاح ومعالجة حقيقة النفس البشرية، وفهمها فهماً سليماً يتحقق مع فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله.

جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخْبِروا كأنهم تقالُّوها.

فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟! وقد غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر.

قال أحدهم: أما أنا فإني أصلِّي الليل أبداً.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم: كذا وكذا؟÷ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وفي رواية أخرى لمسلم أنه ﷺ قال: «ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا؟! لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٦٣)، واللفظ له، ومسلم برقم (١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٦٠)، وغيرهم.
قال النووي ـ رحمه الله ـ: «وأما قوله ﷺ: فمن رغب عن سنتي فليس مني؛ فمعناه: من رغب عنها إعراضاً عنها غير معتقد على ما هي، والله أعلم.
أما الأفضل من النكاح وتركه فقال أصحابنا: الناس فيه أربعة أقسام:
قسم تتوق إليه نفسه ويجد المؤن، فيُستحبّ له النكاح.
وقسم لا تتوق ولا يجد المؤن فيُكره له.
وقسم تتوق ولا يجد المؤن فيكره له، وهذا مأمور بالصوم لدفع التوقان. =

قال الكمال بن الهمام ـ رحمه الله ـ في فضل الزواج وإحياء السنة المحمَّدية في ذلك: «ومَنْ تأمَّل ما يشتمل عليه النكاح من تهذيب الأخلاق، وتوسعة الباطن بالتحمل في معاشرة أبناء النوع، وتربية الولد، والقيام بمصالح المسلم العاجز عن القيام بها، والنفقة على الأقارب والمستضعفين، وإعفاف الحرم ونفسه، ودفع الفتنة عنه وعنهن، دفع التقتير عنهن يحبسهن لكفايتهن مؤنة سبب الخروج، ثم الاشتغال بتأديب نفسه وتأهيله للعبودية، ولتكون هي أيضاً سبباً لتأهيل غيرها، وأمرها بالصلاة ـ فإن هذه الفرائض كثيرة ـ لم يكد يقف عن الجزم بأنه أفضل من التخلِّي»[1].

● ثانياً: ويكون الزواج واجباً، إذا كان المرء قادراً على مطالبه المالية، واثقاً من إقامة العدل في معاملة المرأة، ولكنه يخشى الوقوع في الزنى إذا هو لم يبادر إلى الزواج.

وقد أوجب القرآن الكريم ذلك، وحض عليه، إذ إن المرأة ستر للرجل، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فالإعراض عن الزواج مع توفُّر القدرة عليه إعراضٌ عن السنة النبوية الحقَّة، وإعراض عن الفطرة الإلٰهية التي فطر الله الناس عليها. وقد أنكر النبيُّ الكريم ﷺ من أعرض عن الزواج، وندَّد بهؤلاء المعرضين تنديداً شديداً، وأخبر بأنه منهم براء إذا لم يبادروا إلى إحياء الفطرة الإلٰهية وديمومتها، قال ﷺ: «مَنْ رغب عن سنتي فليس مني، وإنّ من سنتي النكاح، فمن أحبني فَلْيَسْتَنّ بسنتي»[2].

وقد فهم السلف الصالح من أصحاب رسول الله ﷺ، ومَنْ بعدهم من

= وقسم يجد المؤن ولا تتوق. فمذهب الشافعي وجمهور أصحابنا أن ترك النكاح لهذا والتخلي للعبادة أفضل، ولا يقال: النكاح مكروه، بل تركه أفضل. ومذهب أبي حنيفة أن النكاح له أفضل والله أعلم». (المنهاج بشرح صحيح مسلم للنووي ص ١٠٥١).

(١) فتح القدير (٢/ ٣٤٢) طبعة مصر.

(٢) مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٢)، والسنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٧٨).

التابعين وأهل العلم والفقه أهمية الحياة الزوجية، ومكانة الزواج في الإسلام، بل وعرفوا أثره في صلاح شؤون الدنيا والآخرة، فكانوا يحرصون عليه حرصهم على دينهم، وكانوا يسارعون إليه استكمالاً لدينهم، واتباعاً لسنة النبي محمد ﷺ، وتوثيقاً لعُرى الأخوة الحقة، والنسب بينهم وبين إخوانهم، واستكثاراً من إنجاب الذرية والأولاد تقرّباً إلى الله تعالى بحسن الرعاية والسعي في الرزق، وزيادة قوة الإسلام بكفاحهم وجهادهم وتطهير نفوسهم، لقد فَهِمَ السلف ذلك كله حق الفهم وطبّقوه في حياتهم ومعيشتهم.

ففي الترغيب بالحياة الزوجية نسمع من سيد الصحابة وشيخهم وأميرهم أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه هذه النصيحة: «ابتغوا الغنى في النكاح»[1].

ويقول الصدِّيق الأكبر أيضاً مرغِّباً ومذكِّراً ومنبِّهاً بفضيلة الزواج، وبركة الحياة الزوجية: «أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى»، قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢]»[2].

وقال فاروق الأمة وعبقريُّها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إني لأقشعرُّ من الشاب ليست له امرأة، ولو أعلم أنه ليس عيش من الدنيا إلا ثلاثة أيام، لأحببت أن أتزوّج فيهن»[3].

وعن عمرو بن دينار قال: «أراد ابن عمر أن لا يتزوج، فقالت له حفصة: يا أخي؛ لا تفعل، فإنْ وُلِدَ لك وِلْدٌ كانوا لك أجراء، وإن عاشوا دعوا الله لك»[4].

وأما عبد الله بن مسعود الهذلي ـ رضي الله عنه ـ، فإنه يرى أمْرَ الزواج واجباً في جميع مراحل الحياة فيقول: «لو لَمْ يَبْقَ من أجلي إلا عشرة أيام، وأعلم أني

---

(١) كنز العمال حديث رقم (٤٥٥٨٣) طبعة بيت الأفكار الدولية.
(٢) كنز العمال حديث رقم (٤٥٥٨٤).
(٣) كنز العمال حديث رقم (٤٥٥٩٠).
(٤) كنز العمال حديث رقم (٤٥٦٠٣).

أموت في آخرها يوماً لي فيهن طَوْل النكاح، لتزوجت مخافة الفتنة»[1].

وقال شَدَّاد بن أوس[2] لأهله: «زوِّجوني، فإن النبي ﷺ أوصاني ألا ألقى الله أعزب»[3].

كان هؤلاء الصحابة و سَادةُ السلف يتبعون في حياتهم نهج النبي الأمي ﷺ في توجيهه أصحابه للحياة الزوجية، وترك حياة الاستهتار والعزوبة.

وفي الحديث الذي رواه أبـو ذرٍّ شفـاءٌ وهناء لكل مَنْ يـودّ معرفـة الحق والوصول إلى الحقيقة، حيث وجَّه النبي ﷺ عكّاف بن بشر التميمي إلى أن يتزوج، ثم زوجه من بعض النساء كما سنرى.

أخرج الإمام أحمد بسنده عن مكحول، عن رجل، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: دخل على رسول الله ﷺ رجلٌ يُقال له: عكّاف بن بشر التميمي؛ فقال له النبي ﷺ: «يا عكافُ، هل لك من زوجةٍ»؟

قال: لا.

قال: «ولا جاريةٍ» !

قال: ولا جارية.

قال: «وأنت موسرٌ بخيرٍ»؟

---

(١) كنز العمال حديث رقم (٤٥٦١٠).

(٢) شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر؛ ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري، يكنى: أبا يعلى، نزل الشام بناحية فلسطين، ومات بها سنة (٥٨ هـ) وهو ابن (٧٥ سنة).
قال عبادة بن الصامت: كان شداد بن أوس ممن أوتي العلم والحلم، روى عنه أهل الشام.
وقال أبو الدرداء: إن الله عز وجل يؤتي الرجل العلم، ولا يؤتيه الحلم، ويؤتيه الحلم ولا يؤتيه العلم، وإن أبا يعلى شداد بن أوس ممن آتاه الله العلم والحلم.
قال مالك: أبو يعلى ابن عم حسان بن ثابت.
قال أبو عمر: هكذا قال مالك، وإنما هو ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري، لا ابن عمه.
روى عنه ابنه يعلى بن شداد، وأبو الأشعث الصنعاني، وضمرة بن حبيب. (الاستيعاب ترجمة رقم ١١٤٦).

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٣٩٤).

قال: وأنا موسرٌ بخيرٍ.

قال: «أنت إذاً من إخوان الشياطين، ولو كنت من النصارى كنتَ من رُهْبانهم، إنَّ سُنَّتنا النكاح، شراركم عزّابُكم، وأرذال موتاكم عزابكم، أبِالشيطان تَمَرَّسُون؟ ما للشيطان من سلاحٍ أبلغُ في الصالحين من النساء، إلا المتزوجون أولئك المطهّرون المبرّؤون من الخنا، ويحك يا عكّاف، إنهن صواحب أيوبَ، وداودَ، ويوسفَ، وكُرْسُفَ».

فقال له بشر بن عطية: ومَنْ كُرسف يا رسول الله؟

قال: «رجلٌ كان يَعبُدُ الله بساحلٍ من سواحل البحر ثلاث مئة عام؛ يصوم النهار، ويقوم الليل، ثم إنه كفر بالله العظيم بسبب امرأةٍ عشقها، وترك ما كان عليه من عبادة الله عز وجل، ثم استدركه الله ببعض ما كان منه فتاب عليه؛ ويحك يا عكاف تزوّج، وإلا فأنت من المذبذبين».

قال: زوّجني يا رسول الله.

قال: «قد زوجتك كريمةَ بنت كُلثومٍ الحِمْيَري»[1].

وبهذا التوجيه التربوي اللطيف إلى سلوك الحياة الزوجية، والدخول في ظلالها الدافئة، نجد النبي ﷺ يوجّهُ أصحابه ويربيهم على الفطرة السليمة الصحيحة. حيث إن حياة الأعزب بعامة لا تخلو من وساوس وهوامش شيطانية، فالشيطان يرتع في حياة الأعزب ويشوش عليه صفاءه وعبادته إنْ كان تقياً مستقيماً.

● **ثالثاً**: ويكون الزواج فرضاً إذا كان الرجل قادراً على المطالب المالية،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٦٣ و ١٦٤) برقم (٢١٧٨١)، وانظر: الفتح الرباني (٢٠/ ١٣٩ ـ ١٤١)، ومجمع الزوائد (٤/ ٢٥٠)، وقال: فيه راوٍ لم يُسَمّ وبقية رجاله ثقات. وقد صرّح عبد الرزاق الصنعاني في «المصنف» بالراوي عن أبي ذر وهو غضيب بن الحارث مختلف في صحبته، ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب. وسواء أصح القول أم لم يصحّ، فإنه ثقة، ويكون إسناد أحمد ثقات، كما صرح صاحب «تنزيه الشريعة» (٢/ ٢٠٦). وانظر كذلك كنز العمال حديث رقم (٢١٧٨١).

واثقاً من إقامة العدل في المعاملة، متحقِّقاً من الوقوع في الزنى إذا لم يتزوَّجْ، ولم يُحْيِ السنّة الكونية في هذا المجال.

● **رابعاً**: ويكون مكروهاً إذا كان الرجل قادراً على أداء المطالب المالية، وكان معتدل الطبيعة البشرية، بَيْدَ أنه يخاف من أن يسرف ويجور في تعامله مع امرأته إن تزوج.

● **خامساً**: ويكون حراماً إذا تحقَّق من الوقوع في الجور والظلم والإسراف إذا تزوج.

وقد افترض العلماء والفقهاء أن يجتمع في المرء خوف الوقوع في الزنى، وخوف الجور، فقدَّموا اعتبار خوف الجور لأن ضرره يتعدى إلى غير القائم به، وجعلوا الزواج في هذه الحالة مكروهاً، وأوجبوا على من ابتُلِي بهذا أن يجاهد في نفسه حتى لا يقع فيما حرم الله تعالى من الزنى[١].

* * *

---

(١) من خلال الأقوال السابقة، ومن خلال اجتهاد الأئمة وأهل الفقه والتفسير في أحكام الزواج يتضح أن الحياة الزوجية وطلب الزواج يندرج تحت ستة أمور هي: فرضية، سنّية، نُدْب، إباحة، كراهية، وتحريم.

١- فيكون الزواج فرضاً عند التوقان الشديد، وخوف الانزلاق في مهاوي الزنى.

٢- ويكون سنة مؤكدة في حال الاعتدال واتّباع السنة النبوية.

٣- ويكون مندوباً للذي لا إرْبَ له في النساء، ولكنه يُنجب لو تزوج.

٤- ويكون مباحاً كسائر المباحات لمن لا شهوة له أصلاً، أو كانت له شهوة وذهبت لِعارض كالمرض أو الكبر. غير أن التخلّي هنا للعبادة أفضل.

٥- ويكون مكروهاً كراهة تحريم عند خوف الجور وعدم رعاية الحقوق الصحيحة في الزواج.

٦- ويكون حراماً بدار الحرب لغير ضرورة. أما الأسير فلا يحل له التزوج ما دام أسيراً عند العدو، وهذا الشرط نص عليه الإمام أحمد في كتابه (المعتمد في فقه الإمام أحمد: ٢/ ١٤٢).

الفصل الثالث

من فوائد الزواج وآثاره في القرآن

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى الزواج وتُرغّب في النكاح، وتذكر فوائده وآثاره ونتائجه، ومن ذلك ما وصف الله تعالى رسله ومدحهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]: «إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر، لهم أزواج من النساء، ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية»(١).

وقال الإمام القرطبي في تفسير الآية أيضاً: «هذه الآية تدلُّ على الترغيب في النكاح والحضِّ عليه، وتنهى عن التَّبتُّل، وهو تَـرْكُ النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصّتْ عليه هذه الآية، والسّنة واردة بمعناها. . .»(٢)

وقال المراغي في تفسير هذه الآية ما مفاده: «وكما أرسلناك رسولاً بشرياً، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات ويُولد لهم. . . وقد كان من حكمة تعدُّد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطَّلعن على الأحوال الخفية التي تكون بين الرجل والمرأة، وعلِمْنَ منه أحكامها؛ ونَشَرْنَها بين المؤمنين، وناهيك بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، التي حدَّثت عن شمائله وأخلاقه، ومنها عَلِمَ المسلمون كثيراً من أحكام دينهم؛

---

(١) فتح القدير (ص ٧٣٤).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢١٥).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والفتيا، وكانت تحاجُّهم وتجادلهم وتلزمهم الحجة، ولا يجدون مَعْدِلاً عن التسليم برأيها»[1].

وقال السعدي في تفسيره لهذه الآية: «لستَ أولَ رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾، فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوتك المرسلين، فلأي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك، إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟»[2].

وفي القرآن الكريم أيضاً مشاهد موحية ومدائح بليغة لأولياء الله الَّذين يسألونه الذرية في الدعاء من خلال حياتهم الزوجية، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية ما نصه: «سألوا ربّهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمّالاً لله، يُسَرّون بمكانتهم، وتقرّ بهم عيونهم. وعن محمد بن كعب: ليس شيء أَقَرَّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه. وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم»[3].

وقال البغوي: «قال القرظي: ليس شيء أقرَّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل»[4].

ومن هنا يتبين لنا أن الله تعالى قد أشار في القرآن الكريم إلى عدد من فوائد الزواج، ومنها: نعمة الولد، والثواب، والأجر، والمودة، والرحمة، وما شابه ذلك من حِكَمٍ وفوائد يمكن أن نستحضر بعضها في بعض الأمور الآتية:

---

(١) تفسير المراغي (٥/ ٩٤ ـ ٩٥) بتصرف واختصار يسير.
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٧٤). مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
(٣) تفسير الكشاف (ص ٧٥٣).
(٤) تفسير البغوي (ص ٩٣٤).

١ ـ **الأمر الأول**: وهو الأهمُّ والأعمُّ، الاستجابةُ التامة والإجابة الميمونة للأمر الرباني الذي نزل من فوق سبع أرقعة على قلب النبي ﷺ، فبلغه للناس كافة، هذا الأمر الجماعي للناس المؤمنين هو قول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

يقول الشوكاني في تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: «أرشد الله تعالى المؤمنين إلى ما يحلّ للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون دواعي الزنى، ويسهل بعده غض البصر عن المحرمات، وحفظ الفرج عما لا يحلّ، فقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، الأيِّم التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً، والجمع أيامى، والخطاب في الآية للأولياء. . .»[١].

وقال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: «والمراد أنكحوا من تأيَّم منكم من الأحرار والحرائر، ومن كان فيه صلاحٌ من غلمانكم وجواريكم»[٢].

وقال الإمام القرطبي مؤكداً على الأمر في شرحه لهذه الآية الكريمة: «هذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح؛ أي زوجوا من لا زوج له منكم، فإنه طريق التعفُّف، والخطاب للأولياء، وقيل: للأزواج، والصحيح الأول، إذ لو أراد الأزواج لقال: «وانكحوا» بغير همز، وكانت الألف للوصل، وفي هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تُنْكِحَ نفسها بغير ولي. . . والأيامى: أي الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، وأحدهم أيّم. واتفق أهل اللغة على أن الأيِّم في الأصل هي المرأة التي لا زوج لها، بكراً كانت أو ثيباً. تقول العرب: تأيّمت المرأة إذا أقامت لا تتزوج. وقال أبو عبيد: يقال: رجل أيّم، وامرأة أيّم؛ وأكثر ما يكون في ذلك في النساء، وهو كالمستعار في الرجال»[٣].

وفي الهدي النبوي الشافي أدلة لا تحصى؛ ومنها قوله ﷺ: «يا معشر

---

(١) تفسير فتح القدير (ص ١٠١١) بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الكشاف (ص ٧٢٨).
(٣) تفسير القرطبي (١٢/١٥٨ ـ ١٥٩) بشيء من الاختصار.

الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج»[1]. وفي هذا الحديث دعوة إلى الحياة الزوجية، ومن أجاب هذه الدعوة أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله.

٢ ـ **الأمر الثاني**: في المبادرة إلى الحياة الزوجية حكمة خفية عن الأنظار، لكنها واضحة المعالم في الحياة وهي: حصول الأجر والمثوبة من الله، بالإضافة إلى حصول العفاف، فحصول الأجر أكّدهُ الحديث الشريف الطويل والذي منه قوله ﷺ: «. . . وفي بُضْع أحدكم صدقة»[2].

وقد أبدع الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في التعليق على هذا الحديث النبوي الشريف أيّما إبداع، وحلّق عالياً في مضمار فهمه واستيعابه وإصابته للمعنى المقصود، فقال ما نصه: «وفي بُضْع أحدكم صدقة: هو بضم الباء ويُطلق على الجماع، ويطلق على الفرج نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا، وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنّيات الصادقات؛ فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه، أو الهمّ به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة»[3].

ومن الجدير بالذكر أنّ كثيراً من أهل العلم والفقه قد أجمعوا على أن بناء الحياة الزوجية أفضل من التفرغ لنوافل العبادات؛ وذلك لما تشتمل عليه الحياة الزوجية من المصالح الكثيرة التي منها النوافل والفضائل؛ فالزواج نفسه وسيلة من وسائل الفضائل، ويعين على فضيلة العفاف التي هي روح الحياة الزوجية وسرّ بقائها واستمرارها، إذ إن العفاف يبعد عن الفساد، ويؤدي إلى القناعة والكفاف، ونقاء الأسرة والمجتمعات من كل ريبة.

٣ ـ **الأمر الثالث**: نعمة الأولاد وتكوين الأسرة المسلمة؛ ولا ريب في أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٦٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٠٦).
(٣) انظر: المنهاج (ص ٧٧٨).

المبادرة إلى تكوين الحياة الزوجية أن يُثمر بالأولاد، فالزواج يُكسِب الزوج ولداً، إن أحسن تنشئته وتربيته كان لـه قـرة عين في حياته، وذِكْراً طيباً بعد وفاته.

فالولد الذي هو الثمرة الدانية للزواج والحياة الزوجية يكون سبباً لمغفرة الذنوب، وذلك في دعائه لوالديه في حياتهما، وبعد مماتهما.

ولعلَّنا ندلُّ على ذلك بالحديث المشهور الذي جاء في الصحيح والسنن والمسند، حيث قال النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»[1].

ومن الواضح أنه في هذا الحديث الشريف المبارك ذِكْرٌ للأمور التي ينتفع بها الإنسان بُعَيد موته، ومنها: الابن البار الصالح الذي أنفق والداه عمرهما في إحسان تربيته ورعايته وتعليمه وتهذيبه، ثم وفقه الله تعالى وهداه، وأخرجه من الظلمات إلى النور.

أما الولد الذي يموت في الصغر قبل أن يشبَّ عن الطَّوْق، ففيه كذلك حديث نبوي عظيم يدل على انتفاع والديه به يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد،

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٥٥) حديث رقم (١٦٣١)، واللفظ له؛ وأبو داود (٣/ ٣٠٠) حديث رقم (٢٨٨٠)، والترمذي (٢/ ٤١٨) حديث رقم (١٣٩٠)، والنسائي (٦/ ٢٥١) حديث رقم (٣٦٥١)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٧٢) حديث رقم (٨٨٣١).
قال النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث المبارك ما نصه: «قال العلماء: معنى الحديث: أنَّ عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلّفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف. وفيه: فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح... وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه، وبيان فضيلة العلم والحث على الاستكثار منه والترغيب في توريثه بالتعليم والتصنيف، والإيضاح... وفيه أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت وكذلك الصدقة...». (المنهاج ص ١٢٤٥) بتصرف واختصار يسير جداً.

يوم لا ينفع الظالمين معذرتُهم، وإنما ينفع المؤمنين إيمانُهم وامتثالُهم أوامر الله وأوامر رسوله الكريم ﷺ.

ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسّه النار، إلا تحلّة القسم»(١).

وفي حديث آخر يوضّح الحديث السابق، ويبرز ذلك المشهد المؤثر في ذلك اليوم المشهود العظيم، يوم يتمسك الطفل الصغير بثياب أبويه، وقد أُمِرَ بهما إلى النار، أو أُمِرَ بأحدهما لرجحان سيئاته، فلا يزال الطفل يبكي حتى يرحمهما الله تعالى بسبب هذا الطفل.

أخرج مسلم بسنده عن أبي حسّان، قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدّثي عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيّب به أنفسنا عن موتانا؟

قال: قال: نعم: «صغارهم دعاميص الجنة يتلقّى أحدهم أباه ـ أو قال: أبويه ـ فيأخذ بثوبه ـ أو قال: بيده ـ كما آخذُ أنا بِصَنِفَةِ ثوبك هذا، فلا يتناهى ـ أو قال: فلا ينتهي ـ، حتى يدخله الله وأباه الجنة»(٢).

ولا يقصرُ انتفاع الأب وحده بالولد، بل إن هناك نصوص حديثية تنوه بحق انتفاع الأم أيضاً بطفلها الميت، وأن هذا الطفل يكون سبباً في دخولها الجنة

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١/ ٤٢٢) حديث رقم (١١٩٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٨) حديث رقم (٢٦٣٢).
قال النووي - رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث: «قال العلماء: تحلّة القسم: ما ينحل به القسم، وهو اليمين. وجاء مفسراً في الحديث أن المراد قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، وقال ابن قتيبة: معناه تقليل مدة ورودها، قال: وتحلّة القسم تستعمل في هذا في كلام العرب. قيل: تقديره: ولا تحلّة القسم، أي: لا تمسّه أصلاً ولا قدراً يسيراً كتحلّة القسم» (المنهاج ص ١٨٦٧ و ١٨٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠٢٩) حديث رقم (٢٦٣٥).
ومعنى دُعموص: دُويبة تكون في الماء لا تفارقه. والدعاميص: صغار أهلها، والمعنى إن هؤلاء الصغار في الجنة لا يفارقونها. ومعنى صَنِفة ثوبك: طرفه. ومعنى لا يتناهى وينتهي: أي لا يتركه.

وذلك برحمة من الله تعالى وفضله ومَنّهِ وكرمه[1].

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لإحداكنَّ ثلاثةٌ من الولد فتحتسِبه، إلا دخلت الجنة».

فقالت امرأة منهن: أو اثنين؟ يا رسول الله!

قال: «أو اثنين»[2].

وفي رواية أخرى له: «ثلاثة لم يبلغوا الحِنْث»[3].

وإذا كان هذا الفضل الوافي في إنجاب الأطفال الذي يموتون وهم صغار، فقد جاءت بشارات كثيرة في الأطفال الذي يكبرون، ويعيشون في كنف أبويهم ولا سيما البنات، حيث ورد الكثير والطيب؛ ففي حسن تربيتهن، والقيام عليهن أجر عظيم، وكان رفيق النبي ﷺ يوم القيامة.

أخرج مسلم من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عالَ جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو» وضمّ أصابعه[4].

وهذه الأدلة وأشباهها تنوّه بفضل الإنجاب، وعظيم أثره سواء عاش الأطفال أو ماتوا، ولا يتحصّل هذا الخير إلا عن طريق الحياة الزوجية[5].

---

(١) انظر: تأخير سن الزواج (ص ٣٩) بتصرف ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤١٥هـ.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١/ ٤٢١) حديث رقم (١١٩٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٩) حديث رقم (٢٦٣٣) واللفظ له. ومعنى قوله: لم يبلغوا الحِنث: أي لم يبلغوا سن التكليف الذي يكتب فيه الحنث، وهو الإثم.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٤).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣١). وفي الحديث هذا وأمثاله فضل الإحسان إلى البنات، والنفقة عليهن، والصبر عليهن، وعلى سائر أمورهن. ومعنى من عال جاريتين...: عالهما: قام عليهما بالمؤنة والتربية، ونحوهما، مأخوذ من العول، وهو القرب. ومنه: «ابدأ بمن تعول» ومعناه: جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين.

(٥) من الفوائد التي يحسن أن نجملها هنا، ما أورده الغزالي من فوائد الحياة الزوجية في الإحياء، فقال ما محصله وملخصه ومجمله في فوائد النكاح:

الفائدة الأولى: إبقاء النسل.

الفائدة الثانية: التحصن من الشيطان، وغض البصر، ودفع غوائل الشهوة. =

٤ ـ **الأمر الرابع**: وهذا الأمر ينضوي تحته محاسنُ كثيرةٌ؛ منها: سلامة المجتمعات من الانحلال الأخلاقي، ومن الأمراض الفتاكة التي قد تنشأ عن هتك ستر العفاف، وعن الفوضى الأخلاقية. وكذلك من المحاسن أن الزواج سبب للغنى ونفي الفقر، وهذا الأمر من لطائف الحياة الزوجية وأسرارها التي قد تغيب عن كثير من الناس، وخاصة أولئك الذين ظنوا أن الزواجَ مدعاةٌ إلى الفقر، وكأنهم لم يسمعوا أو يقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. وهناك مصالح ومحاسن كثيرة لبناء الحياة الزوجية مبثوثة في ثنايا البحث وفي كتب التفسير والمصادر الأخرى.

* * *

= الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «الزوجة الصالحة ليست من الدنيا، فإنها تفرغك للآخرة».

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل. (المهذب من إحياء علوم الدين ١/ ٣١٤ و ٣١٥) باختصار.

الفصل الرابع

كيف يتمّ اختيار المرأة للزواج ؟

المرأة الحصيفة هي المرأة الراعية في بيت زوجها حق رعايته، وهي المسؤولة عن رعايته، وهي عماد نظام الأسرة، وينبوع سعادتها وهنائها وصفائها، فإذا كانت صالحةً فالحةً حصيفةً رشيدةً بَنَتْ أسرتها وبيتها على نظام متين، وأساس ثابت، وبعثت فيمن حولها حياة الروح، وروح الحياة، وبثَّتْ أنغام الودِّ، وأنسام الحب، ونشرت ألوان السعادة، في جميع أركان بيتها، وعنيت بتربية أولادها، فبثت فيهم كل خلق حميد، وسلوك رشيد، وعوَّدَتْهم صالح الأعمال، وجميع العادات الحسنة، وجَنَّبَتْهم سيِّئ الأخلاق، وقبيح العادات.

وإذا كانت المرأة سفيهة فاسدة سليطة، فإنها تزرع في أولادها الفساد، وتزوِّدهم للحياة بأردأ زادٍ وأسوأ تربية، وتجعلهم أدوات سوء في المجتمعات والعياذ بالله تبارك وتعالى.

ومن هنا حرص الإسلام على تزويد كلٍّ من أراد أن يدخل الحياة الزوجية بزاد يوصله إلى شاطئ السعادة وساحل النجاة، ومن هنا نجد أن الإنسان العاقل هو الذي يتحرَّى الاختيار الصحيح للمرأة التي يودُّ بناء صرح الزوجية معها، وهذا الإنسان العاقل هو الذي يستمع بعقله أولاً وبصيرته إلى الهدي النبوي في هذا الميدان الرحب والمهم في استمرار الحياة. فقد حثَّ النبي ﷺ على هذا كلِّه، فيما روته أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عنه أنه قال: «تَخَيَّروا

لنطفكم، وأنكحوا الأكْفَاء»[1]، والأكفاء هم الذين ينتفي بهم العارُ، ويحصل بهم الاستكثار.

وقد حلّق أسلافنا العرب والسلف الصالح عالياً في سماوات المجد والرفعة، وكان العقلاء منهم يوصون أولادهم بالاختيار القائم على أساس الشرف وصراحة النسب، وأصالة المنبت، وحسن الأحدوثة، وجمال المخبر في المغيب والمحضر.

ذكرت كتب التراث والمجالس والمسايرات، أن أكثم بن صيفي أحد حكماء العرب قال لأولاده ناصحاً ومرشداً ومعلماً ومنبّهاً لدقة اختيار الزوجات لإنشاء الحياة الزوجية السعيدة: «يا بَنيّ لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب، فإن المناكح الكريمة مَدْرَجَةٌ للشرف»[2].

ولم يكن أبو الأسود الدؤلي بأقل نصيحة وموعظة لبنيه من أكثم بن صيفي، بل إن أبا الأسود هذا قد امتنّ على بنيه بحسن اختيار أمهم كيلا يُسَبّون بها، ويعيّرون، وبالتالي فقد اختارها من ذوات العفة وكرم الأعراق والأخلاق، فقد ذكروا أنه جمع ذات يوم بنيه وقال لهم: «يا بني، إني قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً، وقبل أن تولدوا»!

قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟

قال: «اخترت لكم من الأمّهات مَنْ لا تُسبُّون بها»[3].

وأنشد الرياشي في مثل هذا المعنى مخاطباً أولاده:

فأوّل إحساني إليكم تخيّري ... ماجدةَ الأعراقِ بادٍ عفافها[4]

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٩٦٨)، والدارقطني (٣/ ٩٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣٧٧)، وانظر فتح الباري (٩/ ٩٨).

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٢٥٣) دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٢- ١٩٩٥م. وانظر: محاضرات الأدباء (١/ ٢٢٢).

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٢٥٣).

(٤) المصدر السابق نفسه.

فالزوجة المواتية الموافقة لزوجها هي مفتاحُ السعادة الزوجية، وباب المودَّة، وصيوان الأُلْفة، لأنها شريكة الحياة، وأم الأولاد، ولها تأثير بالغ على زوجها إن كانت حصيفة لبيبة، ولذلك هي سرُّ المؤانسة، والموالاة؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: «كان أبغض خلق الله إليّ آل الزّبير بن العوام، حتى تزوجت منهم رملة بنت الزبير، فصار أحب خلق الله إليّ»[1].

ولخالد بن يزيد أشعار في غاية الرقة في امرأته الأليفة الحصيفة رملة بنت الزبير، ومن ذلك قصيدته المشهورة وهي:

أليسَ يـزيـدُ السّيـر فـي كـل ليلـة ... وفـي كـل يـوم مـن أحبّتنـا قُـربـا

أحـنّ إلـى بنـتِ الـزبيـر وقـد عَـدَتْ ... بنا العيسُ خُرقاً من تِهامةَ أو نقْبا

إذا نـزلـت أرضـاً تُحبّـبُ أهلَهـا ... إلينـا وإنْ كـانـتْ منـازلُهـا حَـرْبـا

وإنْ نـزلـتْ مـاءً وإن كـان قلبُهـا ... مليحـاً وجـدنـاهُ مـاءً بـارداً عَـذْبـا

تجـولُ خـلاخيـلُ النّسـاءِ ولا أرى ... لـرملـةَ خلخـالاً يجـولُ ولا قَلْبـا

أقلّـوا علـيَّ اللـومَ فيهـا فـإننـي ... تخيّـرتُهـا منهـم زبيـريـةً قَلْبـا[2]

أحـبُّ بنـي العـوَام طـرّاً لِحُبّهـا ... ومنْ حبّها أحببتُ أخوالَها كَلْبا[3]

يقول الماوردي: «ولم تزل العرب تجتذب البُعداء، وتتألف الأعداء بالمصاهرة، حتى يرجع النافر مؤانساً، ويصير العدو موالياً، بل يصير الصهرُ بين الاثنين ألفةً بين القبيلتين، وموالاةً بين العشيرتين».

ويقول الماوردي أيضاً: «ولذلك قيل: المرء على دين زوجته، لما يستنزله الميل من المتابعة، ويجتذبه الحب لها من الموافقة، فلا يجد إلى المخالفة

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٤٨)، وانظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي (٢/ ٦ ـ ٧).

(٢) يروى هذا البيت على النحو التالي:
تخيـرتهـا مـن سـرّ قـوم كـريمـةً ... مـوسّطـةً فيهـم زبيـريـةً قلبـا

(٣) انظر: الأغاني (١٧/ ٣٤٥ و ٣٤٦)، وزهر الآداب (١/ ٣٩٣)، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٢٤ و٢٢٥)، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٢٠٨)، وروضة المحبين (ص ٣١٩)، وذم الهوى (ص ١٦٨)، والحماسة البصرية (٢/ ٢٢٨)، والكامل للمبرد (١/ ٤٥٠) وغيرها كثير.

سبيلاً، ولا إلى المباينة والمشاقةِ طريقاً»[1]

إن الزوجة العاقلة هي التي تُضْفي على الحياة الزوجية ألوانَ التدبير، إذ تدبير البيت من السيدات النجيبات يجعله جميلاً في نظر الأزواج مهما كان نوعهم. ولذا فقد قال أحد الشعراء وأجاد:

إذا لم يكن في منزلِ المرءِ حرّةٌ   تـدبّـرهُ ضـاعَـتْ مصـالـحُ دارهِ

وعرف السَّلَفُ بدقة تخيرهم للزوجة، وتأنيهم في ذلك، قال أبو عمرو بن العلاء: «قال رجل: لا أتزوج حتى أنظر إلى ولدي منها.

قيل له: كيف ذاك؟

قال: أنظر إلى أبيها وأمها، فإنها تَجُرّ بأحدهما»[2].

ومثلُه قول علي بن عُبيد الله: «إذا أردتَ أن تتزوج بامرأة فانظر إلى أبيها وأخيها، فإنها رابطة بطنب أحدهما، وأنشد للعُجير:

إذا كنـتَ تبغـي للجهـالـةِ أيّمـاً   منَ الناس فانظرْ مَنْ أبوها وخالـُها

فـإنّـهمـا مِـنْ شكلِهـا وهـي منهمـا   كما جذَبتْ يوماً بنعلٍ مثالـُهـا»[3]

ومع الأهمية الكبرى لاختيار الزوجة الصالحة الفالحة، ومع عِظَمِ شأن العناية باختيارها والبحث عنها، إلا أن بعض أصحاب الأهواء لا يأبهون بـمن يُزوّجون ولا مَنْ يتزوَّجون.

فهناك بعض المغرورين يريد شريكة الحياة الزوجية من ذوات الجمال البارع، والقوام الممشوق، والعيون الخضر أو النجل والشعر المهفهف، والطول الفارع، وكذلك نجد بعض المغرورات والمتهوِّرات يبغين من الرجل أن يكون غنياً طويلاً عريضاً جميلاً، وينسى جميعهم آصرة الدين وهمة الشرف، وأصول المنبت.

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٢٤٨).
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (٤/ ٣).
(٣) محاضرات الأدباء (١/ ٢٢٣).

ولا ريب في أن الجمالَ مهوى الفؤاد، وبهجةُ الناظرة، وقرةُ القلب والنفس، ولكن إذا كان مسربلاً بالديانة والصيانة والعفة.

وقد تفنَّن العلماءُ والبلغاء والأدباء في الحديث عن الجمال وألوانه وأشكاله، وإتماماً للفائدة في هذا البحث، نحبُّ أن نورد شيئاً من نفثاتهم وآثارهم لنُضْفي على البحث الجمال والملاحة، ولينشط القارئ والسامع، ويبحث الشاب المؤمن عمّا يسعده في دينه ودنياه.

فقد وصف أحد بلغاء الأدباء امرأة فقال: «جميلة من بعيد، مليحة من قريب، فالجميلة التي تأخذ بصرك جملة، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، والمليحة التي كلما كرّرت بصرك فيها زادتْكَ حسناً»[1].

وقالوا: «الحلاوة في العينين، والجمال في الأنف، والحسن في الوجه، والملاحة في الفم».

وأحسن الحسن ما لم يُجْلَب بتزيينٍ وتضييق، وتحلية وتزويق، وأطيب الطيب أنفاس عبقة من كبد سليمة، ومزاج معتدل، قال امرؤ القيس:

أَلَـمْ تَـرَ أنّـي كلمـا جئـت طـارقـاً وجدت بها طيباً وإن لـم تَطيَّبِ[2]

ولقد أبدع المتنبي حينما فضّل حسن البدويّات على نساء أهل الحضارة اللواتي تكلّفْنَ في استجلاب الحسن بالحيلة والعلاج، أما حُسن البدويات فهو خِلْقةٌ، إذ إنهن لا يعرفن التكلّف والحسن المجلوب بالتطرية والاحتيال ومضغ الكلام وصبغ الحواجب طلباً للزينة، وعملن في صياغة الجمال والحسن، يقول أبو الطيب المتنبي من قصيدة له:

ما أوْجُهُ الحضَرِ المستحسناتُ بهِ كـأوْجـهِ البـدوَيـاتِ الـرّعـابيـبِ
حُسْـنُ الحضـارةِ مجلـوبٌ بتطـريـةٍ وفـي البـداوةِ حُسْـنٌ غيـرُ مجلـوبِ
أفـدي ظبـاءَ فـلاةٍ مـا عَـرَفْـن بهـا مضْغَ الكلامِ ولا صبغَ الحواجيبِ
ولا بــرزْنَ مــن الحمّــامِ مــاثلــةً أوراكُهــنّ صَقيــلاتِ العــراقيــبِ

---

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي (١/ ٣٧٧).

(٢) ديوان امرئ القيس (ص ٤١).

ومنْ هـوى كلٍّ مَنْ ليسـتْ مُموِّهـةً   تركتُ لـونَ مشيبـي غيـر مخضوبِ

وتحدَّث أبو العباس الشريشي عن الجمال والحسن في شرحه النفيس على مقامات الحريري، فكان مما قال: «والولوع في الجمال سجيةٌ ركّبها الله في الأولياء وأكابر العلماء، فَمَنْ دونهم من الغوغاء والسُّوقة، وعلى قدر ذكاء الأرض يطيب زرعها، وعلى قدر طيب التربة يطيب نبعها، فمنها العذب والأُجاج وما بينهما، وعلى قدر شرف النفس يكون حبُّها، فمنه المستحسن ومنه المستقبح، وكل إناء بالذي فيه ينضح...

والحسن أول سعادة المرء، ورائد اليمن، وسائق النُّجح؛ لأن الله تعالى بلطف الحكمة، وبشرف الإبداع والصنعة، لم يخلق الصورة مختارة الصفات، سليمة من الآفات، إلا عن فضل الاحتفاء، ولم يطابقها من الأخلاق إلا بما يناسب جمالها من العقل والصفاء، وقلَّما تجد الخلُق إلا تبعاً للخلقة، تناسباً يطّرد، وأصلاً لا ينعكس، وإجماعاً لا ينفرد، وما خلق الله نبياً قطُّ إلا وقد بهر أهلَ زمانه بحسنه وإحسانه، فإذا نَظَرْتَه لأول وهلة رأيته أحسنهم صورة، وأتقنهم بنية، فهو أولى مرتبة، وأعلى منقبة»[١].

وأودُّ أن أهمس في أذن أبنائي الشباب وبناتي الشابات وأقول لهم: إن الجمال والحسن لا يكفيان للسعادة، والتوفيق في الحياة الزوجية، فمهما كان الجمال بارزاً، فهو زائلٌ مع زوال مرحلة الشباب القصيرة، بل إنه سرعان ما يذوي ويذبل مع الحمل والولادة للمرأة، ومع تقدم السن للرجل.

وإذا تزوج الإنسان أجمل امرأة يريدها، وكانت آيةً في الملاحة، بيد أنها لا تحسن العشرة والودَّ، فهل ينفع جمالها؟! بل هل ينتفع بالأناقة والشكل إذا كانت سفيهة، وشرسة، ولا تحسن شيئاً؟! وماذا يفيد الوجه الجميل، والقوام الرشيق مع السفاهة؟!:

وهل ينفعُ الفتيان حُسْن وجوههم   إذا كـانـتِ الأخـلاقُ غيـرَ حِسـانِ
فلا تجعلِ الحسْنَ الدليلَ على الفتى   فما كلُّ مصقولِ الحديدِ يَـماني

(١) شرح مقامات الحريري للشَّريشي (١/ ٣٨٠ ـ ٣٨١) باختصار وتصرف يسير.

ولعل الجمال كان سبباً من أسباب الغرور، والفتنة، وسوء الخلق، وازدراء الآخرين، فكم من جميلة تزعم أنّ الدنيا مُلْكُ يمينها، فاحتقرت زوجها، وحوَّلت حياته إلى جحيم لا يطاق.

كم من مغرورة دمَّرت حياتها بنفسها، وهي تسمع ثناء الأخريات على جمالها، فحسبت أن كل شيء يجب أن يتحقق !!

ليس الجمال مئزراً، ولون بشرة، وتقاسيم وجه، وصبغ حواجب وتزيين عيون؛ ولكن إذا اجتمع هذا مع الأخلاق الفاضلة والدين القويم كان نوراً على نور، ونوراً في نور؛ ولكن إذا خلا من هذه القيم سرعان ما تتلاشى حلاوتُه، وتذوب وتخلِّف مرارةً وألماً في النفس.

لا شك في أن للجمال مقاييس أخرى يعرفها ذوو العقول والأحلام، والتي يندرج تحتها: كمال العقل، وحسن الفهم، والحصافة، والذوق، وإشراق النفس، وطهارة القلب، ونقاء الحسّ، وصفاء السريرة، ونبل الشخصية، وما شابه ذلك.

وللشاعرة العراقية المعاصرة نازك صادق الملائكة كلمة لطيفة تؤكد المعاني التي أوردناها فتقول: «الجمالُ مُلْكٌ لفتاة ذكية العينين، بسيطة المظهر، يشعُّ وجهها عطفاً وحناناً، وكأنها تريد أن تحتضن الوجود كله، وتغمره بمشاعرها الكريمة، وهذا الجمال المرهف العذب مبذول زهيد الثمن، تملكه كل فتاة دون أن تضيع وقتها في أسواق الملابس وعند الخيّاطة الجاهلة. إنه جمال ينبع من الروح الكبيرة المستوعبة، والذهن الحر المرن، والقلب النابض الرقيق، وهو جمال الخُلُق الكريم، والعذوبة، والخشوع لله، والنزاهة، وكبر النفس.

وهذا الجمال لا علاقة له بالملابس والحلاّق، لأنه يتألَّق على وجه كريم، وعيون حنون معطاء، وهو يلمع على الشعر المسترسل الذي لا يهينه الحلاق بالعبث به. هذا هو الجمال، فتعريفه أنه البساطة الإنسانية، والفطرة كما خلقها الله حيَّة روحية متفتحة»[1].

---

(١) مآخذ على حياة المرأة العربية لنازك الملائكة (ص ٢٦ ـ ٢٧).

ومن هذا المبدأ نعرف أن الإسلام قدّم الدين على كل الأشياء الزائلة، قدمه على المال والجمال والحسب، فالفتاة التي تتحلّى بالدين قدَّمَها على الموسرة ذات الجمال والحسب، ولذا «فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك»[1].

قال النووي رحمه الله في معنى هذا الحديث الشريف: «ومعناه: أن الناس يقصدون في العادة من المرأة هذه الخصال الأربع، فاحرص أنت على ذات الدين، واظفر بها، واحرص على صحبتها[2]»[3].

وقال المنذري في شرح الحديث: «تربت يداك: كلمة مشتركة، معناها الحث والتحريض. قيل: هي هنا دعاء عليه بالفقر، قيل: بكثرة المال، واللفظ مشترك بينهما قابل لكلٍّ منهما، والآخر أظهر، ومعناه: اظفر بذات الدين، ولا تلتفت إلى المال أكثر الله مالك»[4].

وقال ابن الأثير رحمه الله: «ترب الرجل: إذا افتقر، أي لصق بالتراب، وأترب إذا استغنى. وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب، ولا وقوع الأمر به، كما يقولون: قاتله الله، وقيل هنا: لله درك»[5].

إن التوجيهات القرآنية تدعو المسلم وترشده إلى اختيار ذات الدِّين، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة، ومن الجدير بالذكر أن الإسلام قدّم ذات الدين، لكنه لم يغفل النواحي الأخرى المهمة في إرساء سفينة السعادة الزوجية على شاطئ الأمان، فالدين ينبوع كل خير، والزوجة ذات الدين تعين الزوج على البر والصلاح والإصلاح، فتعينه على بر أبويه وأهله وأقاربه، وتعينه على مكارم الأخلاق.

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري برقم (٥٠٩٠)، ومسلم برقم (١٤٦٦).
(٣) رياض الصالحين (ص ١٧٢) طبعة دار ابن كثير الأولى ١٩٩٩م.
(٤) انظر: الترغيب والترهيب للمنذري (٤/ ١١٦).
(٥) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/ ١٨٤).

إن الناس يحيَوْن بالمعاني، ويسعدون بالمشاعر أكثر من الأمور المادية، فالعاقل لا يقدّمُ على الدين في المرأة عاملاً آخر[1].

وهناك فئة تطلب الحسب الرفيع، والشهرة الذائعة، والصيت العريض، فذاك منتهى أملها، وأمل منتهاها، وغاية سؤلها، وغاية طموحها وهدفها.

وهناك من يريد المال والثروة، وبعدها لا يريد شيئاً، حيث إن المال عنده عصب الحياة وروحها، وبه يصنع الأعاجيب مع شريكة عمره.

وفي الحقيقة، ما كل ما يتمنى المرء يدركه، ولا كل ما تهوى النفس يتحقق، فكل تلكم الحسابات فيها خلل، وتلكم المعايير تشرح بالخطأ والصدأ، لأنها لا تعدو النظرات المادية، وقد لا تحصل معها السعادة الزوجية، ولا المودة الأسرية، ولا الرحمة الحقيقية، فهي جميعها لا تدون، وهي ظل زائل، وحلم لاح لعين الساهر، ثم تلاشى وراء اليقظة، فالمال يتبدَّدُ ويذهب، وربما يمسي الغني فقيراً لخسارة غير متوقعة، أو يصبح الفقير غنياً بين طرفة عين وانتباهها، ولله درُّ من قال:

فلا يدري الفقيرُ متى غِناهُ ولا يدري الغنيُّ متى يعيلُ

إن الأوهام الكبيرة التي رانت على قلوب كثيرين ممن يحسبون أن السعادة إنما تكون بالمال سرعان ما تدهمهم الحقائق بصورتها، وتجعلهم يعرفون أن الرضا والسعادة مبعثها من أغوار النفس عندما تتبع سبيل الرشاد، ونور الحق، وهدي الإسلام، وضياء القرآن، وسناء السُّنّة.

إن كثيراً من الأغنياء هم من الأشقياء في النعيم، فلا هم سعداء بمالهم، ولا هم يسعون لمعرفة حقيقة السعادة، فنرى أن الاكتئاب يزورهم بسواد الليل، ويجثُمُ على قلوبهم في بياض النهار، فهم في شقاء وتعاسة واضمحلال في النفس، ولم يُجْدِهم مالهم، ولم تنفعهم أكداس الذهب والفضة.

* * *

---

(١) رسائل في الحياة الزوجية لمحمد الحمد (ص ٣١ ـ ٣٢) باختصار وتصرف. دار ابن خزيمة ـ الرياض ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

الفصل الخامس
الأسس المهمة في اختيار الزوج

القرآن الكريم فيه شفاء لما في الصدور، والسنة المطهَّرة تداوي أيضاً القلوب، فالإسلام في تشريعه الكامل، ونظامه الشامل، وهدفه السامي، قد وضع أُسُساً صحيحة أمام الزوج ـ ذكراً أو أنثى ـ إن بنى الناس عليها صرح الحياة الزوجية، ومشوا وفقَ تعاليمه، ظل البناء شامخاً ترفرف فوقه أعلام السعادة، وتنبعث منه نسائم المحبة والموافقة، وتنبع من أعماقه أزاهر الرضا والسمو والنجاح، وغدت الحياة الزوجية متوجةً بالتوفيق، ومن ثم نامية مفيدة للمجتمع، أبناؤنا ناجحون مؤمنون مطمئنو النفوس برحيق الإيمان الذي يتضوّع من جنبات البيت السعيد الميمون.

إن اختيار الزوج أهم مرحلة من مراحل تعمير الحياة الزوجية وصقلها في البداية بروح الحق، فالزواج رابطة وثيقة، وعلاقة إنسانية مقدَّسة دائمة، تحتاج إلى مجهود دقيق وصحيح للعثور على الزوج المناسب، فالحياة مع الشريك ليست أياماً معدودات، وإنما حياة مستمرة إلى نهاية عمر كل واحد من الزوجين.

وقد اهتم الإسلام أكبر الاهتمام باختيار الزوج، وطلب من الرجل أن يتحرى في اختيار الزوجة الصالحة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ورسم له الدليل الشافي ليسعد في بناء حياته؛ كما أن الإسلام قد طلب من أولياء الزوجة أن يتحرَّوا الدقة في اختيار الزوج الصالح، والقرين التقيّ لابنتهم دون تهاون في أمر من أمور الإسلام، لأنهم سيملّكون الزوج زمام ابنتهم، وبالتالي يجب اختيار مَنْ يحسنُ القوامة عليها ويراقب الله سراً وعلانية في حسن معاشرتها وصحبتها.

وقد وضع الإسلام للحياة الزوجية تحت ظلاله أسساً سليمة لاختيار الزوج إن سار الزوجان على هداها نَعِما بأفياء الزواج، وأسّسا حياة سعيدة ناجحة ناجية من التصدُّع، وعاشا بوفاق وسلام.

• الأساس الأول ـ الدِّين والصَّلاح والخُلُق:

الدين هو جوهر الأسس وسنامها، وهو قلبها ونبضها، فإن كان الزوج من أهل الدين سلوكاً وقولاً سارت الحياة الزوجية نحو الهدف المنشود وهو مرضاة الله ورسوله ومن ثم تكميل الفطرة الإلٰهية التي فطر عليها الناس.

فينبغي أن تكون المرأة من الصالحات ومن ذوات الدين والخلق الكريم، لتكون حسنة العشرة، أمينة عفيفة، قانتة، قانعة، لأن المرأة المتديِّنة يمنعها دينها من كل ما يضير ويضرُّ الزوج، ويدفعها إلى أداء ووفاء ما عليها من حقوق وواجبات، وقد وصف الله تعالى في القرآن الكريم هذه المرأة بالصلاح والقنوت والوفاء من جملة ما وصف به الصالحات فقال: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وهنا نلاحظ أن الصفات الحسنة هي التي اشتملت عليها هذه الآية، حيث ذكرت أن المرأة القانتة من تطيع ربها، وتطيع زوجها، وتحفظه في نفسها وعفتها، وفي ماله وولده في حال غيبته وحضوره، ومثل هذه يقال لها: امرأة صالحة ديّنة.

قال إسماعيل حقي البروسوي في تفسيره (روح البيان) في تفسير الآية السابقة: «فالصالحات منهن قانتات مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج..»[1].

وقال المراغي: (فالنساء الصالحات مطيعات للأزواج، حافظات لما يجري بينهن وبينهم في الخلوة من الرفث والشؤون الخاصة بالزوجية، لا يُطلعن أحداً عليها ولو قريباً، وبالأولى يحفظن العِرض من يد تَلْمس، أو عين تُبْصِر، أو أذن

---

(١) تفسير روح البيان (٢/ ٢٤٧).

تسمع، وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي بسبب أمر الله بحفظه، فهن يُطِعْنَه ويعصِينَ الهوى.

وفي الآية أكبر عظة وزجر لمن تتفكّه من النساء بإفشاء الأسرار الزوجية، ولا تحفظ الغيب فيها.

وكذلك عليهن أن يحفظن أموال الرجال وما يتَّصِل بها من الضياع، روى ابن جرير والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خير النساء التي إذا نظرتَ إليها سرّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها»[1] وقرأ الآية)[2].

فالمرأة صاحبة الدِّين والصيانة هي المطيعة القائمة بما عليها لزوجها، حافظة لمواجب الغيب، والتي تؤدي ما عليها من هذه الأمور فلها الثواب والأجر العظيم من الله تعالى[3].

وقد وَجّه النبي ﷺ أصحابه وجميع شباب المسلمين ورجالهم إلى الزواج من المرأة الـحَصَان ذات الدِّين، فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[4].

قال النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث الشريف: «الصحيح في معنى هذا الحديث: أن النبي ﷺ أخبر بما يفعله الناس في العادة، فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربع، وآخرها عندهم ذات الدّين، فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين؛ لا أنه أمر بذلك. والحسب: الفعل الجميل. وتربت يداك: كلمة جارية على ألسنة العرب، والمراد بها: الحث والتحريض. وفي هذا الحديث الحث على مصاحبة أهل الدِّين في كل شيء، لأن صاحبهم يستفيد من

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب رقم (٣٢)، وانظر كنز العمال رقم (٤٤٤٧٧).
(٢) انظر: تفسير المراغي (٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، وتفسير البغوي (ص ٢٩٦).
(٣) انظر: فتح القدير (ص ٢٩٥) بتصرف.
(٤) أخرجه البخاري برقم (٥٠٩٠)، ومسلم برقم (١٤٦٦)، وأبو داود برقم (٢٠٤٧) وغيرهم.

أخلاقهم، وبَرَكتهم، وحسن طرائقهم، ويأمن المفسدة من جهتهم»[1].

وعندما يكون الزوج أو الزوجة ذا دين وذا خُلُقٍ يمسي زواجهما أو حياتهما ترفُلُ في حلل السعادة، أما إذا لم يلتزم كلاهما بالدين وبالأخلاق، فلا ريب في أن الإحباط هو ما يجنيانه من حياتهما الزوجية، وإن ظهرا أمام الناس بمظهر العبادة أو التظاهر بالصلاح.

وقد فهم الصحابة الكرام هذا المبدأ بشكل سليم، وميزان دقيق، يكشف سُتُور الأمور بأوضح بيان، من ذلك ما روي أن رجلاً قد شهد عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشهادة، فقال له عمر: ائتني بمن يعرفك. فانطلق الرجل فأتاه بشخص، فأثنى عليه خيراً وصلاحاً، فسأله عمر رضي الله عنه: يا هذا، أأنتَ جاره الأدنى الملاصِقُ لبيته، والذي تعرف مدخله إذا دخل، ومخرجه إذا خرج؟

قال الرجل: لا يا أمير المؤمنين!

قال عمر: أكنْتَ رفيقه في السّفَر الذي يُستدلُّ به على مكارم الأخلاق؟

قال الرجل: لا يا أمير المؤمنين، ولا هذا.

قال عمر: هل عاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورعُ الرجل وزهده؟

قال الرجل: لا يا أمير المؤمنين لم يحدث أن عاملته.

قال عمر: أظنّك رأيتَه في المسجد قائماً، يُهَمهِمُ بالقرآن، يخفض رأسه طوراً، ويرفعه طوراً.

قال الرجل: نعم ذاك والله يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: إذاً، اذهب فلستَ تعرفه.

ثم قال للرجل الأول: يا هذا اذهب، فائتني بمن يعرفك[2].

فالدين هو المنهاج والمقياس الذي ينير درب الحياة الزوجية، والرجل

---

(١) انظر: المنهاج (ص ١١٠٦) بشيء من التصرف.
(٢) الإحسان في القرآن الكريم (ص ٦٢ ـ ٦٣) بتصرف يسير.

والمرأة سواء في هذا المقياس، بل إن النبي ﷺ قد دعا الأولياء إلى هذا فقال: «إذا جاءكم من ترضَون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[1].

إن الدِّقة في الاختيار للحياة الزوجية تجنب الناس الفتنة والخلل والفساد، ويجب أن يكون الاختيار قائماً على الدين، وعندها تهون كل الأمور.

جاء رجل إلى الحسن البصري وقال له:

يا أبا سعيد، إنّ لي ابنة، فممن أزوّجها؟

قال: زوّجها ممَّن يتقي الله عز وجل، فإن أحبَّها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلِمْها.

وتذكر كتب الأسمار والآداب والمحاضرات أنه قيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة.

فقال: أموسر من عقل ودين؟

فقالوا: نعم أيها الحكيم.

قال: فزوجوه إيّاها.

ومن اللطائف الجميلة ما روي أن أحد الصالحين قد ابتُلِيَ بامرأة ناشز تعصيه، فقيل له: طلِّقْها. فقال: ويحكم؛ أخشى أن أطلّقها فَيُبتلى بها رجل غيري فتؤذيه، فأكون سبباً في أذيَّةِ عباد الله . . . !!!

ومن البدائع ما روي أن نوح بن مريم قاضي مدينة مرو، أراد أن يزوِّجَ ابنته، فاستشار جاراً له مجوسياً، فقال المجوسي: سبحان الله! الناس يستفتونك، وأنت تستفتيني ؟!

فقال له القاضي نوح بن مريم: لا بدّ من أنْ تشيرَ عليّ !

قال المجوسي: إنّ رئيسنا كسرى كان يختار المال.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٠٨٤)، وابن ماجه برقم (١٩٦٧)، والحاكم (٢/ ١٦٥).

ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال.

والعرب كانت تختار الحسب والنسب.

ورئيسكم محمد كان يختار الدين.

فانظر أنت ـ أيها القاضي ـ بأيّهم تقتدي !!.

إن الاختيار إذن على الأساس الأخلاقي الممزوج برحيق الدِّين والورع من أهم ما يُحقق للزوجين السعادة الزوجية، وللذرية التربية النموذجية الفاضلة، وللأسرة شرفها النظيف، واستقرارها وأُلفتها.

● **الأساس الثاني ـ كَرمُ العنصر والأعراق:**

الزوجة سكن للزوج، وحرث له، وهي شريكة حياته، ورئيسة منـزله وبيته، ومهوى فؤاده، وموضع سره ونجواه، وأمل حياته وحياة أمله، وأم أولاده.

والزوجة الكريمة ركن من أهم أركان الأسرة، فهي الودود الولود، وعنها يرث الأولاد كثيراً من المزايا والصفات، وفي حجرها الدافئ الدافق بالعطاء تتبلور عواطف الأطفال، وتنمو ملكاتهم، ويتلقون لغتهم، ويكتسبون كثيراً من التقاليد والعادات، بل ويتعرَّفون دينهم، ومن ثم يتعوَّدون السلوك الاجتماعي في الحياة العامة خارج محيط الأسرة.

ومن أجل هذا نلحظ عناية القرآن العظيم والسنة المطهرة، والإسلام باختيار ذات الشرف الوافي، وذات الصلاح والمنبت الطيب، وجعلها إذ ذاك خيرَ متاعٍ ينبغي التطلع إليه والحرص عليه.

وكثيراً ما ينسى الناس عنصر كرم الأعراق، ولا يلاحظون كمال النفوس، وأصالة المرأة وطيب عرقها، وبالتالي تكون ثمرة الزواج مُرَّةً حنظلية، وتنتهي إلى ما لا تُحْمَد عاقبته.

لذا يجب على الذي يودُّ بناء حياة زوجية كريمة أن يخطب امرأة من بيئة كريمة، معروفة باعتدال المزاج، وهدوء الأعصاب، والبعد عن الانحرافات النفسية، فإنها حينئذٍ تكون حانيةً على ولدها، راعية لحقِّ زوجها، يردها أصلها عن عمل أي تصرف مشين.

ذكرت كتب السيرة والطبقات أن النبي ﷺ قد خطب السيدة أم هانئ بنت أبي طالب بعد أن تأيَّمت، فقالت له: يا رسول الله، إني امرأة ذات صبيان، وأكرهُ أن يؤذوك، فسكت عنها وقَبِلَ اعتذارها اللطيف، وعندها قال ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»[1].

وطبيعة الأصل الكريم أن يتفرَّع عنه مثله، وفي الحديث الشريف: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا».

ولله درُّ من قال:

وهــل ينتــجُ الخطـيُّ إلا وشيجــه وتغــرسُ إلاّ فــي منــابتهــا النّخْـلُ

وخطب رجل خسيسُ الأصلِ وضيع النسب امرأة لا يدانيها في شرفها، فأنشدت:

بـكى الحسبُ الزّاكـي بعيـنٍ غـزيـرة من الحسبِ المنقوصِ أنْ يُجمعا معا

فالناس معادن يتفاوتون فيما بينهم، فمنهم الشريف، ومنهم الوضيع، ويتفاضلون فساداً وصلاحاً، ومن هذا المبدأ الصحيح، جاءت الإرشادات النبوية للراغبين في إنشاء الحياة الزوجية بأن يختاروا شركاءهم فيها على أساس الشرف، والطيب، والأصالة، والنبل، ومن تلكم الإرشادات قوله ﷺ: «تخيَّروا لنطفكم، فانكحوا الأكْفاء، وأنكِحوا إليهم»[2].

---

(١) انظر البداية والنهاية (٥/ ٢٦٢)، والإصابة (٤/ ٤٧٩)، والحديث أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٩)، ومسلم برقم (٢٥٢٧). وفي الحديث فضيلة نساء قريش، وفضل هذه الخصال: الحنوة على الأولاد والشفقة عليهم، وحسن تربيتهم والقيام عليهم إذا كانوا يتامى، ونحو ذلك من مراعاة الزوج في ماله، وحفظه، والأمانة فيه، وحسن تدبيره في النفقة وغيرها، وصيانته ونحو ذلك، والمقصود أن نساء قريش خير نساء العرب، وقد علم أن العرب خيرٌ من غيرهم في الجملة. (المنهاج ص ١٨١٨) بتصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (١٩٦٨)، والدارقطني (٣/ ٩٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧٧)، وانظر: الجامع الصغير للسيوطي (١/ ٥٠٣).

وجاء في رواية: «اطلبوا مواضع الأكفاء لنُطَفِكُم، فإن الرجل ربما أشبه أخواله»[1]، وقال: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر»[2]. أي كرائم الأصول.

وجاء في الأثر: «تخيَّروا لنطفكم فإن العرقَ دسّاس» وهذه الأحاديث والآثار تأخذ بأيدي راغبي الزواج إلى ينبوع العطاء، ومنبت الصلاح والبيئة الكريمة، والأسر العريقة التي عُرفت بالشرف والأصل الكريم من خلال الآباء والأجداد، لأن الناس معادن، والفضل واضح، والشر أوضح، قال زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكنْ عند امرىءٍ من خليقةٍ وإنْ خالَها تخفى على النّاس تُعْلَم

قال عثمان بن أبي العاص لأولاده: «المناكح مغترس فلينظر المرء حيث يضع غرسه، فإن عرق السوء يعدي ولو كان بعد حين»[3].

وقال الشاعر:

لا تنكحنّ لئيمةً لمعيشةٍ تبقى اللئيمةُ والمعيشةُ تذهب[4]

والاختيار الموفَّق للزوجات الأصيلات ذوات المنبت الكريم يجعل الرجل مطمئناً حينما يمنُّ الله عليه بالذرية، فيكون ناعم البال لأن أولاده سيكونون مفطورين على معالي الأمور، ومقتبسين من أمَّهم العادات الأصيلة، والأخلاق الفاضلة، ويرضعون لَبَان المكارم والمحاسن، ويكتسبون خصال الخير، وحصائل مكارم الأخلاق[5].

وقد تبارى الشعراء والأدباء في بثّ الناس نفحاتهم ومكنون ضمائرهم في

---

(١) انظر: كشف الخفاء (١/ ٣٥٨).
(٢) الترغيب والترهيب (٣/ ٥).
(٣) محاضرات الأدباء (٢/ ٢٢٢).
(٤) محاضرات الأدباء (٢/ ٢٢٢).
(٥) انظر: تربية الأولاد في الإسلام (١/ ٤٣) بتصرف.

هذا المجال، فقال أحدهم ناصحاً بأن من أراد الزواج، فليسأل عن الأصل الثابت والمنبت الخيّر:

إذا تــزوجــتَ فكــنْ حــاذقــاً واســأل عــن الغُصــنِ وعــن منْبِتِـه

وقال غيره:

وأولُ خبــثِ المــاءِ خبــثُ تــرابــه وأولُ خبثِ القــومِ خبثُ المنــاكــح

وتشير الدراسات الطبية القديمة منها والحديثة أن الأطفال يكتسبون كثيراً من صفات آبائهم وأمّهاتهم الخَلْقية، وكذلك الخُلُقية، والعقلية منذ أن يكونوا في المهد صغاراً لا يكادون يفقهون حديثاً.

ولذا فعندما يكون انتقاء الزوج، واختيار الزوجة على أساس الأصل السامي، والشرف الوافي، والمنبت الكريم، والجذر الأصيل، فلا ريب في أن الأبناء يرثون هذه المكارم، وذاك الشرف، وتلكم العادات الفاضلة، فينفعون آباءهم وأمهاتهم ومجتمعاتهم، فالأولاد سرُّ أهلهم، يتربون ويتعودون على ما ينشئهم أهلهم عليه، إن خيراً فخير، وإن سوءاً فسوء، ولله درُّ من قال:

مشى السّـرطـانُ يـومـاً بـاعـوجـاجٍ فقلّــدَ شكْــل مشيتــهِ بنــوه

فقــال عــلامَ تنحــرفــون قــالُــوا مشيــتَ بــهِ ونحــنُ مقلّــدوه

وينشــأ نــاشــئُ الفتيــانِ فينــا علــى مــا كــانَ عــوّدَه أبــوه

ومــا دان الفتــى بحِجــىً ولكــنْ يعلّمــه التّــديّــنُ أقــربــوه

● **الأساس الثالث ـ الجمال وحسن الوجه:**

الجمال مع الدين منى النفس البشرية، وإلى هذا الركن الحصين يأوي من يبغي البيت السعيد الناجح.

فالمرأة الجميلة المقبولة يحصل بها الإحصان، والعفاف، وغضُّ البصر، وسكونُ النفس، وتمامُ المودة، وحسنُ الألفة، وسعادةُ القلب.

والجمال المحضُ، وحسن القوام، وملاحة الوجه مع الفساد في الدين، غاية الانحدار، إذ لا خير في حسن الوجوه ما لم يزينها الحياء والوقار والدِّين.

ومن الهدي النبوي نلمح أن النبي ﷺ يدعو أصحابه إلى النظر للمخطوبة

لتحصل الألفة والمودة، فقد قال ﷺ: «إذا خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها»[1].

وجاء في السنن عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ـ والمغيرة هذا من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة، شهد بيعة الرضوان، يقال له: مغيرة الرأي[2] ـ. أنه قد خطب امرأة، فقال له رسول الله ﷺ: «أنظرتَ إليها»؟

قال: لا.

قال: «انظر إليها، فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما»[3].

وقال القاسم بن عبد الرحمن: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ القرآن، فإذا فرغ قال: أين العزّاب؟ فيقول: ادنوا مني ثم قولوا: اللهم ارزقني المرأة إذا نظرت إليها سرتني، وإذا غبتُ عنها حفظت غيبتي في نفسها ومالي، وإذا أمرتها أطاعتني.

● الأساس الرابع ـ الزّواج من البكْر:

استحب الإسلام للرجل أن يتزوج الفتاة البكر، لأن ذلك أدعى إلى دوام الحياة الزوجية. لأن البكر غالباً ما تكون مجبولةً على الأُنس والألفة بأول إنسان تكون في عصمته، وتلتقيه، وتتعرفه.

فالبكر غالباً ما تحب الزوج، وتألفه، وتزداد أواصر الودِّ بينهما، والطباع مجبولة على الأُنس بأول مألوف، أما المرأة التي اختبرت الرجال وتزوجت، فربـما تكره الزوج وتبغضه، وتجعل من نفسها ميزاناً تَزِنُ الأول بالثاني، فتذكر

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤٢٤).

(2) انظر أخباره في سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١ ـ ٣٢).

(3) أخرجه الترمذي برقم (١٠٨٧)، والنسائي (٦/ ٦٩ و ٧٠)، وابن ماجه برقم (١٨٦٥) كما أخرجه أحمد، والدارمي، وابن حبّان وصححه. انظر: نيل الأوطار (٢/ ٢٣٩)، ومعنى: يؤدم بينكما: أي يؤلف بينكما، من وقوع الأدمة على الأدمة، وهي الجِلدة الباطنة، والبشرة هي الجِلدة الظاهرة، وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الائتلاف.
قال الأعمش: كلّ تزويج يقع على غير نظر، فآخره همٌّ وغمّ.
والنظر لا يكشف عن الخُلق والدين والمعاملة، وإنما يميز الجمال من القبح.

محاسن هذا وتقيس مساوئ ذاك، وقد لا ترضى ببعض خِلال الثاني فتنغّص حياته وتجعله في جحيم لا يطاق، وربما تحنُّ إلى الزوج الأول، وتتأسى بقول الشاعر:

نقّلْ فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى ... ما الحبّ إلا للحبيبِ الأولِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتى ... وحنينُه أبداً لأولِ منزلِ

وفي الهدي النبوي إرشاداتٌ لطيفاتٌ إلى التوجُّه بالزواج من الأبكار، لأن ذلك يولد المحبة، ويقوي الإحصان، ويجعل السعادة الزوجية ترفرف بجناحيها فوق الزوجين.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما ما يشفي الغلّة، حيث قال: تزوجتُ امرأة في عهد رسول الله ﷺ، فقال لي: «هل تزوجت»؟

قلت: نعم.

قال: «أبكْراً أم ثيباً» ؟

قلت: ثيباً.

قال: «فهلاّ جارية ـ أو بكراً ـ تلاعبها وتلاعبك»[1].

● **الأساس الخامس ـ الخُلُق الحَسن:**

الأخلاق مناط جميع الأسس المهمة في اختيار الزوجة، وكل شيء هيِّنٌ إذا كانت الأخلاق عنوان الحياة الزوجية، لأن الأخلاق يندرج تحتها كل فضل وكل دين وكل أدب... وما أجمل أن نترنَّمَ بهذه الأبيات قبل أن نشرع في تسطير هذه الفقرة:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٩٢)، ومسلم برقم (١٤٦٦)، واللفظ له، وأبو داود برقم (٢٠٤٨). وهذا الحديث من الأحاديث المشهورة في هذا الباب. قال النووي: «وفيه فضيلة تزوُّج الأبكار، وثوابهن أفضل، وفيه ملاعبة الرجل امرأته، وملاطفته لها، ومضاحكتها، وحسن العشرة، وفيه سؤال الإمام الكبير أصحابه عن أمورهم، وتفقد أحوالهم، وإرشادهم إلى مصالحهم، وتنبيههم على وجه المصلحة فيها». (المنهاج ص ١١٠٧).

هـيَ الأخـلاقُ تنبـتُ كـالنّبـات إذا سُقيـتْ بمـاءِ المكـرمـات
تقـومُ إذا تعهّـدهـا المـربّـي علـى سـاقِ الفضيلـةِ مُثمـراتِ
وتسمـو للمكـارمِ بـاتّسـاقٍ كمـا اتّسقـت أنـابيـبُ القنـاة
وتنعشُ مـن صميـم المجـد رُوحـاً بـأزهـارٍ لهـا متضـوّعـاتِ
ولـم أرَ للخـلائـقِ مـن محـلٍّ يهـذّبُهـا كحضـنِ الأمّهـات
فحضـنُ الأمّ مـدرسـةٌ تسـامـتْ بتـربيـةِ البنيـن أو البنـات
وأخـلاقُ الـوليـدِ تُقـاس حُسْنـاً بـأخـلاقِ النسـاء الـوالـدات
وليـس ربيـب عـاليـةِ المـزايـا كمثـل ربيـبِ سـافلـةِ الصفـات
وليـس النّبْـتُ ينبـتُ فـي جِنـانٍ كمثـل النّبْـتِ ينبـتُ فـي الفـلاة
فيـا صـدرَ الفتـاةِ رحُبْـتَ صـدراً فـأنـتَ مقـرّ أسنـى العـاطفـات
فـأول درس تهـذيـبِ السجـايـا يكـون عليـكَ يـا صـدرَ الفتـاةِ[١]

إن المرأة ذات الخلق القويم تعين الرجل على دينه، وتجعله ناجحاً في أمور الحياة وبين الناس، أما إذا كانت سيئة الخلق، سيئة الشكل، كافرة للنعم، سليطة اللسان، سفيهة، لا تقيم للأخلاق وزناً، ولا للودِّ مكاناً، فإن الضرر منها أكثر من النفع، ومن ثم تجعل الزوج يفرُّ من البيت فراره من المجذوم[٢].

ومن الطرائف التي اختزنتها كتب الأدب في ذاكرتها أن أحد الأعراب كان له زوجة سليطة اللسان، لا تكفّ عن الثرثرة وسوء الخلق، فقال في حقها:

من منـزلي قَـدْ أخرجتني زوجتـي تـهـرّ فـي وجهـي هـريـرَ الكَلْبـةِ

وقال آخر يذمُّ أخلاقَ زوجته:

لقد كنتُ محتاجاً إلى موت زوجتي ولكـنْ قـريـنُ السـوء بـاقٍ مُعَمّـرُ
فيا ليتها صـارتْ إلى القبـرِ عاجلاً وعـذّبهـا فيـهِ نكيـرٌ ومُنْكَـرُ

وتزوج بعض الأعراب امرأة، فلم تَرُقْ له أخلاقها، بل كانت تؤذيه في لسانها ووقاحتها، ولكنه نجا منها وفاز بحمارٍ وجبّة قديمة؛ وصادف أن قدم

(١) ديوان معروف الرصافي (٤/ ٣٥١ ـ ٣٥٢) طبعة العراق.
(٢) انظر: المهذب من إحياء علوم الدين (١/ ٣١٧).

عليه ابن عمٍّ له من البادية، فسأله عن حاله التي هو فيها، فأنشد قائلاً:

خطبتُ إلى الشيطانِ للحين بنْتَه ... فأدخلَها من شقْوتي في حِباليا
أنقذَني منها حماري وجبّتي ... جزى اللهُ خيراً جُبّتي وحماريا

إذاً فالمرأة إذا كانت حسنة الخلق[1]، هادئة الطبع، عاقلة، جنّبته المشكلات والخصومات، وهيَّأَتْ له الراحة والاطمئنان. أما إذا كانت حمقاء سليطة اللسان، سيئة الأدب، فإن الحياة معها جحيم ونار.

ومن الزوجات مَنْ هي كثيرة التسَخُّط، قليلة الحمد والشكر، غير راضية بواقعها، إن دخل عليها زوجها أمطرته بوابل من جراحات لسانها، وعملت على ذمّه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتتنكر لمحاسنه، وتدخل على نفسه الهَمّ والغمَّ، وخصوصاً إذا حصلت منه زلّة أو هفوة، وهكذا تعيش في نكد وضيق وسوء خلق، وتجعل من الحياة الزوجية دوّامة تؤدي إلى خراب هذه الحياة.

ولذا فإن هذه الأخلاق السيئة، وكفر النعمة، وجحود الفضل، ونسيان فضل الزوج، كل هذا سماه الإسلام كفراً، ورتب عليها الوعيد الشديد.

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه»[2].

• الأساس السادس ـ الودود الولود الشابة:

يستحب من الزواج أن تكون المرأة ودوداً ولوداً حتى يتحقق بها الغرض الأسمى من الزواج، وهو النسل.

عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسن وجمال، وإنّها لا تلد، أفأتزوجها؟

---

(١) لذلك زوّج عمر بن الخطاب ابنه عاصماً بنت امرأة تبيع اللبن لأن خلقها أعجبه. انظر: (مجمع الأمثال ٢/ ١٠٢).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم (٩١٣٥ و ٩١٣٦)، والبيهقي (٧/ ٢٩٤)، والحاكم (٣/ ٧٨) وقال: صحيح الإسناد. وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٩): رواه البزار بإسنادين، والطبراني، وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح. وانظر الأحاديث الصحيحة برقم (٢٨٩).

قال: لا.

ثم أتاه الثانية، فنهاه. ثم أتاه الثالثة فقال له ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثرٌ بكم الأمم يوم القيامة»[١].

والمرأة الولود يمكن أن تعرف من خلال أهل المعرفة والاختصاص، وذلك بسلامة جسمها، وكذلك النظر في حال أمها، وأخواتها المتزوجات، فعلى الغالب تكون مثلهن[٢].

وقد آثر القدماء الشابة البكر الولود على الثيب الكبيرة، ولعلهم نظروا إلى أنها كاللؤلؤة لم يزايلها صدفها، وراعوا أنها أسلسُ قياداً، وأيسر انطباعاً، وأكثر نسلاً، وهم يعرفون بالمشاهدة والتجربة أن الرجل أبعد أمداً في النسل من المرأة، «فهي تنقطع عن الـحَبَل قبل أن ينقطع الرجل عن الإحبال بدهر»[٣].

وقد أكثر المجربون والحكماء من الوصاة بتجنب العجوز والأيِّم، والتزوج من الشابة العزوب، قال أحد البلغاء:

لا تنكحـنّ عجـوزاً إن أتيـت بهـا ... واخلع ثيابك عنها ممعناً هربا

وإن أتـوك فقـالـوا إنهـا نَصَـفٌ ... فـإن أطيـب نصفيهـا الـذي ذهبا

وقد آثر أفلاطون المرأة الشابة، لأن الناس يسلكون ذلك في استيلاد الحيوان، ليحصلوا على نسل قوي ممتاز، وذهب إلى أن شباب المرأة يبدأ من العشرين، وينتهي بالأربعين، أما الرجل فإن شبابه من الثلاثين إلى الخامسة والخمسين.

وعُرِف قدماء العرب في الأعصر الخالية بشدَّةِ حبهم للمرأة الولود، وكانوا يفرحون بكثرة الأولاد، ولا سيما الذكور، حيث كانوا يعتمدون عليهم في العزة

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٦٥ ـ ٦٦)، وأحمد (٣/ ١٥٨ و ٢٤٥) وصححه ابن حبان برقم (٤٠٢٨ و ٤٠٥٦ و ٤٠٥٧)، وانظر: صحيح أبي داود برقم (١٨٠٥).

(٢) انظر تربية الأولاد (١/ ٤٦) بتصرف.

(٣) الحيوان للجاحظ (٥/ ٢٠٨).

والمنعة، وكانت القبيلة تهنأ وتقيم العرس لثلاث: غلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج[1].

وقد افتخر عمرو بن كلثوم في معلقته بكثرة النسل فقال:

ملأنا البرّ حتى ضاقَ عنّا　　وظَهْر البحرِ نملؤه سفينا

أما السلف الصالح فقد اتخذوا من القرآن الكريم والسنة النبوية منهجاً لهم يسيرون عليه في حياتهم الزوجية، لذا فإنهم سادوا العالم، وفتحوا الدنيا، وآثروا العلوم بمعارفهم.

● الأساس السابع ـ الزواج من الغرائب:

من الطريف أن العرب والمسلمين ـ كانوا قبل أن يكتشف الطب مضارَّ الزواج من الأقارب ـ يرغبون ويستحِبُّون أن يتزوجوا من الغرائب، ويرون أن ذلك أنجب للولد، وأقوى للبدن، وأبهى للخلقة.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبني السائب ـ وقد اعتادوا أن يتزوجوا بقريباتهم ـ: «قد ضويتم[2] فانكحوا من الغرائب».

فالزواج من الغرائب يغذي النسل بطبائع، وغرائز، وأذواق يزداد بها قوة وحسناً، ولعله إن صح التعبير والقياس أن نقول: إن التزوج من الغرائب يشبه تطعيم نوع من أشجار الفاكهة بنوع آخر يزيده بركة وجودة وجمالاً وحلاوة.

ومن الواضح في تاريخ العرب أنهم كانوا يجرون على نظام الزواج من العشيرة، ومن غير العشيرة، لكنهم كانوا ـ على الأعمِّ والأغلب ـ يؤثرون الاغتراب، لأنهم يرون أن ولد القريبة يجيء ضعيفاً نحيفاً ذا علة ومرض، وقد ورد في آثارهم ما يشير إلى ذلك.

ففي أمثالهم المشهورة قولهم: النزائع لا القرائب. والنزيعة: الغريبة، لأن الغريبة أنجب. وقيل: اغتربوا لا تضوَوْا، يعني: تزوجوا في الأباعد حتى

---

(١) العمدة لابن رشيق (١/ ٣٧).

(٢) يعني: ضعفتُم وهزلتُم.

لا يولد لكم ولد ضعيف. قال شاعرهم:

فتىً لم تلدْهُ بنت عمٍّ قريبة ... فيضوى وقد يضوى رديدُ الأقارب
تعلّم من أعمامهِ البأسَ والنّدى ... وورّثه الأخوالُ حُسْنَ التجارب
هو ابنُ غريبات النساء وإنّما ... ذوو الشأن أبناء النساء الغرائب[1]

وقال آخر في تخيره زوجة غريبة:

تخيّرتُها للنّسل وهي غريبةٌ ... فجاءتْ به كالبدرِ خرقاً معمّما[2]

ولعل السبب الذي زيّن للعرب أن يغتربوا هو عقيدتهم بأن الاغتراب يقوّي النسل جسمياً وعقلياً، يقول الجاحظ: «ورأينا الخلاسيَّ[3] من الناس، أنه يخرج أعظم من أبويه، وأقوى من أصليه ومثمريه»[4].

قد دلل على صواب ذلك أبو حيان التوحيدي بأن تراب الأرض إذا حُوّل وقُلّب زكت الزروع، فإذا كان الاغتراب يؤثّر من التراب إلى التراب، فالأولى أن يؤثر الإنسان في الإنسان بالاغتراب، لأن الإنسان أيضاً من تراب[5].

ويأتي العلم الحديث، ويعزز علماء الوراثة ما عرفه العرب والسلف بالتجربة، ذلك بأن الوراثة في رأي كثير من العلماء أعظم مؤثر في الحياة، حيث إن كل كائن حي نتاج أبوين.

يقول العالم (منتاني) في هذا المجال: «يا لها من قوة خطيرة، تلك القطرة المنوية الدقيقة التي نتكون منها، فتنقل إلينا صفات آبائنا الجسمية، وأفكارهم وميولهم»[6].

وليس من شكٍّ بين العلماء في انتقال الصفات الجسدية بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد؛ فإذا تزوَّج اثنان أحدهما أبيض الشعر، والآخر أحمر الشعر مثلاً،

---

(١) مجمع الأمثال (١/ ٢٧٠)، ولسان العرب (١٩/ ١٢٥).
(٢) البيان والتبيين (٣/ ٦٨)، ومعنى خرق: كريم. ومعمم: سيد.
(٣) الخلاسي: هو الذي يتخلق بين الحبشي والبيضاء.
(٤) الحيوان (١/ ١٥٧).
(٥) الإمتاع والمؤانسة (١/ ٥٩).
(٦) المرأة في الشعر الجاهلي (ص ١٦٢ ـ ١٦٣).

نَسَلا وليداً كُميتَ الشعر. وإذا تزوج من هذا النسل اثنان نسلا واحداً أحمر الشعر واثنين كميتين وواحداً أبيض، أي أن اثنين نزعا إلى الجدّين، واثنين نزعا إلى الأبوين.

وقد انتهى (مَنْدِل) من بحوثه وتجاربه العديدة إلى أن كلاًّ من الأبوين يمنح الطفل خلاياه، وأن خلاياهما تصطحب في طفلهما اصطحاباً متقارناً، وما الطفل والكائن الحي إلا نتاج مزدوج من عناصر الحياة في الأب والأم[1].

وكثير من العلماء يشيرون إلى أن الصفات العقلية والخلقية تورث أيضاً، سواء منها الصالح أو الطالح، كالذكاء والحلم والكرم والورع، كالجنون والعَتَه والجبن والخجل المفرط، والميل إلى سوء الأخلاق أو الانتحار.

إذاً، فقد كان السلف والأولون على صواب في إيثارهم الاغتراب في الزواج. يقول العالم النفسي (إلدن مور): «يجب على الرجل أن يحذر حين يتزوج ابنة عمه، أو ابنة عمته، أو ابنة خاله، أو ابنة خالته؛ لأن هذا الزواج الداخلي قد يسبِّبُ ضعفاً في الجسم أو العقل، أو يجرُّ بعض الأمراض كالسلّ وغيره، والسبب الذي يوجب الحذر في الزواج أنه إذا كان الزوجان جيدي الصحة والعقل كان النسل مثلهما، وإذا كانا ضعيفي الجسم أو غبيين، أو بهما نقص ما نَسَلا أولاداً ضعافاً أو مُخْدَجين»[2].

* * *

---

(١) المرأة في الشعر الجاهلي (١٦٢ ـ ١٦٣) بتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق نفسه (ص ١٦٣).

الفصل السادس

هل يجوز النظر إلى المخطوبة ؟

إن من صفات المرأة ما لا يُعرف على حقيقته إلا بالنَّظَر إليها وهو جمالها وسماتها الخَلْقية التي تنمّ في الكثير عن بعض صفاتها الخُلُقية، والجمال أمر نسبي يختلف باختلاف أذواق الناس وميولهم، ولهذا أباح الشّارع للرّجل، بل حثّه ـ على أن ينظر بنفسه ويكرر النّظر إلى من يريد التّزوج بها ـ فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة فقال له النبي ﷺ: «انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكم» ، فإنه أدعى إلى أن يبارك بينكما، فتجتمعا على وفاق وخير وتتعاونا على ما فيه صلاح لأمركما.

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»، قال جابر: فخطبت جارية، فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوّجتها[1].

وقد اختلف العلماء فيما يباح النظر إليه من المخطوبة: فقيل: ينظر إلى الوجه والكفين فقط، ليستدلّ بالوجه على مقدار جمالها، وبالكفين على مقدار لين البدن ورخاصته.

وقيل: ينظر إلى مواضع اللّحم منها، كالذراعين، والسّاقين.

وقيل: ينظر إلى ما تتيحه الفرصة له من أجزاء بدنها.

والحديث مطلق يبيح للمرء أن ينظر إلى ما يتهيأ له مما يدعوه إلى التزوج

---

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم (١٤١٧٦) ، وأبو داود برقم (٢٠٨٢)، والحاكم (٥/ ١٦٥) وغيرهم.

بها، ويدل ما فعل جابر على أن رضا المرأة ليس شرطاً في إباحة النّظر إليها.

ويرى الشافعي رضي الله عنه أن تكون رؤية المخطوبة قبل خطبتها، فإن رأى منها ما يدعوه إلى نكاحها خطبها، وإلا أعرض عنها من غير إيذاءٍ لها أو لذويها، وأكثر الناس الآن يفعل ذلك، وهو أقرب إلى الخلق الكريم.

ومن صفات المرأة ما لا يعرف إلا بالبحث والتحرِّي، كطيب أرواقها، وحسن خلقها، وتمسُّكِها بدينها، وبكارتها، واستعدادها للولادة، ويعرف هذا بمعرفة أهلها وما استفاض من الأخبار عنها؛ ولهذا استحبَّ كثيرٌ من العلماء أن تكون المرأة من بيئة طيبة، وأسرة عادات نسائها صالحة، «فإن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وعادات القوم ورسومهم غالبة عليهم بمنزلة الأمر المجبول عليه»[1].

إن حياةَ الرجل مبنيةٌ على البروز والظهور بالسعي للعمل، والتّردد على الأماكن العامة والجماعات المختلفة، فيسهل على المرأة أن تراه، ويسهل عليها وعلى ذويها بالسؤال عنه ـ كما يسهل عليهم بمخالطته ـ أن يعرفوا من صفاته الـخَلقية والـخُلقية ومن منهجه في الحياة ـ ما يصلح أساساً لقبوله أو رفضه ـ ولا يزال الناس يعتمدون على هذا في اختيار من يزوّجونه نساءهم.

أما المرأة فحياتها في الكثير مبنية على الستر والقرار في البيت، وتعمُّد النظر عليها محرّم، وقد يُعرف الإقدام على تعرف شأن من شؤونها أو على تعمد رؤية ما جرت العادة بستره من بدنها ـ عدواناً على الشرف وانتهاكاً للحرمة، فما السبيل إلى معرفة حالها؟

من المفروض أن يكون ولي الزوجة على قدر كبير من الوعي والثقافة الإسلامية، فعليه أن يخبر الرجل الخاطب بحال المخطوبة من جميع الوجوه، ويذكر له مما فيها من المحاسن، وما فيها من المساوئ، حتى يكون الخاطب والمخطوبة على بيّنة من أمرهما، وحتى لا ينفصم حبل الزواج والحياة الأسرية بعد الارتباط، لأن كل شيء سيظهر ويبدو، وأن الحقيقة لا تخفى، وسيبدو

---

(١) حجة اللغة البالغة للدهلوي.

الصبح لكل ذي عينين، وستكون النتيجة سيئة إن لم تتَّسِمْ المعاملة من البداية بطابع الوضوح والصراحة والصدق.

ولعل هذا المبدأ الإسلامي الصحيح والصريح، لا يوجد إلا عند القلّة النادرة في هذه الأيام؛ ممن يعرفون الحياة الزوجية الإسلامية، ويقدرون كلمة وعلاقة الزواج، ويدركون الأهمية الكبرى لهذه الرابطة المقدسة الوثيقة الممهورة بشرع الله وسنته وسنة نبيه الكريم ﷺ.

ومن المؤسف حقاً أننا نجد أن بعضاً من الناس يرى بأن هذه الحقيقة الإسلامية إنما هي صفقة من صفقات البيع والشراء التي اعتاد بعضهم أن يستعمل خلالها أنواعاً وأشكالاً وألواناً من الحِيَل والمكر، ومن لا يهمه ما يحدث بعد ذلك من مشكلات وأمور تقضُّ المضاجع ولا يحمد عقباها.

ولهذا يجب أن تكون الأمور واضحة المعالم منذ البداية، لتكون الأمور سليمة حتى النهاية.

ومن الواجب علينا أن نذكره هنا بأن هناك شروط للنظر إلى المرأة التي يريد الرجل الزواج منها، ولا يسمح الشرع لأي رجل أن ينظر إلى النساء إذ إن هذا الأمر مقيّد بشروط ذكرتها مصادر العلم وبيّنها العلماء والفقهاء؛ وهي:

١ـ أن يقصد الرجل الخاطب النكاح وإنشاء حياة زوجية ضمن حدود الشريعة الإسلامية، فلو لم يكن قاصداً نكاحها لم يَجُزْ له أن ينظر إليها.

٢ ـ أن يحصل عنده رجاءٌ ظاهرٌ في إجابة المرأة أو وليها لهذه الخطبة.

٣ ـ أن يكون عالماً بخلوِّها عن الزواج بآخر، وبخلوِّها من عدة تحرم التعريض بالخطبة[١].

أما الموضع الذي يجوز أن ينظر الخاطب إليه، فقد أشرتُ إليه في أول هذا الفصل، وهو بعامة ما يظهر عادة من المرأة من مثل: رأسها، ورقبتها، وكفيها

---

(١) انظر: عقدة الزواج (ص ٨٢) بتصرف للدكتور محمد رأفت عثمان ـ الكتاب الجامعي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٧٧ م.

وقدميها، ونحو ذلك، وهناك أدلة كثيرة، جاء بعضها في القرآن الكريم وبعضها في السنة النبوية.

ومما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

قال الشَّوْكاني ما ملخصه: «ولا يبدين زينتهن: أي: ما يتزين به من الحلية وغيرها، وفي النهي عن إبداء الزينة نهي عن إبداء مواضعها من أبدانهن بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهي فقال: إلا ما ظهر منها. واختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو؟ فقالوا: الثياب، أو الوجه، والكفّان، وقال بعضهم: الكحل والسواك والخضاب إلى نصف الساق ونحو ذلك فإنه يجوز للمرأة أن تبديه. وقال ابن عطية: إن المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة، وتخفي كل شيء من زينتها، ووقع الاستثناء فيها فيما يظهر منها بحكم الضرورة، ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب، والخِمار، ونحوهما مما على الكف، والقدمين من الحلية ونحوها، وإن كان النهي عن إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها»[١].

ويأتي القرطبي فيوضح مفهوم النظر بشكل جميل فيقول ما مفاده: «أمر الله سبحانه وتعالى النساء بألاّ يبدين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية حذاراً من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزينة... ولمراعاة فساد الناس فلا تبدي المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفَّيْها. وقال أحد علمائنا: إن المرأة إذا كانت جميلة وخِيف من وجهها وكفّيها الفتنة فعليها ستر ذلك؛ وإن كانت عجوزاً أو مقبّحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها»[٢].

ويوضح القرطبي الزينة ومعناها فيقول: «الزينة على قسمين: خِلْقيّة ومُكتَسبة؛ فالخلقية: وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة.

والمكتسبة: فهي ما تحاول المرأة في تحسين خِلقتها، كالثياب والحلي

---

(١) فتح القدير (ص ١٠١٠) بتصرف.
(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١٥٢) باختصار.

والكُحل والخِضاب، ومنه قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال الشاعر:

يـأخـذنَ زينتهـنّ أحسـنَ مـا تـرى ... وإذا عَطِلْـنَ فهـنّ خيرُ عـواطـلِ

ومن الزينة ظاهر وباطن، فما ظهر فمباح أبداً لكل الناس من المحارم والأجانب... وأما ما بطَن فلا يحلُّ إبداؤه إلا لمن سمّاهم الله تعالى في هذه الآية أو حلّ محَلّهُم؛ واختُلِف في السِّوار، فقالت عائشة: هي من الزينة الظاهرة لأنها في اليدين. وقال مجاهد: هي من الزينة الباطنة، لأنها خارج عن الكفين، وإنما تكون في الذراع، وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين»[1].

إن النظر في الأصل محرم من الرجل إلى المرأة الأجنبية، ولكنه قد أُبيح للحاجة، فوجب أن يختصَّ بما تدعو الحاجة إليه، وما تدعو الحاجة إليه هو ما يظهر من المرأة في العادة، ومن أمثلة ذلك نظر الطبيب إلى المرأة من أجل العلاج والمداواة، ويكون بحضور ذي محرم أو زوج.

والمرأةُ التي يراد زواجها أَذِن الشارع في النظر إليها كما ينظر إلى ذوات محارمه، وهو يجوز له أن ينظر من ذوات محارمه إلى ما يظهر غالباً كالرقبة والرأس والكفين ونحو ذلك.

ولكن هناك فئة من الناس يمتنعون عن إتاحة الفرصة للخاطب ليرى مخطوبته؛ وهم الذين يساعدون في فتح أبواب المشكلات على مصراعيها، ويجعلون من الحياة الزوجية مسرحاً للتجارب.

«ومن العجب أن أكثر الذين يمانعون في رؤية المخطوبة، هم الذين يتمسكون بالشعائر الدينية، ويحافظون على التقاليد الكريمة، فمن أين جاؤوا بهذه الفكرة...»؟[2].

إن حكم الإسلام واضح وصريح في هذا المجال، وهو يبيح للخاطب أن

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ١٥٢ و١٥٣) بتصرف يسير.

(٢) انظر: الزواج والمهور (ص ٢٣) لعبد العزيز المسند.

يرى من مخطوبته ما يدعوه إلى زواجها، وهذه منقبة من مناقب الإسلام، وفضيلة من فضائله، وذلك كي يطمئن الخاطب إلى عملية الخطبة، فالعين رسول القلب تترجم له، وتوصل إليه ما يهمه، فإذا ما اطمأن قلبه وسكنت نفسه، أقدم على الخطبة، وإذا أصابه فتور أو ضجر أو ضيق نفس، أقلع وامتنع، وهذا خير للزوج والزوجة أو الخاطب والمخطوبة، والرجوع من أول الطريق خير من التعثر فيه والتمادي في الباطل والخداع والأوهام التي تجعل الانفصال هو الحل الأكيد.

غير أننا قد نُفاجَأ ببعض الناس ممن يفهمون الغيرة خطأً يقولون: كيف نترك بناتنا وأعراضنا للرجال يرونهم متى أرادوا، وهم أجانب، فهل يجوز أن ينظروا إلى محارمنا؟! نحن لن نمكِّنَ أحداً من هؤلاء من النظر إلى محارمنا؟!!

وباختصار شديد نقول لهؤلاء: الإسلام لا يدعو إلى إتاحة الفرصة لكلِّ من سوَّلت له نفسه أن يطلع على بنات الناس ونسائهم... بل إنه دعا إلى الرؤية الشرعية التي تضمن المصلحة العامة لها وللرجل، وتحفظ لها كرامتها ومكانتها، كما أسلفنا قبل قليل.

إن من يتبع هدي القرآن والسنة يجد الراحة والطمأنينة في نفسه، ويمسك بأطراف السعادة والسرور إذا ما أراد بناء حياة زوجية قائمة على الودِّ والوِداد والحب ومرضاة الله.

* * *

الفصل السابع

الخِطبة وبعض ما يتعلّق بها

الخطبة هي الخطوة التي تلي التعرف على المرأة والاطمئنان إلى التزوُّج بها، ويقال: خطب الرجلِ كنصر، خُطبة بالضم وخَطابة بالفتح ـ إذا وجه إلى جمع من الناس كلاماً يعظُهم به أو يبيّن لهم أمراً من الأمور، والكلام المقول يسمى خُطبة بالضم، وذلك مما يستحب أن يقدمه الخاطب والعاقد بين يدي الخطبة وبين يدي عقد الزّواج، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: عَلّمنا رسول الله ﷺ خُطبة الحاجة في النكاح وغيره: «إنّ الحمدَ لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾»[1].

ويقال: خطب الرجل المرأة ـ كنصر أيضاً، بفتح الخاء وضمها، وخِطبة بكسرها ـ إذا طلبها ليتزوّجها، ويسمى الرجل الخاطب خِطباً بالكسر وتسمى المرأة المخطوبة خطباً بالكسر أيضاً، وخطبة بالكسر والضم وخطبة المرأة قد تكون بلفظ صريح، كأن يقول لها: أريد أن أتزوّجك.

---

(١) سبل السلام (٣/ ١٥)، والحديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة.

وقد تكون بالتعريض، بأن يقول كلاماً يحتمل الخطبة وغيرها وقرائن الحال ترجح حمله عليها، كأن يقول لها: ليت لي امرأة صالحة مثلك ، لا تسبقيني بنفسك، إنك لتعرفين منـزلتي بين الناس.

ومن حوادث التعريض بالخطبة ما روي أن سكينة بنت حنظلة قالت: استأذن عليّ محمد بن علي بن الحسين، ولم تنقضِ عدتي من مُهْلَك زوجي فقال: قد عرفت قرابتي من رسول الله ﷺ وقرابتي من علي وموضعي في العرب، قالت: فقلت له: غفر الله لك يا أبا جعفر إنك رجل يؤخذ عنك، وتخطبني في عدتي؟ فقال: إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ ومن عليّ[1].

إذاً فالخِطبة[2] هي الخطوة الحاسمة، والقول والعمل الذي يسبق العقد، والخطبة أيضاً هي الإرادة التي يريدها الرجل قبل أن يفكر في العقد وشروطه، وهي التي يكون الخاطب مطمئناً لصحة وسلامة الاختيار الذي لملم أطرافه وشاهد ونظر وسأل، وبالتالي حتى لا يكون هناك أي احتمال في تراجعه بعد الخطبة عما عقد العزم عليه، حيث إن في ذلك أذية بالغة للفتاة التي يخطبها، وجرح غائر لشعورها وكرامتها، وهذه التصرفات الرَّعْناء لا يرضى عنها الإسلام، بل ولا ترضاها الأذواق السليمة والآداب الاجتماعية والأعراف.

ولما كان الهدف الأساسي من إنشاء الحياة الزوجية هو دعم صرح المجتمع الأساسي من إنشاء الحياة الزوجية ، هو دعم صرح المجتمع الكبير كيما يزداد منعةً وقوة، فقد أوجب الإسلام أن يكون الطريق إلى ذلك طريقاً مشروعاً لا عدوان ولا تعدي ولا ظلم فيه، وأن يكون طريقاً مستقيماً ذا خطٍّ واضح لا عوج فيه ولا أمْتاً[3] ولا التواء.

ومن ذلك كله ينبغي على الخاطب بادئ ذي بدء أن يتخيَّر الموضع والبيت

---

(١) انظر فقه السنة (٢/ ٢٦) طبعة دار الكتاب العربي - بيروت - ط٧ - ١٩٨٥ م.

(٢) الخطبة: سنّة قديمة أقرها الإسلام، ووكل أمرها لعرف الناس وعاداتهم، وهي مقدمة من مقدمات الزواج وسبيل إليه.

(٣) أمتاً: مستوٍ لا ترى فيه ميلاً عن الاستواء، فلا انخفاض ولا ارتفاع، وهذه الكلمة مقتبسة من قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

المناسب لخطبته، البيت الإسلامي الذي أُسِّس على التقوى والعلم والعمل، والذي يُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ، ومن ثم تتحقق فيه الأهداف الإيمانية من تأكيد الأخوة وتوثيقها، وأن يبتعد عن مواطن الأحقاد والأذى، لأنه يؤذي نفسه ويفرِّط في حدود ربه.

وإذا تمَّ الأمر واتفق الفريقان على إتمام عقد الزواج، فإن الاتفاقَ ملزمٌ للطرفين، وإن المواعدة واجبة الوفاء، بل هي عند الأتقياء كل شيء، وإن كان الشكل القانوني مُمثّلاً في عقد الزواج.

غير أن الحزم والاحتياط في زماننا هذا واجب، حيث تغيَّرت كثير من التقاليد، وتبدلت العادات، وانبثقت فتن تجعل الحليم حيران، وأصبح من الضروري على العاقل المؤمن أن يتقي الشبهات، وأن يأخذ بالدين فلا يفرّط ولا يتجاوز الحدَّ، ولا يخلو الخاطب بالمخطوبة لأنّ لها مضاراً لا تُحمد عقباها. ولكن كيف يتعرف الخاطب المخطوبة؟

لا مانع من جلوس الرجل إلى مَنْ يريد خطبتها وتبادل الحديث معها مع وجود محرم من محارمها، أمّا الخلوةُ بها فقد نهى الدِّين عنها، ولم يُبِحْها لغير زوجين أو محرمين. فقد روي عن النبي ﷺأنه قال: «لا يخلونّ أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم»[1]. وقال: «لا يخلونّ رجل بامرأة لا تحلّ له، فإنّ ثالثهما الشيطان»[2].

وانفراده بها في زيارة للأقارب أو ارتياد لدور اللهو قصداً إلى تمكين التعارف بينهما ـ كما يقال ـ هو مفتاح الخلوة المحرمة، ولا يزال الناس والحمد لله مَنْ يمنعه حرصه على شرفه وشرفِ أسرته من السماح بمثل هذا الانفراد بابنته أو أخته أو من يلي أمرها من أقاربه، وإنما حُرم هذا شرعاً لأنه:

١ ـ لا يأتي بالغرضِ المقصود منه، لأن كلاً من الخاطب والمخطوبة يحاول

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٦ و٣/ ٤٢٦).

استرضاء الآخر، فيُبدي له من الصفات ما ليس فيه ويرائيه بما ليس له؛ ولهذا يقال: «كلُّ خاطبٍ كاذبٌ».

٢ ـ لا تُؤمن مغبّته، لأنهما يخلوان وفيهما غريزة بشرية قد يضعُفان عن مقاومتها عند إلحاحها في طلب ما تقتضيه، فهما في مقتبل العمر وعنفوان الشباب وقد يُغريهما بقضاء الوطر ويهوّنه على أنفسهما ما يعتزمان من الزواج؛ فكيف تكون الحال إذا قضى الخاطب وطره ثم تغيّر رأيه في المخطوبة فانصرف عنها؟!!

الحوادث المستفيضة في زمننا تجيب عن هذا السؤال، فما أعدل طريقة الإسلام وما أليقها بمن ينشُد الكمال ويهتمّ بالمحافظة على الشرف من بني الإنسان، فلا الزواج الأعمى بامرأة لا يعرفُ من أمرها شيئاً، ولا الخلوة الـمُطْلَقة التي لا تجني ثمرتها ولا تُؤمن مغبّتها.

٣ ـ إذا أخِذَ الأمر بنيّة حسنةٍ وزَهِدَ الخاطب بالمخطوبة، ثم عدل عن خطبتها، وهنا يقع القيل ويكثر القال، وتنتشر الإشاعة بين الناس انتشار النار في الهشيم، وبالتالي يعيِّرُ الناس أيضاً المخطوبة، ويضعون حولها علامات استفهام وتعجُّب وفواصل ونقاط وما شابه ذلك، وكل هذا ناتج عن المخالفات الشرعية التي جاء بها الدين الحنيف الخالص لسعادة الناس وإسعادهم في حياتهم الزوجية.

ولا بد لي هنا ـ ونحن في معرض الحديث عن الخلوة بالمخطوبة ـ من الإشارة إلى المصائب التي وردت إلينا ووصلت إلى بيوتنا ومجتمعاتنا عن طرائق شتى، وطرائق قِدَداً، وسكنت في داخلنا حتى غدت كأنها من صنعنا وإنتاجنا وعاداتنا.

هذه المصائب التي داهمتنا هي العادات المستوردة من المجتمعات الفاشلة، ومنها عادة الاختلاط المحرّمة قبل عقد الزواج، وذلك بقصد التجربة والاختبار كما يزعمون، وباسم التّمدُيُن الخلاب الذي غزانا في صميم أخلاقنا وسلوكنا، وغدونا كالغراب لا نعرف المشية الصحيحة من المشية الأصيلة السليمة.

لقد صار كثيرون ممن استغربوا وتفرنجوا يرون أن الاختلاط بين الخاطب والمخطوبة والذهاب هنا وهناك ويُمنةً ويُسْرةً هو من الحضارة والعزوف عن التقاليد المهترئة البالية، إذ إن التعصب ـ كما يزعمون ـ تخلّفٌ في عصر الذرة والإنترنت والفضائيات؛ ـ بل والفوضويّات ـ !!!

وراح هؤلاء باسم المدنية الزائفة المعطَّرة بالأوهام والأحلام يتركون بناتهم المخطوبات يَجُبْنَ الشوارع والمنتديات وهنَّ يتأبطن الخطيب الحبيب !! ونسي هؤلاء أو تناسوا في زحمة الحضارة والمدنية أنهم أشعلوا النار بأيديهم، وأنهم قدموا الفريسة الوديعة للوحش الضاري والأطلس[1] العسّال.. ومتى كان الأطلس العسال صاحباً وأميناً ؟!!

«ولا تسل عن الفضائح والمخازي التي نجمت ولا تزال تسوِّدُ أكثر الصحف كل يوم من الاختلاط الآثم... وهتك العِرض، حتى صار عادة لا يتمعّرُ لها وجه، ولا يندى لها جبين... وبعد أن يمتصَّ الثعبان رحيق متعته ويملَّ منها، يهجر هذه تحت أي عيب يُلصقُه، ويُحَمّلها من أجله عاراً وخزياً، وربما تكون آثار الجريمة قد رسمت لوحاتها على شخصيتها.

وينطلق هذا المتحضِّر الزائف الخبيث ليبحث عن فريسة أخرى، وتكون هذه كسابقتها، فيتركها، ويظلُّ يفعل هذا وهذا باسم المدنية حتى تشيع الفاحشة، ومن ثم يبور سوق الزواج، وتنهدم أسوار الحياة الزوجية، كل هذا باسم الحضارة الملعونة المجلوبة... ومع كل هذه المخازي يزعم الجهلة والغفلة أن هذا الأمر طبيعي، لأن ما يجري بين الخاطب والمخطوبة، إنما هو من باب الفهم لطبائع بعضهما، وأنه تجربة واختبار، وأنّه، وأنّه، وأنه، بَيْدَ أنه في واقع الحال دمار وانحدار إلى وادي المخازي، وتردٍّ إلى الحضيض، وسيكون بعد هذا الاختبار البراق الخادع، الشقاق والنـزاع بين الخطيبين...

إن الخاطب مهما كان أمره وفصله وحسبه ونسبه هو أجنبي بالنسبة للفتاة

---

(١) الأطلس: الذئب الضاري، قال الفرزدق يصف ذئباً:

وأطلسَ عسّال وما كان صاحباً ... دعوتُ بناري موهناً فأتاني

التي يرغب في خطبتها، وتحرم عليه الخلوة بها، فكيف بالإباحية وستائر الحضارة ؟ ومن ثم الوصول إلى درجة ما حرّم الله تعالى، فهذا هو العار والدمار، ولن يفلح الناس إلا بالعودة إلى منهاج الشريعة التي رسمت أسس الحياة الزوجية وشروط الزواج»[1].

ولكن هل يحقُّ للخاطب أن يعدل عن خطيبته؛ وما آثار ذلك؟

لا يقدم الخاطب على الخطبة في الكثير؛ إلا بعد أن يعرف من أمر المخطوبة ما يرجح لديه صلاحيتها زوجاً له، ولا مانع من إجراء العقد عقب الخطبة ويكون الإقدام على إتمامه حينئذٍ دليلاً على أنّ كلاًّ منهما قد عرف من أمر الآخر ما فيه الكفاية.

وأكثر الخطّاب الآن ينتظر بعد الخطبة فترة تطول أو تقصر، ليتعرف ما غاب عنه من شؤون الآخر حتى لا يقدم على العقد إلا بعد الاطمئنان إلى هذا الزواج، ففترة الانتظار هذه فسحة من الوقت لمزيد من المعرفة وإجالة الفكر في هذا المهم الخطير، حتى يبني العقد على أساس متين ولهذا لم تكن الخطبة ملزمة لأحد الطرفين، ولو كانت ملزمة لكانت هي العقد أو كان إجراء العقد بعدها لازماً، لا خيرة فيه للخاطب ولا للمخطوبة، وهذا ما لا يلائم خطر هذا العقد المتعلق بذات الإنسان، والنّاس جميعاً يعرفون هذا المعنى في الخطبة.

فإذا عدل الخاطب أو المخطوبة عن الخطبة فقد استعمل كلاًّ منهما حقَّه الشرعي ولم يسلب الآخر شيئاً من حقوقه، فلا يكون للآخر أنْ يدَّعي أنّ ضرراً لَحِقَه بسبب هذا العدول، وأن يطالب بالتعويض عن هذا الضرر.

غير أن الخطبة قد يقترن بها أو يلحقها تقديم بعض الهدايا من أحد الطرفين للآخر، كالذهب من الخاطب، أو قلم أو ساعة من المخطوبة، وقد يدفع الخاطب شيئاً من المهر استعجالاً لإعداد الجهاز، بناء على ما ترجّح عنده من قرب إتمام العقد وهو أمر متعارف بين الناس. وقد يعقب الخطبة بعض التصرفات التي يتضرر صاحبها بالعدول عن الخطبة، كما إذا كانت المخطوبة

---

(١) القول الصحيح في الزواج الإسلامي الصحيح (ص ٥٥ ـ ٥٧) بتصرف واختصار.

موظّفة فتركت وظيفتها، أو أعدّ الخاطب بيت الزوجية على وجه خاص أشارت به المخطوبة. فماذا يكون إذا رجع الخاطب عن الخطبة بعد شيء من ذلك؟

أحياناً قد يحدث بعد الخطبة ما يؤدي إلى العدول عنها، وفي هذه الحالة يجب شرعاً ردّ المهر[(١)] أو الذهب كاملاً، لأن المهر لا يستحق شيء منه قبل تمام العقد، فإذا كان ما دفعه موجوداً أخذه بعينه، وأما إذا كان هالكاً أو قد تُصرّفَ به أخذ مثله أو قيمته.

وأما الهدايا وما قدمه الخاطب منها، فحكمه عند أبي حنيفة حكم الهِبة، وخصوصاً ما كان مأكولاً أو مشروباً أو مستهلكاً، ولمن أهدى أن يرجع في هديته ما لم يكن هناك مانع من الرجوع فيها[(٢)].

فإذا كانت الهدية مثلاً ساعة أو خاتماً أو أساور أو أقراط، فإنها تُردّ إذا كان العدول من قبل المخطوبة، أما إذا كان العدول من قبل الخاطب، أو صادف أن مات، فلا تردّ الهدايا، فقد جاء في الحديث الصحيح وفي السنن أن النبي ﷺ قال من حديث جاء فيه: «. . فإن مثل العائد في صدقته، كمثل الكلب يعود في قيئه»[(٣)].

---

(١) المهر: هو المال الذي تستحقه الزوجة على زوجها بالعقد عليها، أو بالدخول بها حقيقة. (الفقه الإسلامي وأدلته ٧/ ٢٥١)؛ وحكمه: أنه يجب على الرجل دون المرأة. (فتح القدير ٣/ ٢٠٤). وأدلة وجوبه: القرآن والسنة والإجماع:
● القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وقال: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]، وقال: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥].
● السنة المطهرة: قال النبي ﷺ لمن أراد أن يتزوج: «التمس ولو خاتماً من حديد». رواه البخاري برقم (٥١٣٥)؛ وأبو داود برقم (٢١١١)، والترمذي برقم (١١١٤)، والنسائي (٦/ ١٢٣). وثبت عنه ﷺ أنه لم يخلُ زواج من مهر. (الفقه الإسلامي وأدلته ٧/ ٢٥٣).
● الإجماع: أجمع المسلمون على مشروعية الصداق في النكاح. (الفقه الإسلامي وأدلته ٧/ ٢٥٣). وحكمة المهر ووجوبه على الرجل، أنه إظهار لخطر هذا العقد ومكانته، وإعزاز للمرأة وإكرامها، وتقديم الدليل على بناء الحياة الزوجية الكريمة.

(٢) راجع حاشية ابن عابدين (٢/ ٣٧٤).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٦٢٠).

وأخرج مسلم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يرجع في صدقته، كمثل الكلب يقيء ثم يعود في قيئه فيأكله»(١).

ولذا فإذا خطب الرجل امرأة، ثم رضيت به زوجاً، وأعطته بذلك وعداً، فلا ينبغي أن يعدِلَ عنها إلى غيرها، ولا أن تعدِلَ عنه إلى غيره دون مبرِّر مقبول، لأن خلف الوعد من خصال المنافقين، وناهيك بها من خصلة يكرهها الله ورسوله.

وقد جاء ذمُّ المنافقين في القرآن والسنة، والآيات في ذلك كثيرة، ومن الأحاديث ما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَلّة منهن، كانت فيه خَلّة من نفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»(٢).

وروي أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لما حضرته الوفاة، قال: «انظروا فلاناً ـ لرجل من قريش ـ فإني قلت له في ابنتي قولاً كَشِبْه العِدَة ـ الوعد ـ، وما أحبّ أن ألقى الله بثلث النفاق، وأشهدكم أني قد زوجته». ويريد ابن عمر من ثلث النفاق: خلف الوعد.

فهل يليق بالمسلم العاقل أن يتقدم إلى امرأة مسلمة قد أعجبتْهُ في خلقها

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٦٢٢)، وقال النووي رحمه الله معلقاً على هذا الحديث ما مفاده: «هذا ظاهر في تحريم الرجوع في الهبة والصدقة بعد إقباضهما، وهو محمول على هبة الأجنبي، أما إذا وهب لولده، فله الرجوع فيه، ولا رجوع في هبة الإخوة والأعمام وغيرهم من ذوي الأرحام، هذا مذهب الشافعي، وبه قال مالك والأوزاعي». (المنهاج ص ١٢٣٥) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٦)؛ قال النووي رحمه الله: «إن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلِّق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام، فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يُرِد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار» (المنهاج ص ١٦٦).

ودينها، ثم تمضي الأيام فيعدل عنها لمجرد أنه رأى مَنْ هي أجمل منها، أو أكثر منها مالاً، إلى آخر هذه المظاهر البراقة الجذابة والمنافية للفضائل ؟!

وهل يليق بالمرأة أن تخيِّبَ ظنَّ الخاطب، وتخلف وعدها لمجرد أنها رأت غيره يفوقه مالاً وجمالاً ؟!

وما يدريك لعلّ الذي اختاره كل واحد منهما لنفسه أولاً يكون خيراً وبركة عليه، ألَمْ تسمع وتقرأ في قول الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ وقال: ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩].

قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إن الرجل ليستخير الله تعالى فيُخار له، فيسخط على ربّه عز وجل، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو خِيْرَ له»[(١)].

ولكن إذا كان هناك للعدول عن الخطبة مبرِّرٌ مقبول، وعُذْرٌ شرعي، وسبب معقول لا يضير، فلا مانع منه، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٣٠].

ومن الجدير بالذكر أنه لا يترتّب على مجرد العدول عن الخطبة أي حقوق أو عقوبات، لا سيما إذا لم يحدث ضَرراً أو ضِراراً.

والآن يتبادرُ سؤالٌ مفاده: مَن التي تباح خطبتها ؟ والجواب:

١ ـ أن لا يكون هناك مانع يمنع التزوّج بها في الحال، بأن تكون محرّمة عليه على التأبيد، كعمته وخالته، وأخته نسباً أو رضاعاً، وحينئذٍ تحرم عليه خطبتها أبداً، أو تكون محرمة عليه على التأقيت، كأخت امرأته وامرأة غيره، ومعتدته من طلاق أو فرقة، وحينئذٍ تحرم عليه خطبتها حتى يرتفع سبب الحرمة؛ ذلك لأن الخطبة وسيلة إلى الزواج، ومتى كان الزّواج حراماً كان ما هو وسيلة إليه كذلك.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٦٥).

وفي خطبة امرأة الغير ومعتدَّتِهِ عدوان على حق الغير، يثير عداوته وحقده وسوء ظنّه بامرأته وبمن يخطبها.

وفي خطبة المعتدة خاصة تحريض لها على الإقرار بانقضاء عدتها ـ متى تهيأ لها ذلك ـ لكيلا يفوتها الزواج بهذا الخاطب، وفي هذا حرمان الزّوج من حقه في الرجعة، إذا كان الطلاق رجعياً وتبين خطأه فيه، فأراد أن يعيدَ امرأته إليه.

وقد استُثني من هذا الشرط معتدةُ الوفاة بالنّص، فأبيحت خطبتها تعريضاً لا تصريحاً ـ وإن لم يصح التزوج بها في الحال ـ بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

والمراد بالنساء هنا معتدات الوفاة، لأن الكلام في شأنهن حيث قال تعالى: في الآية التي سبقتها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وإنما أبيحت خطبتها لانتفاء ما يحتمل من الكذب في العدة فإنّ عدتها تنتهي بوضع الحمل أو بأربعة أشهر وعشرة أيام، فلا تقبل النقص بالكذب ولأنها ليس لها زوج يتأذّى من خطبتها.

والمعتدة من طلاق بائن كالمعتدة من طلاق رجعي عند جمهور الفقهاء فلا تحلُّ خطبتها لا تصريحاً ولا تعريضاً، إلا المبانة بغير الثلاث كالمطلقة على مال، فإنه يحل لمطلقها دون غيره أن يخطبها تعريضاً أو تصريحاً.

ويرى الشافعي رضي الله عنه أنَّ المعتدة من طلقة ثالثة تصح خطبتها تعريضاً لا تصريحاً، قياساً على المتوفى عنها، لأن الزّوجية في كل منهم قد انقطعت إلى غير رجعة، وألحق بها بعض الشافعية المبانة[1] بغير الثلاث، فأجازوا خطبتها تعريضاً لا تصريحاً.

٢ ـ ألا تكون مخطوبة لغيره، لما روى ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله، أو يأذن له»[1].

---

(١) الطلاق إما رجعي، وإما بائن، والبائن إما أن يكون بائناً بينونة صغرى، أو بينونة كبرى. وسمي رجعياً لأن للزوج بعده حق المراجعة ما دامت في العدة. =

وإنما حرمت الخطبة على الخطبة لما فيها من إيذاء للخاطب الأول، ولما قد تؤدِّي إليه من بُغْضٍ وشِقاق.

والحديثُ والعقل يدلان على حرمةِ الخطبة الثانية سواء أجيب الخاطب الأول بالقبول، أم كانت المسألة لا تزال في دور التريّث وإجالة الفكر والمشاورة، فإذا رفض الخاطب الأول، أو عدل أو أذن للخاطب الثاني جاز للثاني أن يخطب[1].



= وسمي بائناً لأن المرأة تبين من زوجها، أي تبتعد عنه، ولا تكون له عليها حق المراجعة، فالبين في اللغة من معانيه: البعد والفراق.
ولكل من الطلاق الرجعي والبائن أحكام تخصّه تكفلت بها كتب الفقه.

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤١٢)؛ إذا خطب رجل امرأة ورضيت به زوجاً، وأخذ بذلك منها وعداً، فلا يحل لرجل آخر أن يخطبها لنفسه، لما في ذلك من الاعتداء على حق الخاطب الأول، والإساءة إليه، وقد ينجم عن هذا التصرف الشقاق بين الأسر، واشتعال نار العداوة بين الخاطب الأول والثاني، ولا يجهلن أحد ما تفعله الغيرة في نفوس الناس، وما يجره الحقد من ويلات.
أما إذا لم تصرّح له المرأة، أو وليها بالرضا، أو لم يعلم الخاطب الثاني بخطبة الأول، فلا حرج أن يتقدم لخطبتها.
والمطلوب من المخطوبة أو من وليها، الوفاء بالوعد، فإذا رضيت المرأة بالخاطب الأول، وركنت إليه، واطمأنت نفسها له، فلتمضِ في إتمام العقد على بركة الله.

الفصل الثامن

عقد الزواج

ورد استعمال كلمة العقد في اللغة العربية بعدَّة معانٍ، منها: الإمساك، والتوثيق، ومن ذلك لفظ: العقدة، فإن العرب قد أطلقته على ما يمسك الحبل ويوثقه.

ومن معاني كلمة العقد أيضاً العهد، ومن ذلك قولهم: عاقدت فلاناً على كذا، وعقدته عليه، ومعناه عاهدته.

وتجيء أيضاً بمعنى الإحكام والإبرام، ومن هذا القبيل قولهم: عقدة النكاح، أي إحكامه وإبرامه[1].

وقد أطال ابن منظور في الحديث عن مادة «عقد»، فكان مما قاله: «العقد: نقيض الحلّ... والمعاقِد: مواضع العَقْد؛ ومنه عُقْدة النكاح، وانعقد عقد الحبل انعقاداً... وعقد العهد واليمين يعقدهما عقداً، وعقّدهما: أكدهما. قال أبو زيد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ معناه: التوكيد والتغليظ. والـمُعاقدة: المعاهدة، والميثاق، والأيْمان: جمع يمين القَسم أو اليد. والعقد: العهد، والجمع عقود، وهي أوكد العهود. ويقال: عَهِدتُ إلى فلان في كذا وكذا، وتأويله ألزمته ذلك. وعاقَده: عاهده؛ وتعاقد القوم: تعاهدوا. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ قيل: هي العهود، وقيل هي الفرائض التي أُلزِموها؛ خاطبَ الله المؤمنين بالوفاء بالعقود التي عقدها الله تعالى عليهم، والعقود التي يعقدها بعضهم على بعض على ما يوجبه الدين.

---

(١) انظر المصباح المنير للفيومي، باب العين والقاف والدال ـ طبعة مصورة.

والعَقْد: إملاك المرأة، كما قيل: عقد النكاح، وانعقد النكاح بين الزوجين، وعقدة كل شيء: إبرامه...»[1].

ومن الجدير بالذكر أن العقد والوعد والعهد صفة من صفات المؤمنين إن التزموها ووفوها، لأن الله تعالى أمر بالوفاء بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ذلك الازدواج البشري الذي دعت إليه الفطرة، وحثَّ عليه الدين وتعلقت به مصالح الناس آحاداً وجماعات ولا ينبغي في الإسلام أن يكون لَهْواً عارضاً ولا مصاحبة طليقةً لا تقوم على أساس، ولا ترتبطُ برباط بل لا بد أنْ يكونَ وَليدَ اتفاق يرضى فيه الزّوجان بالاقتران الدائم، ويتعاهدان على أداء ما فرض الله عليهما فيه من حقوق، فهذا الاتفاق هو عقد الزواج.

فالعقد[2] هو اتفاق يقصد به حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر، وائتناسه به طلباً للنسل على الوجه المشروع. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

أما ركنه فهو تصرف من التصرفات الشرعية ـ هو جزؤه الذي لا يتحقق وجوده إلا به ـ وذلك صيغة العقد التي يتم بها التعاقد، ومحل العقد، وعلى هذا يكون ركن الزواج الشرعي هو صيغة العقد والزّوجان، ولما كان وجود الصيغة شرعاً يقتضي وجود الزوجين اقتصر أكثر الفقهاء في عدِّ أركان الزواج على الصيغة.

وتتألف صيغة عقد الزواج ـ كما تتألف صيغ كل العقود ـ من الإيجاب والقبول.

---

(١) لسان العرب (٣/ ٢٩٥ ـ ٣٠٠) باختصار وانتقاء.

(٢) وعرفه بعض العلماء بقوله: «ارتباط إيجاب بقبول على وجه مشروع يثبت أثره في محله». (المدخل الفقهي العام لمصطفى الزرقاء ٢٩١٨).

فالإيجاب عبارة تصدر أولاً من أحد المتعاقدين يريد بها إنشاء الارتباط وإيجاده، والقبول عبارة تصدر من العاقد الثاني يريد بها الموافقة على ذلك وباجتماع الإرادتَيْن على إيجاد المعنى المقصود يتحقَّقُ العقد[1].

والكثير أن يقع العقد من شخصين، وقد يقع من شخص واحد تقوم عبارته مقام العبارتين إذا كان له شرعاً حَقُّ تمثيل الطرفين، كأن يكون وليّاً على الزوجين، أو وكيلاً عنهما، أو ولياً على أحدهم ووكيلاً عن الآخر أو أصيلاً من جانب ووليأ أو وكيلاً من الجانب الآخر.

فإذا تولى طرفي العقد واحد ليس له حق تمثل الطرفين ـ بأن كان فضولياً من الجانبين أو من أحدهما ـ كان عقده لغواً عند الطرفين وموقوفاً عند أبي يوسف[2].

وذهب الشافعي وزُفَر من الحنفية إلى أنّ عقد الزواج ـ ككل العقود ـ لا يصحّ أن يتولّى طرفَيْه واحدٌ، ولو لم يكن فُضوليّاً، لأنّ العقدَ يُوجب لكل من الطرفين حقوقاً تخالف ما يوجب للآخر، كما في عقد البيع مثلاً فإنه يوجب على المشتري دفع الثمن للبائع، ويوجب على البائع تسليم المبيع للمشتري والواحد لا يكون مطالِباً بشيء ومطالَباً به في وقت واحد[3].

---

(١) المالكية يجعلون أركان العقد: الصيغة، والولي، والمحل أي الزوجين، والصداق، ويقولون: إن الإيجاب ما صدر من ولي المرأة أو وكيلها تقدم أو تأخر، والقبول ما صدر من الزوج أو وليه أو وكيله.
ويستحب تهنئة الزوجين، والدعاء لهما بالخير وقد كانوا في الجاهلية يهنئون في الزواج بقولهم: بالرفاء والبنين، فعلّمهم رسول الله ﷺ دعاء إسلامياً فيما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ كان إذا رفّأ إنساناً تزوج قال له: «بارك الله لك؛ وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»ويستحبّ من الزوج أن يدعو بما ورد فيما روي عنه ﷺ أنه قال: «إذا أفاد أحدكم امرأة أو خادماً أو دابّة فليأخذْ بناصيتها وليقلْ: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جُبلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلت عليه».

(٢) انظر: فتح القدير (٢/ ٤٣٠).

(٣) انظر: الزواج في الشريعة الإسلامية (ص ٣٤) لعلي حسب الله ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٧١م.

ووَرد هذا بأنّ الحقوق في عقد الزواج لا ترجع إلى العاقدين كما في البيع، بل ترجع إلى الزوجين، فالزّوج هو المطالب بدفع المهر والمرأة هي المطالبة بتسليم نفسها لزوجها، والعاقد في الزواج ليس سفيراً ومعبراً، فلا تعارض.

ويؤيّد هذا ما روي أن النبي ﷺ قال لرجل: أترضى أن أزوّجك فلانة؟ فقال: نعم. وقال للمرأة: أترضين أن أزوّجك فلاناً؟ قالت: نعم. فزوَّجهما[1].

وإذا استوفى عقد الزواج شروط الانعقاد والصحة والنفاذ، ترتبت عليه أحكام الصحة بمجرد العقد لازماً كان أو غير لازم، فعدم اللزوم لا ينافي ترتب الأحكام؛ بل كل ما يفيده فوق ترتب الأحكام، جواز الفسخ ممن له حق الفسخ.

وأحكام الزواج الصحيح، منها حقوق للمرأة، ومنها حقوق للزوج، ومنها حقوق مشتركة بينهما، ومنها آثار شرعية هي حقوق لله تعالى وليس لأحد أن يتنازل عنها.

فحقوق المرأة: المهر والنفقة.

وحقوق الزوج: الطاعة، والقرار في البيت، وولاية التأديب.

والحقوق المشتركة: حِلّ الاستمتاع، وحسن العشرة.

والآثار الشرعية: التي هي حقوق لله، وليس لأحدهما أن يتنازل عنها: حرمة المصاهرة، والتوارث، وثبوت النسب، والعدة عند الافتراق.

وفي الصفحات الآتية نتحدث عن هذه الأمور في ضوء القرآن، لتتوضح الصورة أكثر في الأذهان عن الحياة الزوجية في القرآن الكريم.

* * *

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ٣٥).

الفصل التاسع
من حقوق المرأة في الحياة الزوجية

● أولاً ـ المهر:

المهر هو ما يجب على الرجل لامرأته في مقابل استمتاعه بها استمتاعاً حلالاً[1].

وقد شرع الله تعالى للمرأة على زوجها حقاً معلوماً في نظير استمتاعه بها، يدفعه لها قبل عقده عليها، أو بعده، أو يدفع لها بعضه، ويؤخر بعضه، وهذا الحق واجب للمرأة بنصِّ القرآن والسنة والإجماع.

وللمهر أسماء كثيرة جمعها بعضهم في قوله:

صَدَاقٌ ومَهْرٌ نِحْلَةٌ وفريضَةٌ حِباءٌ وأَجْرٌ ثم عُقْرٌ علائقُ[2]

فالمهر إذاً هو الصَّداق، وهو ما يُعطيه الرجل إلى المرأة كتعبير عن صدق رغبته فيها، وعزمه على أن يتزوج بها، ويبني حياة زوجية سعيدة.

والرجال أصلاً هم القوامون على النساء، وهم الذين يكسبون المال، وهم المسؤولون عن الحياة الزوجية، لذا فقد جعل الله المهر حقاً عليهم للنساء، لا يستبيحون فروجهن إلا بكلمة الله، وبأداء هذا الحق، وهو حق للزوجة وحدها، مقدَّمه ومؤخَّره، وقليله وكثيره، وليس للأولياء قربوا أو بعدوا، وليس

---

(١) هذا تعريف بالمهر الواجب في النكاح الصحيح الذي يحلُّ به الاستمتاع.

(٢) العُقر: هو المهر الذي يجب بالوطء في غير النكاح الصحيح.
العلائق: جمع علاقة، وهو ما يتعلق به على الزوج من المهر، أي ما يتمسك بالمطالبة به.

للزوج أي حق فيه، وهي حُرَّة تتصرف به كيف شاءت[١].

وهكذا نجد أنّ المهرَ حَسنَةٌ من محاسن الإسلام، حيث جعل في الصَّدَاق تكريماً لمشاعر المرأة أيّما تكريم، وتوثيقاً لعُرى الحياة الزوجية بين الزوجين.

والمهر واجب على الرجل دون المرأة، وله أدلةٌ في القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةً﴾ [النساء: ٤].

قال ابن الجوزي في تفسيره لهذه الآية ما مفاده: «الخطاب هنا للأزواج؛ قال مقاتل: كان الرجل يتزوج بلا مهر، فيقول: أَرِثُكِ وترثيني، فتقول المرأة: نعم، فنـزلت هذه الآية... قال ابن قتيبة: والصدقات: المهور، وأحدها: صدقة. وفي قوله: (نحلة) أربعة أقوال:

- أحدها بمعنى الفريضة.
- والثاني بمعنى الهبة والعطية.
- والثالث بمعنى العطية بطيب نفس.
- والرابعة بمعنى الديانة»[٢].

وقال القرطبي: «وهذه الآية تدلُّ على وجوب الصَّداق للمرأة، وهو مجمع عليه ولا خلاف فيه»[٣].

---

(١) وهذا خلاف ما يعمله بعض الناس اليوم من السطو على مهر المرأة، وصرفه في المظاهر والتفاخر، والولائم، فتصبح المرأة المتزوجة وليس معها من مهرها إلا حديث الناس عما عمل وعما أهرق، وكأن الأمر لا يعنيها، ولا يخصها، بل إن كثيراً من الفتيات لا يعلمن بمقدار مهورهن ولا كيف صُرِف، ولا فيما أنفق.
والتاريخ يحدثنا أن المهر الذي جعل وسيلة لهدف سامٍ شريف، كان في كل أطواره يتسم بالبساطة واليسر، ويكون من نوع الموجود في كل زمن وبيئة.
فالأعرابي يمهر زوجته جملاً أو بعض شويهات، والفلاح يمهرها نخلاً أو أرضاً، والتاجر يمهرها بعض النقود... والمتعلِّم يمهرها من علمه إذا لم يجد غيره. وهكذا لم يحتم الله علينا أمراً معيناً، ولم يُعقِّدِ الحياة على خَلْقه، ولكنهم هم أنفسهم يسعون لتعقيد حياتهم وربطها بتقاليد تبعد كثيراً عن أهداف الزواج ومراميه السامية. (الزواج والمهور ص ٥٤) بتصرف يسير.

(٢) زاد المسير (ص ٢٥٦) بتصرف واختصار.

(٣) تفسير القرطبي (١٧/٥).

وفي تفسير اللطيف قال المراغي في تفسير هذه الآية: «الخطاب للأزواج؛ أي وأعطوا النساء اللواتي تعقدون عليهنَّ المهور عطاء هبة يكون رمزاً للمودة التي ينبغي أن تكون بينكما، وآية من آيات المحبة، ودليلاً على وثيق الصلة والرابطة التي تجب أن تكنفكما، وتحيط بسماء المنزل الذي تحلان فيه، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء، فتراهم يردفونه بأصناف الهدايا والتُّحَف من مآكل وملابس ومصوغات إلى نحو ذلك، مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التي يريد أن يجعلها شريكته في الحياة»[1].

وقال البغوي ما ملخّصه ومحصّله في تفسيره لهذه الآية: «قال الكلبي ومجاهد: هذا الخطاب للأولياء، وذلك أن ولي المرأة كان إذا زوّجها، فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطِها من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير، ولم يعطوها من مهرها غير ذلك، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله.

قال الحضرمي: وكان أولياء النساء يُعطي هذا أخته على أن يُعطيه الآخر أخته، ولا مهر بينهما، فنُهوا عن ذلك، وأمِروا بتسمية المهر في العقد.

وقال آخرون: الخطاب للأزواج، أُمِروا بإيتاء نسائهم الصداق، والصدقات: المهور، وأحدها: صدقة. و(نحلة) فريضة مسماة معلومة، وعطيّة وهبة عن طيب نفس، وتديّن»[2].

وهناك أدلة كثيرة في القرآن الكريم على وجوب المهر، ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]، وقال: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥]، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

---

(١) تفسير المراغي (٢/ ١٥٣).

(٢) تفسير البغوي (ص ٢٧٣) بتصرف وانتقاء واختصار.

وجاء الوجوب في السنة لقول النبي ﷺ لمن أراد أن يتزوج: «التمِسْ ولو خاتماً من حديد»[1].

وأما وجوب المهر في الإجماع، فقد أجمع المسلمون على مشروعية الصداق في النكاح.

والوجوب لا يستلزم تسمية المهر عن العقد، لقوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [البقرة: ٢٣٦][2]، فقد أباح الطلاق قبل فرض المهر، والطلاق لا يكون إلا من زواج صحيح، فدلَّ هذا على صحة العقد من غير تسمية مهر.

قال المراغي في تفسيره لهذه الآية: «لا يلزمكم شيء من المهر وغيره عند طلاقكم للنساء قبل الدخول بهنَّ إلا إذا سميتم لهن مهراً، فإن حصل المساسُ فعليه تمام المسمَّى في حال التسمية، ومهر مثلها إن لم يسمِّ لها مهر، وفي حال الطلاق قبل المسيس مع الفرض، عليه نصف ما فرض وسمّى»[3].

ولا بأس في أن نعرّج قليلاً على ظاهرة خطيرة قد تفشّتْ في عالمنا المعاصر، وهي غلاءُ المهورِ؛ هذا الداء الذي ليس له دواء.

ومن الطبيعي أن غلاء المهور يُعتبر من قواصم الظهور، بل إن الغلاء المذكور قد جعل كثيراً من العوانس يتكدّسن في البيوت، وغدا الشبابُ يتضوَّرون من جوع العزوبية، حيث إن غلاء المهور صنع ما لا تصنعه الحروب الضواري.

وكم من عانس جلست عالة على أهلها تعاني مرارةً لا توصف ولا تُشرح،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥١٣٥)، وأبو داود برقم (٢١١١)، والترمذي برقم (١١١٤) والنسائي برقم (٦/ ١٢٣).

(٢) معنى جناح: التبعة والمسؤولية، كالتزام بمهر وغيره. والمسيس: اللمس باليد من غير حائل، ويُراد به في لسان الشرع ما يراد بالمماسة والملامسة والمباشرة، وهو غشيان المرأة. والفريضة: المهر، وفرضها تسميتها.

(٣) تفسير المراغي (١/ ٣٥٠).

ولعل السبب في ذلك أن أباها قد فرض شروطاً مالية هي أشبه بالأغلال، إذ جعل من ابنته سلعة تجارية، وميداناً للتفاخر والمزايدات.

إن بدعة التغالي في المهور لم تكن موجودة في حياة السلف الصالح، وأعتقد أن هذه الموضة وهذه البدعة قد طلعت برأسها في عصر الـمَدَنيّة وعصر الماديات، ولعل التغالي في المهور يكاد يكون المشكلة الأولى في طريق الحياة الزوجية، ولكن ما أسباب التغالي في المهور؟

وللإجابة عن هذا السؤال، يمكن أن نوجز ذلك في نقاط أهمّها:

أ ـ التقاليد العمياء التي استولت على معظم مشاعر الناس، وبالتالي فقد سُلِبوا التفكير، والإرادة، فلا بد لهم من أن يدخلوا المداخل التي دخلها المبتدعون لغلاء المهور قبلهم، لئلا يقال عنهم: إنهم مقصِّرون!!

ب ـ طمع بعض الآباء بالماديات، وخوفهم من أن يُنْسَبوا إلى التقصير، بالإضافة إلى اختلاف الناس في فهم الزوج الكفء، والركون إلى عملية الرقم الكبير في طلب المهر الغالي، وإن كان الأمر مزيّفاً أحياناً!!

ج ـ الاستماع إلى النساء، والسماح لآرائهن أن تسود المجتمع، وبالتالي يكثر القيل والقال، وتنتشر الإشاعات على ألسنتهن أسرع من البرق.

والآن يتوضح أمامنا سؤال آخر مفاده: ما نتائج التغالي في المهور؟

والجواب عن هذا السؤال يتلخص أيضاً في نقاط مهمة منها:

أ ـ زيادة نسبة العوانس من البنات، ويقابله مثل ذلك بقاء شريحة كبيرة من الشباب عزاباً، ومن ثم يستشري الفساد بين الجنسين.

ب ـ تفاقم المشكلات الاجتماعية وزيادة الأمراض النفسية بين الناس.

ج ـ تمرُّد كثير من الشباب والشابات على الواقع وعلى بعض القِيَمِ الموروثة، والعادات الكريمة.

ولو تنبّهَ الناس إلى هذه النتائج الخطيرة، وعادوا إلى الشرع، وما كان عليه السَّلَف الصالح من بناء الحياة الزوجية، لكانت حياتهم طيبة ترفرف فوقها أجنحة السعادة.

وإذا ما نظرنا إلى ما فعله السلف الصالح في بناء الزواج، لألفينا أنهم كانوا يرخصون المهور، فقد تزوَّج عبد الرحمن بن عوف في زمن النبي ﷺ على وزن نواة من ذهب، وزوج سعيد بن المسيب ابنتَهُ من أبي وداعة على درهمين وهي أفضل وأجمل فتاة من قريش بعد أن خطبها الخليفة عبد الملك لابنه فأبى سعيد أن يزوِّجها[1].

قال الإمام الشافعي: «والقصْدُ في المهر أحبُّ إلينا، وأستحبُّ ألاَّ يُزاد في المهر على ما أصدق رسول الله ﷺ به نساءه وبناته، وذلك خمسمئة درهم»[2].

وقال ابن تيمية: «والمستحب في الصداق مع القدرة واليسار أن يكون جميع عاجله وآجله لا يزيد على مهر أزواج النبي ﷺ ولا بناته، وكان ما بين أربعمئة إلى خمسمئة بالدراهم الخالصة نحواً من تسعة عشر ديناراً، فهذه سنة رسول الله ﷺ»[3].

وأخرج مسلم بسنده عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قال: «سألت عائشة زوج النبي ﷺ: كم كان صداق رسول الله ﷺ؟

قالت: كان صداقُه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً.

قالت: أتدري ما النّشّ؟

قلت: لا.

قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمئة درهم، فهذا صَداق رسول الله ﷺ لأزواجه»[4].

صحيح بأن المهر من حقِّ المرأة ولكن إذا أصبح التلاعب فيه يترتب عليه المضايقة وانصراف الشباب عن الزواج، فحينئذٍ يكون المهر محرماً؛ وعلى

---

(١) اقرأ نماذج من هذا الزواج في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.
(٢) الأم (٥/ ١٦٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٩٤).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٤٢٦)، وأبو داود برقم (٢١٠٥).

الأولياء أن يتنبَّهوا إلى هذا الخطر، ويهتدوا بالهدي النبوي فإن ذلك أزكى وأطهر.

● ثانياً ـ النَّفَقَة:

النفقة هي الحقُّ الثاني من حقوق الحياة الزوجية الواجبة للمرأة بمقتضى عقد الزواج. والمراد بها إجمالاً: ما تحتاج إليه الزوجة ـ بالمعروف ـ من طعام، وملبس، ومسكن، وفرش، وخدمة، ودواء، وإن كانت غنية من ذوات اليسار.

والنفقة واجبة للمرأة؛ وأدلتها واجبة موجودة بالقرآن، والسُّنة، والإجماع.

أما الدليل القاطع في وجوب النفقة من القرآن الكريم، فلقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال أحمد مصطفى المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾: «على الوالد كفاية المُرضِع من طعام وكسوة لتقوم بخدمته حق القيام، وتحفظه من عاديات الأيام. وإنما عبّر بالمولود له ولم يعبر بالوالد للإشارة إلى أن الأولاد لآبائهم، فإليهم ينسبون، وبهم يُدْعَون، والأمهات مستودعات لهم، كما قال المأمون:

لا تُـزْرِيَـنْ بفتـىً مـن أن يكـونَ لَـهُ ... أمٌّ مِـنَ الـروم أو سـوداءُ دهجـاءُ

فـإنمـا أمهـاتُ النـاس أوعيـةٌ ... مستـودعـاتٌ ولـلأبنـاء آبـاءُ

والخلاصة: إن الوالدات قد حملن للوالد، وأرضعن له، فعليه أن عليهن ما فيه الكفاية من طعام وشراب وكسوة ليقمْنَ بخدمته، ويحفظنه ويرعين شؤونه، وأن يكون ذلك الإنفاق بحسب المعروف اللائق بحال المرأة في البيئة التي تعيش فيها، ولا تلحقها بها غضاضة في نوعه، ولا في طرق أدائه»[1].

وقال ابن الجوزي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ يعني: الأب. ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ يعني: المرضعات، وفي قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ دلالة على أن

---

(١) تفسير المراغي (١/ ٣٤٢)، وانظر: تفسير روح البيان (١/ ٢٣٣).

الواجب على قدر حال الرجل في إعساره ويساره، إذ ليس من المعروف إلزام المعسر ما لا يطيقه، ولا الموسر النـزر الطفيف»[١].

وللزمخشري كلام لطيف في تفسيره لهذه الآية الكريمة ومفاده: «وعلى الذي يولد له، وهو الوالد، لِيُعْلَم أن الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء ينسبون إليهم لا إلى الأمهات، فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالآظار ـ كالمرضعات ـ؛ ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى، . . . ولا تضارّ والدةٌ زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنِّف به وتطلب منه ما ليس بِعَدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعدما أَلِفَها الصبيُّ: اطلب ظئراً[٢] وما أشبه ذلك، ولا يضارّ مولود له امرأتَهُ بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها»[٣].

ومن الآية القرآنية في وجوب النفقة على الزوج قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، والمعنى هنا: يأتي ببدله، ويقال: أخلف الله له وعليه: إذا أبدل ما ذهب عنه.

قال البغوي في تفسيره لهذه الآية: «يُعطي خَلَفه، قال سعيد بن جبير: ما كان في غير إسراف، ولا تقتير فهو يخلفه»[٤].

وأما وجوب النفقة في السنة فهو كثير أيضاً، ومنه ما أخرجه مسلم في الحج

---

(١) زاد المسير (ص ١٤٢).

(٢) ظِئراً: مرضعة. وجمعها آظار.

(٣) تفسير الكشاف (ص ١٣٦) بتصرف.

(٤) تفسير البغوي (ص ١٠٦٤).

من حديث طويل منه قول النبي ﷺ «... فاتَّقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللْتُم فروجَهُنَّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مُبَرّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف...»[1].

إذاً فالنفقة تُقَدّر بما يكفي الزوجة من الطعام والكساء، وما تحتاج إليه من ضروريات الحياة، وذلك بالمعروف، أي بما تعارف عليه الناس في عصرهم وبلدهم، وبحسب حالِ الزوج من اليسر والعسر. وإذا كانت المرأةُ مقيمةً مع الرجل، ولا تجد كفايتَها من النفقة لبخله لا لعسره، جاز لها أن تأخذ من ماله بقدر كفايتها من غير إذنه بالمعروف ومن غير إسراف؛ وذلك لما جاء في الصحيح وغيره في قضية هند بنت عتبة رضي الله عنها.

فقد أخرج مسلم في صحيحه بسندٍ رَفَعَهُ إلى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت: دخلت هند بنت عتبة، امرأة أبي سفيان، على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيّ، إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل عليّ في ذلك من جُناح؟

فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف، وما يكفيك ويكفي بنيك»[2].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢١٨)، قال النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: «فيه الحث على مراعاة حق النساء والوصية بهن ومعاشرتهن بالمعروف، وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة في الوصية بهن وبيان حقوقهن... وفي الحديث أيضاً وجوب نفقة الزوجة وكسوتها وذلك ثابت بالإجماع». (المنهاج ص ٩٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية برقم (١٧١٤)، وقال النووي رحمه الله مفسراً وشارحاً هذا الحديث بما مفاده: «في هذا الحديث فوائد منها: وجوب نفقة الزوجة، ومنها: وجوب نفقة الأولاد الفقراء الصغار، ومنها: أن النفقة مقدرة بالكفاية لا بالأمداد. ومنها: جواز سماع كلام الأجنبية عند الإفتاء والحكم، ومنها: جواز ذكر الإنسان بما يكرهه إذا كان للاستفتاء والشكوى ونحوهما. ومنها: أنّ من له على غيره حق وهو عاجز عن استيفائه يجوز له أن يأخذ من ماله قدر حقه بغير إذنه. وإذا امتنع الأب من الإنفاق على الولد الصغير، أو كان =

وأما الإجماعُ: فقد اتفق أهل العلم على وجوب نفقة الزوجة على زوجها، إذ إن المرأة محبوسة على الزوج يمنعها من التصرُّف والاكتساب، فلا بدَّ من أن ينفقَ عليها.

وقد ذكر الغزالي آداباً مهمةً للنفقة فقال: «الاعتدالُ في النفقة، لا ينبغي أن يقتر عليهن، ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله»[١]، وقال: «دينارٌ أنفقتَهُ في سبيل الله، ودينارٌ أنفقتَهُ في رقبةٍ، ودينارٌ تصدَّقْتَ به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمُها أجراً الذي أنفقتَه على أهلك»[٢].

والحكمة من وجوب النفقة على الزوج يتَّضِح في أمور منها: أن المرأة تكون محبوسة لحق الزوج، ومحرَّمة على غيره، لتقوم بالمقصود من الحياة الزوجية: من حفظ النسل، وتربية الولد، ورعاية شؤون البيت.

ومن القواعد المقررة أن مَنْ حُبِس لنفع غيره، كانت نفقته على من حُبِس لأجله، لذا تجب النفقة للمرأة على زوجها فقيرة كانت أو غنية.

إذاً فوظيفةُ المرأة الرئيسية مقصورةٌ على أمر البيت والنسل والرعاية، وليس من خير الجماعة الإنسانية أن تتعداها إلى غيرها، فيجب على الرجل ـ وهو راعي الأسرة ـ أن يكفيها مؤنة السعي لكسب قوتها، لتتفرغ لأداء واجبها على

= غائباً، أذن القاضي لأمه في الأخذ من مال الأب، أو الاستقراض عليه، والإنفاق على الصغير بشرط أهليتها. . .» (المنهاج ص ١٣٢٠) بتصرف واختصار.

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٩٥)، وابن حبان برقم (٤١٦٥).

(٢) انظر المهذب من إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٣). والحديث أخرجه مسلم برقم (٩٩٥) والمقصود بالحديث: الحث على النفقة على العيال، وبيان عظم الثواب فيه، لأن منهم من تجب نفقته بالقرابة، ومنهم من تكون مندوبة وتكون صدقةً وصِلَةً، ومنهم من تكون واجبة بملك النكاح أو ملك اليمين، وهذا كله فاضل محثوث عليه، وهو أفضل من صدقة التطوع. وقد رجح الحديث النفقة على العيال على كل ما مضى من الحديث.

الوجه الأكمل، ولتكوّنَ حياة زوجية تظلِّلُها السعادة، وتشرق عليها شمس المودة والحب.

ومن الواضح في عنوانِ أيِّ حياةٍ زوجية ناجحة أنْ نرى أن بناء الأسرة إنما يكمُنُ من تعاون الزوجين مع بعضهما، وتكون المرأة هي روح البيت وريحانه وحياته، بل هي راعية شؤونه، اسمع إلى الحديث الذي أخرجه مسلم بسنده عن نافع ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «. . . والمرأة راعيةٌ على بيت بعْلِها، وولده، وهي مسؤولة عنهم. . . »[1].

قال العلماء: «الراعي: هو الحافظُ المؤتَمَنُ الملتزِمُ صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، ففيه أن كلَّ من كان تحت نظره شيءٌ، فهو مطالَبٌ بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته»[2].

وهناك حقوق أخرى للمرأة وردت في ثنايا هذا البحث، وسنورد بعضها في الحقوق المشتركة بإذن الله، لتكون الأفكارُ متناسقةً، والفصولُ مرتبةً، وليطمئن القارئ ويجد بُغيته في مظانّها.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٩)، وكذلك أخرجه البخاري برقم (٥١٨٨)، قال المناوي: «والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها»: بحُسن تدبيرها في المعيشة والنصح له، والشفقة عليه، والأمانة في ماله، وحفظ عياله وأضيافه ونفسها. «وهي مسؤولة عنهم . .» هل قامت بما يجب عليها، ونصحت في التدبير أو لا» (فيض القدير ٥/ ٣٨).

(٢) المنهاج (ص ١٤٢٢).

الفصل العاشر
من حقوق الزوج على زوجته

● أولاً ـ الطاعة:

الطاعة رأس كل فضيلة إذا كانت في مرضاة الله تعالى، والأسرة التي عنوان حياتها طاعة الزوجة لزوجها هي أسرة ناجحة فاضلة.

فمن الطبيعي أن الأسرة لا ينتظم أمرها، ولا تكتمل محاسنها إلا إذا كان لها من يدير أمورها، ومن يرشدها إلى الخير، ويوحِّدُ كلمتها ويلمّ شتاتها.

والأسرة أولاً هي الجماعةُ الأساسيةُ التي تتألف منها الأمة، فإن صَلُحت صلُحت الأمة، وإن فسدَتْ فسدت الأمة، لذا فلا بدّ لها من رئيس يدبر أمرها ويرعى شؤونها.

وقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن تكون المرأةُ للحمل وشؤونه، وأعمال البيت، والقيام على أموره. أما الرجلُ فقد آتاه الله بسطةً في البدَن ـ بعامة ـ وقوة على تحمُّل الشدائد، فهو الذي يعمل خارج البيت، ويخالط الناس، ويوجه الأسرة ويسوسُها، والمرأة الصالحة خير معين لزوجها على تكوين الحياة الزوجية الحميدة ورعايتها، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ [النساء: ٣٤].

ومعنى ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ يقال: هذا قيمٌ المرأة وقوّامها؛ إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها؛ ومعنى ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ فالفضل قسمان:

١ ـ فِطريّ: وهو قوة مزاج الرجل وكماله في الخلقة، ويتبع ذلك قوة العقل وصحة النظر في مبادئ الأمور وغاياتها.

٢ ـ كسبيّ: وهو قدرته على الكسب والتصرف في الأمور، ومن ثم كُلّف الرجال بالإنفاق على النساء، والقيام برياسة المنـزل، والإشراف على إدارته وشؤونه.

يقول أحمد مصطفى المراغي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «إن من شأن الرجال أن يقوموا على النساء بالحماية والرعاية... وسبب هذا أن الله فضل الرجال على النساء في الخلقة، وأعطاهم ما لم يعطِهن من الحول والقوة، كما فضّلهم بالقدرة على الإنفاق على النساء من أموالهم، فإن في المهور تعويضاً للنساء، ومكافأةً لهنَّ على الدخول تحت رياسة الرجال وقبول القيامة عليهنَّ، نظير عِوَضٍ مالي يأْخُذْنَهُ... والمراد بالقيام: الرياسة التي يتصرف فيها المرؤوس بإرادة الرئيس واختياره، إذ لا معنى للقيام إلا الإرشاد والمراقبة في تنفيذ ما يُرشِد إليه، وملاحظة أعماله، ومن ذلك حفظ المنـزل، وعدم مفارقته إلا بإذنه ولو لزيارة القربى، وتقدير النفقة فيه، فهو الذي يقدرها بحسب مَيْسَرته، والمرأة هي التي تنفِّذ على الوجه الذي يرضيه، ويناسب حالَه سَعَةً وضيقاً. ولقيام الرجل بحماية المرأة وكفايتها مختلفَ شؤونها، يمكنها أن تقوم بوظيفتها الفطرية، وهي الحمل والولادة وتربية الأطفال، وهي آمنة في سِرْبها، مكتفية ما يهمها من أمور أرزاقها»[1].

وإذا عرفت المرأة ما يقوم به الزوج من قوامة ومصالح شؤونها، وأطاعت الله تعالى، وقامت بما يرضيه، ولم تكن ناشزةً، عندها تكمن الطاعة الحقة، وتفي الزوج حقّه منها، وبالتالي يرغب القرآن الكريم في حسن المعاملة الزوجية وإكرام المرأة وعدم البغي عليها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

فمن حق الزوج على امرأته أن تطيعَهُ فيما يتعلّق بأمور الزوجية في غير ما نهى الله عنه، إذ لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق.

أما إذا نَشَزَتِ المرأة، وتمرَّدَت على الزوج، فعندها تكون عاصيةً، ولم

---

(١) تفسير المراغي (٢/٢٠٦) بشيء من الاختصار والتصرف اليسير.

ترضَ بالمنـزلة التي وضعها الله فيها، فلم تُسلِّم لقوامة الرجل عليها.

ومعنى النشوز: الارتفاع، والمرأة الناشزة: هي المرتفعة على زوجها، المخالفة لأمره، الخارجة عن طاعته، وللنشوز صور كثيرة يأتي في مقدمتها معصية الزوج والخروج عن طاعته، وتقصيرها في خدمته، وإفشاؤها وهتكها لستره، وسبّه وشتمه، وتلاعبها في أمواله، وما شابه ذلك.

قال ابن قدامة رحمه الله: «معنى النشوز: معصية الزوج فيما فرض الله عليها من طاعته، مأخوذ من النشز وهو الارتفاع، فكأنها ارتفعت وتعالت عمَّا فرض الله عليها من طاعته، فمتى ظهرت منها أمارات النشوز، فإنه يعظها، ويخوفها بالله، ويذكِّر ما أوجب الله له عليها من الحق والطاعة، وما يلحقها من الإثم بالمخالفة والمعصية...»[1].

وقد حثَّت الأحاديث النبوية النساء على طاعة الأزواج، وقد عظّم ذلك إلى درجة كبيرة، من ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[2].

وعن أمّنا أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيّما امرأة ماتت، وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»[3].

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن طاعة الزوجة قصة أسماء بنت يزيد التي حثّها النبي ﷺ على الطاعة في صورة مشرقة عنوانها: حسن التّبعّل.

ذكرت المصادر أن أسماء بنت يزيد الأنصارية، كانت إحدى فصيحات نساء الأنصار، حتى لقبوها: «خطيبة النساء».

وذكر مترجمو سيرتها أنها جاءت ذات يوم إلى رسول الله ﷺ وهو جالس بين أصحابه يعلمهم، فألقت السلام وقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، إني رسولُ مَنْ ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن قولي، وعلى مثلِ رأيي.

---

(١) المغني (١٠/ ٢٥٩) بتصرف واختصار.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١١٥٩)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٥٤).

إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء، فآمنا بك واتبعناك، ونحن معاشرَ النساء مقصورات مُخدّرات قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فُضّلوا بالجمعة والجماعات، وشهودِ الجنائز والجهادِ في سبيل الله، وإذا خرجوا إلى الجهاد حفظنا لهم أموالَهُم، وربَّيْنا أولادَهم، أَفَنُشاركهم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال: «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دِينها مِنْ هذه»؟

فالتفت النبي ﷺ إليها فقال: «انصرفي يا أسماء، وأعلمي مَنْ وراءَك من النّساء أنّ حسن تبعّل إحداكن لزوجها، وطلبها لمرضاته واتّباعها لموافقته، يعدل كل ما ذكرتِ للرجال».

وفي رواية أنها قالت: فما يعدل من أعمالهم بالطاعة؟ فقال ﷺ: «طاعة أزواجهن، والمعرفة بحقوقهم، وقليل منكن مَنْ تفعله».

فانصرفت أسماء وهي تهلّل وتكبّر استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ[1].

إذاً فللزوج حقٌّ عظيمٌ على زوجته، وفي الهدي النبوي مواقف تربوية لا تُنسى، روت أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: مرّ بنا رسول الله ﷺ، ونحن نسوة، فسلّم علينا، وقال: «إياكنّ وكُفْر المنعمين».

فقلنا: يا رسول الله، وما كفر المنعمين؟

قال: «لعل إحداكنّ أنْ تطولَ أيمتُها بين أبويها وتَعْنُسَ، فيرزقها الله عز وجل زوجاً، ويرزقَها منه مالاً وولداً، فتغضب فتقولُ: ما رأيت منه يوماً خيراً قطُّ»[2].

وفي رواية أخرى: «إن إحداكن تطول أيمتها، ويطول تعنيسها، ثم يزوجها الله البعل، ويُفيدها الولد، وقرة العين، ثم تغضب الغضبة، فتقسم بالله ما رأت منه ساعة خير قط، فذلك من كفران نعم الله عز وجل وذلك من كفران المنعمين»[3].

---

(١) انظر: الاستبصار لابن قدامة (٢١٨ ـ ٢١٩)، والدر المنثور (٢/ ٥١٨) مع الجمع والتصرف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٤٥٢ و٤٥٣) برقم (٢٨١١٣).

(٣) المسند (٦/ ٤٥٨) برقم (٢٨١٤١).

ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «جهاد المرأة حسن التبعّل».

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لصعصعة: أي النساء أشهى؟ قال: المواتية لما تهوى؛ والمجانبة لما لا ترضى[1].

ونخلص من ذلك كلِّه إلى أن الطاعة واجبة على الزوجة فيما يأمرها به زوجها سراً وعلانية، لأن الطاعة مجلبة للرضا والسرور والانسجام، أما المخالفةُ فتولّد الشحناء والبغضاء وقلة الاهتمام، وتوجب النفور، وتفسد عواطف المودة، وتولّد القسوة.

والمرأة التي تعصي زوجها يحلّ بها الشقاء والبلاء، وكلما زادت طاعتها لزوجها ازداد الحب والولاء بينهما، وتوارثه نسلهما، لأن الأخلاق تنبت كالنبات وتورث، حيث يأخذها الأبناء عن الآباء، والبنات عن الأمهات، فلتحرصْ النساء على الطاعة لتغدو الحياة الزوجية هانئة سعيدة.

● ثانياً ـ القرار في البيت:

من تمام حقوق الزوج عدم الخروج من المنـزل إلا بإذنه، حيث إنَّ بروز المرأة للناس مدعاة إلى الفتنة، ووظيفتها في الحياة من حمل وولادة ورعاية بيت تقتضي القرار في البيت وملازمته والحفاظ عليه.

غير أن خروجها أحياناً لا ينافي قيامها بما يجب عليها من حقوق الزوجية، ولهذا لم يكن القرارُ في البيت حقاً لله تعالى، وهو حق للزوج، فإذا أراد لم يأذن لها بالخروج، وبذلك يكون قد استمسك بحقه، وإن شاء أذِنَ لها، ويكون قد تنازل عن حقه.

ولله تعالى على الزوجين حقٌّ ليس لأحدهما أن يقصِّرَ فيه أو يتنازل عنه، وهو ألا تخرج من بيتها، ولا يسمح لها بالخروج من غير حاجة، أو على وجه ينافي الأدب، ويدعو إلى الفتنة، وهذا هو ما قررته الشريعة الإسلامية.

غير أن بعض النساء لا تبالي بإذن زوجها من عدمه، حيث تخرج من منـزلها

---

(١) محاضرات الأدباء (٢/ ٢٣٩).

غير عابئةٍ بالزوج، وربما احتالَتْ عليه في ذلك، فإذا أرادت الذهاب إلى مكان لا يأذن به الزوج، طلبت منه زيارة أهلها، ومن هناك دبّرت أمراً، وذهبت تريدهُ دون إذن صحيح أو إرادة زوج وأمره.

وهذا العمل منافٍ للآداب والحياة الزوجية، وهو داخل تحت باب النشوز، فكم من امرأةٍ زعمت أنها تودُّ الذهاب إلى أهلها، ثم يُخبَر زوجها بأنها كانت عند جارتها أو أقاربها أو صديقتها، أو تشتري بعض الحاجات من السوق، وعندها تبدأ نواةُ الخلاف بالتضخُّم، ويبدأ الخلاف يشتدُّ ويقوم على ساقه ويورق ويُثْمِرُ، ولكن بالطلاق والشقاق والفراق.

وتزعُمُ كثيرٌ من النساء أن إذن زوجها هو ذلٌّ، ولذلك لا يحببنَ هذه العادة القديمة!!! ونسينَ أن هذا حق من حقوق الأزواج خاصة!

قال ابن قدامة رحمه الله: «وللزوج منعها من الخروج من منزله إلى ما لها منه بدّ، سواء أرادت زيارة والدَيْها، أو عيادتهما، أو حضور جنازتهما. قال أحمد في امرأة لها زوج وأم مريضة: طاعة زوجها أوجب عليها من أمها، إلا أن يأذن لها»[1].

وقال ابن قدامة أيضاً: «ولا يجوز لها الخروجُ إلا بإذنه، ولكن لا ينبغي منعها من عيادة والديها وزيارتهما، لأن في ذلك قطيعةً لهما، وحملاً لزوجته على مخالفته، وقد أمر الله تعالى بالمعاشرة بالمعروف، وليس هذا من المعاشرة بالمعروف»[2].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «ينبغي للمرأة أن تحذر من الخروج مهما أمكنها؛ إن سلمت من الفتنة في نفسها لم يسلمِ النَّاسُ منها. فإذا اضطرت إلى الخروج خرجت بإذن زوجها في هيئةٍ رثّة، وجعلت طريقها في المواضع الخالية

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة (١٠/ ٢٤٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

دون الشوارع والأسواق، واحترزت من سماع صوتها، ومشَتْ في جانب الطريق لا في وسطه»[1].

هذا وقد اجترأتْ كثيرات من المسلمات في أيامنا على أن يخرجن من البيوت كي يتسكَّعْن في الطرقات، وارتياد المتاجر، لا لشراء ما يحتجن إليه، بل لمعرفة ما ظهر من ملابس تُظْهِر المفاتن، وتكشف عما حرّم الله إظهاره من الأبدان.

ونزعت بعض النساء بُرْقُعَ الحياء الذي كانت تتجمَّل به، فلم تكتفِ بأن كشفت عن عنقها، بل كشفت عن صدرها وذراعيها وكتفيها، وبعض أجزاء من الجسم، وذلك كي توجّه أنظار الرجال إليها، أو تثير إعجابهم بمحاسنها، وبالتالي يرضي هذا الزيفُ غرورَها.

إن الكشف عن العورات يثير الغرائز، ويحرك الانفعالات البشرية، قصدت المرأة ذلك أو لم تقصدْ، ولا يستطيع أحدٌ أنْ ينكر أنّ كثيراً من الشباب والشابات قد انحرفت أخلاقهم، واستهتروا بالقيم الخلقية، وتحلَّلوا من قيود الفضيلة، وأقبلوا على ما يشتهون دون مراعاة لدين أو عقل أو قيم خلقية.

ومن المؤسف حقاً أنه قد أصبح خروجُ كثيرات من النساء عادةً مألوفةً في الشوارع والمتاجر والمجتمعات العامة، ومظهراً من مظاهر المدنية الحديثة التي فُتِنَ بها كثير من الناس، وقد لا يُوجّه اللوم إلى التي تخرج إلى المجتمعات دون قيد أو إذن، وإنما يوجّه اللوم إلى من يصحح المفاهيم الخاطئة ويحافظ على الأخلاق والقيم، وربما يُتّهم بالتخلف وعدم مواكبة الحضارة، بل السقوط في هاويتها السحيقة...

إن الحياة الزوجية السليمة هي التي تقوم على محبة الله وطاعته، والتزام أوامره، واجتناب نواهيه، والمرأة التي تودُّ استمرار هذه الحياة، هي التي تصون نفسها عما يدنِّسُ شخصيتها، وتحافظ على كرامتها، وترعى أولادها، وتحفظ مال زوجها، وتقرُّ في بيتها لبناء سعادته، فلهذه الطاعة أثرها الواضح

---

(١) انظر: أحكام النساء لابن الجوزي (ص ٦٨).

في استقامة الحياة الزوجية، وسعادتها، والتي تقوم بذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، فلها جزيل الثواب وعظيم الأجر.

وأودُّ أن أشير هنا إلى أنّ طاعة الزوجة لزوجها ليست على حساب معصية الله تعالى، فتطيعه طاعةً مطلَقةً بكل ما أمر به، فالطاعة إنما هي بالمعروف، وفي غير المعصية، ولا يجوز لها أن تطيعه إذا أمرها بمعصية الله، كأن تتشبّه بالكافرات، أو أن تنزع الحجاب، أو تترك الصلاة، إذ إن القاعدة العامة في ذلك هي الهدي النبوي، حيث قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1].

ومن الجدير بالذكر أن البخاري رحمه الله قد عقد في صحيحه باباً سماه: «لا تطيع المرأة زوجها في معصية الله».

ثم أخرج حديثاً بسنده رفعه إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن امرأة من الأنصار زوجت ابنتها فتمعّط ـ سقط ـ شعر رأسها، فجاءت إلى النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، فقالت: إن زوجها أمرني أن أصل في شعرها، فقال: «لا، إنه قد لُعِن المستوصلات»[2].

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث الشريف: «فلو دعاها الزوج إلى معصية فعليها أن تمتنع، فإن أدّبها على ذلك كان الإثمُ عليه»[3].

ولا يعني عدم طاعة الزوج في معصية الله أن تشتدَّ عليه الزوجة بالنكير في بداية الأمر، وإنما تبدأ في وعظه، وتذكيره بالله تعالى، وتبيّن له وجه المعصية، وتأخذ بالتي هي أحسن في معاملته، وبالتالي قد تفتِلُ غاربَه، ويرعوي ويعود إلى جادة الصواب وطريق الحق.

أما إذا أبى ورفض، ثم أصر على غيّه ومعصيته أنكرت عليه، ومن ثم أخذت بالتي هي أرضى لله تعالى، وتركت طاعته التي تكون بمعصية الله تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٢٩ ـ ١٣١ و٤٠٩) و(٥/ ٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٢٠٥).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (٩/ ٢١٥).

● **ثالثاً ـ ولاية التأديب:**

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

وهذه الآية الكريمة تتضمَّن نظامَ تأديب المرأة الزوجة في الإسلام، حيث جعلت الآية النساء نوعين:

١ـ الصَّالحات: وهنّ اللواتي لَسْن في حاجة إلى تأديب، فقد بلغْنَ بصلاحهن وخضوعهن لله ولأزواجهن، وحفظهِنَّ لما يجب حفظه من أسرار مرتبةً تسمو بهن عن التأديب الذي يُشْعِر بنقص الأدب، أو الجهل بما يجب عليهن في حياتهن الزوجية، فهؤلاء هنَّ الصالحات[1].

٢ ـ من يُخَاف نشوزهن وانحرافهن عن الصراط المستقيم. وهؤلاء في حاجةٍ إلى تأديب وتهذيب يردُّهُنَّ إلى جادة الصراط السويّ، ويأخذ بأيديهن إلى الكمال الذي يليق بهن.

وهل الأفضل أن تترك المرأة لنـزعات الشيطان، فتكون باعثاً لشقاء الزوج، وتكدير لصفوه، أم هل تنال نصيبها من التأديب والتوجيه، لتؤدي وظيفتها في الحياة على الوجه الأكمل، وتنشر رداء السعادة مع زوجها وأسرتها ؟!

ولذا فقد شرع الله تعالى أساليب التأديب، ووسائل التهذيب، ليتَّخِذ الزوج منها ما يلائم المرأة، ومن ثم يأخذ بيدها إلى شاطئ الأمان؛ ووسائل التأديب هذه يمكن أن نوجزها في نقاط هي:

---

(١) في معنى «الصالحات» قولان: أحدهما: المحسنات إلى أزواجهن.
الثاني: العاملات بالخير. ومعنى «القانتات»: المطيعات لله في أزواجهن.
ومعنى «الحافظات للغيب»: أي لغيب أزواجهن، أو يحفظن ما غاب عنه الأزواج من الأموال، وما يجب عليهن من صيانة أنفسهن لهم.

الأولى: الموعظةُ الحسنةُ، وهذا الأسلوب قد يلائم المرأة التي تكفيها الإشارة، أو الكلمة، أو الهمسة، والزوج هو أدْرَى بما يصلح زوجته من هذه الأمور.

الثانية: الهجرُ في المضجع، ويدلُّ على هجر الزوجة في المبيت معها في فراشها، ولعل هذا الأسلوب قد يكون أشدَّ إيلاماً لها من الأول.

الثالثة: الضربُ، وهو الأسلوب الذي يتخذه الزوج لعلاج المرأة الشرسة التي لا تجدي معها الموعظةُ ولا الهجرُ.

وهنا يجب أن ألا يكون الضرب مبرحاً شديدَ الإيلام، فقد روي عن ابن عباس تفسيرهُ بالضرب بالسواك ونحوه. والرجل الخبير بأدواء النساء وأحوالهن في البيئات المختلفة يعرف تماماً ويدرك أن منهن حقاً من لا تصلح إلا بهذا النوع من التأديب الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم لاستمرار الحياة الزوجية في هناءٍ وسعادة.

ومن الطريف أن بعض النساء تستغرب من قوامة الرجل عليها، بل إن بعضَهن يردْنَ أن يساوين الرجال في جميع تصرفاتهم، بل إن بعضهن يُعْجَبْنَ أن يسلم الرجال قيادتهم لهنَّ، وتكون إرادتُهم تابعةً لإرادتهن، فيكون القول لهن، ورأيهن هو الأفضل، وبالتالي يفرضنَ عليهم سياجاً محكماً لا مهرب منه.

ولعل الذي يدفع بعض النساء إلى مثل هذه التصرُّفات هو الغرور بالمال، أو الجاه، أو الجمال، أو المستوى التعليمي، بل إن بعضهن قد يتأثر جداً بما يُبَثّ من دعايات تنادي بمساواة المرأة بالرجل، بل وتحريرها من سُلطته، وأن يتساويا في كل شيء.

وإذا أصابت المرأة مرماها ومرامها وهدفها، غدا الرجل ألعوبةً في يدها، واهتزت شخصيته، وصار ضعيفاً لا يملك ضراً ولا نفعاً في الحياة الزوجية.

ولذا فهي تحبُّ أن لا يكون عليها رقيبٌ من البشر، وتحب أن تخرج متى شاءت، وتلبس ما شاءت، وتغدو خرّاجة ولاّجة ليس يضبطها ضابط ولا يقوم

بتهذيبها شيء. بل ربما ساءت الأحوال أكثر وأكثر، وتدخلت في شؤون الرجل الخاصة، وعلاقته بالآخرين، فكانت هي ذات القِوَامة، وهي ذات الحق في ولاية التأديب، تتصرف في زمام أمره، وتوجهه حيث شاءت؛ ولله درُّ من قال:

وما عجبٌ أنّ النساءَ ترجّلت ولكنَّ تأنيثَ الرجالِ عجابُ

ولا شك في أن هذا الصنيع خلاف الشرع، وخلاف الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.

إن الزوجة العاقلة هي تلك التي تعرف قدرَها، ومن ثم تقف عند حدودها وحدود إنسانيتها، وتدرك أن القوامة والتأديب حق للزوج، وتشريف وتكريم لها، فالإسلام الحنيف قد أنقذها من أيدي الذين يزدرون مكانتها، فقرر لها من الحقوق ما يكفل راحتها، ويشير إلى رفعة منـزلتها، ومن ثم جعل للرجل حق رعايتها، وإقامة السياج بينها وبين ما يحطُّ من قدرها وكرامتها؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فقد قررت هذه الآية الكريمة أن للمرأة من الحقوق مثلما للرجل، وإذا كان أمر الأسرة لا يستقيم إلا برئيس يدبِّره، فأحقهم بالرياسة هو الرجل الذي شأنه الإنفاق عليها، والقدرة على الدفاع عنها. وهذا ما استحق به الدرجة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وقوله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

ومما يؤيِّد أن القوامة والتأديب حقٌّ للرجل، وخصيصة من خصائصه ما يلي:

أ ـ أن الرجل جُعل أصلَ المرأة، وجعلت هي فرعه، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

ب ـ أنها خلقت من ضلعه العوجاء، كما جاء في الصحيحين عنه ﷺ:

«استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقت من ضِلَع أعوج . . .»[1].

ج ـ أنها ناقصة عقل ودين، ويعني ذلك شهادة امرأتين تعدلُ شهادة رجل، وتفطر في رمضان، وتمكث بضع ليالي لا تصلي، وهذا نقصان الدين كما جاء في الحديث الصحيح[2].

د ـ نقص قوتها، فلا تستطيع أن تقاتل ولا أن تحارب، ولذا فإنه لا يسهم لها.

هـ ـ ما يعتريها من العوارض الطبيعية: من حمل، وولادة، وحيض، ونفاس، فيشغلها ذلك كله عن مهمة القوامة الشاقَّة، وولاية التأديب والنصح والإرشاد[3].

فالتأديب والقوامة إذاً حقٌّ للرجل، غير أنه ينبغي ألا يفهم من القوامة أنها تعني التسلُّط، والقهر، والظلم، وإنما هي تكليف، ورعاية، ورحمة.

وينبغي ألا يفهم أن ضعف المرأة الخِلْقِيّ لا يُعدّ من المساوئ، بل إنه من أعظم محاسنها.

ولنستمع ونستمتع ما قاله محمد الأمين الشنقيطي في (أضوائه): «ألا ترى أن الضعف الخِلْقِيّ، والعجز عن الإبانة في الخصام عيبٌ ناقص في الرجال، مع أنه يُعدّ من جملة محاسن النساء التي تذب إليها القلوب؛ قال جرير:

إنّ العيونَ التي في طرفها حَوَرٌ ... قتلْننا ثمّ لم يُحيِنَ قتْلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَراكَ به ... وهُنّ أضعفُ خَلْقِ اللهِ أركانا

وقال ابن الدّمينة:

بنفسي وأهلي مَنْ إذا عرضُوا له ... ببعضِ الأذى لم يَدْرِ كيف يجيبُ
فلم يعتذرْ عُذْرَ البريءِ ولم تزلْ ... به سكْتةٌ حتى يُقال مريبُ

(١) الحديث أخرجه الشيخان في الصحيح: فالبخاري رواه برقم (٣٣٣١)، ومسلم برقم (١٤٦٨).
(٢) انظر صحيح مسلم، حديث رقم (٧٩).
(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي، وأضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤١٥ و٤١٦) مع الجمع والتصرف.

فالأوّل تشبيب بهن بضعف أركانهن؛ والثاني بعجزهن عن الإبانة في الخصام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، ولهذا التباين في الكمال والقوة بين النوعين صح عن النبي ﷺ اللعن على من تشبّه منها بالآخر»[١].

وقال الشنقيطي أيضاً بعد أن ذكر الأدلةَ التي تبينُ فضلَ الذكر على الأنثى: «فإذا عرفت من هذه أن الأنوثة نقصٌ خِلْقي، وضعفٌ طبيعي، فاعلم أن العقل الصحيح الذي يدرك الحكمَ والأسرار يقضي بأن الناقص الضعيف بخلقته وطبيعته يلزم أن يكون تحت نظر الكامل في خلقته، القوي بطبيعته، ليجلبَ له ما لا يقدر على جلبه من النفع، ويدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من الضرر»[٢].

والخلاصة: لن يطيب عيش للمرأة السوية العاقلة إلا إذا كانت تحت كنف رجل يحوطها، ويقوم على رعايتها وتوجيهها.

وأجد الآن من الخير أن تقال كلمة الخير في هذا المقام، إذ أهدي نساءنا وبناتنا هذه الطاقات الزهرية المنداة برحيق الحقِّ المختوم بالصدق، والتي قالها المرحوم مصطفى صادق الرافعي، ووجَّهها إلى المرأة المسلمة لكيلا تسمع إلى دعاة الحرية، وبالتالي تجرّ أذيال الخيبة، وتشقى وتُشقي، يقول الرافعي: «احذري تهوّس الأوروبية في طلب المساواة بالرجل، لقد ساوته في الذهاب إلى الحلاق، ولكن الحلاق لم يجدِ اللحية في وجهها»[٣].

ويقول: «احذري أن تخسري الطباع التي هي الأليقُ بأمٍّ أنجبت الأنبياء في الشرق، أمّ عليها طابع النفس الجميلة، تنشر في كل موضع جوّ نفسِها العالية، فلو صارت الحياة غيماً، ورعداً، وبرقاً، لكانت الشمس الطالعة. ولو صارت الحياة قيظاً، وحروراً، واختناقاً لكانت هي النسيم يتخطَّرُ، أمّ لا تبالي إلا

---

(١) انظر: أضواء البيان (٣/ ٤٢١).
(٢) أضواء البيان.
(٣) وحي القلم (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

أخلاق البطولة، وعزائمها، لأن جدّاتها وَلَدْن الأبطال»[1].

ويقول: «حرية المرأة في هذه الـمَدَنيّة أولها ما شئت من أوصاف وأسماء، ولكن آخرها دائماً: إما ضياع المرأة، وإما فساد المرأة»[2].

* * *

(١) وحي القلم (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٢) المرجع السابق (١/ ٢٩٥).

الفصل الحادي عشر

الحقوق المشتركة بين الزوجين

هناك حقوق عديدة مشتركة بين الزَّوجين، يمكن أن نُجمِلَها في النقاط الآتية:

١ـ حِلّ الاستمتاع: إذ إن لكل من الزوجين حق في الاستمتاع بصاحبه، وهذا أمر تدعو إليه الفطرة، ويتوقف عليه النسل.

٢ ـ غَضُّ الطرف عن الأخطاء والهفوات: فكل إنسان خطّاء، وقد تبدُر منه بعض التصرفات غير المقصودة، فمن الواجب على الزوجين الانتباه إلى هذه النقطة المهمة، ولا ينبش أحدُهما عيبَ الآخر، وينسى عيبَ نفسه. قال الشاعر:

أرى كلّ إنسانٍ يرى عيبَ غَيْرِه ويعمى عن العيبِ الذي هو فيه

٣ ـ حسنُ العِشرة: قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. وقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. فكلٌّ من الزوجين مطالب بإحسان معاشرة الآخر، ويكون ذلك بالبُعد عما ينفِّر، والسعي إلى ما يرضي، والتعاون على دفع الشر وجلب الخير، والإخلاص في أداء الواجب مع العطف والتسامح وحسن الحديث، واحترام الرأي، وما إلى ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية من أسباب السعادة والاطمئنان ليدومَ الوفاقُ والوئام، ويتربّى الأولاد في صفاء ونقاء وسلام.

٤ ـ تزيُّنُ المرأة لزوجها والرجل لزوجته: الزينة والاعتدال في الاستخدام سبب لدوام الحياة الزوجية، ولكننا نرى كثيراً من النساء ونسمع بأنهم يُهْمِلْن هذا الجانب، وكذلك الرجال لا يهتم بمظهره ولا شخصيته. وقد حضّ القرآن

الكريم على التزيُّن وتحسين الهيئة فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦]. ومن هنا يجب على الزوجين الانتباه إلى هذا المجال.

وهناك حقوقٌ أخرى مشتركة بين الزوجين أوردتها في ثنايا البحث.

* * *

الفصل الثاني عشر
قصصٌ من الزواج الموفَّق

في تاريخنا القديم والإسلامي قصص من الزواج الميمون تستحق التسجيل والمطالعة، لما تحتويه من فوائد وعظات وعبر ودروس، ينبغي لكل أم وأب وابنة وابن أن يطالعها في هذا الزمان، ليعرف كل واحد منهم حقيقة السعادة الزوجية.

فالحياة الزوجية الناجحة، والزواج الموفق، هو الذي يسوده التفاهُمُ في الدرجة الأولى، ومعرفة كل واحد من الزوجين الحدَّ الذي ينبغي أن يتوقف عنده، لئلا يتجاوز ما ليس من حقِّه.

وإذا كانت الحياةُ الزوجيةُ شعارها الحب والتفاهم كُتِب لها الاستمرار، وحظيت بالاحترام والمكانة اللائقة، ونجحت في التربية وبناء المجتمع.

وقد اخترت من التاريخ بضعَ قصصٍ عن الحياة الزوجية لتكون زاداً طيباً وأسوة حسنة لكل من يودُّ بناء أسرة وحياة زوجية كريمة، فمع هذه القصص نعيش هذه الصفحات.

● **أولاً ـ بُهيسة بنت أوس بن حارثة الطائية:**

في التاريخ العربي صفحاتٌ ناصعاتٌ تحكي قصص العرب في مجدهم الغابر، وعزهم، ومنعتهم، وكذلك حياتهم الاجتماعية، فقد كان ساداتهم يخبرون بناتهم، ويستشيرونهن في أزواجهن، وذلك بعد أن يتخيَّروا لهنَّ الأكفاء حسباً ونسباً ومنـزلة.

ومن ذلك قصة الحارث بن عوف المري وزواجه من بهيسة، حيث قال

الحارثُ يوماً لخارجة بن سِنان: أتراني أخطبُ إلى أحدٍ فيردني؟

قال: نعم.

قال: ومَن ذلك؟

قال: أوسُ بن حارثة بن لأم الطّائيّ.

فقال الحارث لغلامه: ارحَلْ، فركبا حتى لَقِيا أوس بن حارثة في بلاده، فوجداه في فِناء منـزله، فلّما رأى الحارثَ بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث.

قال: وبك.

قال: وما حاجتُك؟

قال: جئتك خاطباً.

قال: لستَ هناك! فانصرف ولم يكلّمه.

ودخل أوْس إلى امرأته مغضباً ـ وكانت من عبس ـ فقالت: مَن الرجل الواقف عليك؟

قال: ذلك سيّد العرب الحارثُ بن عوف.

قالت: فما لك لم تستنـزله؟

قال: إنه استحمق.

قالت: وكيف؟

قال: جاءني خاطباً.

قالت: أفتريد أن تزوّج بناتِك؟

قال: نعم.

قالت: فإذا لم تزوّج سيّد العرب فمن ؟!

قال: قد كان ذلك.

قال: وكيف وقد فَرط منّي ما فرط إليه ؟

قالت: تقول: إنك لقيتَني وأنا مغضب بأمرٍ تقدّم فيه قولاً؛ فانصرفْ ولك

عندي ما تحبّ، فإنه سيفعل[1]. فركب أوس بن حارثة في أثره.

قال خارجة: فواللهِ إنّا لنسير إذْ حانتْ منّي التفاتة، فرأيته فأقبلتُ على الحارثِ، وما يكلّمني غَمّاً.

فقلت له: هذا أوْس بن حارثة.

فقال: وما نصنع به! امضِ، فلما رآنا لا نلتفت صاحَ: يا حارث، اِربَعْ عليّ، فوقف له فكلّمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً. فبلغني أن أوساً لما دخل منـزله قال لزوجته: ادعي لي فلانة ـ لأكبر بناته ـ فأتته.

فقال: يا بُنيّة، هذا الحارث بن عَوْف، سيّدٌ من سادات العرب، وقد جاءني خاطباً، وقد أردتُ أن أزوّجَكِ منه، فما تقولين؟

قالت: لا تفعل.

قال: ولِمَ؟

قالت: لأني امرأة في وجهي ردّة، وفي خُلقي بعض العُهدة[2]، ولست بابنة عمّه فيرعَى رَحِمي، وليس بجارٍ لك في البلد فيستحيي منك؛ ولا آمنُ أن يرى منّي ما يكره فيطّلقني، فتكون عليّ وصْمة.

فقال: قومي بارك الله فيك!

ثـمّ دعا الوسطى، فأجابته بقريب مِن هذا الجواب، ثـمّ دعا الصغرى[3] فقال لها كما قال لأختها.

فقالت: أنتَ وذلك.

فقال: إنّي عرضت ذلك على أختيْك فأبيَاه.

---

(١) كانت ذكيّات النساء من العرب في العصر الجاهلي يعرفن من أين تُؤتى المكارم في الزواج، فكانت المرأة وأهلها يتوخّون فيمن يخطب إليهم مميزات خاصة، لأن الزواج رباط وثيق مأمول الدوام، ولأنه عِشرة بين الزوج وزوجته طول حياتهما.

(٢) الردة: القبح مع شيء من الجمال، والعهدة: الضعف.

(٣) في الأغاني: «ادعي لي بهيسة ـ وهي الصغرى».

فقالت: لكني الجميلة وجهاً، الصنّاع يداً، الحسيبة أباً، فإن طلّقني فلا أخْلَفَ الله عليه[1].

قال: بارك الله عليك!

ثم خرج إلينا، فقال: قد زوجتك بُهيسة بنت أوْس.

قال: قد قبلت.

فأمر أمها أن تهيئها، وتصلح من شأنها، ثم أمَرَ ببيت فضُرِب له وأنزله إيّاه، فلما أدخِلتْ إليه لبثَ هُنيهةً ثم خرج إليّ، فقلت له: أفرغت من شأنك؟

قال: لا والله، لما مددت يدي إليها قالت: مهْ! أعند أبي وإخوتي! هذا لا يكون.

قال: فأمرَ بالرحلة فارتحلنا بها، فسرنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدّم فتقدمت، فعدلَ بها عن الطريق، فما لبث أن لحقني فقلت: أفرغت؟

قال: لا والله! قالت لي: كما يُفعل بالأمَة الجليبة والسبيّة الأخيذة! لا والله حتى تنحر الـجُزُر، وتذبح الغنم، وتدعوَ العرب، وتعمل ما يُعمل لمثلي.

قلت: والله لأرى هيئة عقل، وإني لأرجو أن تكون المرأة النّجيبة، ثم سرنا حتى دخلنا بلادنا، فأحضرْنا الإبل والغنم، ثم دخل إليها وخرَج.

فقلت: أفرغت؟

قال: لا والله.

قلت: وما ذاك؟

قال: دخلتُ عليها أريدها، فقلت: قد أحضرنا من المال ما ترَيْن.

---

(١) كانت المرأة العربية الحصيفة تراعي أن يكون الزوج عربياً عزيز الجانب، لأن العرب كانوا ذوي حَمِيّة وأنفة واعتداد بالنفس والجنس إلى حدٍّ كبير، فقد كانوا ـ وما زال بعضهم ـ يرون أنهم أرقى الأمم وأصفاها، فليس هناك شعب بكفء لأن يصهر إليهم أو يناسبهم.

قالت: والله لقد ذكرتَ لي من الشرف ما لا أراه فيك.

قلت: كيف!

قالت: أتفرُغ لنكاح النّساء، والعرب يقتّلُ بعضُها بعضاً! يعني عَبساً وذبيان

قلت: فتقولين ماذا؟

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلحْ بينهم، ثم ارجع إليّ، وإني لست فائتتَك.

قلت: والله إني لأرى عقلاً وهمّةً، ولقد قالت قولاً حقاً، فاخرجْ بنا. فخرجنا حتى أتينا القومَ، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقين، ثم يؤخذ الفضل ممّن هو عليه. فحملنا عنهم الدّيات، فكانت ثلاثة آلاف بعير.

ثم إن الحارث دخل على بهيسة بنت أوس، فرحبت به وقالت له: أما الآن فنعم يا سيد العرب، فأقامت عنده في ألذِّ عيش وولدت له بنين وبنات، وصنعت من بيتها أجمل حياة زوجية موفّقة في عصر لم تكن الحضارة المجلوبة قد غزت أطرافه. فهل تستفيد نساء عصرنا الحالي من قصة بهيسة ؟! وهل تستفيد الأمهات ـ الحموات ـ من قصة أم بهيسة تلك المرأة العاقلة التي أحسنت تربية ابنتها بهيسة فخلدهما التاريخ بأنصع الصفحات[1].

• ثانياً ـ هند بنت عتبة:

ذكرت المصادر الأدبيّة والتاريخيّة وكتب الطبقات أن هند بنت عتبة قد خطبها سيدان كريمان من قريش، وجاء أبوها عتبة يصف سمات كل واحد منهما لتختار ما يناسبها. ولندعْ ابن عبد ربّه يحدثنا عن ذلك فيقول:

«ذكروا أن هند بنت عُتبة بن ربيعة قالت لأبيها: يا أبتِ، إنك زوّجتني من هذا الرجل ولم تُؤمرني في نفسي، فعرض لي معه ما عرض، فلا تزوجني مِن

---

(١) انظر: العقد الفريد (٦/ ١٥٩-١٦١)، والمستطرف (٢/ ٢٢٢)، وأعلام النساء (١٠/ ١٥٦ و ١٥٧) مع الجمع والتصرف، وكلها نقلاً عن الأغاني.

أحد حتى تعرضَ عليّ أمره، وتُبين لي خصالَه. فخطبها سهيلُ بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، فدخل عليها أبوها وهو يقول:

أَتـاكِ سُهيـل وابـنُ حـرب وفيهمـا رضـاً لـكِ يـا هنـدَ الهنـود ومَقنَـعُ
ومـا منهمـا إلا يُعـاش بفَضْلـه ومـا منهمـا إلا يَضُـر وينفـعُ
ومـا منهمـا إلا كـريـم مُـرَزّأ ومـا منهمـا إلا أغـرّ سَمَيْـدعُ
فـدونـكِ فـاختـاري فـأنـت بصيـرةٌ ولا تُخْـدعـي إنّ الـمُخـادع يُخـدعُ

قالت: يا أبتِ، والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسّر لي أمرَهما وبيّن لي خصالَهما، حتى أختار لنفسي أشدّهما مُوافقة لي. فبدأ يذكر سُهيل بن عمرو.

فقال: أما أحدهما ففي سِطَةٍ من العشيرة، وثروة من العيش، إن تابعتِه تابعك، وإن مِلْت عنه حطّ إليك، تحكمين عليه في أهله وماله.

وأما الآخر فُموسَّع عليه مَنظور إليه، في الـحَسب الحسيب، والرأي الأريب، مِدْره أرُومته، وعِزّ عشيرته، شديد الغَيرة، كثير الطِّيَرة لا ينام على ضَعة، ولا يرفع عصاه عن أهله.

فقالت: يا أبتِ، الأول سيدٌ مِضْياع للحُرَّة، فما عَسَت أن تَلين بعد إبائها، وتصنع تحت جناحه، إذا تابعها بعلُها فأشرت، وخافها أهلها فأمنت، فساءت عند ذلك حالُها، وقبح عند ذلك دلالُها، فإن جاءت بولدٍ أحمقت، وإن أنجَبت فمن خطأ ما أنجبت، فاطْوِ ذكر هذا عنّي ولا تُسمّه لي.

وأما الآخر فبعل الفتاة الخَريدة، الحُرة العفيفة، وإني للتي لا أريب له عشيرة فتغيره، ولا تُصيبه بذُعر فتضيره، وإني لأخلاق مثل هذا لـمُوافقة، فزوّجنيه. فزوّجها من أبي سُفيان. فولدت له مُعاوية، وقبله يَزيد، فقال في ذلك سُهيل بن عمرو:

نُـبّئـت هـنـداً تَـبّـر الله سعْيَـهـا تأبّتْ وقـالت وَصْـف أهـوج مائـقِ
ومـا هَـوَجِـي يـا هنـدُ إلا سَجيّـة أجُـرُّ لهـا ذيلـي بِحُسـن الخـلائـقِ
ولو شئتُ خادعتُ الفتى عن قَلُوصه ولاطَمْت بالبطحاءِ في كلّ شارقِ
ولكنّنـي أكـرمـتُ نفسـي تكـرّمـاً رافعـت عنـا الـذم عنـد الخـلائـقِ
وَإنـي إذا مـا حُـرَّةٌ سـاء خُلْقهـا صبـرتُ عليهـا صَبْـرَ آخـر عـاشِـقِ

فإنْ هِيَ قالت خَلِّ عنها تركتُها ... وأفلِلْ بتَـركِكَ مـن حبيـبٍ مُفـارقِ
فإن سامحوني قلتُ أمري إليكُمُ ... وإن أبعدوني كنتُ في رأسِ حالقِ
فلـم تَنْكحـي يـا هنـدُ مثلـي وإننـي ... لِـمَن لم تَمِقْني فاعلمي غيرُ وامقِ

فبلغ أبا سفيان، فقال: والله لو أعلم شيئاً يُرضِي أبا زيد سوى طَلاق هند لفعلته. وألح سُهيل في تنقّص أبي سفيان. فقال أبو سفيان:

رأيـت سُهيـلاً قـد تفـاوت شـأوهُ ... وفَـرّط فـي العَليـاء كُـلّ عِنـانِ
وأصبـح يَسْمـو للمَعـالـي وإنـه ... لَـذُو جَفْنَـةٍ مَغْشيّـة وقِيـانِ
وشَرْبٍ كرام من لُؤَي بن غالب ... عِراض الـمَساعي عُرضة الـحَدثانِ
ولكنـه يـومـاً إذا الحـربُ شَمّـرت ... وأُبـرِزَ فيهـا وجـه كـلّ حَصـانِ
تطـأطـأ فيهـا مـا استطـاعَ بنفسـه ... وقنّـع فيهـا رأسَـه ودَعـانـي
فـأكفيـهِ مـا لا يُستطـاع دفـاعُـه ... وألقيـتُ فيهـا كَلْكلـي وجِـرانـي[1]

• ثالثاً ـ أمامة بنت الحارث وابنتها أم إياس:

من أجمل ما أتحفتنا به قصص تاريخ الحياة الزوجية الناجحة قصة أمامة بنت الحارث مع ابنتها في وصاياها العشر المشهورة لإنشاء الحياة الزوجية السعيدة، وإرضاءِ الزوج والقيام على شؤونه.

وأمامة بنت الحارث امرأةٌ من طرازٍ فريد، وحبّذا وجودُ مئاتٍ بل ألوف مثلها في هذا الزّمن وكلّ زمان، كي ترفرفَ السعادةُ الزوجيةُ بجناحيها على كلّ البيوت، لأنها كانت تقدّسُ الحياة الزوجية، وتغرس في نَفْسِ ابنتها هذا الإجلال، وهذا الاحترام، لتكون مطْواعاً للرجل، مِعْواناً له، ونستطيعُ أن نلمسَ نظرةَ هذه المرأة للزواج والزّوج في وصيّتها، بل وصاياها العشر لابنتها أمّ إياس في ليلة زفافها، تلكمُ الوصايا التي قدّمت لها أمامةُ بمقدمةٍ تضيءُ لها بها دَرْبَ الزوجية، وتمهّدُ لها فيها حكمة الزّواج حيث قالت لها بعد أن خَلَتْ بها:

«أي بُنَيّة! إنّ الوصيةَ[2] لو تُرِكتْ لفَضْل أدبٍ، لتركْتُ ذلك لكِ، لكنها

---

(١) انظر: العقد الفريد (٦/ ٨٧ و٨٨).

(٢) «الوصيةُ»: الوصيةُ بمعنى: النصح، والإرشاد، والتوجيه، وهي قولٌ بليغ مؤثّر، يتضمنُ حثّاً=

تذكرةٌ للعاقل، وتوعيةٌ للغافل، ولو أنّ امرأة استغْنَتْ عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنتِ أغنى الناسِ عنه، ولكنّ النساءَ للرجالِ خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِق الرجال.

أي بُنية! إنّك فارقتِ الجوَّ الذي منه خرجتِ، وخلفت العشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وكْرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبحَ بملكه عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أَمَةً يكنْ لك عَبْداً وشيكاً».

ولما انتهت أمامةُ من هذه المقدمة النفيسة، قالت لأمّ إياس بلسان النُّصح، والإرشاد، والحبِّ والعلم:

«يا بنية! احملي عني عشْر خصال تكنْ لكِ ذخراً، واحفظيها تكن لك ذِكْراً:

أما الأولى والثانية: فالصُّحبةُ بالقناعةِ، والمعاشرةُ بحسنِ السمْعِ والطّاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتّعهّد لمواضع عينيه، والتّفقدُ لموضع أنفِهِ، فلا تقعُ عينه منكِ على قبيحٍ، ولا يشم منك إلا أطيب ريحٍ، والكحلُ أحسنُ الـحُسْنِ، والماءُ أطيبُ الطِّيْبِ المفقود.

أما الخامسة والسادسة: فالتّعهدُ لوقتِ طعامِهِ، والهدوءُ عند منامه، فإنّ حرارةَ الجوعِ ملهبةٌ، وتنغيصُ النّوم مغضبةٌ.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس ببيته وماله، والإرعاءِ على نفْسهِ وحشمِهِ وعياله، وملاكُ الأمْر في المال حسنُ التّقدير، والإرعاء على العِيال والحشم جميل حسن التقدير.

= على سلوكٍ طيّبٍ نافع، حبّاً فيمن توجّه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجَلْب الخير له.
وعادة تكون الوصية من أولياء الأمور، وخصوصاً الأب والأم لأبنائهما عند المناسبات، وعند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات، أو الإحساس بدنوّ الفراق.
والوصية نتيجة الخبرة الطويلة، والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي، والتفكير السّليم، ويدفع إليها المودة الصادقة، والحبّ العميق. هذا وكتُبُ المصادر تزدان بكثيرٍ من الوصايا الجميلة التي تزينُ جيْدَ الأيّام، لما تحمله من معانٍ عِظام، وفوائد جِسام، تصلح للخاص والعام.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصي له أمْراً، ولا تفْشي له سِراً، فإنكِ إنْ خالفتِ أمْره أوغرتِ صدره، وإنْ أفشيتِ سرّه لم تأمني غَدره، ثم اتقي مع ذلك الفرحَ بين يديه إنْ كان تَرِحاً، والكآبة عنده إنْ كانَ فرحاً، فإنّ الخصلة الأولى من التّقْصير، والثانية من التكدير، وكوني أشدّ ما تكونين له موافقةً، يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنّكِ لا تَصِلين إلى ما تحبين حتى تُؤثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواك فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يخيرُ لكِ»[1].

ووصية أمامة بنت الحارث عنوان سعادة الحياة الزوجية في كلِّ عصر، إذ لا شكّ بأنّ كلماتها عقْد منظومٌ، تزدان به المجالسُ، وتتحلى به أفواهُ مَنْ ينشُدُ السعادة من النساء، ولا ريب بأنّ أمامة بنت الحارث قد خَبِرت الحياة وتجربة الزوجية، فصاغتْ تجاربها بتلكم الوصايا النبيلة التي وعَتْها لنا أُذنُ الأيام الواعية، وحفظتها لنا كُتُب العربِ ومجالسهم.

لذلك أحببتُ أن ألقيَ بعض الأضواء الكاشفة على فقْراتِ هذه المرأة الفاضلةِ كي تترسخَ صورتها أكثر في الأذهان، وتُحْفظَ وصاياها في قلوب الحِسان، بل وتُطبّقُ هذه الوصايا النساء في كل عصر وزمان، لكونها صدرت عن أمّ حكيمة معروفة بالفصاحة وسَداد الرأي، وروائع التربية، وحسن التّبعُل لزوجها.

فمما يدلّ على ذكائها أنها اختارتْ مكانَ الوصية، إذِ انفردتْ بابنتها كيما يكونَ الحديثُ صريحاً لا مجاملة فيه ولا مواربة، ولا تأثير فيه لأحدٍ منْ أقاربها أو أترابها، كما هو معهودٌ في سائرِ الأعراس.

واختارتْ أمامة زَمَنَ الوصية أيضاً، فكان قُبَيل أن تحمل إلى زوجها ملك كندة، وذلك لكي تبقى آثارُ وصيّتها ماثلة في ذهنِ ابنتها، وإذ ذاك لا تحيدُ ولا تريمُ عما قالته أمُّها قُبَيْل وداعها وانطلاقها إلى عشّ الزوجية.

---

(١) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها والتصرف اليسير: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ١٩٢)، والعقد الفريد (٦/ ١١٠ و ١١١)، وقصص العرب (٢/ ٧٨ و ٧٩)، ومحاضرات الأدباء: (٢/ ٢١٢)، وبلوغ الأدب (٢/ ١٩)، وغيرها.

وإذا أمعنا النظر في مقدمة الوصية ألفينا تعقّلَ هذه الأمِّ الواعية الكريمة، إذ خاطبت ابنتها بلفظٍ يُدخل الأنسَ إلى نفسها، وهو استخدام لفظ: «بُنيّة»، والتصغير وسيلةٌ مِنْ وسائل التحبُّبِ إلى النفس.

وبعد هذه الكلمة المغناج اللَّطيفة، أبانتْ لها الأم بأن الوصية مهمّة، وأنّ جميعَ النساء بحاجة إليها، بل جميع الناس على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ومنابتهم وأحوالهم، حتى مع الذين أَحْسَنَ أهلوهم تأديبهم وتربيتهم على صالح الأعمال، وكريم الخِلال، وأبانتِ الأم أن الوصية هذه تأتي من باب الذكرى؛ فالذكرى تنفعُ، وكلّ ذلك مِنْ باب الاستعانة بأهل العقل والحكمة والحياة، وإنه ما خابَ من استخار، ولا ندمَ من استشار أهلَ العقلِ والحكمة، والأخلّاء من أهلِ الحزم والفطنة[1].

وتأتي أمامةُ بعد هذا لتغرسَ في نفْسِ ابنتها أهمية الزوج في حياة الزوجية، ومكانته في نفسها، وإن كانت الزوجة من الثراء والمكانة، وعرّجت أمامةُ على الفطرة الإلٰهية، وحسنِ استخدامها في حياة التّبَعُّل، وأبانتْ بأن الله عز وجل قد جعل من الحكمة في مخلوقاته أنْ خلق النساء للرجال ليكُنّ سَكناً وأُنساً لهم، وخلق كذلك الرجال للنساء ليكونوا لهنّ عوناً على تقلبات الأيام.

وطرحت أمامةُ حكمةً مهمَّة جداً، وأوقفت ابنتَهَا على حقيقة ظاهرة، وهي مفارقتُها البيتَ الذي دَرَجت فيه وعاشت صباها تحت أفيائهِ، ومن ثمّ انتقالها إلى البيتِ الذي سيكونُ مآلها ووكْرها، وهذا البيتُ مغايرٌ لبيتها الأول بمن فيه وما فيه.

ثم بعد ذلك كله أخذتِ الأمُّ تمهِّد لابنتها السبيلَ القويمَ الوضيءَ للحياة الزوجية، وامتلاكِ ناصية الزوج، ورسمت لها الـخُطواتِ الصحيحة في انقياد الزوج لها إذا ما سارت على النهج الآتي: فقد أمرتْهَا أن تكون كالأمَةِ المِطْواع

---

(١) ويحضرني قول الشاعر في هذه المناسبة:

إذا ما كنتَ متخذاً خليلاً ... فلا تَثِقَنّ بكل أخي إخاءِ

فإن خُيّرت بينهم فالصَقْ ... بأهلِ العقلِ منهم والحياءِ

عند سيّدها الشجاع، وإذ ذاك يكون هذا الزوجُ رَهْنَ إشارتها مهما عَلَتْ مرتبته، ومَهْما عظمت شوكته، وتناهتْ خبرته، وفاحت شهرته، وامتدّ سلطانه، وكثر أعوانُه وخلاّنه وأخدانه وإخوانه.

● رابعاً ـ آمنة بنت وهب وزواج ميمون:

كان في بني عبد المطلب فتىً يُعدّ زهرةَ فِتيان قريش، وقمر نجومها الزواهر، وقد أصبحَ مِلءَ الأسماع والأبصار ـ خصوصاً ـ بعد قصة فدائه بمئةٍ من الإبل ـ هذا الفتى الوسيم هو عبد الله بنُ عبد المطّلب الهاشمي القُرشي.

وها هو ذا عبد الله قد غدا شاباً جميلاً، قويَّ البنيان، بهيّ الطلعة، تلوحُ علائم الحُسنِ على وجههِ النّضر، تشهدُ له، لا عليه؛ وكان عبد الله بالإضافة إلى ذلك كله نسيباً حسيباً شريفاً أصيلاً، ثابتَ الأصولِ في مَجْد العراقة، متطاول الفروع في أفقِ السيادة، ولا عجب أن يغدوَ مَطْمَعَ الآمالِ، وغاية الأماني، وحرزاً للغِيدِ الحِسان، مِنْ شريفات وفضليات قريش، يصرنَ زوجاً لهذا الفتى الكريم النّبيل!!

كان في عبد الله شيئاً غامضاً جميلاً مُثيراً، شدّ بعض نسوة قريش إليه، لقد كان فيه شيءٌ تتفتّحُ له الرُّوح قبل أن يحنّ إليه الجسدُ، إنّ فيه إشراقاً رائعاً لم يكنْ مثله في شباب قريش، إنّ فيه سِراً لا يعرفُ أحدٌ حقيقةَ كُنْهِهِ، لكنّ كثيراً منَ المشتغلين بالكهانة توقعوا أنْ يكون لهذا الفتى شأنٌ ما.

وكان لعبدِ المطلب عشرة بنين، ولكنّه كان يحسُّ بميْل خاصٍّ نحو ابنهِ عبد الله يختلف عن مَيْلهِ لسائر إخوته، وكان عبدُ المطلب لا يدري ما السّرُّ في ميله هذا لعبد الله، وخصوصاً بعد فدائه من قصّةِ الذبح المشهورة، وخلاصتها أنّ عبد المطلب نَذَر نَحْر بعضِ ولده إنْ سهّل الله له حَفْرَ زمزم، فلمّا تمّ له ما أراد أسْهَم بين ولده، فخرج السهمُ على عبد الله، فهمّ عبد المطلب بذبحه، ولكنّ إخوته وقومه أشاروا عليه أنْ يفديَه بالمال، فأسهمَ عليه عشرةً من الإبل، فخرج السّهْمُ على عبد الله، ثم ما زالوا يزيدون عشراً حتى بلغتِ الإبل مئة، عندئذٍ وقعَ السهمُ على الإبل، وفُدِيَ عبد الله.

وبعد هذه الحادثة رأى عبد المطلب أن يزوج عبد الله بِكْراً من كرائم بيوتات قريش، وفكّر عبد المطلب فيمن تكون قرينةً لابنهِ الأثير الوسيم، فَهَداه تفكيره إلى الحسيبة الـمُعْرقةِ في النّسب، فتاة بني زُهرة آمنة بنت وهب، فهي التي تتفرّدُ بين نساء قُريش وبين زهرة بفضائلَ ومكارمَ لا توجد في غيرها.

ولما قويَ عزمُ عبدِ المطلب على ذلك، أرسل إلى بني زُهرة يخبرهم برغبتهِ في زواجِ ابنه عبد الله من ابنتهم آمنة، وبلغ الخبرُ وهْبَ بنَ عبد مناف، فرحّب بذلك، وبَعَثَ مَنْ ذهب إلى دور بني زُهرة بالبشرى وقال: إن عبد المطّلب بنَ هاشم زعيمَ قريش وشريفَها قادمٌ هو وابنه عبد الله منْ أجلِ آمنة.

وانتشرَ هذا النّبأ بين نساءِ بني زُهرة، ففاضتِ القلوبُ بالسرور، وأسرعت برّةُ بنت عبد العُزّى لتزفّ إلى ابنتها آمنة هذا الخبر الكريم السّارّ، وقالت لها وقد بدتْ علائمُ الفرحِ على وجهها: يا آمنة؛ إنّ عبد المطلبِ سيد قريش قادمٌ ليزوجك عبد الله.

ويبدو أنّ آمنة قد أطرقتْ حياءً عند سماعها هذا الخبر، ـ وإن أشرقَتْ أساريرُها ـ وبدأ قلبُها الطّاهر يخفق بأعذبِ خفقانٍ في الوجود، وأعظم خفقان يحقّق أحلامَ فتيات قريش اللواتي كنّ يحلمْنَ لو يُزفّ إليهن ذلك النبأ الجميل الـمُفرِح.

وأعتقدُ أنّ آمنةَ عندما سمعتْ من الكاهنةِ سودة الزهرية ما سمعتْ منذ مدّة منَ الزمن، أصبحتِ الأمنياتُ تتراقصُ أمام خيالها، وأضحتْ أعزّ أمنيات حياتها أنْ يأتي البشيرُ بأعذب نبأ يهفو إليه فؤادها، وتُبْسَطُ له أساريرها، وها هو البشير يأتِ فيلقي الـحُلْمَ الذي غَـدا حقيقةً، ومَنْ هذا البشير؟! كان أُمّها الحبيبة التي حملت إليها البُشرى وهي متهللةُ الأسارير. ومَنْ هو الخاطِب؟ إنّه عبدُ اللهِ بن عبد المطلب زينةُ فتيانِ قريش وزهرةُ شبابهم، إنه الحسيبُ النّسيبُ الأصيلُ الشريف.

اللهُ أكبر، ألا ما أحلى هذه البُشرى، وما أجمل تلك اللحظات التي سَمعتْ

فيها تلكم الكلمات العِذاب وهي تنبعث مِنْ فمِ أمّها: يا آمنة إنّ عبد المطلب سيد قريش قادمٌ ليزوجَك عبد الله.

ها هي آمنةُ تستشعرُ أنّ الوجودَ كله يخفق بالفرح، وأنّ جبالَ مكةَ وأوديتها تترنّمُ بأهازيج البهجة، وتشدو بأعذبِ أنغام السرور.

وها هي آمنة أيضاً تفيقُ من حلمها، لتحلّقَ في حُلم آخر، فإذا بها تستشعرُ بأنّ إشراقاتٍ باهرةً قد أطلّتْ على الكونِ فغمرته بأنوارٍ لطيفة تملأ النّفوسَ أمْناً ووئاماً ومودّة.

لقد حلّقتْ آمنة ثانيةً حتى أحست كأنّما تسْبحُ في فضاءٍ رَحْبٍ هواؤُه الحبورُ والسّرور، ولكنّها لمحتْ في تلك اللحظات أنّ عيني أمّها مصوبتان نحو وجهها المنير، فراحت تجاهدُ نفسها لتداري حقيقة مشاعرها؛ إلا أنّ وجهها كان مرآةً صادقةً للمشاعر النّاعمة التي ارتسمت عليه، وراحتْ أمّها ترنو إليها بعينين قد طفرتْ منهما دموعُ الفرحِ، وقد هزّتْها نشوةُ السرور هزّاً.

وقدمَ شيخُ قريش وسيّدُها عبد المطّلب وفي صحبته ابنه عبد الله، ودخل دار وهْبٍ في دور بني زُهرة، ومعه عدد من بناته ونسوة من بني هاشم، ودخل وهبٌ على ابنته وقد تألقتْ عيناهُ سروراً بهذه الـمُصاهرة الكريمة، وقال لها: يا بُنية، إنّ شيخ بني هاشم قد جاء يطلبك زوجةً لابنه عبد الله.

وسَرَتْ موجةٌ من الخجل جعلتْ آمنة تُسْبِل عينيها أمامَ أبيها وهو يقرأ عليها نبأ الفرحةِ التي ملأتْ جوانحها، ولكنّ وهْباً لم ينتظرْ من آمنة ردّاً، فعلاماتُ السرور المرتسمة على الوجوه، والكلمات التي تنبعثُ من القلوب، وتسيلُ على الشفاه، أبلغ تعبير يشير بكلِّ أصابع الودِّ إلى التّرحيب بهذه المصاهرة الرائعة.

لقد كانت السعادةُ غامرةً، والفرحةُ هائمةً في بحار السرور، وكلّ هذه الإشراقات الهامسة لفّتْ دارَ وهْبٍ، وغمرت كلّ مَنْ فيها من رجالٍ ونساء وفتيان وفتيات، بل إنّ تلكم الإشراقات الآسِرة قد فاحتْ حتى ملأتْ دُورَ بني زهرة، ثم دورَ مكة كلّها، ولم يحسّ بالحسرة والألم، إلا قلوب أولئك الفتيات

اللواتي كُنّ يطمعْنَ ويرغَبْنَ في زواجِ عبد الله، وكذنَ يـمُتْنَ حَسْرةً إذ لم يتزوجْنَ عبد الله، وتحطمت أحلامهنّ، وراحت تَذْروها رياحُ الخيبة، وتعصفُ بها أعاصير الحسرات.

واجتمعَ رجالُ بني هاشم، ورجال بني زُهرة، وجلس عبدُ الله بنُ عبد المطلب متسربلاً بالجمال وإشراق الطلعة بين أبيه وإخوته ومَنْ حوله مِنْ باقي أقاربه، بينما جلستْ آمنةُ بنت وهْب فتاة بني زُهرة في نسوةٍ من قريش، وكانت تتيهُ بجمالها وشرفها ومقامها على بنات أشرافِ مكة و ساداتها.

كان ذلك الجمْعُ يحتفون ويحتفلون بذلك الرّباطِ الوثيق الذي سيربطُ بين أفضَل حيَّيْن في العرب، بَلْ وقريش؛ يربطُ بين بني هاشم وبني زُهرة، بل ويربط أيضاً بين أفضل رجلٍ وامرأةٍ سيأتي منهما أعظم نبيّ أُرسِلَ في الأوّلين والآخرين، سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ.

وكعادةِ العرب في الزواج، نهض عبدُ المطلب، وألقى خطبة الزواج، وأخذ يعدّدُ مناقبَ قريش وبني هاشم، ثمّ طلب من وهب أن يزوّج عبد الله آمنة، فقام وهْبٌ وعدَّدَ مناقب بني زُهرة، ثم أنعمَ بزواجِ عبد الله وابنته آمنة، فقام جميعُ الحضور مهنئين هذا الزواج الميمون.

وطارتِ النّسوةُ الهاشميات والزّهريات إلى آمنة يقبّلْنَها ويتمنين لها السّرور والسعادة، ويبدو لي أنّ سودة عمّة وهب كاهنة مكة، لم تكن بمعزلٍ عن هذا الجَمْع الأليف اللطيف، فقد كانت تقفُ وتجيلُ فيهن الطرف، بأنها ستلد نذيراً، وها هي الآن ترى في وجهها شيئاً مُثيراً يهزّ وجدانها، وقد عجزتْ هي وكهانتها أنْ تكشف اللثامَ عن حقيقته، أو تزيل حُجُبَ الأستار عن ماهيته، فهو شيءٌ رائع لم تَرَ في وجوه فتياتِ العرب مثله، إنّه شيءٌ جميلٌ تهفو إليه الأرواح، ولكنّه يستعصي على فراسةِ الكهان والكاهنات، والعرّافين والعرّافات، والزّاجرين الطّير والزّاجرات.

كان رجالُ قريشٍ ونساؤها، ورجال بني زُهرة ونساؤها فرحين مستبشرين

بزواجِ آمنة وعبد الله، فآمنةُ أفضل امرأة في قريش نَسَباً وموضعاً[1]، وهي زَهرةُ بني زُهرة، وعبد الله فتى قريش وريحانة أبيه.

وبنى عبد الله بن عبد المطلب سيّد فتيان قريش بزوجِهِ آمنة بنت وهب سيدة نساء بني زهرة، فأقام عندها ثلاثاً على عادة العرب في ذلك، وكانت تلك السنّة عندهم إذا دخل على امرأته في أهلها أقامَ عندها ثلاثاً.

كانت ليلةُ بناء عبد الله بآمنة ليلة لها قَدْرها، وما مِنْ أحد في مكة قدّر عِظَم تلك الليلة حق قدرها، فقد كانت بحقّ ليلة مباركة متفرّدة منْ أيام الزمان، بل لم يَجُدِ الزمان منْ قبلُ بمثلها، ليلة قُدّر لها بأنْ تكون مبدأ مَنْ سيجعله الله رحمة للعالمين، كانت ليلة طيبة العبير، نديّة الأريج، ملأ شذاها أرجاء الدّار، بل أرجاء البسيطة، إذ حملتْ آمنةُ بنور الهدى والرّحمة المهداة محمد ﷺ.

ومرّتِ الأيام الثلاثة المباركةُ السّعيدةُ التي أمضاها عبد الله وآمنة في بيت وهْب، ثمّ إنّه أخذَها وانطلقا إلى داره قُرب البيت العتيق، وما كانت آمنةُ تدري ـ للوهلة الأولى ـ أنها قد حملت بدعوة إبراهيم أبي الأنبياء ـ عليه السلام ـ هاتيك الدعوة المباركة التي ظلّتْ تخفقُ في قلبِ الوجود منذ مئاتِ السنين، بل من الماضي البعيد، يوم أن رفعَ إبراهيم وابنُه إسماعيل القواعدَ من البيتِ؛ يومها دعا إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

كان عبد الله مُذْ بنى بآمنة يستشعر في أعماقه أنّ شيئاً عظيماً مُثيراً قد حَدَثَ، ولكنّه لم يدركْ سرَّه، فقد شعر منذ الليلة الأولى، التي التقى فيها آمنة؛ بأنها ليلةٌ رائعة لم يرَ أجملَ منها طوال حياته.

وجلسَ عبدُ الله قربَ البيت العتيق، ينظر إلى الكعبة وقد أرخى الليل سدوله على الدنيا، إلا أنّ القمرَ كان يتوسط السماء، ويرسلُ أشعته إلى جبال مكة

(١) «نسباً» من جهة الأب؛ «موضعاً»: من جهة الأم.

وأرضها، وقد انسكب ضوؤه على البيت العتيق فغمره بنورٍ لطيف.

كان عبدُ الله ينظر إلى القمر نظرةً تختلف عمّا قبل، إنه طالما سرى في الليالي العديدة، وطالما أحسّ سِحْرَ القمر وتذوّقَ جماله، ولكنّه الآن يرى القمر في تلك الليلة شيئاً آخر، كأنه كان أكثر تألُّقاً مما كان، وكأنّ أشعته الفضيّة عواطفُ حانيةٌ ساحرةٌ مفعمة بخيوط المحبة، تحتوي الوجود كلّه بين لحمتها وسَداها، وقد هبّ نسيمُ الليلِ رخاءً، كأنما يحملُ بشرى ورحمة للناس كافة.

إنّ أريجَ تلك الليلة لا يزالُ طيّباً في أعماقه، وإنّه لفي دهشةٍ منْ أمره، أفاحَ الطِّيبُ من أرجاءِ الدنيا حقّاً، أم انبعثَ من نفسه ؟! لقد أحسّ برائحة المسك الأذفر منذ تلك الليلة المباركة التي بنى فيها بآمنة، ورأى الدنيا تتلألأ بالبهجة والإشراق، ورأى الوجودَ باسماً من حوله، لكنّه لا يدري ما سرّ ذلك[١].

• **خامساً ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب:**

كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها زوجاً لخنيس بن حذافة السهمي، ولكن خنيساً قد أصيب بغزوة بدر وقضى نحبه بعد أن جُرح جراحات بالغة، ودُفنَ بالبقيع وصلى عليه رسول الله ﷺ، ودفنه بالبقيع إلى جانبِ عثمانَ ابنِ مظعون رضي الله عنه. وحزنت حفصة كثيراً لوفاة زوجها، لكنها صبرت صبراً جميلاً، وراحت تُكْثِر من العبادة والذكر والقنوت.

بقيتْ حفصةُ أرملةً بضعة أشهر، وكانت بوادر الذكاء ظاهرةً على قَسماتِ وجهها، وكذلك كانت بوادرُ الحزن ما تزال مرتسمةً تبدو على تصرفاتها، ولم تَخْفَ علائم الحزن على العبقريِّ عمر الذي كان ينظر بعينه اللمّاحة، ويبصر بنور البصيرة ما تعانيه حفصة ابنته من ألمٍ وضيق، ولكنّه كان يشعر بالسّرور يغمرُ أرجاء نفسه حينما يَلْحظُ تعلقها بالعبادة، وصِلَتها بالصَّلاح ومَحامِد المكارم.

كان رسول الله ﷺ يسأل عن أحوال أصحابه، وعن شؤونهم، ولا شكّ أنّه

---

(١) انظر: نساء من التاريخ (ص ٢٨ ـ ٣٣)؛ وانظر بلوغ الأرب (٣/ ٤٤)، والسيرة الحلبية (١/ ٧٤).

عرف ما حلَّ بزوج الشهيد خنيس، وابنةُ صديقه عمر بن الخطاب، وها هي الآن في عدتها، وقد رثى لحالها. ويبدو أن أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه، وهو الصّديقُ الصّدوق، قد لاحظ أن رسولَ الله ﷺ يعرّضُ بخطبة حفصة كيما تدخل رحاب البيت النبوي لتغدو إحدى أمهاته اللاتي أذهبَ الله عنهن الرّجس، وأكرمهن ومَنّ عليهن بالطهارة، ولكنّ سِرّ رسول الله ﷺ سيُحفظ في صَدْرِ الصّدّيق أبي بكر ولن يَطّلعَ عليه أحدٌ.

أحبّ الفاروق عمر أن يَسنّ سنّةً حسنة في المجتمع الإسلامي، فأخذ يبحثُ عن منبعِ السعادة لابنته حفصة بطريقةٍ لعلها تكونُ جديدةً على الصّحابة الكرام ولكنها منطقية، فيها دِفء الإسلام، وصدق الحنان، وفيها كلّ معاني الخير والصلاح.

وأخذ الفاروقُ رضي الله عنه يفكّرُ في الطريق التي تثمرُ فيه فكرته التي برَقَتْ في ذهنه منذ فترة، فوجد أن أقربَ الأساليب لتحقيقها أنْ يفاتح أحبابه وأصحابه بما يعتمل في صدره، وما يجول في خاطره.

نظر عمرُ رضي الله عنه إلى صديقه عثمانَ بن عفان، فإذا بعثمان يتلوّى من الألمِ والحزن على فراق زوجه رقيّة ابنة رسول الله ﷺ، وتكاد نفسه تذوبُ حزناً على فراقها، وإنّ بين ضلوعِه ناراً تتلظّى، وفي الـحَلْقِ جفاف، وفي القلب سهام على رحيلِ ابنة رسول الله.

رفرفرتْ على شفاه عمر فكرة؛ أيمسحُ آلامَ عثمان بن عفان بأنْ يعرض عليه ابنته حفصة كيما تكون زوجاً له، وهو يعلمُ أنّ حفصةَ ليستْ كرقية بنت النبي ﷺ، ولكنه آثَرَ أنْ يبعدَ عنه وحشة الوحدة، ولما قويت في ذهنه هذه الفكرة، تعرّض لعثمان رضي الله عنه وعرض عليه ـ بعد أن واساه برقيّة ـ وقال له: إن شئت أنكحتك ابنتي حفصة!

ويظهر أن عثمان رضي الله عنه قد هزّتْه هذه المفاجأة، ولكنّه أجابَ عمر إجابةً شافية فقال: سأنظرُ في أمري.

ولبث عمر بضعة أيام، ثمّ لقي عثمان ثانية، وذكّره بزواج ابنته حفصة، فقال

عثمان: دعني يابن الخطاب، فقد بدا لي أنْ لا أتزوج في يومي هذا.

وشعر عمرُ بنُ الخطاب إذ ذاك بضيقٍ يجثمُ على صدره، ووجدَ في نفسه شيئاً من عثمان أنْ رفضَ ابنته العابدة القانتة، وربّما عَذرَ عثمان، فحزْنُه على زوجِهِ رقيّة ما يزال يحزُّ بنفسه.

مكث عمرُ أياماً يفكّرُ بمنْ يعرض عليه ابنته، فإذا به يلتقي الصّدّيق، ومَنْ كالصديق؟ إنه نِعمَ الصّدِيق، ونعم العون على المصاعب، وربّما يجد عنده السعادة لابنته حفصة، فتقدم منه وقال له: يا أبا بكر، إنْ شئتَ زوّجتك حفصة ابنة عمر.

وهنا صمتَ أبو بكر رضي الله عنه بعد أنِ ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة رقيقة رفيقة بعمر، ولكنّ عمر وَجدَ عليه أكثر من عثمان، وتأثّر من موقفِ هذين الصّدِيقيْن اللذين أحبّ أن يكونا عوناً على ما حلّ به وبابنته، وحَسِبَ أنه قد سنّ سنّةً حسنة نحوهما، وأسدى إليهما معروفاً يزيد من رصيده عندهما.

إلا أنّ عمر رضي الله عنه لم يتوقف عند ذلك الحد، وأحبّ أن يبثّ حزنَه إلى حبيبه محمدﷺ، وذهب إلى رسول الله ﷺ، وشكى حاله، فقال له رسول الله ﷺ مواسياً مبتسماً: «يتزوّجُ حفصة مَنْ هو خير مِنْ عثمان، ويتزوج عثمان مَنْ هي خير من حفصة»[1].

ومضتْ أيامٌ فإذا النبي ﷺ يزوّج عثمان ابنته أمّ كلثوم بعد وفاة أختها رقية؛ وبرقت في ذهنِ عمر فكرة نديّة؛ حقاً إنّ أم كلثوم خيرٌ من حفصة !!! ولكنْ منْ هو خيرٌ من عثمان؟

وأشرقت في نفس عمر بارقة أمَلٍ رفيقة، أيكون الرسولُ ﷺ خيراً من عثمان؟!

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٩/ ٨١-٨٥) برقم (٥١٢٢) باب: عرض الإنسان بنته أو أخته على أهل الخير. وأخرجه أحمد (١/ ١٢) وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٨٢) وأزواج النبي للصالحي (ص ١٣٨) والاستيعاب (٤/ ٢٦٠ و ٢٦١) وأسد الغابة (٦/ ٦٥) وأنساب الأشراف (١/ ٤٢٣) وغيرها كثير من المصادر.

أتكون حفصة زوجاً له؟ إنّ رسول الله ﷺ يتزوّجُ بوحيٍ إلٰهي، وهو والله خيرٌ من عثمان وعمر وآل عمر.

وجاء ما بنفس عمر، فقد خطبَ رسول الله ﷺ ابنته حفصة، ثم تزوّجها، وارتقتْ إلى شرفٍ لا يدانيه شرفٌ، إذ أضحتْ من أمهات المؤمنين، وهذا ما جعل عمر رضي الله عنه يسعدُ بهذا النسبِ الكريم.

وفي هذه الواقعة اللطيفة يقولُ سعيد بن المسيّب ـ رحمه الله ـ وهو أحدُ كبار فقهاء التابعين: فَخارَ الله لهما جميعاً؛ كان رسولُ الله ﷺ لحفصة خيراً من عثمانَ؛ وكانت بنتُ رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من حفصة[1].

وبرزَ الصديقُ أبو بكر رضي الله عنه ليعتذرَ من عمر قائلاً له: لا تجد[2] عليّ يا عمر، فإن رسول الله ﷺ قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سرّ رسولِ الله ﷺ، ولو تركها، لتزوَّجتها[3].

وهنا ظهر لعمر مقام سيّدنا أبي بكر، وأوّليته في مقام الصّدق، وصون سِرّ رسول الله ﷺ، وأدرك الحكمة الإلٰهية من هذا الزواج الميمون، وحَمِد الله عزّ وجل، وهتف قائلاً: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

وطفق عمرُ رضي الله عنه يثني على الله عزّ وجل بما هو أهله، ويكثرُ من

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٨٣).

(٢) لا تجد: أي لا تغضب.

(٣) أخرج الخبر بطوله الإمام البخاري في صحيحه، في النكاح (٩/ ٨١) برقم (٥١٢٢). وانظر طبقات ابن سعد (٨/ ٨٢) والسّمط الثمين (ص ٩٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨) ونساء مبشرات بالجنة (٢/ ٢٦١) والاستيعاب (٤/ ٢٦١) وغيرها من المصادر المتعددة. وهنا تظهر مكانة الصّدّيق رضي الله عنه الذي حفظ سر رسول الله ﷺ، إذ القدرة على حفظ السر للذات أو للغير، هو ضَرْبٌ من أعظم ضروب الاحترام للنفس، ومن هنا مكانة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكيف وقف موقف الأمين ـ كما هو شأنه ـ من سِرّ رسول الله ﷺ حين علم أن النبي ﷺ يعزمُ على خطبة حفصة بنت عمر، وتحمل غضب عمر، حتى تزوَّجها النبي ﷺ، وهناك علم عمر ما سبب سكوت الصديق، فأكرم به!!

شكره أن مَنّ عليه وعلى ابنته بالنبي المصطفى ﷺ، الذي أخرجهم من الظلمات إلى النّور، وجَبَر كَسْرَه وكَسْرَ حفصة، حيث أضحى ﷺ زوجاً لابنته العابدة القانتة.

كان هذا الزواج الميمون المبارك على الراجح سنة ثلاثٍ من الهجرة النبوية، وكانت حفصة إذ ذاك تقتربُ من عشرين سنةٍ رضي الله عنها.

• سادساً ـ زينب بنت حُدَير التميمية:

لم تكن هذه المرأة من شهيرات النساء لولا أن حكى قصتها الإمام الشعبي التابعي المشهور، حيث إن قصة زينب بنت حدير هذه وقصة أمها تصلح أن تكون نبراساً وشعاراً لجميع النساء في هذا العصر الذي لعبت فيه الحضارة ذات اليمين وذات الشمال، وعصفَتْ به رياح الغرور وتقليد كلّ شيء وافد من الغرب والمستغربين.

فقد كانت أم زينب بنت حدير امرأة نادرة الوجود في دنيا النساء، حيث ربّت ابنتَها تربيةً صالحةً عاشت خلالها مع زوجها القاضي شُريح عشرين سنة لم يلحظ خلالها أيَّ تصرُّفٍ مشين. فكيف كان ذلك؟!

روت المصادر المتعددة هذه القصة عن الشّعبي قال: لقيني شُريح.

فقال: يا شعبي، عليك بنساء بني تميم، فإني رأيتُ لهنَّ عقولاً.

قال: وما رأيتَ من عقولهن؟

قال: أقبلتُ من جنازةٍ ظُهراً، فمررت بدُورِهِم، فإذا أنا بعجوز على باب دار، وإلى جَنبها جارية كأحسن ما رأيتُ من الجواري، فعدلتُ فاستسقيتُ، وما بي عَطَشٌ.

فقالت: أيّ الشراب أحبّ إليك؟

فقلت: ما تَيسّر.

قالت: ويحك، يا جارية، إيتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريباً.

قلت: مَن هذه الجارية؟

قالت: هذه زينب بنتُ حُدير إحدى نساء بني حنظلة.

قلت: فارغة هي أم مَشغولة؟

قالت: بل فارغة.

قلت: زوّجينيها.

قالت: إن كنتَ لها كفواً، ثم ذهبتُ لأقيل، فامتنعتْ مني القائلة، فلما صلّيت الظهر أخذت بأيدي إخواني من القُرّاء الأشراف: عَلقمة، والأسود، والـمُسيّب، وموسى بن عُرْفُطَة، ومضيت أريد عمّها. فاستقبل فقال: يا أبا أمية، ما حاجتك؟

قلت: زينب بنت أخيك.

قال: ما بها رغبة عنك. فأنكحنيها؛ فلما صارت في حِبالي ندمت، وقلت: أي شيء صنعتُ بنساء بني تميم؟ وذكرت غِلَظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أضمّها إليّ، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو رأيتَني يا شَعبي وقد أقبل نساؤهم يَهدينها حتى أُدخلت عليّ، فقلت: إنّ من السنّة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلي ركعتين، فيسأل الله مِن خيرها ويعوذ به من شرها، فصلّيت وسلمت، فإذا هي من خلفي تُصلّي بصلاتي فلما قُضيت صلاتي أتتني جواريها، فأخذن ثيابي وألبَسنني مِلْحفة قد صُبغت في عَكَر العُصفر، فلما خلا البيت دنوتُ منها، فمددت يدي إلى ناصيتها فقالت: على رسلك أبا أمية كما أنت، ثم قالت: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا عِلْم لي بأخلاقك، فبيّن لي ما تُحب فآتيه، وما تكره فأزدجر عنه. وقالت: إنه قد كان لك في قومك منكح، وفي قومي مثلُ ذلك، ولكن إذا قضى الله أمراً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [االبقرة: ٢٢٩]، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك.

قال: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الـخُطبة في ذلك الموضع.

فقلت: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وسلم. وبعد،

فإنكِ قد قلتِ كلاماً إن تثني عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حُجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، وما رأيتِ من حسنةٍ فانشريها، وما رأيتِ من سيئة فاستريها؛ وقالت شيئاً لم أذكره: كيف محبتك لزيارة الأهل؟

قلت: ما أحب أن يـملّني أصهاري.

قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أمنعه؟

قلت: بنو فلان قوْم صالحون وبنو فلان قوْم سوء.

قال: فبت يا شعبيّ بأنعم ليلة، ومكثت معي حولاً لا أرى إلا ما أحب. فلما كان رأس الـحَول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتَنْهى في الدار.

فقلت: مَن هذه؟

قالوا: فلانة خَتَنتُك، فسُرّي عني ما كنت أجد، فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك أبا أمية.

قلت: وعليك السلام، من أنت؟

قالت: أنا فلانة خَتَنتُك.

قلت: قَرّبك الله.

قالت: كيف رأيت زوجتك؟

قلت: خير زوجة.

فقالت لي: أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين، إذا ولدت غلاماً أو حَظيت عند زوجها، فإن رابك ريبٌ فعليك بالسَّوْط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدلَّلَة.

قلت: أما والله لقد أدّبتِ فأحسنت الأدب، ورُضْتِ فأحسنت الرياضة.

قالت: تُحب أن يزورك أختانك؟

قلت: متى شاؤوا.

قال: فكانت تأتيني في رأس كل حَوْل تُوصيني تلك الوصية. لذلك أحلّها شريحٌ من قلبه مكاناً رحيباً، فهي أملُ دنياه، ودنيا أمله، ومهوى فؤاده، يسالمُ

مَنْ سالمت، ويرعى عَهْدها، ويكرُم أهلها وذويها، ولشدة شغفِه بها كان ينْشدُ في امتداحها دائماً:

إذا زينـــبٌ زارَهـــا أهلُهـــا حَشَـــدتُ وأكـــرمـــتُ زوّارَهـــا
وإنْ هـــيَ زارتهـــم زُرْتُـهـــا وإنْ لـم يكـنْ لـي هـوى دارهـا
فسِلْمـي لِـمَـنْ سـالمـتْ زينـبٌ وحـربـي لِمـنْ أشعَلـتْ نـارَهـا
ومـا زلـتُ أرعـى لهـا عَهْـدهـا ولـم أتّبِـعْ سـاعـةً عـارهـا

ويبدو أن القاضي شريحاً قد أكثر التّغني بمناقبِ زينب، وأنشأ فيها كثيراً من الأشعار الرائقة، والمعاني الفائقة، ففي مدة مقامها عنده لم يُعكّرْ صفوَ حياتهما سوى حادثةٍ عابرةٍ لا شأنَ لها، أما هذه الحادثة، فيرويها القاضي شُريح نفسه في حديثه الشائق العذب للشعبي فيقول:

يا شعبي! أقامتْ زينبُ ابنةُ حدير معي عشرين سنة، ما غضبتُ عليها يوماً ولا ليلة، عشرون عاماً مضتْ ولم أعتبْ عليها في شيءٍ إلا مرة واحدة، وكنتُ لها ظالماً، وذلك أنني كنتُ إمام قومي، وأخذ المؤذنُ في الإقامة بعدما صليتُ ركعتي الفجر، فأبصرتُ عقرباً تدبّ بالقرب منا، فعجلتُ عن قَتْلِها، وعندها أخذتُ الإناء فأكفأته عليها ريثما تنتهي الصلاة، ولما كنتُ بالبابِ، قلتُ: يا زينب، لا تحركي الإناء حتى آتي من الصلاة؛ ثم خرجتُ.

ولكنّ زينبَ عَجِلتْ، وحركتِ الإناءَ دون قَصْدٍ منها، فضربَتْها العقربُ، فجئتُ، فإذا بزينب تتلوى من شدة الألم، فقلتُ: ما لك؟ وما بك؟ وما دهاك؟

قالت: لسعَتْني العقرب ـ ولهذا السبب كان غضبي لتعجيلها رفعه ـ فلو رأيتُني يا شعبي وأنا أمرسُ أصبعها بالماء والملح، وأقرأُ عليها فاتحةَ الكتاب والمعوذتَيْن، حتى خفّ ألـمُها، وكانت خلال ذلك تشعرُ أنها أخطأتْ في حقي.

وماذا بعدُ يا زَيْنب؟

هذه هي زينبُ ابنة حدير التميمية، وذلك هو القاضي شُريح الذي حدّث الشعبي وحدّثنا عنها، ودعا إلى الزواج من نساء بني تميم.

ولكنْ ماذا بقي في جعبةِ القاضي شُريح عن زوجه زينب؟ لا شكّ أنّ مشاعره ما تزالُ فيّاضة، وآماله عِراض فيها، فقد كانت توليه خيراً، وتعرفُ مكانه ومكانته بين الناس، وبين علماء التابعين، أمّا شريح فقد كان يودّ لو كان الناس جميعهم يعيشون سعادته، وكم كان يؤلـمُه أولئك الذين يختلفون مع زوجاتهم، فلذلك كان يقصّ على الشعبي قصّة أحد جيرانه فيقول:

كان لي جارٌ من كندة يُقال له: مَيْسرة بنُ عُرير، فكان لا يزالُ يقرّعُ امرأته، ويضربُها، فآلمني فِعْله كثيراً، فقلت في ذلك:

رأيـتُ رجـالاً يضـربـون نسـاءَهـم ... فشُلّـت يميني يـومَ أضـربُ زينبـا
أأضربُها فـي غيـرِ ذنـبٍ أتـتْ بـه ... فما العدْلُ مني ضربُ مَنْ ليس مُذنبا
فتـاةٌ تَـزِيـنُ الحـيَّ إنْ هـي زُيّنَـتْ ... كـأنّ بفيهـا المسـكَ خـالـطَ محلبـا
فـزينـبُ شمـسٌ والنسـاء كـواكـبٌ ... إذا طَلَعتْ لم تُبقِ منهنّ كوكبا[1]
فلو كنتَ يا شعبي صادفْتَ مثلَها ... لعشـتَ زمانـاً نـاعِـمَ البـالِ مخضَبا

يا شعبي! وددتُ ـ والله ـ أنّي قاسمتُها عيشي، فلقد توفيت زينبٌ، وتركتْ أعْطرَ الأثرِ في نفسي وأجملَ الذكريات؛ نعم أجمل الذكريات في الأيام الخوالي، و. . .

ومـا ذَكَـرْتُكُـمُ إلا وضَعْـتُ يـدي ... علـى حُشـاشـةِ قلـبٍ قلّمـا بَـرَدا
مـا تـذكّـرتُ أيـامـاً بكـمْ سلفـتْ ... إلا تحـدّرَ مِـنْ عينـيّ مـا بَـرَدا[2]

● سابعاً ـ أم سلمة بنت يعقوب المخزومية:

كان للمرأة في أدوار الخلافة رأيٌ ماثلٌ، وصوتٌ مسموعٌ، وفي بعض الأحيان كانت لها يدٌ مدبرةٌ قوية، وبطشٌ شديدٌ، ورأيٌ حازمٌ، وفي بعضها الآخر كانت منْ صانعات الرجال في المواقف التي تدلّ على كرامتها، وتشيرُ إلى عقْلِها الكبير، وأفقِهَا الواسع، ونظرتِهَا الثاقبة.

---

(١) ورد في بعض المصادر: «لم تُبد» بدلاً من: «لم تبق».
(٢) العقد الفريد (٦/ ٩٢ ـ ٩٤) بتصرف، وانظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٦٤) والأخبار الموفقيات (ص ٤٨ و٤٩) وغيرها.

وأجدني أمامَ امرأةٍ من نساء الإسلام، ومنْ نساء الخلفاء، قد جَمَعتْ تلكم الصفاتِ؛ امرأةٌ عاقلة حازمةٌ عاصرت الدَّولتين: الأمويّة؛ والعباسيّة، وكانتْ بذكائها زوجاً لأبي العباس السّفاح، رأسِ الدولة العباسية، وأول خلفائها، وباني مجدها وصرحها.

وفي سبب اقترانها بأبي العبّاس السّفّاح موقفٌ حازمٌ رائعٌ يجعلنا نقفُ وقفة احترام لهذه المرأة التي طرقتْ أبواب المكارم من ذراها، واقتعدتْ سدّة الفضائل طيلةَ حياته، وتسنّمتْ لواءَ الشهرة، في دنيا نساء التاريخ، في عصرٍ ليسَ من السّهل فيه أن تكون المرأة منْ صانعاتِ التاريخ في منازلِ الـخُلفاء.

فهذا أبو العباس السفاح، ثائرُ بني العباس الهاشميين، ومَنْ ورِثَ بني أميّة، كان في بداية أمْره ـ على الرغم من عراقةِ مجده، وسمو فضائله، ووفرِ فضله ـ فقيراً لا مالَ له، ومن الصعب أنْ ينجحَ بثورته إلا بالمال، ولكنْ من أين المال؟ هنالك قيّضَ الله عز وجل لأبي العباس امرأة ملأتْ يده مالاً، وقلبَه عزماً، ونفسَه إقداماً، وطريقه وضَحَاً ونوراً، وحياته ألَقاً وعبيراً وأنداءً وصفاءً ورقيّاً، تلكم هي زوجه: أمّ سلمةَ بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله القرشيّة المخزومية[1]، المرأةُ التي رسمتْها خطوطُ التاريخ بعبيرِ الحروف، وأريجِ الكلمات، فقد ذُكِرَ أنها امرأةٌ حازمةٌ بصيرةٌ بتدبير الأمور، وعواقب الأحداثِ، وجمالِ الأحدوثة، ولطائف الأحاديث، وأمّها هي هندُ بنتُ عبد الله بن جبّار بن سلمى[2].

كانت أمّ سلمةَ بنت يعقوب قبل أن تصير إلى أبي العبّاس السفاح زوجاً لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، وكانت من أعْرفِ الناس بسرّ بني أمية وخبيئة أمورهم، وأحوالهم، فلمّا مات زوجها، اجتمع لديها تُراث زوجها وأبيها، وكلاهما كان غنياً موفورَ الغنى، ثم خَلَفَ عليها مسلمة بن هشام بن عبد الملك، فهلكَ عنها أيضاً.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٢٤ ـ ٥٢٩)، ونسب قريش (ص ٣٣٠)، والدر المنثور (ص ٥٨ و ٥٩)، أعلام النساء (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٩)، ومصادر أخرى متنوعة.

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٢٥).

وأصبحت أمّ سلمةَ أيّماً، ولكنّ الله ـ عز وجل ـ قد آتاها ما آتاها منْ رجاحة العقل، وحباها من كمال الرأي، وأعطاها حُسْنَ النظر في الأمور، فكان ذلك كله أوْفَرَ لها من مالها، وأكملَ وأشملَ، ناهيك بأنها كانت ذاتَ أدبٍ وجمالٍ، وكمالِ سيرة وأحدوثة؛ وقد ضربت مثلاً شروداً في تاريخ النساء العاقلات يستحق التسجيل في هذا البحث:

تروي أخبارُ أمّ سلمة بنت يعقوب بأنّها أرسلتْ مولاتها إلى أبي العباس تخطبه، إذ توسّمت فيه معاني النّجابة، ومعالي الأمور.

حدثت هذه الخطبة عندما خرجتْ ذات مرّة إلى البادية، وبينما هي جالسةٌ مع جواريها وحشمِها، إذ مر بها أبو العباس عبدُ الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس، وهو يومئذ عَزَبٌ، وكان جميلاً وسيماً، ذا طلعةٍ وبهاءٍ، فسألتْ عنه، فقيل لها: هذا أبو العباس بن محمد العباسي، فأرسلت إليه مولاةً تعرض عليه أنْ يتزوجها.

فجاءته الجاريةُ تمشي على استحياءٍ، وأبلغته سلامَ سيدتها أمّ سلمة، وأدّتْ إليهِ رسالتها ورغبتها فيه.

فقال أبو العباس للجارية: يا هذه، أبلغي سيِّدتَكِ السلامَ، وأخبريها برغبتي فيها، وقولي لها: لو كان عندي من المال ما أرضاه لكِ فعلتُ.

هنالك بعثتْ أمُّ سلمةَ بنتُ يعقوب مع مولاتها سبعمئة دينار، وقالتْ لها: قولي لأبي العباس: هذه سبعمئةُ دينار أبعثُ بها إليك، فأتتهُ الجارية، وعرضتْ عليه ذلك، فأنعمَ بالإجابة؛ فدفعتْ إليه المال، فأقبل إلى أخيها، فخطبها إليه، فزوجه إيّاها، فأرسلَ بصداقها خمسمئة دينار، وأهدى إليها مئتي دينار[1].

وسارع أبو العباس إلى الزوجة بمالها، وكان ما لقيه من نفاذِ رأيها، وإحكام تدبيرها أتمّ وأوفى؛ فلم يكنْ يصدرُ إلا عن رأيها ومشورتها، وبها عرفَ مواطنَ

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٢٦) بتصرف.

الداء من أعدائه، وإليها كانت إفاءتُه في خلافته، وقد حظيتْ عنده، وحَلَفَ ألا يتزوج عليها، ولا يتخذ جارية؛ وقد ولدت أمّ سلمة هذه للسفاح: محمداً، وريطة.

● ثامناً ـ ابنة سعيد بن المسيّب:

كان لسعيد بن المسيب التابعي الجليل الشهير ابنةٌ جميلةٌ عاقلة حَصَانٌ رَزَانٌ ديّنة، ربَّاها على مكارمِ الأخلاق، وصادف أن بعث إليه عبد الملك بن مروان ليخطبها إلى ابنه الوليدِ ولي عهده، فرفض سعيد، وعجب الناس من هذا الرفض الـمُغري، ولكن سعيداً كانت عيناه ترنوان إلى الأفق البعيد، إلى مرضاة الله تعالى وسعادة ابنته السعادة الحقيقية، فمع هذه القصة الجميلة نعيش هذه الصفحات.

نعرف أنّ سعيد بن المسيّب كبيرَ علماء التابعين كان يحبُّ الله تعالى ويقتدي بسيد المرسلين، في اختيار الرجل الصالحِ التقيّ، الطاهر النقيّ، زوجاً لابنته وتفضيله على أمير المؤمنين ويضرب بالجاه والمنصب والسلطان عُرْضَ الحائط، وما هذا الرجلُ الصَّالح إلا أبو وداعة.

فلنستمع إلى هذا الزوجِ الصالحِ وهو يروي قصة ذلك الزواج السعيد، الذي يُعدّ من أروعِ نماذج الزواجِ في الإسلام في عصر التابعين.

يقول أبو وداعة: كنت أجالس سعيدَ بنَ المسيّب، فتفقدني أيّاماً، فلمّا أتيته، قال: أين كنتَ؟ قلت: تُوفّيت زوجتي فاشتغلت بها.

قال: هلاّ أخبرتنا فشهِدْناها؟

ثم أردتُ أنْ أقوم، فقال: هلاّ استحدثت امرأة؟

فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني وما أمْلِكُ إلا درهمين أو ثلاثة؟

فقال: أنا.

فقلت: وتفعل؟!

فقال: نعم.

فحمَد الله تعالى وصلَّى على النبي ﷺ، وزوّجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ .

ثـمّ قمت وما أدري ما أصنع من الفرح، وجعلت أفكّر ممن آخذ، ممن أستدين، فصلّيت المغرب وانصرفت إلى منـزلي، فأسْرجتُ وكنت صائماً، فقدّمتُ عشائي، وكان ـ خبزاً وزيتاً ـ وإذا ببابي يُقْرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد.

ففكّرتُ في كلّ إنسانٍ اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيّب، ـ وذلك لأنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد ـ ثم خرجتُ إليه فإذا هو سعيد بن المسيّب، فظننتُ أنّه قد بدا له ـ أي رجع عن رأيه في زواج ابنته لي ـ.

فقلت: يا أبا محمد لو أرسلتَ إليّ لأتيتُك.

فقال: لا! أنت أحقّ أنْ تؤتى.

قال: فما تأمر؟

قال: إنّك كنت رجلاً عزباً، فتزوجْتَ فكرِهْتُ أنْ أبيتُكَ الليلةَ وحدك، وهذه امرأتُك، وإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثمّ أخذها بيدها، فدفعها في الباب وردَّهُ، فسقطت الفتاة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثمّ تقدّمْتُ إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظلّ السراج لكيلا تراه ثمّ صعدت السطح فرميتُ الجيران، فجاؤوني وقالوا: ما شأنُك؟!

قلت: ويحكم، زوّجني سعيد بن المسيّب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة على غفلة. فقالوا: أوَ سعيدٌ زوّجك؟!!

قلت: نعم.

قالوا: وهي في الدّار؟

قلت: نعم.

فنـزلوا إليها، وبلغ ذلك أمّي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إنْ مسَسْتها قبل أن أصْلِحها إلى ثلاثة أيّام.

فأقمتُ ثلاثاً ثمّ دخلتُ بها، فإذا هي من أجْمَل النساء، وأحفظ النّساء لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنّةِ رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحقّ الزوج.

ثمّ مكثْتُ شهراً لا يأتيني سعيدٌ ولا آتيه، فلمّا كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته «الدرسية» فسَلّمت عليه، فردّ السلام ولم يُكَلّمني حتى تفرّقَ الناس.

فقال: ما حال ذلك الإنسان؟ ويقصد عن ابنته رحمه الله.

فقلت: بخيرٍ يا أبا محمّد، على ما يُحِبّ الصديقُ ويكره العدوُّ.

فقال سعيد: إنْ رابَك منه أمرٌ فدونَك والعصا.

ثـمّ انصرفْتُ إلى منـزلي فوجّه إليّ بعشرين ألف درهم.

قال عبد الله بن سليمان: وكانت بنت سعيد بن المسيّب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد، حين ولاّه العهد، فأبى سعيد أنْ يزوّجه.

فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد، حتى ضربه مئةَ سوطٍ في يومٍ بارد، وصبّ عليه الماء، وألبَسَهُ جُبّة صوف[1].

* * *

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٢٤١)، ووفيات الأعيان (٢/٣٧٦ ـ ٣٧٧) مع الجمع والتصرف. وحبذا تربيةُ الأولياء لبناتهم كتربية سعيد بن المسيب لابنته، لتقوم البيوت الزوجية على أهنأ حياة وأسعدها. وكذلك ينبغي أن تكون سيرة الشباب من مثل سيرة أبي وداعة صهر سعيد بن المسيب رحمهم الله جميعاً.

الباب الثاني
صور من الحياة الزوجية في القرآن الكريم

القسم الأول — زوجات صالحات في حياة الأنبياء

الفصل الأول — حياة آدم الزوجية

الفصل الثاني — حياة إبراهيم الزوجية مع سارة

الفصل الثالث — حياة إبراهيم الزوجية مع هاجر

الفصل الرابع — حياة موسى الزوجية

الفصل الخامس — حياة أيوب الزوجية

الفصل السادس — حياة زكريا الزوجية

الفصل السابع — حياة محمد الزوجية مع عائشة

الفصل الثامن — حياة محمد الزوجية مع زينب

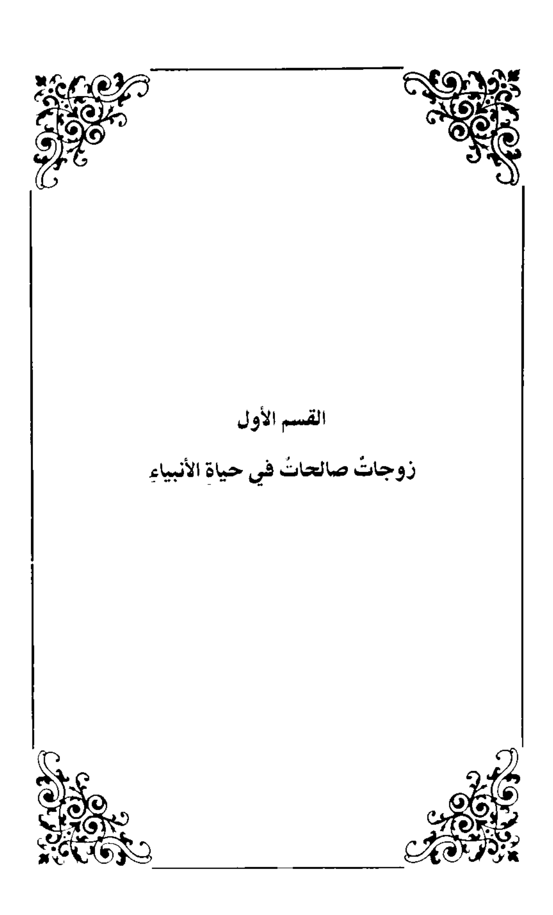
القسم الثاني — زوجات عاصيات ذكرهن القرآن

الفصل التاسع — امرأة نوح

الفصل العاشر — امرأة لوط

الفصل الحادي عشر — امرأة أبي لهب

الفصل الثاني عشر — أم سعد بن أبي وقاص



القسم الأول

زوجاتٌ صالحاتٌ في حياةِ الأنبياءِ

الفصل الأول
حياةُ آدم الزوجيّة

في حياة آدم الزوجية عِبر وفوائد جليلة، على الإنسان أن يعرفها، ويعرف أن الأسرة الأولى في دنيا البشر إنما كانت مكوَّنةً من آدم وزوجه.

فكيف تكوَّنَتْ نواة هذه الأسرة؟ وكيف كانت حياة الأسرة البشرية الأولى؟!

في البداية يطيب الحديث من خلال القرآن الكريم عن قصة خَلْق آدم، ثم خَلْق زوجه أم البشر جميعاً؛ فكيف كان ذلك؟!

حدثنا القرآن الكريم في مواضع متعددة من سُوَرِه الكريمة عن خلق آدم، وذكر بأنه كان أول مخلوق من البشر، فهو أصلُ هذا العالم، وهو أساسُه البشريّ، واقتضت الإرادة الإلٰهية أن يكون موضعَ آدم وذريته على الأرض.

وعندما اقتضت مشيئة الله تعالى وحكمته الأزلية خَلْق آدم[1]، أخبر الله الملائكة بذلك، وأنبأهم بأنه سيكون من ذريته مَنْ يفسد في الأرض، ومن يسفك الدماء... ومن يعمل كذا وكذا...

وتعجَّب الملائكة من هذا، واستفْسَروا عن الحكمة الربانية في خلْق هذا الإنسان الذي يفعل ويفعل؛ ويفسد ويسفك الدماء و...

---

(١) آدم: اسم عَلَم ممنوع من الصرف، وزعم بعضهم أنما هو علم أعجمي. وقال العكبري: اسم آدم ليس بعجمي. وقال الجواليقي: أسماء الأنبياء كلها أعجمية نحو: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وإلياس، وإدريس، وأيوب... إلا أربعة: آدم، وصالحاً، وشعيباً، ومحمداً عليهم الصلاة والسلام. (المعرب).

وقد رسَمَتْ آياتُ القرآن الكريم صورةَ خَلْق آدم واستخلافه في الأرض، ومنها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره هذه الآية ما مفاده وملخّصه: «هذا شروعٌ في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر، وفضله، وأن الله تعالى ـ حين أراد خلقه ـ أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ بالمعاصي ﴿ وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾، وهذا تخصيص بعد تعميم، لبيان شدة مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنـزّهوا الباري عن ذلك، وعظّموه، وأخبَروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خالٍ من المفسدة، فقالوا: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أي: ننـزِّهُك التنـزيهَ اللائق بحمدِك وجلالِك، ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ونقدِّسُك، ونطهِّر أنفسنا بالأخلاق الجميلة، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله للملائكة: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ ﴾ من هذا الخليفة ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لأنَّ كلامَكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالمٌ بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلْق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر.

فلَوْ لَـمْ يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل دون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كَمَن من غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحِزبه من حَربِه، وليظهر ما كَمَن في نفس إبليس من الشرِّ الذي انطوى عليه، واتَّصف به، فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك»[1].

وتمَّتْ المشيئة الإلٰهية، وخلق الله آدمَ من طينٍ، ثم إنه أمَرَ الملائكةَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٣٠ ـ ٣١) بتصرف يسير.

بالسجود له على وجه التحيَّةِ له، والتكريم، واعترافاً بفَضْله، ولم يكن ذلك السُّجود على وجه العبادة له.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت السجدةُ لآدم، والطاعة لله تعالى»[1].

وقال القرطبي: «واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتِّفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة؛ فقال الجمهور: كان هذا أمراً للملائكة بوضع الجِبَاه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريماً لآدم وإظهاراً لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى «لآدم»: إلى آدم، كما يقال: صلى للقِبْلة: أي إلى القبلة».

ويؤكد الله تعالى أن سجود الملائكة لآدم ليس سجودَ تفضيلٍ، بل هو سجودُ تعظيم للخالق العظيم، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهو تبارك الله أحسن الخالقين.

واستجاب الملائكة الكرام للأمر الرَّباني، وسجدوا جميعاً لآدم، إلا إبليس[2] أبى واستكبر وعانَدَ، وكان في سابق علمِ الله تعالى أنه من الكافرين، أو بامتناعه من السجود صارَ من الكافرين، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [صٓ ٧٣ ـ ٧٤]؛ وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وإبليس كان من الجن، وإنما تناولَهُ الأمر للملائكة بالسجود لآدم، لأنه كان

---

(١) انظر تفسير الرازي (١/ ٢١٢ و٢١٣)، وتفسير المنار (٨/ ٣٢٩ و٣٣٠).

(٢) إبليس: اسم علم أعجمي، ممنوع من الصرف لعلتين: العلمية والعُجمة. ولا يصحّ قول مَنْ قال: إن إبليس مشتق من الإبلاس، أي البأس، ولو كان مشتقاً من الإبلاس لانصرف. فلفظ إبليس أعجمي لا اشتقاق له، فلم ينصرف للعجمة والتعريف. (تفسير القرطبي ١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) باختصار.

في صحبتهم[1]، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: ٥٠].

قال ابن قيم الجوزية: «كان إبليسُ مع الملائكة بصورتِهِ، وليس منهم بمادَّتِهِ وأصله، كان أصله من نار، وأصل الملائكة من نور»[2].

وذكر القرآنُ الكريمُ سببَ امتناع إبليس عن السجود لآدم، إذ زعم أنه خيرٌ من آدم، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]، امتنع من السجود لأنه بزعمه الفاضل وأنه مخلوق من نار، والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم. فقد نظر إبليس لعنه الله إلى أصل العنصر الذي خُلِقَ منه، ولم ينظر إلى التشريف العظيم الذي ناله آدم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحِهِ، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نصّ قوله تعالى للملائكة: ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ كما أنه لم ينظر لأمْر مَنْ أمره بالسجود وهو الله جل جلاله، ثم إن إبليس حتى في دعواه أن النار أشرف من الطين ادعاء غير صحيح، فإن الطينَ من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبيت، وهو محلُّ النباتِ والنموِّ والزيادة، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة[3].

---

(١) تفسير القاسمي (٢/ ١٠٣).

(٢) تفسير القاسمي.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٣).

إن عدم سجود إبليس اللَّعين لآدم كان من باب الحسد والتكبر منه، وذلك بسبب اختلاف خَلْقه عن خَلْق آدم، إذ إن إبليس قد خلقه الله من نار، وآدم خلقه من طين، وقد ظنّ إبليس أنه بجوهره أفضل من آدم.

قالت الحكماء: أخطأ عدو الله في تفضيله النار على الطين، لأن الطين أفضل منها من أوجه:

ـ الأول: أن من جوهر الطين الرّزانة، والسكون، والوقار، والحلم، والأناة، والحياء، والصبر، وذلك سبب توبة آدم وتواضعه وتضرعه، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية.

وجوهر النار: الخفة والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب، وذلك سبب استكبار إبليس، فأورثه اللعنة والهلاك.

ـ الثاني: أن الجنّة موصوفة بأن ترابها مسك ولم يُنْقل أنّ فيها ناراً.

ـ الثالث: أنها سبب العذاب بخلاف الطين. =

وهنا تظهر خليقةُ الشرِّ الإبليسية مجسّمةً لها نواح متعددة، وكلها تنطق بالشرِّ:

- الاستكبار عن معرفة الفضْل لأهله وذويه.
- العزة بالإثم والتوغُّل في الذنب.
- الاستغلاقُ الكامل عن الفهم والاستيعاب.
- المعاندة والاستمرار في عصيان الله تعالى.

ولم يعرفْ إبليسُ أن الغاية الحقيقية من السجود، إنما هي لله عز وجل، وليست لآدم نفسه، آدم الذي خصّه الله بأربع مزايا عظيمة لم تكن لغيره وهي:

١ - خلقه الله تعالى بيدِهِ.
٢ - نفخ فيه من روحِهِ.
٣ - أمَرَ الملائكةَ بالسجودِ له.
٤ - علمه الأسماء كلها.

ومن هنا دخل الحسد نفس إبليس، وحسد آدم على هذه المنح الربانيَّة الكريمة، وأخذته العزَّةُ بالإثم فقال: لا أسجد لآدم وأنا خير منه، وأقوى خلقاً، وأنا ناري، وآدم طيني، فكان بدء الذنوب الكِبْر والحسد، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم، فآيسَهُ الله سبحانه من الخير كله، وكان من الكافرين الأولين.

وهكذا نجد أن إبليس قد امتنع عن السجود، فكان جزاؤه أنْ طُرِدَ من رحمة الله، وأخرجه الله من الحضرة الإلٰهية ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض مذموماً مدحوراً طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً.

إن الكِبْرَ والعِنادَ والإصرار على الفساد أسبابٌ لاستحقاق السّخط الإلٰهي، فإن إبليس الذي أبى السجود، وأصر على موقفه الخاطئ، وعاند الله تعالى، فغضب الله عليه، وطرده من الجنة، بل وأوعده نار الجحيم جزاءاً وفاقاً على كِبْره وعناده.

= - الرابع: أن الطين مستغنٍ عن النار، وهي محتاجة إلى مكان وهو التراب.
- الخامس: أن الطين سبب جمع الأشياء، وهي سبب تفريقها.

أخرج مسلم بسند رفعه إلى أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتـزلَ الشيطانُ يبكي يقول: يا وَيْله! أمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنةُ، وأمِرتُ بالسجود، فأبيتُ، فَلِيَ النار»[١].

عاش آدم في الجنة، وكان يسيرُ فيها وحيداً لا أنيسَ له من جنسه، ولم يكن له مَنْ يجالسه أو يسايره ويؤانسه، ولم يكن له من زوج كي يسكن إليها، فأرادت المشيئة الإلٰهية أن تجعل لآدم زوجةً تملأ عليه وحدته وحياته، فخلق له حواء، كي تجانسه وتجالسه.

قال البغوي: «إن آدمَ لم يكن له في الجنة من يجانسه، فنام نومة، فخلق الله حواء من شقه الأيسر، وسمّيت حواء لأنها خلقت من حيٍّ، خلقها الله عز وجل من غير أن يحسّ به آدم، ولا وجد له ألماً، ولو وجد ألماً لما عطف رجل على امرأة قطّ، فلما هبّ من نومه، رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما في خلق الله.

فقال لها: من أنت؟

قالت: زوجتك، خلقني الله لك تسكن إليّ وأسكن أليك»[٢].

وقال جماعة من أهل التفسير والعلم: «إن آدم عليه السلام نام نومة، فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة خلقها الله تعالى لتسكنَ إليها نفسُه تسمى حواء، سميت بهذا الاسم لأنها خلقت من حيٍّ، أو لأنها أمُّ كلِّ حي»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨١)، وابن ماجه باللفظ نفسه برقم (١٠٧٢)، وانظر: البداية والنهاية (١/ ٩١)، ومعنى قوله: إذا قرأ ابن آدم السجدة: فمعناه آية السجدة. وقوله يا ويله: هو من آداب الكلام، وهو أنه إذا عرّض في الحكاية عن الغير ما فيه سوء، واقتفت الحكاية رجوع الضمير إلى المتكلم.

(٢) انظر: تفسير البغوي (ص ٢٧)، وقصص الأنبياء (ص ١٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٢٩)، والتفسير الكبير (٣/ ٣ و ٤)، والدر المنثور للسيوطي (١/ ١٢٨)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٤/ ٢٢٢)، وترويح أولى الدمائة (١/ ٥٧)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٠٧)، وتفسير مبهمات القرآن للبلنسي (١/ ١٣٢)، وغيرها.
ومن الطرائف المهمة التي جاءت في كتب الأخبار والأسمار، ما ذكره أهل المجالس وأهل=

وقد وردَ في الآثار عن ابنِ مسعود وابن عباس رضي الله عنهما أنَّ حواء قد خلقت من أحدِ أضلاع آدم وهو نائم[1] دون أن يحسّ أو يشعر بألمٍ، فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟

قالت: امرأة خُلقْتُ من ضلعك لتسكن إليّ؛ وهو معني قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قال العلماء: ولهذا كانت المرأةُ عوجاء، لأنها قد خُلقت من أعوج، وهو الضلع[2].

وجاء في الصحيحين ما يؤيد هذا، إذ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضِّلَع أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزلْ أعوج فاستوصوا بالنساء»[3].

وقال أحد الشعراء متحدِّثاً عن عِوَج المرأة:

هي الضِّلعُ العوجاءُ لَسْتَ تقيمها ... ألا إنّ تقويمَ الضلوعِ انكسارُها

= الأدب والسَّمر قالوا: «أربعة فيهن روح ولم يركضوا في رحم: آدم؛ وحواء؛ والكبش الذي فُديَ به إسماعيل عليه السلام؛ وعصا موسى حيث ألقاها فصارت ثعباناً مبيناً». (عيون الأخبار ١/ ٢٠٠)، و(بهجة المجالس ٢/ ١٥٤).

(١) قد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: إن الجنة لا نوم فيها، ولا يخرج منها أهلها، فكيف خُلِقَت حواء داخل الجنة وآدم نائم؟
والجواب عن هذا السؤال يتلخص فيما يلي: إن هذا الأمر إنما يكون عند دخول الجنة يوم القيامة بعد أن يُحاسب الناس ويدخلوا الجنة. والله أعلم.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٣٣١)، ومسلم برقم (١٤٦٨)، ومعنى: استوصوا بالنساء: اقبلوا وصيتي فيهنّ واعملوا بها، وارفقوا بهن، وأحسنوا عشرتهن. والضِّلع: بكسر الضاد وفتح اللام. وفي هذا الحديث: ملاطفة النساء، والإحسان إليهن، والصبر على أخلاقهن، واحتمال ضعف عقولهن حيث لا يستطيع أحد أن يقيمَ الضلع المعوجّ.

أتجمعُ ضعفاً واقتداراً على الفتى ... أليسَ عجيباً ضعفُها واقتدارُها[1]

ومن الواضح البَيّن في كتب التفسير أنَّ الله تعالى قد خلقَ آدم، وخلق حواء، وهذان هما أصل بني البشر، ولو رحْتُ أستقصي لك كيفية ذلك الخلق، وتفاصيله، والزمن الذي استغرقه، لما وصلت إلى نتيجة، وإن تحدثتْ بعض التفاسير عن ذلك وأسهبت فيه، فالقرآن الكريم لم يصرح بذلك مطلقاً، ولم يبيّن ذلك بياناً واضحاً، حيث إنَّ القرآن ينطقُ بأن الله تعالى لم يُشْهِد أحداً من الخلق مهما كان نوعه خلقَ السماوات والأرض ولا خلقَ بعضهم، ولم يستعِنْ بأحدٍ على إيجاد أحد؛ قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: «ما أحضرتُهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟ بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو اللهُ، خالقُ الأشياء كلِّها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين، يوالون ويطاعون كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا، ولم يشهدوا خلقاً، ولم يعاونوا الله تعالى؟»[2].

إن خَلْق أمِّ البشر حواء يخضع لقول ربِّ السماوات والأرض وربِّ كل شيء، يخضع لقول الله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

أما في القرآن الكريم، فقد أسفرت آياته بأن الغاية من خلق حواء هي الاستقرار لها ولآدم، وأن التآلف الروحي بينهما هو بإرادة الله تعالى، وكل واحد منهما متمِّم للآخر يسكن إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وبدأت الحياة الزوجية لآدم وحواء في الجنة، فبعد أن طرد الله تعالى إبليس من الجنة لاستكباره ورفضه السجود لآدم، أسْكَنَ الله تعالى آدم وزوجه في الجنة، ولكن ما الجنة التي عاش فيها هذا الزوجان وقضيا فيها مدة من الزمان؟

---

(١) انظر: عيون الأخبار (٤/٧٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٢٩).

لا يدري أحد مكان هذه الجنة[1]، ولا يعرف حقيقتها، فهي من الغيب الذي يعلمه الله تعالى، ولا جدوى لبني البشر في معرفة حقيقتها وكنهها، ويكفيهم من العلم ما جاء صريحاً في القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ[2] ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ومن الملاحظ أن الله تعالى قد نهاهما عن شجرة معيَّنة، والنهْيُ عن قرب الشيء أبلغ من النهْيِ عنه، فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تُغري بالمنهيِّ عنه وتقضي إليه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحِمى يوشِكُ أن يقع فيه، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ[3].

وقد وعد الله تعالى هذين الزوجين بأن يمدّ لهما في ألوان النعيم وأسبابه إن هما اجتنبا الشجرة التي نهاهما عنها، فلا يجوعان ولا يعريان، ولا ينالهما ظمأ ولا تعب ما داما فيها ينعمان بدفءٍ وريٍّ ونعيم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩].

ومعنى هاتين الآيتين كما قال الشَّوْكاني: «إن لك فيها تمتعاً بأنواع

---

(١) لم يُفصحِ القرآنُ عن مكان الجنة، بينما سهر المفسرون جرّاها واختصموا فيها؛ قال الماوردي: «اختُلِف في الجنة التي أُسكناها على قولين:
الأول: أنَّها جنة الخلد. الثاني أنَّها جنة أعدها الله لهما. (تفسير الماوردي ١/ ٩٤).
واختلفوا بمكانها على قولين:
أحدهما: أنها في السماء لأنه أهبط منها.
الثاني: أنها في الأرض، لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار. (قصص الأنبياء ص ٢١ ـ ٢٢).

(٢) من الجدير بالذكر ومن المفيد هنا أنْ أشير إلى أنّ كلمة ﴿زَوْجَكَ﴾ قد جاءت أربع مرات في القرآن الكريم وفي أربعة مواضع هي:
١- في سورة البقرة (الآية ٣٥).
٢- في سورة الأعراف (الآية ١٩).
٣- في سورة طٰه (الآية ١١٧).
في سورة الأحزاب (الآية ٣٧)، وكلّها تعني امرأتك.

(٣) انظر تفسير المنار (٨/ ٣٤٦).

المعايش، وتنعماً بأصنافِ النِّعَم من المآكل الشهيّة والملابس البهيّة... وكذلك حصول الرّيّ ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحو، والضحو: إذا برز للشمس فأصابه حرّها... فذكر الله ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش، وتعب الكدِّ في تحصيله، ولا ريب أن أصولَ المتاعب في الدنيا هي تحصيل الشبع والري والكسوة والسكن، وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها، وهو إعلام من الله سبحانه وتعالى لآدم أنَّه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله، وإن ضيَّع وصيته، ولم يحفظْ عهده، أخرجه من الجنة إلى الدنيا، فيحلّ به التعب والنصَب بما يدفع الجوع والعري والظمأ والضحو، فالمراد بالشقاء: شقاء الدنيا لا شقاء الأخرى...»[1].

وللقرطبي كلام نفيس على هاتين الآيتين فيقول ما مفاده: «أعلمه الله أن له في الجنة هذا كله: الكسوة والطعام والشراب والمسكن، وأنك إنْ ضيَّعْتَ الوصية، وأطعْتَ العدوّ أخرجكما من الجنة، فشقيتَ تعباً ونصباً، أي: جُعت وعريت وظمئت وأصابتك الشمس، لأنك ترد إلى الأرض إذا أُخْرجتَ من الجنة، وإنما خصّه الله بذكر الشقاء، ولم يقلْ فتشقيان: يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذٍ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم؛ كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية. وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها، لأنه بها إقامة المهجة»[2].

وفي الجنة كانت الحياةُ الزوجيَّةُ قائمةً بين آدم وحواء، عرفا معاني السّعادة والبراءة، عرفا معاني النعيم المُقيم في هذه الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس، فكانا يتمتعان بما لذّ من الثمار، وينتقلان بين الظلال، ويرتويان من مائها وكان آدم وحواء قد فهما أنهما ممنوعان من أكل هذه الشجرة التي نهاهما عنها ربهما، فكانا كلما اقتربا منها ولّيا عنها مسرعَيْن طائعَيْن لأمر الله تعالى.

---

(١) فتح القدير (ص ٩٢٤) بشيء من التصرف اليسير.

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ١٦٨) بتصرف يسير.

ولما رأى إبليس الإنعام الإلٰهي على هذين الزوجين الهانئين بالجنة المتنعمين بوارف ظلالها، لعب الحسد، وقتله المكر، وغاظه ذلك، وطفق يفكِّر بخبثٍ ومكْر، ويحسب ويجمع، ويطرح ويضرب، لكي يسلبهما ما هما فيه من النعمة الظاهرة واللباس الحسن الجميل.

وقد تحدَّث القرآن الكريم في أكثر من موضع عن سعي إبليس في شدة المكر والوسوسة والخديعة لهذه الحياة الزوجية المباركة في الجنة، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي ألقى لهما بصوت خفيّ، لإغرائهما بالأكل من الشجرة؛ ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ أي: ليظهر لهما ما كان مستوراً من العوراتِ التي يَقْبُح كشفها. وقال لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا مَلَكَيْن من الملائكة أو تكونا خالدين ها هنا في الجنة، وحلف لهما بالله تعالى على ذلك بأنه ناصح أمين لهما فيما يقول في خداعهما، وقد يُخدَعُ المؤمن بالحلف بالله[1].

وراح إبليس يوسْوِسُ ويوسوس مرات ومرات، راح يوسوس إلى آدم على جهة الإغواء والحسد، بيد أن آدم لم يقبل منه ذلك؛ كرر إبليس وسوسته يوماً بعد يوم، كما أورد القرآن ذلك: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

وفكر إبليس في طريقة أخرى وإغراءات أخرى، لعله يقوِّض صرح هذه الحياة الزوجية التي ساءته، ولجأ إلى طريق الحيلة لعل الزوجان السعيدان آدم وحواء يُصغيان إلى وسوسته، وإلى نصيحته المزعومة، فأوهمهما أنه صادق الود لهما، وأنه لا يقصد ضررهما، وأشفق من زوال النعمة التي ينعمان في

---

(١) انظر صفة التفاسير (١/ ٢٣٩) بشيء من التصرف اليسير.

أفيائها، وأقسم بأنه ما نهاهما الله عن هذه الشجرة إلاّ كراهة أن يكونا ملَكين، وكراهة أن يُخلّدا في الجنة.

«ومن ها هنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا بابُ كيدِهِ الذي يدخلُ منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه، ويخالطه، ويسألها عما تحبّه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

وكذلك علّم إخوانه وأولياءَه من الإنس، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبّونه ويَهْوَوْنَه، فإنه باب لا يُخْذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره، فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشامَّ عدو الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار، في النعيم المقيم، فَعَلِم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين»[1].

وفي طريقةٍ خبثٍ مبطنةٍ، وخديعة ممزوجة بالمكر، قال إبليسُ للزوجين الهانئين آدم وحواء: يا هذان، إن الله قد علم أنكما لستما تموتان، ولكنه علم أنكما حينما تأكلان من هذه الشجرة، فتكونا ملَكيْن يعلمان الخير والشر، وإني أقسم لكما بأعظم الأيمان بأني لكما ناصح، إنها شجرة الخلد، ومن أكل منها لم يمتْ أبداً[2].

ولما أكثر إبليس من الحلف، قال آدم لزوجه حواء: أنا أَدَعُ أكل هذه الشجرة.

فقالت حواء متعجِّبة: أما ترى إلى حلفه بالله إنه لمن الناصحين؟!

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١٨٨) تحقيق خالد عبد اللطيف العلي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦.

(٢) نساء الأنبياء (ص ٣٠) بتصرف يسير.

وذلك أنهما لم يريا أحداً يحلف بالله، ولا علما أن أحداً يمكن أن يحلف بالله كاذباً ويُقسِمُ مخادعاً.

واستمر إبليسُ في الوسوسة، وتمادى جداً في الإغواء والإغراء لآدم وحواء، وصار يزيد في حلفه بأنه ناصح وصادق، وأنه يريد لهما السعادة الحقيقية، والحياة الخالصة من المتاعب.

ولم يشعرْ إبليس بالملل من الوسوسة والإغواء، بل تابع طريق التزيين للزوجين الطائعين لأوامر الله، غير أنه بمرور الزمن والأوقات، وكثرة إغواء إبليس، ألقيَ النسيان على آدم في موضوع الأكل من الشجرة.

«نسي آدم وحواء تحت إغراءِ إبليس وإغوائه وأقسامه وأيمانه المخادعة، نسِيَ الزوجان أن هذا اللعين عدو لهما، وأنه عدوهما الذي يزيّن لهما المعصية، ولا يدلهما على خير، نسيا هذا كله، واندفعا يستجيبان لرغائبه وإغرائه وإغوائه»[1].

ووقع الممنوع، وأكل الزوجان من الشجرة، وظهرت حقيقة إبليس أمامهما بأنه كان من المخادعين الكاذبين، وأنهما وقعا في شَرَكِ مصيدته، واغترّا بما كان يحلفه من الأيمان، ويبدو أن حواء هي التي أكلت أولاً من الشجرة.

قال القرطبي: «يقال: إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إيّاها، وإن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة، وهي أول فتنة دخلت على الرجال من النساء؛ فقال ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الـخُلْد، لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد؛ فأتاهما من حيث أحبا. وفي الحديث: «حبك الشيء يُعمي ويُصم»[2]. فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها، وذكر العهد، فألحّ على حواء وألحت حواء على آدم، إلى أن قالت: أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سلمت أنت، فأكلت فلم يضرها، فأتت آدم فقالت: كُلْ فإني قد أكلت

---

(١) انظر نساء الأنبياء (ص ٣١) بتصرُّف يسير.

(٢) أخرجه أحمد، وأبو داود، والبخاري في الأدب المفرد، وإسناده ضعيف، وانظر: (فيض القدير ٣/ ٣٧٢).

فلم يضرني، فأكل فبدت لهما سوءاتهما، وحصلا في حكم الذنب؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فجمعهما في النهي؛ فلذلك لم تنـزل بها العقوبة حتى وُجد المنهي عنه منهما جميعاً، وخفيت على آدم هذه المسألة»[1].

وهكذا استجاب آدم وحواء للإغواء، وأكلا من الشجرة وهما يظُنّان كل الظن أنهما سيخلدان في هاتيك الجنة، فلما أكلا منهما ظهرت سوآتهما، وتمت الخدعة الإبليسية، وظهرت ثمارها المرة الحنظلية، لقد أنزلهما الشيطان الرجيم بهذا الغرور من طاعة الله تعالى إلى معصيته، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا، وتغيّرت حالهما.

لم يكن آدم يودُّ الذي حصل له، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت له الشبهة من قول العدو إبليس وحلفه بالله جهد أيمانه أنه ناصح له ولزوجه، فاجتمعت الشبهة والشهوة وساعد القدر، فأخذتهما سنة الغفلة، واستيقظ العدو كما قيل:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢١٠ و٢١١).
أخرج الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لولا حواء لم تخنْ أنثى زوجها الدهر». أي لم تخنه أبداً. قال ابن عباس: سميت حواء؛ لأنها أمُّ كل حي، قيل: إنها ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى. قال القاضي: ومعنى هذا الحديث أنها أم بنات آدم، فأشبهنها، ونزع العرق لما جرى لها في قصة الشجرة مع إبليس، فزيّن لها أكل الشجرة، فأغواها، فأخبرت آدم بالشجرة، فأكل منها. (المنهاج ص ١١١٠) باختصار يسير.
وفي هذا الحديث إشارة إلى ما وقع من حواء من تزيينها لآدم الأكل من الشجرة، وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة، فمعنى خيانتها: أنه قد قبلتْ ما زيّنَ لها إبليس حتى زينته لآدم؛ وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، إذ خيانة الفجور لم تقع من امرأة نبي قط، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسّنت ذلك لآدم عُدّ ذلك خيانة له.
وأما من جاء بعدها من النساء، فخيانة كل واحدة منهن بحسبها؛ وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهنّ الكبرى، وأن ذلك من طبعهن، فلا يفرط من لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه، أو على سبيل الندور، وينبغي لهنّ ألا يتمكّن بهذا في الاسترسال في هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن مع الاستعانة بالله تعالى.

واستيقظوا وأرادَ اللهُ غفْلَتَهم لينفذَ القدرُ المحتومُ في الأزلِ

قال ابن حزم الفقيه المعروف: «إن آدم أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً بنصِّ القرآن، ومتأولاً وقاصداً إلى الخير، لأنه قدّر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكاً مقرباً أو خالداً فيما هو فيه أبداً، فأدّاه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به، وكان الواجب أن يحمل أمْر ربه على ظاهره، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه»[١].

وقال ابن تيمية وجماعة من المتأخرين: «الصواب أن آدم عليه السلام لما قاسمه إبليس إنه ناصح، وأكّد كلامه بأنواع التأكيدات، أحدها القسم بالله، ولم يظن آدم أن أحداً يحلف بالله كاذباً فظن صدقه، وأنه إن أكل من الشجرة المنهي عنها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل منها وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة الأكل في أثناء ذلك باعتذار أو توبة، كما تجد هذا التأويل في كل مؤمن أقدم على معصية»[٢].

وهكذا تمَّ كَيْدُ إبليس لآدم وحواء، وأول كيده ومكره بهما: أنه كادهما بالأيمان الكاذبة، أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، عَلِمَ عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انهتك ذلك السِّتْر، فبدت لهما سوءاتهما.

فالمعصية تبدي السوءة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبيﷺ في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوءاتهم[٣].

وهكذا إذا رُؤي الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوءة، فإنه يدل على فساد في دينه، قال الشاعر:

---

(١) تفسير القاسمي (٨/١٠٨).
(٢) تفسير القاسمي (٨/١٠٨ و١٠٩).
(٣) أخرجه البخاري في الجنائز برقم (١٣٨٦)، وفي التعبير برقم (٧٠٤٧). وأخرجه أحمد كذلك في مسنده (٥/٨ و١٤).

إنّي كأني أرى مَنْ لا حياءَ لهُ   ولا أمانةَ وسْطَ الناس عُريانا

فإن الله أنزل لباسين اثنين:

لباساً ظاهراً يواري العورة ويسترها.

ولباساً باطناً من التقوى، ويجمّل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

وعن خديعة إبليس لآدم وحواء يقول مُطَرِّف بن عبد الله: «قال لهما إبليس: إني خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشِدْكُما، وحلف لهما، وإنما يخدع المؤمن بالله»(1).

قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خُدعنا»(2). فالمؤمن غرّ كريم، والفاجر خِبّ لئيم.

وهكذا أكل آدم عليه السلام من الشجرة ناسياً، وقد عوتب على هذا النسيان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والمعنى: لقد عهدنا إلى آدم ألا يقرب من الشجرة، فنسي هذا العهد والأمر بألا يقرب من الشجرة، ولم نجد له تصميماً في حفظه، ولو كان التصميم على حفظ العهد لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغرَّه(3).

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَسِىَ﴾ وفي نسيان آدم قولان:

«أحدهما: ما هو نقيض الذكر، وإنما عوتب على ترك التحفُّظ والمبالغة في الضبط، حتى تولَّد منه النسيان.

والثاني: إن المراد بالنسيان: الترك، وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمرتها ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي لم نجد له عزماً على التحفظ والاحتراز عن الغفلة»(4).

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩١ ـ ١٩٢).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٩١ ـ ١٩٢).

(٣) تفسير القاسمي (١١/ ١٩٧) بتصرف.

(٤) تفسير الرازي (٢٢/ ١٢٤).

وخرج آدم وحواء عن الأمر الإلهي بأكلهما من الشجرة، وناداهما ربهما مذكراً لهما وقائلاً بعد أن ذاقا الشجرة وبدت سوءاتهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

إذاً لما أكل آدم وزوجه من الشجرة بدت لهما سوءاتهما، وقيل: كان لباسهما من حلل الجنة[١].

وقال صاحب تفسير المنار: «لا دليل على نوع اللباس الذي كان يلبسانه في الجنة، ولم يصحّ به أثر عن المعصوم ﷺ»[٢].

والراجح أن يقال: إنه كان لآدم وزوجه لباس يسترهما، ويستر سوءاتهما والله أعلم بحقيقته ونوعه، وإن هذا اللباس نزع عنهما بعد أكلهما من الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما.

وعاتبهما الله عتاباً رقيقاً مسّ قلبيهما وقال: ألم أنهكما وأحذِّركما من الأكل من تلك الشجرة، وأخبركما بأن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة فلا تطيعاه، لئلا يخرجكما من الجنة حيث العيش الرغيد، إلى حيث الشقاء في المعيشة والتعب في الحياة.

ولما سمع آدم وحواء نداء الله تعالى لهما، وما تضمنه ذلك النداء من العتاب والتوبيخ على أكلهما من الشجرة المنهي عنها، عَلِما بأن الشيطان قد خدعهما وأوقعهما في مخالفة الله تعالى، فندما وحزنا وتوجّها إلى الله تعالى معترفَيْن بالخطيئة، تائبين من الذنب، طالبين المغفرة والرحمة من ربهما الغفور الرحيم، و ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكان ما دعا به الزوجان: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ هي الكلمات التي تلقاها من ربه وهي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، قالها آدم عليه السلام، ودعا بها في خشوع وتضرُّع إلى الله

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٣٩).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٤٩).

تعالى، وتبعتْهُ في ذلك زوجه حواء، وهكذا تاب الله على آدم وزوجه؛[1] وقبل زلتهما، وإنما اكتفيَ بذكر توبة آدم دون ذكر توبة زوجه حواء لأنها كانت تبعاً له.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...﴾ ومعنى: تلقّي الكلمات: استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقُرئَ بنصب «آدمَ» ورفع «كلماتٌ» على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به.

فإن قلتَ: ما هنّ؟

قلتُ: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: سبحانك الله وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدّك، لا إله إلا أنت، ظلمتُ نفسي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا ربّ ألم تخلقني بيدك؟

قال: بلى.

قال: يا ربّ ألم تنفخ فيّ الروح من روحك؟

قال: بلى.

قال: يا ربّ ألم تسبقْ رحمتُك غضَبَك؟

قال: بلى.

قال: ألم تسكنّي جنتك؟

قال: بلى.

قال: يا ربّ إن تبتُ، وأصلحتُ، أراجعي أنت إلى الجنة؟

قال: نعم.

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٥٠ ـ ٣٥١).

واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء؛ لأنها كانت تبعاً له، كما طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك»[1].

وجاء في تفسير الطبري عن مجاهد أنه كان يقول في معنى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ الكلماتُ:

«اللهم لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي، إنك خير الغافرين.

اللهم لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إني ظلمت نفسي فارحمني، إنّك خير الراحمين، اللهم لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتُبْ عليّ؛ إنك أنت التواب الرحيم»[2].

وتاب الله تعالى على آدم وزوجه حواء، بَيْدَ أن هذه التوبة النصوح لم تمنع إخراجهما من الجنة، لأن الله تعالى قال بعد دعائهما: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الأعراف: ٢٤]. والخطاب موجه إلى آدم وزوجه حواء، وإبليس، والمعنى: اهبطوا من الجنة بعضكم ـ وهو الشيطان ـ عدو لبعض ـ وهو آدم وزوجته وذريتهما ـ. والمتبادر أن إخراج آدم وزوجه من الجنة كان عقاباً على تلك المعصية، معصية الأكل من الشجرة، لكون هذه المعصية ظلماً منهما لأنفسهما، وهو من العقاب الذي قضت به سنته تعالى بأن يكون أثراً طبيعياً للعمل السيِّئ مترتباً عليه ترتّب الـمُسبّب على سببه. وأما النوع الآخر من العقاب على العمل السيِّئ من حيث هو عِصيان الرب تعالى الذي يكون في الآخرة، فقد غفره الله تعالى لهما بالتوبة التي ذهبت بأثر المعصية من النفس، وجعلتها أهلاً لاصطفائه عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[3].

---

(١) تفسير الكشاف (ص ٧٢). وانظر: زاد المسير (ص ٥٦).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٤٤ و ٢٤٥) وانظر: تفسير الماوردي (١/ ٩٧) والرازي (٣/ ١٩) وابن كثير (١/ ٧١)، والدر المنثور (١/ ١٤٥)، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣١٤ و ٣١٥) والزهد للإمام أحمد (ص ٦٢).

(٣) انظر: تفسير المنار (٨/ ٣٥١).

لقد صدر الأمرُ الربانيُّ يقتضي بالهبوط من الجنة إلى الأرض، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

هبط آدم وحواء وإبليس جميعاً، هبطوا إلى هذه الأرض التي نعيش فوقها الآن نشقى ونتعب ونعمل.

ولكن متى هبطوا؟ وأين؟ وكيف؟

أما زمن الهبوط ووقته فيبدو أن هبوط آدم وحواء كان يوم الجمعة، كما روت الأحاديث الشريفة، وأبانتْ ذلك.

أخرج أبو داود بسند رفعه إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة...»(١).

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺقال: «خير يوم طلعت عليه الشمس، يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أدخِل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»(٢).

---

(١) عون المعبود (٣/٣١٧) حديث رقم (١٠٣٣)، وانظر كذلك الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة برقم (٨٥٤) واللفظ له. وأخرجه أحمد في المسند (٢/٥٤٠)، والنسائي (٣/٨٩ ـ ٩٠)، والترمذي، انظر: تحفة الأحوذي (٢/٦١٣)، حديث رقم (٤٨٦)، والحاكم في المستدرك وصححه.
قال الإمام النووي رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: «قال القاضي عياض: الظاهر أن هذه الفضائل المعدودة ليست لذكر فضيلته، لأن إخراج آدم وقيام الساعة لا يعد فضيلة، وإنما هو بيان لما وقع فيه من الأمور العظام، وما سيقع ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصالحة لنيل رحمة الله ودفع نقمته.
وقال أبو بكر بن العربي في كتابه: (تحفة الأحوذي في شرح الترمذي): الجميع من الفضائل، وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية وهذا النسل العظيم، ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء، ولم يخرج منها طرداً، بل لقضاء أوطار ثم يعود إليها. وأما قيام الساعة فسبب لتعجيل جزاء الأنبياء والصديقين والأولياء وغيرهم، وإظهار كرامتهم =

أما أين كانوا، وأين هبطوا، فهذا من الغيب الذي ليس عند أحد منه علم، إلا ما جاء في القرآن الكريم، أو ما فسّرته السنة المطهرة.

غير أن المفسرين وبعض المؤرخين والرواة شرّقوا وغرَّبوا في هذا المجال، وحددوا المكان الذي نزل فيه آدم وحواء، وقالت بعض المصادر: إن آدم أهبِط في الهند، وحواء في جدة، وازدلفا بالمزدلفة وتعارفا بعرفات[١].

وقال ابن كثير نقلاً عن ابن عمر بأن آدم قد أهبِط بالصفا، وحواء بالمروة[٢].

وأشار كثير من العلماء إلى أن أماكن كثيرة، وقد نقلها الطبري في تاريخه المشهور[٣].

ومن الإنصاف هنا أن نذكر رأي الطبري في هذا المجال، فقد ظهر في رأيه عالماً جليلاً خبيراً بصيراً بالتواريخ والنقولات، لذا فإنه لم يحدِّدْ مكاناً لنزول آدم وحواء، ولم يقطع برأيه، بل قال: «وهذا مما لا يُوصل إلى عِلْمِ صحته إلا بخبرٍ يجيءُ مجيءَ الحجّة، ولا يُعلم خبرٌ في ذلك وَرَد كذلك غير ما ورد من خبر هبوط آدم بأرض الهند؛ فإن ذلك مما لا يدفع صحته علماء الإسلام»[٤].

وبدأت حياةٌ زوجية لآدم مع حواء في الأرض، بدأت حياة آدم عليه السلام في رحلة طويلة مع العمل والتعب والسعي، تشاركه في ذلك زوجته حواء.

ولا يستطيع أحد أن يرسم الصورة الواضحة للحياة الزوجية بين آدم وحواء آنذاك، غير أن الآثار التي وصلتْ إلينا تدلّ على أنهما كانا يحلمان بالنعيم

= وشرفهم، وفي هذا الحديث فضيلة يوم الجمعة ومزيته على سائر الأيام» (المنهاج ص ٨٦٣).

(١) انظر: المعارف لابن قتيبة (ص ١٥)، وشفاء الغرام للفاسي (١/ ١٤١)، وتفسير الصاوي على الجلالين (١/ ٢٣)، ووفيات الأعيان (٣/ ٣٨٩)، وتاريخ الطبري (١/ ٧٩) وغيرها كثير.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٨٠).

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٤) تاريخ الطبري (١/ ١٨٠).

المفقود، ثم انخرطا في مشاغلِ الحياة الدنيا وفي تربية الأولاد، لِتعْمُر البشرية على سطح الأرض إلى أن يشاء الله.

ومن الذي تجدر الإشارة إليه هنا بأن آدم عليه السلام هو أولُ نبي أرسله الله تعالى، وهو أول الأنبياء[1] وجاء في القرآن الكريم ما يشير إلى هذا الأمر المهم، قال الله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. ففي هذه الآية تبيان واضح لمن اصطفاهم[2] الله تعالى من البشر لهداية الناس، ومن الواضح أن ظاهر الاصطفاء[3] هو النبوة والرسالة.

ومعنى الآية: إن الله تعالى قد اختارَ هؤلاء وجعلهم صفوةَ العالمين بِجَعْل النبوة والرسالة فيهم.

فأولهم آدم وهو أبو البشر، اصطفاه الله واجتباه، وكان من ذريته البنون والمرسلون.

وثانيهم نوح، وهو الأب الثاني للبشر، فقد حدث على عهده الطوفان العظيم، فانقرض من السُّلالات البشرية ما انقرض، ونجا هو وأهله في الفلك العظيم، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين، ثم تفرقت ذريته وانتشرت في البلاد، وفشت فيهم الوثنية.

فظهر إبراهيم عليه السلام نبياً مرسلاً، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون من ذريته وآله، كإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وكان من أرفع

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٠٩) ترجمة رقم (٢٩)، وقال النووي: «آدم أبو البشر... خلقه الله عز وجل بيده، وأسجد له الملائكة، وأسكنه جنته، واصطفاه، وكرم ذريته، وعلمه جميع الأسماء، وجعله أول الأنبياء، وعلمه ما لم يعلم الملائكة المقربين، وجعل من نسله الأنبياء المرسلين، والأولياء والصديقين» (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٠٩ و ١١٠).

(٢) قال الزجاج: «معنى اصطفاهم في اللغة: اختارهم، فجعلهم صفوة خلقه، وهذا تمثيل بما يرى، لأن العرب تمثل المعلوم بالشيء المرئي، فإذا سمع السامع ذلك المعلوم كان عنده بمن يشاهده عياناً، فنفهم الشيء الصافي أنه النقي من الكدر» (زاد المسير ص ١٨٨).

(٣) الاصطفاء: أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء.

أولاده قدراً، وأنبههم ذكراً آل عمران، وهم عيسى وأمه مريم ابنة عمران، وينتهي نسبها إلى يعقوب عليه السلام، وخُتمت النبوّة بولد إسماعيل محمد ﷺ[1].

ولعلّي لا أذهب بعيداً إذا تحدثت قليلاً عن الأنبياء في القرآن الكريم، فقد ذكر الله تعالى في كتابه طائفة من الأنبياء ولم يذكر جميع الأنبياء والمرسلين. فقال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

وهؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم هم خمسة وعشرون نبياً وهم: «آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيّوب، ذو الكفل، موسى، هارون، داود، سليمان، إلياس، اليسع، يُونُس، زكريا، يحيى، عيسى، محمد عليهم الصلاة والسلام».

وقد ذكر الله عز وجل منهم ثمانية عشر نبياً في أربع آيات متتالية من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

والسبعة الآخرون ذكرهم في مواطن أخرى وهم: آدم، إدريس، هود، صالح، شعيب، ذو الكفل، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وقد تفنَّن الشعراء في نظم أسمائهم، فقال بعضهم مشيراً إلى آيات الأنعام، ذاكراً عددهم:

في ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ﴾ منهم ثمانيةٌ ... منْ بعدِ عشْرٍ ويبقى سبعةٌ وهمو

إدريسُ هودُ شعيبٌ صالحٌ وكذا ... ذو الكفْل آدمُ بالمختارِ قد خُتِموا

---

(١) انظر: تفسير المراغي (١/ ٤١٩).

وقد نظم أسماءهم آخر فقال:

أسمــاءُ رســلِ اللهِ فــي القــرآن خمــسٌ وعشــرون فَخُــذْ بيــان

هــم آدمٌ إدريــسُ نــوحٌ هــود يــونــسٌ إليــاسُ اليَســع داود

إسحــاقُ إبـراهيـمُ لـوطٌ مـوسـى ذو الكفـل يحيـى زكـريـا عيسـى

شعيــبُ ثــم صــالــحٌ أيــوبُ هــارونُ ثـم يـوسُـف يعقـوبُ

ثــمّ سليمــانُ وإسمــاعيــلُ محمــدٌ خَتْمهــم الجليــلُ

وفي السُّنَّة الغراء نصوص تشير إلى نبوة آدم عليه السلام، وذلك فيما جاء عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله، أيُّ الأنبياء كان أول؟

قال: «آدم».

قلت: يا رسول الله، ونبيٌّ كان؟

قال: «نعم نبي مُكَلّم»(١).

قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟

قال: «ثلاثمئة وبضعة عشر جمّاً غفيراً».

وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟

قال: «مئة وعشرون ألفاً».

قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟

قال: «ثلاثمئة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً».

قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟

---

(١) قال القرطبي في توضيح هذا ما نصه: «المكلّم موسى عليه السلام. وقد سئل رسول الله ﷺ عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال: «نعم نبيّ مكلم» قال ابن عطية: وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصية موسى. (تفسير القرطبي ٣/ ١٧٢).

قال: «آدم عليه السلام».

قلت: يا رسول الله، أنبي مرسل؟

قال: «نعم، خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، وكلّمه قبلاً»[١].

ونعود إلى الحياة الزوجية لآدم وحواء على الأرض، فقد غدت حياتهما تختلف عما كانت عليه في الجنة، فهما يواجهان الشقاء، ويصارعان الحياة، ويتعبان كيما يأكلا، فقد كانا يأكلان في الجنة رغداً حيث شاءا، ولكنهما أهبِطا إلى حياة غير رغيدة، وتحتاج إلى التعب والنصب من أجل الحصول على الطعام والشراب.

يذكر الطبري أن آدم قد عُلِّم صنعة الحديد، وأمِرَ بالحرث، فحرث الأرض، وزرع، ومن ثم سقى، حتى إذا استوى الزرع على سوقه، وحان حصاده عمل في حصده، ثم داسه، ثم ذرّاه، ثم طحنه، وبعد ذلك تأتي الأعمال المنـزلية التي تقوم بها حواء، فعجنت، ثم خبزت حتى أكلا وشعرا بالشبع بعد نصب[٢].

ولم تكن الحياة الزوجية هيِّنة لينة آنذاك، بل سارت حواء في درب المشقة، فغزلت الصوف، ونسج آدم لنفسه جبة، ولحواء درعاً وخماراً، فلبسا ذلك[٣].

قال الطبري: «أرسل الله لآدم وحواء مَلَكاً يعلمهما ما يلبسانه، ويستتران به».

ولم تكن الحياة الزوجية بين آدم وحواء قائمة على السعي وراء الطعام والشراب فحسب، بل أخذت تساعده في بناء الكعبة المشرفة بإشارة إلٰهية.

قامت حواء تساعد آدم في بناء أول بيت وُضِع للناس في الأرض للعبادة وخصص لها، وجعله مباركاً، وهدى للعالمين، ومن دخله كان آمناً.

---

(١) انظر: موارد الظمآن (٩٤).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٨٣) بتصرف.

(٣) الكامل لابن الأثير (١/ ٣٨).

كانت حواء تنقل التراب، وتبني مع آدم فيه، وتقوم بمساعدته في أمور إشادته.

أخرج البيهقي في (الدلائل) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «بعث الله جبريل عليه السلام إلى آدم وحواء، فقال لهما: ابنيا لي بناءً. فخطَّ لهما جبريل عليه السلام، فجعل آدم يحفر، وحواء تنقل حتى أجابه الماء، نُودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بَنَيَاه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت. ثم تناسخت القرون حتى حجّه نوح؛ ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه»[1].

ومن المقطوع به أن أول حياة زوجية كانت على الأرض هي حياة آدم وحواء، فحواء هي أمُّ البشر على ظهر الأرض، وهي أم كغيرها من الأمهات، تحمل ثم تضع حملها.

وذكروا أن حواء كانت تحمل توءماً، أنثى وذكراً، وذكروا أنها ولدت لآدم أربعين ولداً لصلبه من ذكر وأنثى في عشرين بطناً.

كانت حواء تلد في البطن الواحد ابناً وبنتاً، وفي البطن الثاني ابناً وبنتاً، وكان يحلّ زواج ابن البطن الأول من بنت البطن الثاني. ووضعت حواء توءمين: قابيل وأخته لوذا؛ وولدت هابيل وأخته إقليميا[2].

وكان لابني آدم هذين قصة ذكرها القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد ترعرع الأبناء في ظلٍّ رعاية أسرتهم وأبيهم وأمهم، ولما بلغ قابيل وهابيل مبلغ الرجولة، أخذا يعملان ويسعيان في مناكب الأرض طلباً للرزق، وكان قابيل وهو الكبير صاحب زرع وحرث، وهابيل صاحب ماشية وغنم[3]. وأحبَّ كل من قابيل وهابيل أن يكون له زوجه يسكن إليها.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٥).
(٢) انظر غرر التبيان (ص ٢٤٥)، والإتقان (٤/ ١٠٩٣)، وطبقات ابن سعد (١/ ٣٦)، وانظر: تفسير البغوي (ص ٣٧١).
(٣) حياة الحيوان للدميري (٢/ ١٠٧). ط ٥ ـ مصر ـ ١٩٧٨م.

وقد ذكر غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، فأوحى إلى آدم أن يزوج قابيل من توءمة هابيل، ويزوج هابيل من توءمة قابيل.

قال سعيد بن المسيب رحمه الله: «إن الله أمر آدم أن يفرق في النكاح من كل بطن هذا لتلك، وتلك لهذا».

وامتثل آدم عليه السلام الأمر الإلٰهي، وأراد أن يزوِّج كل واحد منهما أخت الآخر، فرفض قابيل لأن توءمة هابيل كانت دميمة، وأخته وضيئة، وأراد أن يستأثر بها على أخيه، وخرج عن طاعة أبيه آدم وأمه حواء. ولكن آدم أبى ذلك إلا أن يقربا قرباناً فمن تُقَبِّل منه فهي له، وهو أحقُّ بما أراد.

لعبت نوازع الشر والفساد بنفس قابيل، بل لعب به الحسد لأخيه، بينما احتفظ هابيل بالاتِّزان، وامتثال ما أمر به أبوه آدم من تقديم القربان.

روى عدد من الصحابة قصة القربان وشيئاً من حياة آدم الزوجية، فعن عبد الله بن عباس، وكعب، وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم قالوا:

«وَلَدت حواء مع قابيل جارية يقال لها: (لوذا) أجمل بنات آدم، وولدت مع هابيل جارية يقال لها: (إقليميا). فخطبا إلى أبيهما، فقال: أنكحك يا هابيل لوذا، وقال لقابيل: زوجتك إقليميا.

فقال قابيل: ما أرضى بهذا، أختي أجمل.

فقال آدم: إن الله أمرني أن أفرق بينكما في النكاح، فإن كنت لا ترضى، فقرّبا قرباناً، فقربانُكما سيقضي بينكما.

قال: وكيف يقضي بيننا؟

قال آدم: مَنْ يُقْبَلُ قربانه فهي له.

وكان قربانهما أن يتقرَّبا بقربان، ثم يلقيانه على وَجْهِ الأرض، حتى تأتي نار فتأكله، أو يبليه الدهر.

كان هابيل يتقرب إلى الله عز وجل بخيار ما عنده من الغنم والنعم والمال؛

وأما قابيل فكان يتقرب بشرِّ ماله ونفاية الحنطة، فجاءت نار من السماء، فكانت تأكل قربان هابيل، ولا تقرب قربان قابيل، فغاظه ذلك، وحسد أخاه هابيل حسداً أعمى، وانبعثت شروره إذ بقي قربانه على حاله، وعندئذٍ قال لأخيه هابيل: قُبِلَ قربانك، ولم يُتقبل قرباني، لأقتلنك أو تعتزل أختي وتدعها.

قال هابيل: لا أفعل؛ ولا أخالف أمر والدي.

فقال قابيل مهدِّداً ومتوعداً هابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فأجابه هابيل إجابة الواثق المطمئن: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[1].

وقد أورد القرآن الكريم قصة ابني آدم بشكل جميل ومثير، قال تعالى يذكر حسد قابيل لهابيل وعزمه على قتله: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ومعنى القربان: اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة[2]. وقال الراغب الأصفهاني: «القربان ما يتقرب به إلى الله، وصار في التعارف اسماً للنسيكة التي هي الذبيحة وجمعه قرابين[3]».

ولما سمع هابيل تهديد أخيه له بالقتل، وعزمه على قتله أجابه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾المائدة: ٢٨]. أي: لئن مددت إليّ يدك لتقتلني ظلماً، فأنا لا أمدّ يديَ لأقتلك، فلست بالذي يتصف بهذه الصفة المنكرة المنافية لتقوى الله، فلا أقابل صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أخاف من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب[4].

ولما لم ينفع ما قاله هابيل لأخيه؛ لمنع من ارتكاب الجريمة، أخذ يخوفه

---

(١) نساء الأنبياء (ص ٤٥ و٤٦).
(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٠٥).
(٣) معجم مفردات القرآن (ص ٤١٤ و٤١٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤)، وتفسير المنار (٦/ ٣٤٣)، وتفسير القاسمي (٦/ ١٥٩).

بعذاب الله وعذاب الآخرة فقال له: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

ومن الملاحَظ أن هابيل يعظُ أخاه وعظاً رقيقاً ليصرفه عن عزمه على قتله، فقال له ابتداء: يا أخي؛ إني لم يصدر مني ذنب، ولا إساءة إليك، حتى تريد قتلي، وإن سبب عدم قبول قربانك يرجع إلى عدم تقواك؛ لأن الله إنما يتقبّلُ من المتقين.

ثم إن هابيل قد بيّن لأخيه أن لا عزم ولا نية عنده على نية إذا هو أراد قتله، إذ إنه يخاف الله رب العالمين.

ثم أخذ هابيل يذكِّره بأن المعتدي يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه، وإنه بهذين الإثمين يكون من أصحاب النار، وهذا جزاء كل ظالم.

ومع هذا الوعظ اللطيف الموقظ للنفس، والخالص من هابيل، لم يستجب أخوه، ولم يرجع عما عزم عليه من الإمعان في ارتكاب جريمة القتل، وقد أخبرنا القرآن العظيم بتنفيذ جريمته النكراء الشنيعة البشعة، فقال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

لقد حسّنت وسولت نفس قابيل قتل أخيه، وشجعته على ذلك فقتله وأصبح من الخاسرين في الدنيا؛ وفي الآخرة؛ فقد خسر قابيل نفسه فأوردها موارد الهلاك؛ كما أنه خسر أخاه الطيب الكريم فَفَقَدَ بذلك الناصر والرفيق والصاحب، وخسر دنياه خسارةً فادحة فما تهنأ للقاتل حياة مطلقاً، ولا يشعر بالأمن ولا بالاطمئنان والهدوء، وخسر الآخرة؛ نعم خسر آخرته فباء بإثمه الأول والأخير، وقوض كل معاني حياة الأسرة.

لقد أصبح قابيل أسير فعلته النكراء، فقد جلس متحيِّراً أمام جثة أخيه، كان مصفرَّ الوجه، ساكن الأعضاء، فقد أصبحت أقواله وتهديداته لأخيه متمثّلة بصورة حسية أمامه، صورة الجثة التي لا حراك بها، إنها الجريمة التي لا تطيقها النفوس، نعم ولا تقبلها العقول.

وفي الهدي النبوي الكريم تشديد على وزْر من ارتكب هذه الفعلة العظيمة

الهابطة، فقد جاء في المسند وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتَل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أول من سَنّ القتل»[1].

ولما قتل قابيل أخاه هابيل تركه لا يدري ما يصنع به، ثم إنه خاف عليه سباع الأرض وهوامها، فحمله على ظهره، لا يدري ما يصنع، ولا أين يذهب بالجثة، ولا أين يخفيها، لقد كان هابيل أول إنسان يموت من البشر على وجه الأرض. ولم يكن دفن الموتى معروفاً لدى أبناء آدم بعد؛ قال الشَّوْكاني: «لم يَدرِ كيف يواريه لكونه أول ميت مات من بني آدم»[2].

وفي هذه الأثناء رأى قابيل الحلّ بنفسه، فقد بعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له حفرة، ثم حثى عليه التراب، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١].

قال الدُّمَيري: «والحكمة في أن الله تعالى بعث إلى قابيل لما قتل هابيل غراباً، ولم يبعث له غيره من الطير، ولا من الوحش، لأن القتل كان مستغرباً جداً، إذ لم يكن معهوداً قبل ذلك فناسب بعث الغراب»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى واراه، فلما رأى ذلك قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٨٣ و ٤٣٠ و ٤٣٣)، وأخرجه الإمام البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه في كتاب الأنبياء، والديات، والاعتصام؛ انظر فتح الباري (٦/ ٤١٩) حديث رقم (٣٣٣٥)، وأخرجه مسلم في القسامة برقم (١٦٧٧)، والترمذي برقم (٢٦٧٥).
ومعنى الكِفل: بكسر الكاف: الجزء والحظ والنصيب. ومعنى: لأنه سنّ القتل: أي: جعله سيرة للناس، فهو متبوع في هذا الفعل، وللمتبوع نصيب من فعل تابعه، وإن لم يقصد الفاعل إتباعه في الفعل.
قال النووي: «وهذا الحديث من قواعد الإسلام، وهو أن كل من ابتدع شيئاً من الشرّ كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل. . .» (المنهاج ص ١٢٨٦).

(٢) فتح القدير (ص ٣٦٦).

(٣) حياة الحيوان للدميري (٢/ ١٠٧).

﴿هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، أي أن قابيل لما رأى ما فعل الغراب في دفن الغراب الآخر الذي قتله، أو وجده ميتاً قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب، وهي كلمة تقال عند وقوع الدَّاهية العظيمة، ولفظها لفظ النداء، كأن الويل غير حاضر فناداه ليحضر، أي أيها الويل احضرْ فهذا أوان حضورك، ثم قام هابيل ودفن أخاه.

وبعد هذا الذي وقع أصبح قابيل من النادمين على قتل أخيه، لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه بسببه أبواه وإخوته، فكان ندمُه لأجل هذه الأسباب، لا لكونه معصية، فلم يكن ندمه توبة، فلم ينفعه ندمه[١].

وبهذه الفَعلة الشنيعة كسب الشيطان واحداً من أبناء آدم في جولته الأولى على ظهر الأرض، وجعله أول القَتَلة، وأول قساةِ الأكباد، حيث لم يرعَ حرمة الأخوة، ولا الأبوة، ولا الأمومة، ولا الروابط الأسرية.

سَرَتِ الأنباءُ الفظيعة وخبر الجريمة الشوهاء إلى آدم وحواء، إلى الأبوين اللذين هما عماد الحياة الزوجية والأسرية في فجر التاريخ الإنساني، سَرَتِ الأخبارُ بقتل هابيل، فاشتد حزن الأبوين عليه، فهما في الواقع أبوا القاتل والمقتول.

ذكر ابن عساكر في تاريخه قال: «لما مات ابن آدم، قال: يا حواء؛ مات ابنك.

قالت: وما الموت؟

قال: لا يأكل، ولا يشرب، ولا يقوم، ولا يمشي، ولا يتكلّم أبداً.
فصاحت حواء...

فقال آدم: عليك الرّنة؛ وعلى بناتك، وأنا وبني منها براء»[٢].

ويظهر أن حزن آدم وحواء دام طويلاً على ابنهما التقيّ هابيل، ويبدو أن أحدَ

---

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٠٩ و٢١٠).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٢٠).

الأدباء قد نظم أبياتاً على لسان آدم ونسبَهَا إليه في رثاء هابيل فقال:

تغيـرتِ البـلادُ ومـن عليهـا ... فـوجْـهُ الأرضِ مغبـرٌّ قبيـح
تغيّـر كـلّ ذي لـونٍ وطعـمٍ ... وقـلّ بشـاشـةُ الـوجـه الصّبيـح
ومـا لـي لا أجـودُ بسَكْـب دمـعٍ ... وهـابيـل تضمّنـه الضّـريـح
أرى طـولَ الحيـاةِ علـيّ غمّـاً ... فهـل أنـا مـن حيـاتـي مستـريـح[1]

وذكرت المصادر المتنوعة أن الحياة الزوجية لآدم وحواء قد أثمرت فيما بعد؛ وأنّ حواء قد حملت بابنها (شيثاً) بعد مقتل هابيل بخمس سنين عدداً، وأن معنى شيث: «هبة الله» أي أنه خلف من هابيل[2].

ودارت أيام وأعوام، وكبُر الزوجان الكريمان آدم وحواء، وكثر نسلهما في الأرض، ولعل الأبوان كانا يحدِّثان أولادَهما عن حياتهما الزوجية في الجنة، وكيف كانا هانئين سعيدين، ثم كيف أزلهما الشيطان وأغراهما وأغواهما، فنـزلوا هابطين جميعاً من الجنة؛ ولذلك كانا يحذران الأولاد من فتنة الشيطان، والبعد عن طرقه وسبله وغواياته.

وتأتي بداية النهاية للحياة الزوجية لآدام وحواء، فقد لقي آدم ربّه، ثم بعد سنة توفيت حواء، وتلاشتْ حياة أول أسرة على ظهر الأرض، لتبدأ حياة أسَر أخرى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

---

(١) روي عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من قال: إنّ آدم عليه السلام قال شعراً فقد كذب؛ إن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم عليهم السلام في النهي عن الشعر سواءٌ». (تفسير البغوي ص ٣٧٣).

(٢) انظر مثلاً: تاريخ الطبري (١/ ٩٦)، وتفسير البغوي ص (٣٧٣)، وقصص الأنبياء (ص ٥٩) وغيرها كثير.

الفصل الثاني
حياة إبراهيم الزوجية مع سارة

سيرة حياة نبيٍّ الله إبراهيم الزوجية مع زوجه سارة حياة مفعمة برحمة الله وفضله وإنعامه وكرمه، وفيها تنويرٌ للأذهان وإمتاع للأسماع، وصقلٌ للطباع، وتهذيب للنفوس؛ وقد جاءت في بضعة مواضع من القرآن الكريم، وجاءت كذلك في قصص الحديث النبوي الشريف؛ وفي ثنايا المصادر المتنوِّعة التي وصلت إلينا عن السلف الصالح رحمهم الله.

وقد اهتمت كتب التفسير والمصادر[1] بذكر أخبار سارة زوج نبي الله إبراهيم، وأوردت كثيراً من أخبارها في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة، كما روت جانباً مهمّاً من الحياة الزوجية لها ولنبيٍّ الله إبراهيم عليه السلام، ذلك النبي الذي ورد ذكره كثيراً في القرآن الكريم.

وإبراهيم عليه السلام أحد الأنبياء الخمسة من أولي العزم من الرسل وهم المقصودون في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

---

(١) انظر مثلاً: تفسير الطبري (٩/ ٤٥) وانظر الفهارس (٢١/ ٤١٦)، وتفسير مبهمات القرآن للبلنسي (١/ ١٤٦ و ١٤٧ و ١٨١ و ٢٨١ و ٤٤٦) و (٢/ ٣٤ و ٨١ و ٢١٥ و ٣٢٠ و ٤٠٧ و٤٠٩)، وترويح أولي الدماثة (١/ ٦٤)، وغرر التبيان (ص ٢٨٢)، ومفحمات الأقران (ص١١٩)، وحدائق الإنعام (ص ٤٣)، وطبقات ابن سعد (١/ ٤٧)، وتاريخ الطبري (١/ ١٤٩)، والكامل في التاريخ (١/ ١٠٠)، وأخبار مكة (١/ ٥٤)، والبداية والنهاية (١/ ١٥٠)، وفتح الباري (٦/ ٤٤٧)، وغيرها كثير.

قال الشَّوْكاني: «﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ النبي ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى»[1].

وهؤلاء الأنبياء الخمسةُ هم أصحاب الشرائع، وقد نَظَمَ أسماء هؤلاء الرسل أحد العلماء فقال يذكرهم حسب ترتيبهم:

أُولو العزمِ خمسٌ والشرائع خمسةٌ   يدانُ بها ربّ العبادِ ويُعبدُ
فنوحٌ وإبراهيمُ ذو الحلم والتقى   وموسى وعيسى ثمّ جاءَ محمدُ[2]

والأخبار غزيرةٌ وجليلةٌ عن حياة إبراهيم الزوجية مع زوجته سارة، حيث إن هذه الأسرة المباركة وهذا البيت المبارك والذي باركه الله قد تفرعت عنه النبوة، إذ إن إبراهيم هو أبو الأنبياء، وزوجته سارة من النساء الجليلات المؤمنات اللواتي كلّمْن ملائكة الله، وكلمها ملائكة الله، وبشَّرْنَها بشارة عظمى ضحكت من خلالها سروراً بنعمة الله عليها وعلى ذريتها وأولادها من بعدها. فهي زوج أبي الأنبياء، وخليل الله، جعله أمة، ورزقه الحلم والصبر، واختصَّه بمكارم وفضائل عظمى، كما ذكر اسمه في سورة مكية طويلة سميت باسمه «سورة إبراهيم».

كان إبراهيم عليه السلام يفكر دائماً في ملكوت السماء، وكان مُفعماً بإحساسات زاخرة بالإيمان، نظر إلى القمر وهو يرسل ضياءه فيغمر الدنيا بنور عذب ساحر، لكن القمرَ غاب عندما أشرقت الأرض بالصباح، بشروق الشمس من خلال أشعتها الفضية، ولكنها غابت عند المساء.

ما أعظم قدرة الله التي وقف أمامها إبراهيم خاشعاً، وكان نور الإيمان يتسامى من قلبه إلى الأفق العلوي، وغمرته أنوار التجليات، وأشرق النور في قلبه، ووجد الهداية الربانية تجذبه إلى أرفع درجات الإيمان.

وتذكر المصادر المتنوعة إلى أن إبراهيم عليه السلام كان في مطلع حياته

---

(١) فتح القدير (ص ١٣٧٠).
(٢) انظر كتاب: رحلة الشتاء والصيف لمحمد كبريت (ص ١٢٣).

يعيش في بابل بالعراق، وتزوَّج من قريبته سارة، وكانت قد آمنت برسالته، وآمن له ابن أخيه لوط.

ومن الطَّريف أن نواة الأسرة الإبراهيمية قد تكوَّنت من أن خطب إبراهيم ابنة عمِّه سارة، وكانا في ميعة الصبا وألقِ الشباب.

وتدلُّ المصادر على أن سارة امتلأت نفسها سروراً عندما خطبها ابن عمها إبراهيم؛ وجلست تتـزين وتتأهَّبُ لأهم حدث في حياة كل فتاة، ففي هذه الليلة المقمرة المزهرة يأتي إبراهيم ابن عمها آزر ليخطبها.

كانت سعيدة مسرورة، يترقرقُ الفرح في عينيها الجميلتين الآسرتين، وتظهر على شفتيها إشراقة باسمة تعكس إشراقة روحها الصافية، وكانت جاريتها ترقبها عن كثب وهي مبهورة بما حباها الله من جمال فتَّان تخشع لجلاله القلوب، وتوحِّد علام الغيوب.

لقد شغفت سارة حباً بابن عمها إبراهيم، وذلك الفتى الذي كان رقيقَ القلب، راجحَ العقل، عزوفاً عن اللهو الذي ينغمس فيه شبابُ بلده.

كان إبراهيم ناصعَ الجبين، أدعجَ العينين، مسترسلَ الشعر، تزيِّنُ وجهه لحيةٌ سوداء، وكانت الأعين ترتاح إلى صورته، أما ما كان يجذب العيون والقلوب إليه جميعاً فجمالُ روحه، وحسنُ منطقه، ورجاحةُ عقله؛ فقد كان قويَّ الحجة، يبهر السامعين بقوة بيانه، وسلامة حججه.

وأحسَّت سارة في أعماقها أنه سيكون لها ولإبراهيم شأن يذكر، وأن زواجهما سيكون مباركاً.

أما أمُّ سارة فقد راحت تهيئ ابنتها وتصلح شأنها، وتتطلع إلى ابنتها مزهوةً، تخفق النشوة بين جوانحها، ولم تستطع أن تكتم إعجابها بجمالها الساحر فقالت لها: أتعرفين ما معنى اسم سارة؟

فقالت: معناها أميرة.

فقالت الأم: أنتِ أجمل من أيَّةِ أميرة في قصور الأمراء.

وجاء إبراهيم وتمت الخطبة، وتقدمت أم سارة من إبراهيم وهمست قائلة

له: يا إبراهيم، أريدك أن تبني بيتك بيدك لسارة، فهي أعزُّ ما نملك، وهي وديعة غالية أحب أن تضعها في بيت تحبه ويتعلق به فؤادك.

وابتسم إبراهيم ابتسامة الرضا، ثم بنى بيتاً متواضعاً، واستقبل فيه زوجه سارة ذات الجمال الآسر وذات الروح الصافية.

وعاش الزوجان حياةَ الصَّفاء والأنس، وكان النور يغمر قلبيهما، ونسائم الرحمة ترفرف حولهما.

وكان إبراهيم يشعر بأن الحكمة تملأ صدره وجوانحه، وأن الله تعالى ألهمه رشده، فأخذ يقلِّب وجهه في ملكوت السماوات والأرض وهو مفْعَمٌ بالسرور، فقد اطمأنَّ إلى كنوز الحكمة التي أريقت في فؤاده، وانبهر بالنور الإلٰهي الذي انسكب في نفسه، فقد هداه الله إلى صراط مستقيم وإلى سواء السبيل.

ومرت لحظات مفعمة بالبركات، فأحسّ إبراهيم كأن كلَّ حلاوة الوجود سرت في وجدانه، وأن سلاماً أفرغ عليه، وأن سكينة أنزلت على قلبه، فازداد إيماناً وتسليماً، ولما أفاق، رفع وجهه إلى السماء وقال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين، وهبط عليه جبريل يبشره بأنه رسول الله، وأنه خليل الرحمن، وقال له: أسلم، فخرَّ إبراهيم ساجداً وقال: أسلمت لله رب العالمين[1].

وتبرأ إبراهيم من شرك قومه وقال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩].

كان الصبح يتنفس في هدوء، والناس نيام، وكل الكائنات في الكون تسبِّح بحمد الله إلا البشر، فما كان من أحد من البشر في تلكم اللحظات يسبح باسم ربه العظيم سوى إبراهيم، الذي كان يصلي لله ربِّ العالمين.

وطفق إبراهيم يبتهل إلى الله تعالى، ويتأوَّه حتى بلغ صوته الدافئ سمع

(١) انظر: إبراهيم أبو الأنبياء لعبد الحميد السحار (ص ١٢٥ ـ ١٣١) بشيء من التصرُّف.

زوجه سارة، فهبت من مكانها وراحت ترقبه، فإذا به يركع ويسجد ويصلِّي صلاة لم تسمع بها من قبل، ولم ترها أيضاً، إنه يدعو إلٰهاً واحداً دون أن يذكر معه سائر الأرباب التي عبدها قومه.

ولما أتمَّ إبراهيم الصلاة والتسبيح دنت منه وقالت في هدوء: ماذا تفعل؟

قال: أصلِّي لله رب العالمين الذي لا شريك له في ملكه.

فقالت: ومن علمك هذا يا إبراهيم؟

قال: هداني ربي إلى صراط مستقيم وإلى دين قويم.

قالت: ومن أدراك أن ربَّك هداك إلى هذا الدِّين؟

قال: إنما أتَّبع ما يوحى إليّ من ربي، وقد بعثني رسولاً لأدعو الناس لعبادته وحده، وإني أدعوكِ إلى الله الواحد الذي لا إلٰه إلا هو، خالق كل شيء.

ولم تتأخر سارة عن الإيمان، بل إنها أحسَّت بأن غشاوة الظلمات تنشق عن قلبها، وأبواب الحياة الروحية تتفتَّح لها، ونفحات إلٰهية تهبُّ عليها، كما شعرت بأن الهداية قد حلَّت في جوانحها، فشرح الله صدرها للإيمان، وشهدت بوحدانية الله، وأسلمت مع إبراهيم[1] لله رب العالمين، وغدت هذه الأسرة الإبراهيمية الأسرة المؤمنة الموحِّدة على وجه الأرض أيام ذاك.

في ذلك الزمان كان جميع الناس كفاراً، لا يعرفون ديناً سوى الأصنام والكواكب التي أضلَّتْ كثيراً من الناس، ولم يكن مؤمناً بالله سوى إبراهيم وسارة، ثم آمن له ابن أخيه لوط.

وكان نبي الله إبراهيم عليه السلام هو النبي الذي أزال الله به تلكم الشرورَ، وهاتيكم الضلالات، ومَحَا به ملَّةَ الكفر، وآتاه رشده، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً[2].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦/٤٤٨): إبراهيم بالسريانية معناه: أب راحم. ومن الجدير بالذكر أن اسم إبراهيم عليه السلام قد ورد اسمه في القرآن الكريم في ثلاثة وستين موضعاً، وذكر في خمس وعشرين سورة مكية ومدنية.

(٢) انظر: قصص الأنبياء (ص ١٤٣) بتصرُّف يسير.

وكان نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام أهلاً لهذا الإنعام الإلٰهي وهذا الفضل العميم، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]. والرشد معناهُ: الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والاسترشاد بالنواميس الإلٰهية.

ومعنى الآية كما يقول المراغي: «ولقد آتينا إبراهيم ما فيه صلاحه وهداه من قبل موسى وهارون، ووفّقْناه للحقِّ، وأضأنا له سبيل الرشاد، وأنقذناه من بين قومه من عبادة الأصنام، وكنّا به عالمين بأنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له، لا يشرك به شيئاً، فهو جامع لأحاسن الفضائل ومكارم الأخلاق، وجميل الصفات. وقال الفراء: أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ»[١].

وقال البروسوي في تفسير هذه الآية: «لقد آتينا بجلالنا وعظم شأننا إبراهيم الخليل عليه السلام الرُّشدَ اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار، من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة، وكنا عالمين بأنه أهل لما آتيناه من الرشد والنبوة...»[٢].

وفي هذه الأثناء كان إبراهيم في مدينة بابل بالعراق، وكان قد تزوج سارة قريبته، وذكرت المصادر أنها كانت عاقراً لا تلدُ، وكانت قد رزقت الجمال والملاحة، ويظهر أنها كانت من ذوات الغنى واليسار، فكانت صاحبة أرض واسعة وماشية كثيرة، وقد وهبت كل ما تملكه لزوجها إبراهيم ليقوم بإصلاحه وإدارته.

وذكر ابن عساكر بسنده عن ربيعة الجرشي أنه قال: «قُسم الحُسن نصفين: فبين سارة ويوسف نصف الحسن، ونصف الحسن بين سائر الناس»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قسم الله الحُسن عشرة أجزاء: فجعل منها ثلاثة أجزاء في حواء، وثلاثة أجزاء في سارة، وثلاثة أجزاء في يوسف،

---

(١) تفسير المراغي (٦/ ١٧٧).
(٢) تفسير روح البيان للبروسوي (٥/ ٥٨٤) بتصرف يسير.
(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٢٢).

وجزءٌ في سائر الخلق، فكانت سارة من أحسن نساء أهل الأرض، وكانت من أشدّ نسائهم غيرة»[١].

وكان حسن سارة وجمالها سبباً مهمّاً لمحنة جرت لها في مصر لما دخلتها مع إبراهيم عليه السلام.

وتذكر المصادر المتنوعة التي وصلت إلينا وحدثتنا عن الحياة الزوجية لإبراهيم وسارة؛ بأنهما قد أقاما حيناً من الدهر في فلسطين، وشاء الله أن يعمّ القحط والجدْب تلك البلاد آنذاك، فترك إبراهيم فلسطين، وتوجَّه تلقاء مصر ومعه زوجته سارة، وعلم إبراهيم أن حاكم مصر يطمع في النساء، فأوجس خيفةً في نفسه على زوجته، وقال لها: «إن هذا سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي في كتاب الله»[٢].

وتذكر بعض المصادر أن أحد أعوان حاكم مصر قد لمح السيدة المصونة سارة، فهبَّ مسرعاً، ودخل على سيده وقال له: يا سيدي؛ قدمت مصر امرأة يكاد جمالها يضاهي شمس النهار، ولا ينبغي أن تكون لأحد من الناس سواك.

فقال له الحاكم: اذهب وأحضرها.

وأسرع الرجل إلى مكان إبراهيم وسارة، ثم قال مخاطباً إبراهيم: يا هذا، إن الملك أمرني بأن آخذ هذه المرأة إليه.

قال إبراهيم لسارة: اذهبي إليه، فإن الله سيمنعه منك.

فذهبت سارة مع رسول الملك، ودخلت قصرَه، ولم تأبَهْ لشيء مطلقاً، ولم يبهرْها زخرف القصر، ولا أي شيء فيه، كانت جوارحها مشغولة بما هو أكبر، وكان لسانها يلهج بذكر الله، وقلبها موصول بخالقه العظيم، الذي يملك زمام القلوب والنفوس.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١٣٠).

كانت السيدة سارة ترتبط بالله على أساس صحيح، فهي تعرف أنها من عباد الله المخلصين، كما تدرك بأنها امرأة نبي من أولي العزم من الرسل، نبي حليم، كريم حبيب إلى الله تعالى، ولذا فإن الله تعالى سيحفظها بحفظه وهو أرحم الراحمين.

كانت سارة تحاول أن ترى رعاية الله لها بعين بصيرتها، لتأنس بها، وتتفيأ في ظلالها، بل وتحتمي بحصن الله الحصين في هذه الساعة الصعبة التي كان فيها ملك مصر مشغولاً بجمالها، ولكنه قد أحسّ بأن اضطراباً شديداً قد استولى على قلبه، وأن رعدة قد هزَّتْ نفسه، وخوفاً ران على حنايا أضلاعه.

كانت هذه الأحوال إنذارات ربانية، لكنه تماسك، ونظر إلى السيدة سارة نظرة غدر، وكأن الشيطان همس في أذنيه قائلاً: ما يضرُّها أيها الملك، ادْنُ من هذه الحسناء...

ودنا ملك مصر منها، وأراد أن يمدّ يده، غير أن قوة خفيّةً كتمت حركاته وألجمت سكناته، وأوجس خيفة في نفسه، كاد قلبه ينفطر خوفاً ورعباً، نزلت به رهبة عظيمة زلزلت جسمه، وغشيه رهق شديد، وغدا كأنه مصروع، وارتبك حتى لم يعد يدرك ما يفعل.

في هذه الأثناء كانت السيدة الطاهرة سارة في مناجاة مع الله الذي يعلم ما توسوس به النفوس، شعرت سارة بأن الطمأنينة تستقرُّ في أغوارها، وأن السكينة قد أنزلت عليها، وأن النور الرباني أضاء قلبها وانسكب في روحها، كانت تناجي الله وهي تقول: «اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلِّط عليّ الكافر».

بينما انطلق في هذه اللحظة لسان الملك المصري، وتوسل إلى سارة يقول: «أيتها المرأة الصالحة؛ ادعي لي ربك الذي تناجيه أن يطلقني مما أنا فيه، ولا أضرك، ولا أعود لما تكرهين».

استجابت سارة لتوسُّلات هذا الجبار الغاشم الذي تصاغر وصَغُر حتى غدا

حقيراً لا مكانة له؛ ثم إنها توجهت بقلبها وروحها إلى بارئها، ودعت الله تعالى أن يكشف عنه ما هو فيه.

وأجيبت دعوتها، فأطلِقَ الملك كأنما نشط من عقال... غير أن الشيطان عاوده وأغراه أن يرسل يده إلى المرأة الصالحة الصديقة الصادقة سارة امرأة نبي الله إبراهيم خليل الرحمن، ووسْوَسَ في نفسه أن ينكث عهده معها، وأن لا يلتفت إلى ما حدث معه آنفاً.

واستجاب الملك لرغبات الشيطان ورغائب نفسه المذبذبة، وأراد أن يمدّ يده إلى السيدة سارة، وأن يفسد الحياة الزوجية الصافية، ولكن حدث ما لم يكن في حسابه وحسبانه... إنّ يدَه قد شُلّت هذه المرة بشدة وقوة، قُبضت قبضة شديدة، وتوقفت عن الحركة تماماً.

عاد الجبار العاتي صغيراً يتوسَّل للسيدة المصونة مرة أخرى، وراح يقول: أيتها السيدة الصالحة، ادعي إلٰهك الذي تعبدين أن يطلقني ولا أعود... توسل مراراً للسيدة سارة... فدعت الله أن يطلقه، ولمَّا ملك نفسه، وظن أنَّه قادر أن يصنع ما يريد، وأراد أن يهمَّ بها، وكرر ذلك ثالثة، ولم يرعَوِ عما حدث معه في المرتين السابقتين، وظن أن ذلك من قبيل المصادفات، هنالك عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن السيدة سارة محفوظة من الله تعالى ولن ينالها منه سوء.

وفي هذه المرة، نظر إلى السيدة سارة نظرة رجاء، ونظرة ألمٍ حقيقي، وقال لها في ذلٍّ وانكسار وصغار ورجاء: أيتها الطاهرة، أيتها الصالحة، ادعي لي إلٰهك أن يطلقني، ولن أعود إلى إيذائك مطلقاً.

وفي فراسة المؤمنين قلبت السيدة سارة النظر في الملك المتوسِّل أمامها، وعلمت أنه صادق هذه المرة، فتوجهت إلى الله داعية أن يطلق يده، فاستجاب الله دعاءها؛ وأطلق يد ملك مصر.

ودخل الانبهار نفس الملك، وخاف هذه المرأة التي لقّنته درساً لن ينساه، إذ أيبس الله يده من أجلها، وغدت مغلولة لا يقدر أن يبسطها؛ وهنا انطلق لسانه وقال لسارة في تعجب: «يا هذه، ما أطوع ربك لك حين دعوتِهِ عليّ».

فأجابته بلسان الحال وقلبها يلهج بذكر الله: «وأنت يا هذا إن أطعْتَه أطاعك»[١].

«الله أكبر، الله أكبر؛ ما أجمل هذه الكلمة وما أعظمها... وأنت يا هذا إن أطعته أطاعك... الله أكبر ما أعظم الصدق مع الله، إنه يصنع المعجزات، ويجعل الإنسان ينطق بالحكمة وفصل الخطاب، فما أجمل الصلة مع الله، وما أجمل الصلة بالله على أساس الصدق والصفاء!»[٢].

ومن ناحية أخرى فقد كان نبيُّ الله إبراهيم من لدن ذُهِبَ بالسيدة سارة إلى ملك مصر، راح يصلي لله ويدعوه تضرعاً، ويسأله سؤال الموقنين بعزته أن يدفع السوء عن زوجته المصونة، وأن يردَّ كيد الظالم الحاكم إلى نحره، وأن يكبته كبت المعتدين. وكذلك صنعت السيدة سارة، وعندها حماها الله وعصمها وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

وأما الملك الجبار الطاغية المعتدي، فإنه دعا ذلك الرجل الذي جاء بسارة، وعنّفه ثم قال له: ويحك، أخرجها عني، فأنت لم تأتني بامرأة من الإنس، وإنما أتيتني بشيطانة، فقد سُلبت إرادتي، ووهنت قوتي، وخار فؤادي من لدن جئت بها إلى هذا القصر.

ثم إن ذلك الملك وهبها جارية حسناء تدعى هاجر، وأمر بإخراج هذه الأسرة الإبراهيمية من أرضه لأنه قد لا يأمن على نفسه وملكه منها. وخصوصاً من المرأة الصالحة سارة التي جعلته كالعبيد يتوسل إليها عندما همّ أن ينالها بالسوء.

وهكذا أكرم الله الحياة الزوجية لإبراهيم ولزوجه سارة، وصانَ سارة عن كل عيب وسوء، لأنها وزوجها فزعا إلى الله لما أهمهما أمر الملك العاتي.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣١) بتصرف.

(٢) نساء الأنبياء (ص ٢١١) بشيء من التصرف اليسير.

ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في (الفتح) ما مفاده فقال: «إن الله تعالى قد كشف لنبيّه إبراهيم عليه السلام حتى رأى حال الملك مع السيدة المصونة سارة معاينة، وإنه لم يصلْ منها إلى شيء مطلقاً، بل حيل بينه وبينها؛ وجعل الله القصر لنبيّه إبراهيم كالقارورة الصافية، فصار يراهما ويسمع كلامهما كأنه قريب منهما. . . ويُستفاد من هذه القصة أنّ مَنْ نَابَهُ ونزلَ به أمرٌ مهمٌّ من الكرب ينبغي له أن يفزع إلى الصلاة والدعاء؛ وفيه أن الوضوء كان مشروعاً للأمم السابقة قبلنا، وليس مختصاً بهذه الأمة المحمدية، ولا بالأنبياء، لثبوت ذلك عن الصديقة الطاهرة سارة زوج نبي الله إبراهيم عليه السلام»[1].

وأورد ابن كثير ما يشبه هذا في «البداية والنهاية» وذكر كيف صان الله الحياة الزوجية لهذين الكريمين الصافيين: إبراهيم وسارة فقال: «رأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزلْ يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقرَّ لعينه، وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه، وحُسنها الباهر، فإنه قد قيل: لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها»[2].

وقال ابن كثير أيضاً عن السيدة المصونة سارة: «وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم، والذي عليه الجمهور أنهنّ صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن»[3].

وقد حكى النبي ﷺ لأصحابه يوماً جانباً من حياة إبراهيم وسارة الزوجية، وقصتهما مع الجبار، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن محمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً»[4].

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٤) بشيء من التصرف.

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٥٢).

(٣) قصص الأنبياء (ص ١٦٣). وقال ابن حجر: «الجمهور على أنها ليست بنبيّة».

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٣٥٧).

وبسنده أخرج البخاري عن محمد بن محبوب، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كَذبات: اثنتين منهنّ في ذات الله عز وجل، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]؛ وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبّار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: مَنْ هذه؟

قال: أختي.

فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإنّ هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تُكذّبيني.

فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناول يدها بيده فأخِذَ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرّك.

فدعت الله فأطْلِق، ثم تناولها الثانية فأخذَ مثلها أو أشدّ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك.

فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأوما بيده: مَهْيَم؟ قالت: ردَّ الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر» قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

وأودُّ هنا أن أقف وِقفة توضيحية مع هذا الحديث الشريف لتبيان بعض الأمور المهمة والفوائد التي نستخلصها منه.

فقد خرج نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام من دياره هو وزوجته سارة، بعد أن ألقاه قومه المشركون في النار، فأنجاه الله تعالى منها، ومن ثم حلّ دياراً بعيدة ليس له فيها أنصار ولا أعوان من أهلها. وفي مثل هذه الأحوال يطمع أهل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٥٨) واللفظ له، وأخرجه مسلم برقم (٢٣٧١) ومعنى مهيم: ما الخبر؟ وبني ماء السماء: العرب كلهم لخلوص نسبهم وصفائه.

العدوان والظلم والطغيان في أمثاله، وتسوِّل لهم أنفسهم البغي وتجاوز الحد؛ وقد واجه إبراهيم هذا حينما دخل ديار ملك جبار غاشم ظالم معتدٍ، فقد ذُكِرَ له قدوم إبراهيم أرضه، وفي صحبته امرأة من أجمل نساء الدنيا وأبهاهن.

وكان من طريقة هؤلاء الظلمة الغاشمين إن أرادوا امرأة ما؛ أن يبطشوا بزوجها إذا ما كانت متزوجة، غير أنهم لا يتعرَّضون لأقاربها بسوء إن كانت عزباء، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام علم أحوالهم هذه وعاداتهم، وقال لرسول ذلك الجبار بأنها أخته عندما سأله عنها، لكي ينجو من بطشه وظلمه، وقد أرسل إبراهيم بسارة إلى ذلك الطاغية كما طلب منه، ثقة منه بأن الله يرعاها ويرعاه ويحفظه، وذلك بعد أن أخبرها وأوصاها بألا تخبر الملك بصلتها الحقيقية به، وألا تفصح أنها زوجة إبراهيم؛ وقد بيّن لها وجهة نظره في ذلك، فهي أخته في الإسلام؛ إذ لم يكن على وجه الأرض مؤمن غيره وغيرها.

أرسل إبراهيم بزوجته على الطاغية، ومن ثم فزع إلى الصلاة يدعو ربه، ويلتجئ إليه، وقد حفظ الله إبراهيم في زوجته سارة، كما حفظ سارة في نفسها، فما كاد الطاغية يقوم إلى سارة ليأخذها عندما دخلت عليه، حتى أُخِذَ أخذاً شديداً، وحتى فَحصَ الأرض برجليه، بعد أن دعت سارة الله تعالى، وناشدته أن يرد عنها كيده وشره؛ فلما أطلق وأرسِلَ أخلف وعده، وغلبته أهواؤه، فقام إلى سارة مرةً أخرى، فأخِذَ أخذةً أشد وأقوى من الأولى، وناشدها مرة أخرى أن تدعو الله ليفرج عنه، ولن يتعرضَ لها، وفعل كذلك الثالثة؛ ثم أقلع عن السوء بها، ودعا أعوانه، وأمرهم بإرجاع سارة إلى إبراهيم سالمة غانمة، فقد علم أنها محفوظة، وأنه لا سبيل إليها، فرجعت وفي صحبتها هاجر، هدية من ذلك الطاغية، وهاجر هي أم نبي الله إسماعيل، أهدتها سارة لإبراهيم فدخل بها[١].

---

(١) في هذا الحديث وهذه القصة اللطيفة عبر وفوائد جليلة، أحببت أن أسجل بعضها هنا إتماماً للفائدة، ومنها:

* إن أنبياء الله تعالى ورسله معصومون في أزواجهم، فلا يستطيع الجبّارون ولا الطغاة الولوغ في أعراضهم مطلقاً =

وعاد إبراهيم عليه السلام من مصر أو من بلد الجبار إلى بلاد الشام ليستقرَّ في فلسطين، وعادت معه زوجته سارة ومعها هاجر تخدمها وتخدم زوجها.

رجع إبراهيم بالمال والرزق الكثير، وأخذ يتم نشر دعوته، ويقوم بأداء رسالته، وكان قد بلغ من الكبر عتياً، وزادت زوجته سارة سنها عن السبعين عاماً، مما جعل لحياتهما الزوجية سمة الصفاء.

وتركت هذه الهجرة آثارها العظيمة في نفس أبي الأنبياء إبراهيم، وذلك لكثرة ما أفادته التجارب ومعاملة الناس، ناهيك بالمحن الرهيبة التي تعرض لها في أسفاره وتجواله، وظعنه وترحاله، وتلك سنة الله مع المصطفين مع عباده يصفي نفوسهم بما يتعرضون له من المحن وخطوب الزمن، ليجعل منهم خير أسوة، وأكرم قدوة للبشرية جميعاً على مرِّ الدهور والأجيال، والله تعالى هو أعلم بخلقه وأعلم بأحوالهم؛ وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

كانت الأيام والسنون تنقضي، والعمر يتقدم في السيدة سارة، فقد أضحت عجوزاً، وبعلها أكبر منها بأعوام معدودة. وكانت تنظر إلى حياتها الزوجية نظرة حزن ممزوجة بالإشفاق والمحبة، وربما كانت تتحدث مع نفسها، وتتمنى أن تكتمل سعادتها بولد تقرُّ به عيناً أو تهنأ به نفساً وقلباً.

ولكن إرادة الله كانت فوق كل إرادة، إذ كانت سارة لا تلد؛ وفي ساعة من ساعات الذكر والصفاء مع الله، تذكرت السيدة سارة جاريتها هاجر تلك الشابة المصرية التي آمنت برسالة إبراهيم، وأسلمت وجهها لله تعالى، وآمنت بالله رباً

= * إذا حزَبَ المؤمنَ أمرٌ التجأ إلى الله تعالى كي يفرج عنه ما أهمّه وما أغمه، فإبراهيم عليه السلام التجأ إلى الصلاة عندما ذُهِبَ بسارة إلى الطاغية، وسارة دعت ربها فحفظها ورعاها.

* الله تعالى قادر على حفظ أنبيائه وأوليائه ونصرهم ورد كيد الكائدين عنهم.

* يجوز قبول هدية الظالم، بل الكافر، فقد قبلت السيدة سارة هدية الملك الجبار عندما أخدمها هاجر، وأقرَّ نبي الله إبراهيم زوجته على قبولها الهدية.

* كان الوضوء مشروعاً في الأمم من قبلنا، فسارة عندما قام إليها الجبار قامت تتوضأ وتصلّي، ولعل وضوءهم كان مختلفاً عن وضوئنا، ولعله شبيه بالتيمم.

* جواز التحدث بنعمة الله التي أنعم بها على عبده.

واحداً، فعلمت ما تعمله المؤمنات الصالحات من الذكر والتسبيح والعبادة في العشي والإبكار.

كانت هاجر تعبد الله تعالى لتحظى بمرضاته، وكل يوم تزداد أُنساً بالله، وتتزوّد من حلاوة الطاعة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وكانت السيدة سارة ترقب جاريتها عن كثب، وترى صفاءَها وحسن عبادتها، إنها امرأة مؤمنة حقاً؛ وخطر في بالها أن تهبها لإبراهيم عسى أن يهبه الله منها غلاماً زكيّاً حليماً، ولكن شيئاً ما كان في نفس سارة، لعلها الغيرة التي تنسج خيوطها في نفوس النساء.

أخرج ابن عساكر في تاريخه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنّ إبراهيم لم يُولد له، فكانت سارة لا تلدْ، فلما رأت سارة ذلك، أحبت أن تعرضَ هاجر على إبراهيم، فكان يمنعها غيرتها»[1].

وتشاء إرادة الله أن تجعل من سارة عنصر خير في هِبةِ الذرية لزوجها إبراهيم، فجاءته ذات صباح وقد أشرقت نفسها بنور الله، وأضاء قلبها من كثرة التسبيح وقالت لزوجها خليل الرحمن: «هذه جاريتي هاجر، أهبها لك عسى أن يرزقنا الله تعالى منها الولد...».

وكان إبراهيم يدعو ربه أن يهبه الذرية، فلما أن وهبت سارة له هاجر تحقق وعْد الله، وتزوج إبراهيم هاجر، وحملت ثم ولدت غلاماً جميلاً وسيماً اسمه إسماعيل. وفرحت سارة بهذا الغلام الجميل فرحاً شديداً، فهو ابن النبي الحليم إبراهيم، وابن جاريتها هاجر تلك المرأة المؤمنة النقية.

وكانت السيدة سارة تقبل على الوليد الجميل إسماعيل وتحمله، تذكرت ما كان زوجها إبراهيم يدعو ربه آناء الليل وأطراف النهار ويقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]؛ وذلك عندما أيس من قومه، ولم يرَ فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً، ينفع الله به في حياته، وبعد مماته؛ واستجاب الله له ذلك، ووهبَ له على الكبر إسماعيل ذلك الغلام الحليم، الصابر، صاحب الأخلاق الحسنة، والمكارم والفضائل العظيمة.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣٢).

وشاء الله أن يهب لسارة، على الرغم من كبرها؛ غلاماً نبياً ومن ورائه غلام يكون نبياً أيضاً. وكان لذلك قصة جميلة جاءت أحداثُها في القرآن الكريم، ومُفادُ ذلك أن الله أراد أن يهلك قوم لوط لأنهم تجاوزوا حدود الله وخالفوا الفطرة الإنسانية، وجاء الملائكة الموكلون بذلك، ونزلوا ضيوفاً على إبراهيم وقالوا: سلاماً، قال: سلام.

كان إبراهيم وزوجته سارة وهاجر يحبون الضيوف ويكرمون من يَفِدُ إليهم، ولما جاءته الملائكة في صفات البشر، رأى ضيوفاً ذوي هيئة وجمال وكانت وجوههم تقطر نوراً، ورائحتهم تفوح بعبير من طيب الشذا، وعبق المكان بأطيب العطر والطيب.

ولم يتوقف إبراهيم يسألهم، بل أعدّ لهم مكاناً لطيفاً، وأجلسهم أحسن جلسة، وأسرع ذاهباً إلى سيدة الكريمات زوجته سارة، حتى يعدّ لضيفانه الطعام الوفير.

كان ضيوفه الكرام ثلاثة، وجاء لهم بعجل سمين مشوي؛ كان هذا العجل من خيار بقره، ومنظره في غاية الجودة يسرّ النفوس التي تشتهي أكله.

حمل إبراهيم العجل المشوي لأضيافه الغرباء ثم قرَّبه إليهم بيده، ودعاهم ليأكلوا معه، بينما قامت السيدة الطاهرة المصفاة سارة في ناحية من الخيمة تخدم الأضياف، وكانت تقوم على رؤوسهم، كما جرت به عادات كثير من الناس ومن العرب وغيرهم.

وهنا تحدث المفاجأة اللَّطيفة، فهؤلاء الضيوف لم تمتدَّ أيديهم إلى العجل المشوي الشهي، ولم يفكر أحدهم بالطعام، ونظر إبراهيم عليه السلام إليهم، فلما رأى أن أيديهم لا تصل إلى لحم العجل المشوي الشهيّ، نَكِرهم وأوجس منهم خيفة حين لم يأكلوا من طعامه، فهل ينوون الغدر ؟!

وبادلهم النظرات، وأخذ يوزع نظراته بين هؤلاء الثلاثة، وبصراحة العارفين بالله قال لهم: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر: ٥٢]، فقد كانت العادة في زمانهم أنه إذا ورد عليه القوم، فأتوهم بطعام فلم يمسّوه، ظنّوا أنهم عدو أو لصوص،

فهنالك أوجس في نفسه خيفة[1]، وظهر ذلك على وجهه.

وفي هاتيك اللحظة الحرجة نظرت السيدة سارة إلى زوجها إبراهيم، وضحكت لتخفِّف من روعه، ثم قالت: «عجباً لهؤلاء الضيوف، إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا!!»[2].

ولم يَطُلْ خوف إبراهيم من ضيوفه، بل إنهم أبانوا عن هويتهم قائلين: لا تخف، فنحن ملائكة الله مررنا عليك، ثم أدخلوا إلى قلبه الطمأنينة والبشارة بقولهم: ﴿ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

كانت بشارة ربانية ليكتمل عقد الحياة الزوجية بإسحاق من السيدة العقيم سارة، ومن ثم أخبر الملائكة إبراهيم أنهم في مهمة من خالقهم، وأنهم قد أرسلوا إلى قوم مجرمين، حتى يرسلوا عليهم حجارة مسومة تهلكهم، أخبروه أن لوطاً قد استنصر الله لينصره على القوم الذين عاثوا في الأرض فساداً، فأرسلهم الله لنصرته، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثم نفذوا مهمتهم كما ذكر القرآن الكريم ذلك.

أما السيدة المصونة سارة، فإنها سمعت البشرى الجميلة من ملائكة الرحمن الرحيم، فَبُغِتَتْ وفوجئت وتعجبت، ونَدَّتْ منها همسة الدهش، وضربت على خدها بكفِّها وقالت متعجِّبة: ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ! ، ثم قالت: هل يمكن أنْ أحمل، وأنْ ألدَ، وأرضع! إن عمري يقترب من التسعين، وقد كنت في حالة الصبا عقيماً لا أَحْبَل[3].

لم يكن يدور بخلد سارة شيئاً من هذا القبيل، نسيت موضوع الولد، وكل ما يتعلق بهذا الشأن ولكنها تعجبت من هذه البشارة، العجيبة الغريبة، إنها عجوز بلغت سناً عالية، واشتعل رأسها شيباً، ومن الأعجب أنها كانت في الأصل عقيماً عندما كانت في سن الشباب والإنجاب.

---

(١) زاد المسير (ص ٦٦٢) بتصرُّف يسير جداً.
(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٥١).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢١١)، وحسن الأسوة (ص ٢١٩ و٢٢٠).

لم تملك سارة نفسها لما سمعت هذه البشرى، بل ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]. كانت سارة في تعجبها هذا قد عرّفتْ بحالها الذي لا يلائِم الحبل، وعرّفت كذلك بحال زوجها إبراهيم الشيخ الـمُسِنّ الذي لا يُولد له.

قال الإمام فخر الدين الرازي معلقاً على هذه الآية الكريمة وهذا الموقف: «لما تكلّم الملائكة مع زوجها إبراهيم عليه السلام بولادتها استحيت سارة، وأعرضت عنهم، وصاحت صيحةَ تعجُّب كما جرت عادة النساء حين يسمعن شيئاً من أحوالهنّ يصحْنَ صيحةً معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب. وقد استبعدت سارة أن تلد لوضعين من اجتماعهما فيها:

الأول: كِبَرُ السّنّ.

الثاني: العقم.

لأنها كانت لا تلد في صغر سنّها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت، فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاءً قريباً من الإجابة، ظنّاً منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف على سبيل الإخبار من الأدعية، كقول الداعي: الله يعطيك مالاً ويرزقك ولداً.

فقالوا: هذا منّا ليس بدعاء، وإنما ذلك قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ ؛ ثم دفعوا استبعادها بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

وقال المراغي في تفسيره لهذه الآية [٧٢ من سورة هود]: «قالت سارة لما بشرت بإسحاق: كيف أَلِدُ وقد بلغتُ السن التي لا يلد مَنْ كان قد بلغها من الرجال والنساء، وهذا زوجي شيخاً كبيراً لا يولد لمثله، إن هذا الذي بشرتمونا به لشيء عجيب مخالف لسنن الله التي سلكها في عباده.

وقد جاء في سفر التكوين: (إن إبراهيم كان عمره يومئذٍ مئة سنة، وإن زوجه سارة كانت ابنة تسعين سنة)؛ ومثلها لا يلد، بل الغالب أن ينقطع حيض

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٨/ ١٨٤ و١٨٥) بتصرف واختصار.

المرأة في سن الخمسين، فيبطل استعدادها للحمل والولادة، على أنها كانت عقيماً كما في سورة الذاريات. . . »[1].

وعلمت السيدة سارة أن ملائكة الله هم مُبَشّروها بالغلام، وهم الذين يحملون هذه البشرى من عند علام الغيوب، من عند عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، إنها قدرة الله التي تدبّر الأمر بحكمة وعلم. ولذا فإن تعجّب إبراهيم وسارة من البشارة بإسحاق لا يدلّ على أنهما قد أنقصا من قدرة الله ومشيئته العليا، أو الشّكّ في شيء من هذا، وإنما هو غلبة الأمر المعتاد والسُّنّة الجارية بين الناس، ودليل هذا أن إبراهيم تَنَبّه بأدنى تنبيه: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقد أرشد الملائكة الكرام سارة إلى التبصر بأمر الله بليغ الحكمة، وأبلغوها بأنها من أهل بيت حميد الصفات كريم الخصال: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣].

إن أمر الله تعالى لا عجبَ فيه، لنفوذ مشيئته التامّة في كل شيء، فلا يُستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه، لأهل هذا البيت الإبراهيمي المبارك ذي الصفات الحميدة.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجُّبَها، لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات، والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان العجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة في قولهم: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به ربّ العزة، ويخصّكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجب، كأنه قيل: إيّاكِ والتعجب، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم»[2].

---

(١) تفسير المراغي (٤/ ٣٢٥).

(٢) تفسير الكشاف (ص ٤٩١) بتصرف يسير، وانظر تفسير النسفي (٢/ ١٩٧).

وحملت سارة بإذن الله، وولدت نبياً هو إسحاق، وكان بين البشارة والولادة سنة كما قال القرطبي، وغمرت سارة سعادة كبيرة بهذا الولد الذي بشَّرها به الملائكة، لقد تحقَّقَ وعد الله، ووهب لها ولزوجها إسحاق بعد أن بلغا من الكبر أعواماً اقتربت من المئة، لقد اصطفى الله هذا البيت المبارك ليكون نوراً للعالمين، فقد جعل الله فيه النبوة والكتاب والحكمة.

اكتمل البيت الإبراهيمي بالذرية، وغدت حياة سارة الزوجية مشرقة، فهي تشعر بالأنس مع الله تعالى الذي وهبها إسحاق؛ وكان إسحاق يشبه أبويه على الرغم من الفارق الكبير بينهم في السن، فقد كان بعض الناس يعجب من هذا الفارق الكبير الذي لا يعقل.

نقل ابنُ عساكر عن ابن إسحاق خَبَر شَبَهِ إسحاق بأبيه إبراهيم فقال: «كان إسماعيل بكْر إبراهيم وأكبر ولده، فلما ولدت سارة لإبراهيم إسحاق، فذكر لي بعضُ أهل الكتاب أنها لما ولدت، جعل الكنعانيون يقولون: ألا تعجبون لهذا الشيخ ولهذه العجوز؛ وجدوا صبياً لقيطاً فأخذاه؛ يزعمان أنه ولدهما، وهل يلدُ مثلها من النساء ؟!؛ فكَوّن الله صورة إسحاق على صورة إبراهيم حتى لا يراه أحد إلا قال: والله إنه لمن الشيخ»[1].

وغدا إسحاق قرة عين أبويه، وكيف لا والله يقول: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢]. فقد بُشّرَ إبراهيم بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بِشارات متعددة.

تلكم هي الحياة الزوجية لإبراهيم وسارة، ولكن هل من مزيد في هذه الحياة؟!

في الحقيقة: إن سارة كوفئت مع زوجها عند الله، فهما موكلان برعاية أطفال المسلمين في الجنة، أورد أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣٥).

«أولاد المسلمين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيمُ وسارةُ، فإذا كان يوم القيامة دفعوهم إلى آبائهم»[1].

ما أجمل الحياة الزوجية مع هؤلاء النساء الصَّالحات اللواتي يَصْلُحْن أن يكن قدوة لنساء العالمين! وتقتدي بهن كل من تريد أن تكون زوجة عابدة ذاكرة طائعة، وأخيراً نتذكر أن سارة زوج نبي، وأم نبي، وجدة نبي، فهي أم الأنبياء، وإبراهيم أبو الأنبياء؛ عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

* * *

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣٦).

الفصل الثالث
حياة إبراهيم الزوجية مع هاجر

هذه امرأة أراد الله لها الخير، فكانت من الخيّرات منذ أن غَدَتْ في بيت إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، حيث وهبها ملك مصر للسيدة سارة زوج نبي الله إبراهيم عليه السلام.

هذه المرأة هي هاجر[1] التي ملأت أسماع التاريخ منذ أن غدت في حياة إبراهيم الزوجية، إلى ما شاء الله، فهي مصدرٌ من مصادر البركة والخير على المسلمين.

لم تكن هاجر جارية منذ بداية حياتها، وإنما كانت عربية أصيلة حسيبة نسيبة، فقد أخرج ابن عساكر بسنده عن عروة بن الزبير: «أن هاجر كانت جارية من جرهم، فَسُبِيت، فوقعت عند فرعون بمصر، فمن ثم قال أبو هريرة: «فتلك أمُّكم يا بني ماء السماء». قال: وكانت جارية شَعراء، كحلاء، جعدة، مفلجة الثنايا، حسناء، عربية اللسان والحسب، فأعطاها ـ يعني ملك مصر ـ ألف شاة، ومئة بقرة برعاتها، وأعطاها خمسين بعيراً، وخمسين حماراً. فجاءت سارة إلى إبراهيم فقالت: أبشر، فقد صنع الله لك.

فقال إبراهيم عليه السلام: لم يزلْ بي حفياً[2].

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٥١ ـ ٤١٧)، والبداية والنهاية (١/ ١٥٠)، وغرر التبيان (ص ٢١٢)، وشفاء الغرام (٢/ ٥٢)، وأخبار مكة للأزرقي (١/ ٥٤) والمعارف (ص ٣٢)، وتفسير الصاوي (٢/ ٢٤٢)، والكامل في التاريخ (١/ ١٠١)، وغيرها. وأوردت بعض المصادر أن اسمها «آجر».

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤١٥).

ومن الممتع والطريف في سيرة هاجر أنها أحبَّت مولاتها وسيدها، ورأتْ منهما الطُّهر والنقاء، فاعتنقت دينهما، وآمنت بالله تعالى إيمان المحبين المخلصين، فقد كانت ترى سيِّدتها واحدة من العابدات القانتات اللواتي يقضينَ معظم الوقت في الصلاة وذكر الله تعالى.

كانت هاجر راضية النفس لأن الله تعالى أراد لها الخير، وهداها إلى عبادته، وكانت إذا قامت إلى الصلاة نسيت كل شيء من حولها، وتعلق قلبها بالله، ولم تكن هاجر تريد غير المناجاة وغير العبادة، وما دار بخلدها أن الله تعالى ما بعث إبراهيم وسارة إلى مصر إلا ليعود بها، فهي الدرة الغالية في قافلة الإيمان، وهي الجوهرة العظيمة التي بارك الله فيها، والتي يعدها ليوم عظيم.

كانت سارة وهاجر متصافيتين، فقد أحبَّتْ كل واحدة منهما الأخرى، وراحتا تتنافسان في عبادة الله.

وفي ذات ليلة كانت السماء تتلألأ بالنجوم، والصفاء يلفُّ الوجود، وكان منظراً عجيباً يهزُّ المشاعر، وتهيم في روعته الأرواح، هتفت هاجر من كل جوارحها: ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك يا رب العالمين.

لقد تذكرت هاجر أن قومها كانوا يعبدون آلهة غير الله، حمدت الله الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، وجعلها في بيت مبارك يرشح بالإيمان والتوحيد.

وكانت سارة ترقب جاريتها، وشعرت بالسعادة تغمر قلبها عندما سمعت كلمات هاجر توحد الله وتسبحه، وفي تلك الأثناء كان إبراهيم يقف ضارعاً داعياً ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، سمعت سارة هذا النداء الصادق، فسرىٰ في جنباتها حزنٌ عميق، إنها عجوز عقيم، فأنّى يكون لها ولد؟ وزاد من أساها أن زوجها إبراهيم يشتاق أن يكون له ذرية وهي تعجز أن تحقِّقَ ما يتمنى، وتحقق له سائر السعادة الزوجية التي تكتمل بالذرية وبالأولاد.

وانحدرتِ الدموعُ من عيني هاجر، كانت دموعاً سخيَّة ترسم شدة أساها،

ولكن الأمر بيد علاّم الغيوب، وبرقت بارقةُ أملٍ في ذهن السيدة سارة، فقد رأت من خلال دموعها جاريتها هاجر وهي تصلي في خشوع لله، وتدعوه تضرعاً وخيفة، وعبراتها تسيل على وجنتيها، كان وجهُهَا يتألَّق بنور الإيمان، في تلك اللحظة طافت في مخيلة سارة فكرةً جميلة، إنها تستطيع أن تهب لإبراهيم جاريتها، فإن أنجبَ منها تحقق له ما يرجوه، واتَّخذت هي من المولود ابناً لها. . . إن الجارية هاجر شابة وضَّاءة جميلة، وهي مؤمنة تعبد الله مخلصة، فهي ذات فَضْل، وهي خير من تكون أمّاً لابن صالح من ذرية إبراهيم خليل الله ورسوله.

كانت هاجر تُكثر من الصلاة، وكان وجهها يتهلَّل نوراً، فقد وهبت نفسها لله، وذاقت حلاوَة محبّتِهِ، ولم تعد تعرف الوحشة بعد أن عرفته، كانت تستأنس به، فطهّر قلبها، وملأه محبة وأمناً.

صارت هاجر تحبُّ الله تعالى وتحب من يحبه، وكانت تستغفر الله آناء الليل وأطراف النهار، حرمت على عينها لذيذ النوم، لقد وصلت حَبْلها بحبل الله تعالى، وباتت تخشى أن يطّلع ربها على قلبها فيجده مشغولاً بسواه، أعرضت عن الدنيا وزينتها وزخرفها، وعملت ليوم تشخصُ فيه القلوب والأبصار.

كانت السيدةُ سارة تدخل على هاجر، فترى وجهها يتهلَّل نوراً، إنها دائماً تناجي ربها راكعة ساجدة، إن قلب سارة ليهفو إليها، وإنها لعلى يقين من أن هاجر أصلح مَنْ تنجب لزوجها الذرية الصالحة.

وكانت هاجر تعبد الله تعالى لِذاته، لا تطمع في عرض الحياة الدنيا، إنها تريد الآخرة، لا تريد أن تذلَّ وتخزى يوم يجمع الله الناس ليوم لا ريب فيه، نعم إن الله يجزي مَنْ شكر، نعمة من عنده والله عليم بالمتقين. لقد راضت هاجر نفسها على الأنس بالله والتسبيح له، وكانت تحسُّ بأن الله يغمرها بنوره وأنه سميع قريب. خشع قلبها لله وخشيته، فرضي الله عنها، ورضيت عنه، وأراد الله تعالى أن يجزيها جزاء الشاكرين، وأن يرفع قدرها فوق نساء عصرها، فألهم الله سارة أن تزوِّج هاجر من إبراهيم.

«وأما إبراهيم الذي وفّى، فقد كان في صفاء روحي مع بارئه، أوحِيَ إليه أن

هذه الأرض سيورثها الله لذريّتك، أوحِيَ إليه أيضاً: سيجعلُ الله في ذريتك النبوة والكتاب، هتف إبراهيم عليه السلام من أعماقه: هذا رحمةٌ من ربي، هذا من فضل ربي.

وأبلغ إبراهيم عليه السلام زوجه سارة بحديث الذرية والنبوة والكتاب، تهللت أسارير وجهها بالفرح، ورفرفت نفسها، وحلقت عالياً في صفاء ربّاني لم تعهدْ له من قبل صفاء. أنطقها الله الذي أنطق كل شيء، قالت في سرور لزوجها إبراهيم عليه السلام: هذه هاجر، خذها لعل الله عزَّ وجلَّ أن يرزقك منها الولد»[1].

أيقن إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى قد أمر بزواجه هاجر، فأطاع أمر الله، وبنى بهاجر ليُرزق بالذرية التي وعده الله أن ترث المشارق والمغارب والله خير الوارثين.

لا ريب أن تضحيةَ سارة تضحيةٌ عظمى لا تقدر عليها أي أنثى، إنها تضحية غالية وكبيرة، تضحية من امرأة تدفع زوجة بيدها إلى زوجها الذي تحبه وتوقِّره.

«إن سارة كانت كفؤاً للتضحية، عرفت الله وآمنت به، وتوكلت عليه، وأسلمت وجهها له، إنْ أمرَها بأمر وجبت عليها طاعته وهي راضية، فَلَه الأمر من قبل ومن بعد، وهو فعال لما يريد، وليتحقق وعد الله، إن وعده كان مأتياً»[2].

وحملتْ هاجر، وراح إبراهيم عليه السَّلام يصلِّي شكراً لله، فقد صدق الله وعده، ووهب له على الكبر الذرية، وفرحت سارة أيضاً، وخرَّت ساجدةً لله رب العالمين، فرحت بأن تحقَّق وعد الله، وتحقَّقَتْ أماني زوجها وأمانيها.

وذكر ابنُ كثير أن هاجر لما كانت حاملاً جاءها مَلَك من الملائكة وقال لها ما مفاده: «إن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملتِ خيراً، بشّرها أنها ستلد

---

(١) نساء الأنبياء (ص ٢٣٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٣٦).

ابناً، وتسميه إسماعيل، يده على الكلِّ، ويد الكلِّ به، ويملك جميع بلاد إخوته، فشكرت الله عز وجل على ذلك»[1].

قال ابن كثير معلِّقاً على هذا الخبر: «وهذه البشارة انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه الذي سادتْ به العرب، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وآتاهم الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تُؤتَ أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته ويمن سفارته وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض»[2].

وهكذا أعلن الله مشيئته واضحة كفلق الصبح أن يتزوج إبراهيم هاجر ليتحقق وعده، ليأتي النسل المبارك الذي يرث مشارق الأرض ومغاربها.

أما هاجر فقد راحت تقوم الليل لله ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتحمده حمداً كثيراً، وتبتهل إليه أن يتقبل دعاءها، فقد منّ الله عليها نعمةً كبرى، نعمة ما كانت تجدُ نفسها قادرة على أن تفي الله حقَّه من الشُّكر عليها، فقد اصطفاها الله لتنجب ذرية لخليله عليه السلام.

وغلبتها عيناها، فنامت وهي تذكر الله تعالى وتسبِّحه، وإذا بهاتف يأتيها في منامها، كأنه الـمَلَك الذي أتاها وبشرها بالولد، قال لها الهاتف: أبشري يا هاجر، قد سمع الله دعاءَك، وسيهبُ لك ولداً فسمِّيه إسماعيل ـ أي المسموع من الله ـ، لأن الله استمع لصلاتك، وسيباركه الله، ويكثر نسله كثيراً.

وقعدت هاجر من النوم وهي منشرحةُ الصدر لعذوبة الهاتف، فما زال الكلام الذي سمعته يرنّ في أذنيها عذباً لطيفاً، وإذا بروائح أطيب من المسك تنتشر في المكان الذي كانت تنام فيه، فقد تأكَّدت أن الله سيكرمها بهذا المولود الذي رأت طلائع الخير وهو لا يزال حَمْلاً في بطنها.

وسارت الأيام والشهور وهاجر سعيدة بحملها؛ وجاء اليوم الذي تمَّ به الحمل، وأشرقت الدنيا بنور ربها، وانبعثت في الدنيا أمارات السعادة، فقد

---

(١) قصص الأنبياء (ص ١٦٥) بتصرف واختصار يسير؛ ويقال: رأت ذلك بالحلم.

(٢) المصدر السابق نفسه.

أكرم الله هاجر وإبراهيم والسيدة سارة بأكرم مولود يومذاك، لقد وضعت هاجر طفلاً جميلاً وها هو صوته يملأ الرَّحْب ويشق صمت الكون.

وهُرعت سارة إلى هاجر مستبشرة ضاحكة الوجه، قد جعل الله قلبها فارغاً من الحسد، وكانت تحسُّ إحساساً صادقاً أنها ستتلقى ابنها الحبيب على يديها؛ بينما راح إبراهيم يدعو الله دعاءً حاراً ويسجد له أن مَنّ عليه بالولد؛ بالولد الذي أكرمه الله به؛ ويسمع إبراهيم صوت الصَّغير ينبعث من بيت هاجر، فإذا بقلب إبراهيم يفيضُ رقَّةً ورحمة، وإذا بالعبرات تطفر إلى مآقيه تشكرُ الله، إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب، واندفع إبراهيم نحو صغيره الحبيب يقول: الحمد لله... الحمد لله[1].

وحملت سارة إسماعيل بين يديها في رفقٍ وحنان، وقدمته إلى أبيه، فألقى إبراهيم نظرةُ الحب على الابن الموعود، فإذا بينابيع الرِّقة تتفجَّر من قلبه المتهلِّل بالفرح، وإذا به يلثُمُ الوليد ويضمّه، وفي تلك اللحظات المشرقة قال إبراهيم وسارة وهاجر: الحمد لله رب العالمين، يا ربِّ إنا نعيذ بك ابننا إسماعيل وذريته من الشيطان الرجيم.

وبدأت حياةٌ زوجية لإبراهيم وهاجر، بدأت حياة جديدة بهذا الطفل إسماعيل الذي غيّر مجرى حياة إبراهيم الزوجية مع هاجر أمه وسارة زوجته، فقد بدأ الطفل إسماعيل يكبر، في حين بدأت حكمة الله تتجلَّى في أن ينقل إبراهيم هاجر وإسماعيل إلى حيث يأمره ربه، إلى أم القرى، لتعود الحياة إليها، ولتظلَّ قائمة إلى أن يشاء الله.

إن بعض المفسرين وبعض المصنفين من أهل العلم أرجع نقل هاجر وإسماعيل إلى مكة بسبب غيرة سارة من جاريتها هاجر، وطلبت من إبراهيم عليه السلام أن يبعدها وأن يغيبها عنها، ومن هؤلاء العلماء والمصنفين ابن قيم الجوزية، حيث قال في (زاد المعاد): «إن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشدَّ الغيرةِ، فإنها كانت جارية، فلما ولدَتْ إسماعيلُ وأحبه أبوه،

---

(١) انظر: هاجر المصرية أم العرب (ص ١٠١ و١٠٢) بشيء من التصرُّف والاختصار.

اشتدت غيرةُ سارة، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة، لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته تعالى»[١].

ونحن نعتقد أن السيدة سارة فوق كل هذا الأمر، فسارة تقيّة نقيّة عابدة، نشأت في كنف خليل الرحمن نشأة الصفاء، وصنعت على عينه، وتعلمت شيئاً كثيراً من مكارمه وفضائله؛ ولذا فلا يمكن أن تستحكم الغيرة في قلبها، وتطلب من زوجها أن يبعد طفلاً رضيعاً وأمَّه دون سبب جنته يدا الصغير أو أمه العابدة الذاكرة هاجر، بل إن ذلك يعود إلى أمر الله ومشيئته فهو علاّم الغيوب.

وفي هاتيك الأيام أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إلى الأرض المباركة مكة أم القرى، تلك البقعة التي أراد الله أن يبارك فيها للعالمين.

قال الصاوي: «أمره الله تعالى بالوحي أن ينقلها إلى مكة، وأتى لها بالبُراق، فركب عليه هو وهاجر والطفل»[٢].

امتثل إبراهيم أمرَ ربه، وأنزل هاجر وإسماعيل حيث أمره، أنزلهما بوادٍ غير ذي زرع، فلا ماء، ولا ظلّ شجر، ولا حياة؛ أنزلهما إبراهيم هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفل راجعاً. . . وتبعته هاجر تقول: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أحد؟!

ولم يكلِّمْها إبراهيم، فهو ذاهب إلى الله، وإنه يتركها لله لتحقُّق مشيئته، إن الله فعال لما يريد.

وراحت هاجر تهرول خلفه وتقول: أين تتركنا ؟! وكررت ذلك مراراً، ولكن إبراهيم لم يكلمها مطلقاً.

وعلى الرغم من إلحاح هاجر وسؤالها لإبراهيم أين تتركنا، لم يلتفت إليها، حتى قالت له: آلله آمرك بهذا؟ قال إبراهيم: نعم.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٢/ ٢٤٢).

قالت: إذن لا يضيِّعُنا الله.

وعندها ذهب الروع عن هاجر، وتنزّل في قلبها أمنٌ وسلام، وعادت إلى قرب بيت الله الحرام حيث ابنها الرضيع إسماعيل.

وأما إبراهيم عليه السلام، فقد سار حتى إذا كان عند الثنية حيث لا تراه هاجر، استقبل بوجهه البيت ثم دعا ربّه، ورفع يديه وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧][(١)].

وقامت هاجر ترعى شؤون رضيعها إسماعيل، وإنها لأوقات حرجة، فما بهذا الوادي من أحد، راحت تمد عينيها إلى ما حولها لعلها ترى أحداً، ولكن لا يوجد إلا الجبال من حولها، وأكداس من الرمال تملأ رحب الأرض، أما السماء فكانت صافية تزيِّنُها النجوم في كل مكان والقمر يتوسطها. وخيم على المكان سكون عميق، فهاجر وحدها ومعها طفلها الرضيع، ولكنها أخذت تحسُّ بالأمل يتربع فوق صدرها، إنها تحس بالأنس بالله، فقد وعدها أن يجعل طفلها من المكرمين.

وأخذت هاجرُ تأكل من جراب التمر، وتشرب من سقاء الماء، حتى نفد ما عندها من التَّمْر والماء، وعطشت وعطش ابنها وأخذ يتلوّى، وكانت أشعة الشمس الملتهبة تثير الإحساس بالعطش أيضاً.

وأبصرت هاجر ابنها فإذا الظمأ قد تمكَّن منه، وظهرت أمارات العطش على وجه البريء، وعندها شعرت بأن أحشاءها تلتهب من شدة الألم والعطش والعطف عليه، وكادت تفقد صوابها، إنها لا تستطيع أن ترى صغيرها يبكي

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/٤٥٦)، والدر المنثور للسيوطي (٥/٤٦ و ٤٧) مع الجمع والتصرُّف.
وانظر: التفسير الكبير للرازي (١٩/١٠٧ و١٠٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٧ و٤٨)، وتاريخ الطبري (١٣/٢٢٩ و٢٣٠)، والكامل لابن الأثير (١/١٠٣)، وأخبار مكة (١/٥٥)، وآثار البلاد للقزويني (ص ١٢٠) وغيرها كثير.

عطشاً وجوعاً، إن كبدها تكاد أن تنفطر، وأصبح فؤادها فارغاً لهول الموقف، غير أن الشدة يعقبها فرجٌ.

وكان على هاجر أن تجدَ حلاً أو تبحث عن مخرج لها ولصغيرها إسماعيل، وراحت تتلفَّتُ ذات اليمين وذات الشمال، فألْفَت جبل الصفا أقرب مكان إليها، فهرعت نحوه وقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ ولكنها لم ترَ أحداً، فهبطت من على الصّفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ثوبها، ثم إنها سَعَتْ سَعْيَ الإنسان المتعب المجهود، حتى جاوزتِ الوادي، ثم أتتْ جبل المروة فقامت عليه، ونظرت هل ترى أحداً، لكنها لم ترَ أحداً من الناس.

وأخذت هاجر تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، وهي شديدة التلهف، لعلها ترى أحداً ينقذ إسماعيل من موت محتَّمٍ من شدة الظمأ والجوع.

وفي تلك اللحظات التي بلغت النهاية في الصبر، وبلغ قلبها حنجرتها، لم يَدُرْ بذهن هاجر أن ملايين المؤمنين سيسعون بين الصَّفا والمروة سبعة أشواط، وسيكون السعيُ جزءاً من العبادة، وسيكون الحُجّاج والمعتمرون في سعي دائم إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها، وستكون ذكرى هاجر ماثلةً كلما حجّ حاجٌّ أو اعتمر معتمرٌ، ستكون ذكرى هاجر بركة على المؤمنين، وخصوصاً على أمة الإسلام، أمة خير الأنام محمد ﷺ، الذي سيكون من نسل إسماعيل عليه السلام.

وفي الشوط السابع، أشرفت هاجر على المروة، وعندها سمعت صوتاً قريباً من ابنها فقالت: صَهٍ[1]، ـ تريد نفسها ـ، ثم إنها أصاخت سمْعَها ثانية، فسمعت ذلك الصوت أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إنْ كان عندك غواث.

وأسرعت لطائر الحمام إلى حيث كان إسماعيل، فإذا هي بالـمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء... واستبشرتْ هاجر وخفق فؤادها

---

(١) صَهٍ: كلمة بمعنى اسكتي.

فرحاً، وجعلت تحوضه، وتغرف من الماء في سقائهاوهي جَذْلى برحمة الله، وكان الماء يغور بعدما تغرف منه.

ومن الجدير بالذكر أن رسول الله ﷺ قد ترحَّمَ على هاجر، وودّ لو تركت زمزم تجري لكانت ماءً غزيراً سافحاً، فقال: «يرحم الله أمَّ إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال ـ: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً»[1].

وشربت هاجر من ماء زمزم، وارتوت، وأرضعت وليدها، وإذا بالـمَلَك عند زمزم، فقال لها: لا تخافي الضيعة، فإنّ ها هنا بيت الله تعالى، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله تعالى لا يضيِّع أهله.

وغلّفَ السرور قلب هاجر، وامتلكتها مشاعر الفرح، فقد خصّها الله بهذه المكرُمة، إذ جعلها قريبةَ الحَرَم، ولصيقةَ البيت الحرام الذي سيبنيه زوجُها إبراهيم، وابنها إسماعيل عليهما السلام إنها الآن سعيدة، فهي تسكن في البقعة الطاهرة، في البقعة الميمونة التي جعلها الله تعالى مثابةً للناس وأمناً، في الأرض الطيبة التي بارك الله فيها للعالمين، وجعلها مهوى أفئدة المؤمنين، حقاً إن هذا لهو الفضْل المبين.

وفي ذلك المكان الطاهر المطهَّر، عند البيت المحرم، غدت الحياة الزوجية لهاجر تأخذ شكلاً جميلاً، فقد تكوّن حول زمزم وقربه مجتمعٌ كبير، وكان إبراهيم عليه السلام يزورها بين الفينة والأخرى، لقد نبض ذلك الوادي بنبع الحياة بعد أن كان وادياً مقفراً غير ذي زرع.

كانت بئر زمزم مناط خير لكل الأمة، لا يُصدّ عنها إنسان، ولا طير، وهذا ما حدث، فقد صادف أن نزلت جماعة من قبيلة جُرهم في طريق بأسفل مكة المكرمة، ولعلهم كانوا يقصدون مكاناً ينـزلون فيه، وكانوا يعلمون أن لا ماء ولا حياةَ قرب البيت العتيق، غير أنهم رأوا عجباً، رأوا طائراً يحوم في الجوِّ،

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/٤٥٨) حديث رقم (٣٣٦٤)، وانظر: أخبار مكة (١/ ٥٤ ـ ٥٦)، وطبقات ابن سعد (١/ ٥٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٨).

فقالوا متعجبين من ذلك: لا شكَّ في أن هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء!

ثم إنهم أرسلوا واردهم ليأتي بالخبر اليقين، وأقبل الوارد نحو البيت، ونظر عن كثب فوجد الماء عذباً نميراً صافياً رقراقاً، وقربه امرأة وطفل، وتقدَّم الوارد الجُرْهُمِيّ نحوها وحياها وقال: أيتها المرأة، أتأذنين لنا أن ننزل عندكم فنحن من جُرهم.

فقالت هاجر في ترحيب وحزم: حياكم الله، انزلوا، ولكن لا حقّ لكم في هذا الماء.

قال الوارد في سرور: جزاك الله خيراً، قبلنا، ولكن لمن هذا الماء أيتها الكريمة؟

قالت: إنه لي، ولطفلي هذا.

فقال في دهش: ومَنْ حفره؟ إن عهدي بالوادي وليس به ماء ولا نبع؟

قالت: سقيا الله تعالى.

وقدمت قبيلة جُرهم، ثم نزلت برجالها ونسائها وأطفالها وجميع أنعامها، ومنذ ذلك اليوم دبّت الحياة هنالك، وغدت هاجر ذات مكانة عند القوم، وكانت تشكر الله الذي تلطف بها، وأكرمها، واختصها بهذا الإنعام الميمون.

ومن اللطائف في القصص النبوي أن رسول الله ﷺ قد روى لأصحابه جانباً من سيرة الحياة الزوجية لإبراهيم وهاجر، وهذا ما جاء في الصحيح وغيره.

فقد جاء في صحيح البخاري خبر هذه القصة موضَّحةً مفصَّلة تحكي ما حدث لهاجر وإسماعيل عند البيت المحرم. أخرج البخاري بسندٍ نصّه ما يلي: حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير: قال ابن عباس: «أول ما اتخذ النساء الـمِنْطَقَ من قبل أمّ إسماعيل، اتّخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى

المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تمرٌ، وسقاء فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها.

فقالت له: آلله أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أمُّ إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال: يَتَلَبَّطُ ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر: هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف دِرْعها، ثم سَعتْ سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت: هل ترى أحداً؟ فلم تَرَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذاك سعي الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهٍ ـ تريد نفسها ـ، ثم تسمّعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالـمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، ـ أو قال: بجناحيه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوّضُهُ وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس، قال النبي ﷺ: «يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو

قال: لو لم تغرِفْ من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها.

فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنّ الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرَّابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفْقَةٌ من جرهم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كداء، فنـزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء.

فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا ـ قال: وأم إسماعيل عند الماء ـ؛ فقالوا: أتأذنين أن ننـزل عندك؟

قالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء.

قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحبُّ الأنس، فنـزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنـزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلّم العربية منهم، وأنْفَسَهُم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم...»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٦٤)؛ وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٧ و ٤٨)، والمصنف (٥/ ١٠٥)، وشفاء الغرام (٢/ ٥-٧) وغيرها كثير.
وفي (الفتح) بيّنَ الحافظ ابن حجر طُرق الحديث ومخرّجيه، انظر (فتح الباري ٦/ ٣٩٩).
وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما في الحديث ما يدلّ على رفعه لرسول الله ﷺ، فإن لم يكن ابن عباس سمعه من رسول الله ﷺ، فيكون مرسلَ صحابي؛ ومراسيل الصحابة حجة بلا خلاف.
ومعنى المِنْطَق: بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء؛ هو ما يُشدّ به الوسط، ومنه النطاق، وكان الانتطاق من عادات النساء العربيات، ومن هنا سُمّيت السيدة أسماء بنت الصديق: ذات النطاقين. والدوحة: الشجرة الكبيرة العظيمة، وجمعها الدوح. في أعلى المسجد أي مكان المسجد لأنه لم يكن قد بُني في ذلك الوقت. وقفّى الرجل: إذا ولاّك قفاه راجعاً عنك. =

وبدأت مرحلةٌ أخرى من حياة هاجر الزوجية، وهذه المرحلة فيها ابتلاء أشدُّ من الابتلاء الأول، ولكنها صبرت واحتسبت فكانت المكافأة عظيمةً لها ولزوجها ولابنها وبيتها الميمون.

فقد ركب إبراهيم راحلتَه، وخرج ليزور ابنه إسماعيل وأم إسماعيل، خرج ليزورهما حيث أسكنهما بأمر الله في ذلك الوادي المُقفر؛ لم يكن بين السيدة سارة وهاجر أي مخاصمة، أو عداء، أو حسد، بل إن السيدة المصونة سارة لم تحسَّ غيرة من هاجر، كانت سارة مؤمنة صافية النفس، تتلقى أوامر الله راضية، وتعمل عمل المتقين، وتسير في ركاب الصالحين، فجزاها الله جزاء الشاكرين، ووهب لها ابنها إسحاق وهي عجوز عقيم رحمة منه وفضلاً، والله واسع عليم.

وكان سيدنا إسماعيل قريباً جداً من فؤاد إبراهيم عليه السلام، فهو ابنه البكر الذي استمع الله تعالى لدعائه فيه، وأمر بخروجه إلى الأرض التي يريد أن يبارك فيها للعالمين؛ ليتم الله تعالى وعده.

لقد ترك إبراهيم إسماعيل وأمَّه بوادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، تركهما وحيدين ولم يضعْ عندهما سوى جراب به تمر، وسقاء فيه ماء، وكان يعلم علم اليقين أن التمر لن يكفي هاجر إلا بضعة أيام وليالٍ، وأن الماء لن يكفي إلا يوماً أو بعض يوم، وليس في ذلك المكان إنس ولا جان، بل ليس فيه ماء؛ الماء الذي يجعل الحياة نابضة حوله.

لم يشغل نبيُّ الله إبراهيم قلبَه بأمر هاجر وإسماعيل، لأن الله تعالى أمره بأن

= والثنية: الطريق في العقبة، وقيل: هو المرتفع من الأرض فيها. والتلّبط: الاضطراب والتقلب ظهراً لبطن. والمعنى هنا: كان إسماعيل يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض.
وصَهِ: اسكت. وتريد نفسها: المعنى: لمَّا سمعت الصوت سكَّتت نفسها لتحققه. غِواث: المعونة وإجابة المستغيث. وتُحوّضه: أي تجعل له حوضاً يجتمع فيه الماء. ومعيناً: أي ظاهراً جارياً على الأرض. والضيعة: الضياع والحاجة. وكداء الثنية من أعلى مكة مما يلي المقابر، وقد وردت هذه اللفظة في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه. والعائف: الذي يحوم على الماء ويتردَّد إليه ولا يمضي عنه. والجري: الرسول والوكيل. وألفى: وجد. وأنفَسَهم: أي صار عندهم نفيساً مرغوباً فيه.

يتركهما بذلك المكان، وما عليه إلا الامتثال والتسليم والاستسلام لأمر الله، إذ إن الله يتولاهما برحمته، وهو أرحمُ الراحمين، وهو يتولى الصالحين، وهو خير الرازقين، فقد اتَّـقَتْ هاجر ربّها، فجعل لها من تقواها مخرجاً، ورزقها من حيث لا تحتسب، وفجّر لها زمزم فكانت بركة وخيراً عليها وعلى المؤمنين؛ وعلى كل من يحج البيت أو يعتمر.

واستأنف إبراهيمُ رحلته إلى أمِّ القرى، يسري مع الله ويذكره ويسبحه، وبعد أيام وصل مكة، ووقف ينظر إلى الوادي الذي ترك فيه هاجر وإسماعيل، رأى إبراهيم زمزم، ووجد أمَّةً من الناس يسقون، وجد حياة وبركة، وجيئة وذهاباً، انشرح صدره، واطمأن قلبه، وانفرجت أساريره، فها هو يشهد رحمة الله وبركاته يسبغها على أهل بيته.

واقترب إبراهيم من عريش هاجر وابنه إسماعيل، وكان الليل قد أرخى سدوله على الدنيا، وقَفَ إبراهيم قرب العريش، كانت تنبعثُ من داخله همسات دافئة تمسُّ شغاف القلب، كانت تلك الهمسات صوت هاجر وهي تسبّح الله وتشكره وتذكره، وتقرأ في صحف إبراهيم وتعلّمها إسماعيل، وفي هذه الأويقات نزلت سكينةُ خشوعٍ على قلب إبراهيم، وأُفعِمَ فؤادهُ بالرضا، فما أجمل الحياة مع ذكر الله وإقام الصلاة، وهكذا كانت هاجر وابنها يصنعان في هدأة تلك الليلة.

كان لقاء البيت المؤمن أمتع لقاء قرب البيت العتيق؛ وكان سرور إبراهيم عظيماً بزوجه وابنه الذي بدَتْ عليه أمارات الحِلْم والعِلْم، لقد خرج إسماعيل من بيت إبراهيم وهو طفل رضيع، وصدع إبراهيم لأمر الله، وإن كان قلبه تعلّق بابنه، وشُغِف به حبّاً. أراد الله أن يشبّ إسماعيل عند بيته المحرم، ذلك أمر الله وحكمته، ولقد اصطفى الله هاجر وزوجها إبراهيم لتكون أمّ إسماعيل، تلك المرأة الحامدة الصابرة التي ترجو لقاء الله وطاعته والتسليم لأمره، ففازت مع الفائزين بمرضاة الله[1].

---

(١) نساء الأنبياء (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

وشبّ إسماعيل كأحسن ما يشب الناس، وصار يسعى في أموره، وكانت هاجر تراقب ابنَها في إعجابٍ شديد وهي مسرورة بهمَّته العالية، فقد كانت ترى فيه زعيماً لقومه، وأباً لأمة عظيمة، أمة مؤمنة بالله ربِّ العالمين، فقد كان إسماعيل دعوة أبيه إبراهيم، وما طلبه من ربه حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠١]، لقد دعا إبراهيم الله أن يرزقه ولداً صالحاً يعينه على الدعوة إلى الله، فبشره الله تعالى بغلام حليم، وهذا الغلام هو إسماعيل، فإنه أول ولد بُشِّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من أخيه إسحاق باتفاق العلماء. ومن صفات هذا الغلام إسماعيل أنه حليم، متَّسِع الصدر حسن الصبر[1].

وذات يوم نام إبراهيم عليه السلام، فرأى في المنام أنه يذبح إسماعيل، ومن المتعارف عليه بين أئمة أهل العلم أن «رؤيا الأنبياء وحيٌ»[2] كما أخبر بذلك النبي الكريم محمد ﷺ.

وعرف إبراهيم عليه السلام أن هذا المنام هو إشارة من ربه للتضحية؛ فهل يتردَّد؟ وهل يخبر أمه هاجر؟! لقد أضحى إسماعيل شاباً يعمل، وهو ريحانةُ أمِّه وريحانةُ أبيه، وروح حياتهما الزوجية، ولكن لا ظنون ولا خواطر، بل أمر الله هو الأول والأولى؛ وعرض إبراهيم رؤياه على ابنه إسماعيل، إسماعيل ذلك الشاب الناشئ في أطهر بيت، بيت حميد مجيد مبارك: ﴿... قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]. والمعنى: انظر يا بني هل تصبر على إمضائي الرؤيا، لأن رؤيا الأنبياء وحيٌ، وما رأيتُه يعتبر أمراً لي بذبحك، أوَ لا تصبر؟[3]

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «قال له: يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك فما رأيك؟ وقد قصَّ عليه ذلك ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤)، وتفسير القاسمي (١٤/ ١١٧).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٨)، رقم (٨٥٩)، وانظر تفسير الخازن (٦/ ٢٨).
(٣) تفسير القاسمي (١٤/ ١١٧).

فيثبت قدمه إن جزع، وليوطِّن نفسه على الذبح، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله»[1].

وللإمام الخازن وِقفةٌ جميلة عند هذه الآية التي استفاد منها المراغي في تفسيره، يقول الخازن ما نصه: «فإن قلتَ: لِمَ شاوره في أمر قد عَلِمَ أنه حتم من الله تعالى؟ وما الحكمة في ذلك؟

قلتُ: لم يشاوره ليـرجع إلى رأيه، وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى، وليعلم صبره على أمر الله، وعزيمته على طاعته، ويثبت قدمه، ويصبّره إن جزع، ويراجع نفسه ويوطّنها، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله»[2].

ومن الجميل في مجالِ الطاعة، طاعةِ الأبناء للآباء ذلك الموقف النبيل من الفتي الحليم إسماعيل، الذي قال مطيعاً لله ولرسول الله أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

الله أكبر ما أعظم هذا الجواب! إنه ينتزع الإعجاب من النفوس؛ ولا يستطيع الباحثُ أن يرجِّحَ موقف الابن إسماعيل عن موقف الأب إبراهيم، إنّ كِلا الموقفين نبيل، ولا يدري الإنسان بأيهما يُعْجَب، بالأب الشيخ الذي يكلفه ربُّه بأمر لا تكاد تطيقه النفس البشرية إلا نفس إبراهيم، يكلفه ربه بأن يذبح بيده ابنه الوحيد الذي رزقه الله به وهو في سن الشيخوخة واشتعال الرأس بالشيب؟

أم يُعجب الإنسان بالفتى اليافع النجيب إسماعيل الذي يقول له أبوه: إني مكلف بذبحك فانظر ماذا تقول وماذا ترى؟! هكذا بكلٍّ بساطة وكلٍّ وضوح يطرح إبراهيم المسألة على ابنه، فانظر ماذا ترى؟ فيقول الابن البار منادياً أباه بلفظ الأبوة اللطيف: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ لم تتغيّر بعينيه الصورة، ولا العلاقة مع أبيه، إنه أبوه ولو أنه يستشيره في ذبحه.

ولم يكتفِ الابن البار المطيع إسماعيل بالقبول ساكتاً، ولم يُبْدِ تذمُّراً،

---

(١) تفسير المراغي (٨/ ١٨٤).
(٢) تفسير الخازن (٦/ ٢٨).

ولا اعتراضاً، ولا سؤالاً في أمر خطير كهذا الأمر؛ وهو ذبحه دون جناية اقترفها ولا عقوق نحو والده ارتكبه، ولا عصيان لربه صدر منه، بل أكثر من ذلك؛ أراد ذلك الفتى المستسلم لأمر الله، والمطيع لوالده، أن يشجعه على أن يمضي فيما هو قادمٌ وعازمٌ عليه، وهو ذبحه؛ أراد أن يشجع أباه على ذبحه بتذكيره بأنه ينفذ أمر الله، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ ثم أراد إسماعيل أن يزيد والده تشجيعاً، ويزيل ما قد يعتريه من قلق، لما قد يظنه فيه من جزع وقلة صبر، وقال له: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فكأنه بمعونة الله سأكون صابراً؛ فإسماعيل عليه السلام أديبٌ مع ربه ومع أبيه، فهو لم ينسبْ لنفسه القوة والصبر، وإنما علّق ذلك على مشيئة الخالق العظيم الذي يتطلع إلى عونه، وتصبيره على هذا البلاء، حتى يُتمّ أبوه ما كُلِّفَ به، وليساعده هو على تنفيذ هذا التكليف، فقال له: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال المراغي معلِّقاً ومفسِّراً لهذه الآية: «قال ـ إسماعيل ـ: يا أبتِ سميعاً دعوتَ، ومن مجيبٍ طلبتَ، وإلى راضٍ ببلاء اللهِ وقضائه توجّهتَ، فما عليك إلا أن تفعل ما تؤمر به، ما عليّ إلا الانقياد وامتثال الأمر، وعلى الله المثوبة، وهو حسبي ونعم الوكيل. ولما خاطبه بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سبيل الترحُّمِ، أجابه بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ على سبيل التوقير والتعظيم، وفوّض الأمر إليه حيث استشاره، وأن الواجب عليه إمضاء ما رآه، ثم أكّد امتثاله للأمر بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي سأصبر على القضاء، وأحتمل هذه اللأواء، غير ضجرٍ ولا برمٍ بما قضى الله وقدَّر، وقد صدق فيما وعد، وبرّ في الطاعة لتنفيذ ما طُلب منه»[1].

وبعد هذا الحوار اللطيف القصير والمهم والحاسم بين إبراهيم خليل الله، وبين ابنه إسماعيل عليهما السلام، هذا الحوار الذي كشف الستور عن استسلام الوالد وولده استسلاماً مطلقاً وانقياداً تاماً لله ربِّ العالمين، لم يَعُدْ إبراهيم ينظر إلى ابنه إسماعيل تلك النظرة الأولى له بأنه الابن الحبيب القريب، لأن إبراهيم

---

(١) تفسير المراغي (٨/ ١٨٤ ـ ١٨٥).

كان ينظرُ في تلك اللحظات إلى الذي تخللت محبته شِغافَ قلبه، فلم تزاحمْها محبته لولده، إنه كان ينظر إلى من اتَّخذه خليلاً من دون العالمين؛ إنه كان ينظر إلى ربِّه الودود الذي يأمره بذبح ولده بيده، وصدق المحبة يظهر عند تنفيذ ما يأمر به المحبوب؛ و:

لو قالَ تيهاً قفْ على جَمْر الغَضا ... لوقفتُ مُمتثلاً ولمْ أتوقَّفِ

وبدأ وقتُ التنفيذ الذي يصوِّره لنا القرآن الكريم بأوجز أسلوب وأعظم كلام، وذلك بقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: صرعه على شقِّه فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة. ويقول ابن كثير: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه[1].

فلما تمَّ إضجاع إسماعيل، وهوى إبراهيم عليه والسكين بيده ليذبحه، جاء الأمر الإلٰهي مبشراً بإيقاف التنفيذ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]، جاءه النداء الكريم من الكريم ربِّ العالمين أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وحصل المقصود من رؤياك في إضجاعك إسماعيل للذبح، وعزمك على ذبحه، وإمرارك السكين على رقبة ابنك، ولكن لم تقطع شيئاً، وبهذا ظَهَرَ وانكشف انقيادك، وانقياد ابنك لأمر الله، وكما طاعتكما لله رب العالمين، فلا حاجة للاستمرار وتنفيذ الذبح، فنحن نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، وقد نجح الأبُ والابن في هذا الامتحان الصعب الذي استحقَّ به أن فداه الله بذِبحٍ عظيم.

وذكر الزمخشري وغيره في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] قال: «وحكي في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه وقال: يا بني خذِ الحبل والمدية، وانطلق بنا إلى الشِّعْب نحتطب؛ فلما توسَّطا شِعب بثير أخبره بما أُمِر؛ فقال له: اشدُدْ رباطي لا أضطرب، واكفف عني ثيابك

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٦/ ١٥٧)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٥).

لا ينتضح عليها شيء من دمي، فينقص أجري، وتراه أمي فتحزن، واشحَذْ شفرتك، وأسرع إمرارها على حلقي حتى تُجْهِزَ عليّ ليكون أهون، فإن الموت شديد، واقرأ على أمي سلامي، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسهل لها.

فقال إبراهيم عليه السلام: نِعم العون أنت يا بني على أمْرِ الله، ثم أقبل عليه يقبّله، وقد ربطه وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل، لأن الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه.

فقال له: كُبّني على وجهي، فإنك إذا نظرت إلى وجهي رحمتني، وأدركتْكَ رِقَّةٌ تحول بينك وبين أمر الله، ففعل، ثم وضع السكين على قفاه، فانقلب السكين، ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح»[١].

وقد صاغ هذه الحادثة شعراً الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه (الرحلة الأنسية إلى البلاد القدسية) فقال في قصيدته هذه الأبيات المعبرة:

وجاء الوحيُ في الرؤيا إليهِ ... بذبحِ ابنٍ له شهمٍ نبيلِ
فأتكاهُ ليذبحهُ امتثالاً ... لأمْرِ المالكِ الحقِّ الكفيلِ
ولم تقطعْ به السّكينُ حتّى ... فداهُ اللهُ بالكبشِ الجليلِ

وجاءت القصة في مصادر أخرى، ولكن في سياق آخر، تُظْهِرُ وسوسةَ الشيطان لهاجر؛ فقد جاء في بعض الروايات: «أن إبليس أتاها في صورة رجل وقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟

قالت: ذهب به ليحتطبَ من هذا الشِّعب.

قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه.

---

(١) انظر: الكشاف (ص ٩١١)، وانظر: التفسير الكبير (١٣٨/٢٦) ويبدو لي أن هذه القصة فيها بعض الضعف، ومنسوجة نسجاً ضعيفاً والله أعلم بالصواب، لأن ما جاء في القرآن الكريم واضح تماماً.

قالت: هو أرحم به، وأشدّ حبّاً له من ذلك.

قال: إنه يزعم أنّ الله أمَرهُ بذلك!

قالت له في حزم: إن كان ربّه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربّه.

وحاول إبليس كذلك أن يعترضَ لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولكنه رجع بغيظه، ونكص على عقبيه لم يَنَلْ شيئاً مما رسمه من مَكْر، ولم يصبْ من البيت الإبراهيمي شيئاً مما أراد، ولم يستطِع أن يزلزل حياته الزوجية، وامتنعوا منه بعون الله»[(١)].

وثبتت السيدة هاجر في وجه الابتلاء، وأثبتت أنها مستسلمة لله ولأوامره، كما أنها أثبتت بأن بناء الحياة الزوجية يحتاج إلى صبر ومصابرة وعقل واتِّزان، وقد جمعت فيها هذه الخصائل الحميدة، وخصوصاً في آخر محنة تعرضت لها بذبح وحيدها إسماعيل، والتي انقلبت إلى منحة ربانية خالدة إلى ما شاء الله.

ومن الجدير بالذكر والمفيد أيضاً في هذا البحث أن نشير إلى مسألة الذبيح، إذ إن بعض المفسِّرين قد زعم بأن الذبيح هو إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. بينما اختلف آخرون في أيِّ ولَدَي إبراهيم هو الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟!

والصحيح الذي لا مِراء فيه أن الذبيح هو نبيُّ الله إسماعيل لأمور كثيرة منها: أن قصة الذبح قد حدثت في مكة المكرمة، وكانت هاجر وابنها إسماعيل في مكة عند البيت الحرام، بينما كانت سارة وإسحاق في بلاد الشام.

وللأصمعي وقفة لطيفة في هذا الميدان، فقد وردَ أنه قال: «سألت أبا عمرو ابن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عَزُبَ عنك عقلُك؟! ومتى كان

---

(١) انظر: تفسير الخازن (٦/ ٢٩)، والكامل في التاريخ (١/ ١١١ ـ ١١٢) مع الجمع والتصرُّف. وفي النفس شيء من هذه القصة أيضاً.

إسحاق بمكة ؟! وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة»[1].

وللفخر الرازي في تفسيره كلام طيب مقنع في أن الذبيح هو إسماعيل، وساق أدلة عقلية أيّد فيها ذلك[2].

وقال الإمام القرطبي مبيناً بأن الذبيح هو إسماعيل: «احتج من قال إنه إسماعيل، بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]؛ وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ . .﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به، ولأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢]، فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبياً، وأيضاً فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب؟»[3].

وذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «أن عالماً يهودياً أسلم زمن عمر بن عبد العزيز، وحسن إسلامه، فسأله عمر بن عبد العزيز: أي ابنيّ إبراهيم أمِرَ بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين؛ وإن يهودَ لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشَرَ العرب على أن يكون أباكم الذي كان مِنْ أمْرِ الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى له لصبره لما أمر به، فهم يجْحَدون ذلك؛ ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم»[4].

ويؤيِّدُ هذا الذي ذكره ابن كثير ما أورده ابن قيم الجوزية في كتابه النفيس الميمون (زاد المعاد) حيث أورد أقوال السلف من الصحابة والتابعين وأكابر العلماء في أن الذبيح إسماعيل، فلنستمع إليه حيث يقول: «وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٦٧).
(٢) انظر: التفسير الكبير (٢٦/ ١٣٤).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٦٧ ـ ٦٨).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧) بتصرُّف يسير.

القول بأنه إسحاق، فباطل بأكثر من عشرين وجهاً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحَه يقول: هذا القول إنما هو متلقّى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنصّ كتابهم، فإنّ فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكْره، وفي لفظ: وحيده: ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرَّ هؤلاء أنّ في التوارة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق.

قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك؛ ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبُّوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيحَ إسحاق، والله تعالى قد بشّر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧٠ ـ ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل البشارة، فتناوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللّفْظ واحدٌ، وهذا ظاهر الكلام وسياقه»[1].

وبعد هذا الكلام نجد أن ابن قيم الجوزية يأتي بما لا شك فيه بأن الذبيح هو إسماعيل، ويتحدث بكلام في غاية الدقة والصحة والمنطق، فيقول: «إن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكْرَ الأولاد أحبُّ على الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربَّه الولد، ووهبه له، تعلّقت شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخِلَّة منصِبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وألا يُشارِك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خلصت الخلة حينئذٍ

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧٢ ـ ٧٣).

من شوائب المشاركة، فلم يبقَ في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، فَنُسِخَ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الربِّ. ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور»[1].

قال القرطبي: سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيحَ هُديتَ إسماعيل ... نطَق الكتابُ بذاكَ والتّنزيلُ

شَرَفٌ به خصّ الإلٰهُ نبيّنا ... وأتى به التفسير والتأويلُ

إن كنتَ أمّته فلا تُنْكِرْ له ... شرفاً به قد خصّه التفضيلُ[2]

لم تكن هاجر لتتوقف عند هذا الحدِّ من البذل والتضحية في سبيل تحقيق حياة زوجية صالحة، وإنما كان لها دور مبارك في بناء الكعبة، إذ عملت ما بوسعها أن تعمل برفقة زوجها وابنها.

فقد كانت السيدةُ هاجر مطمئنةَ النفس، طيبةَ الجوانح، قريرة العين بالإنعام الإلٰهي على البيت المبارك، بيت زوجها إبراهيم، هذا البيت الميمون الذي بارك الله فيه واصطفاه.

ففي ذات غداة جاءها إبراهيم عليه السلام ووجهه يتهلّل بشراً، ويشعّ نوراً، جاءها يحمل بشارة ربانية جميلة، إذ أمره الله تعالى أن يبني لله بيتاً يحج إليه الناس من كل حَدْب وصوب، وقد هداه الله إلى مكانه، وحدَّدَه له.

جاء إبراهيم إلى هاجر وسألها: أين إسماعيل؟

قالت هاجر: وما تريد منه يا نبي الله؟

قال إبراهيم والبِشْر يرتسم على وجهه الجميل: أبشري يا هاجر، لقد أمرني

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٦٧).

الله تعالى أن أبني له بيتاً، وأمرني كذلك أن يكون إسماعيل ابنُنا هو الذي يعينني بذلك.

ولم تملك هاجر نفسَها، فخرَّت ساجدةً لله شاكرة حامدة له أن اصطفى وحيدَها إسماعيل لكي يكون له شرف بناء بيت الله الحرام الذي جعله قياماً للناس، وجعله مثابة وأمناً لهم، وجعله مهوى أفئدتهم، ومتطلَّب نفوسهم، ومنى أملهم، وأمل مناهم، ومقصدهم وهدفهم، وموئل الطاعات.

وقام نبيّا الله الحليمان الكريمان العابدان إبراهيم وإسماعيل بتخطيط البيت، وليس بمستَبْعَدٍ أن تكون السيدة هاجر قد ساعدتهما ببعض العمل الذي يتناسب مع تكوينها، كما أنها كانت سعيدة بذلك سعادة العابدات القانتات، وذلك لاختصاص هذا البيت الإبراهيمي بعنوان الشرف الوافي العظيم.

وعكف النبيان الكريمان يعملان في رفع قواعد البيت الحرام، كانت مشاعرُ عزّ الطاعة تغمرُ قلبيهما الصّافيين، وأنوارٌ من سواطع الإلهام الإلٰهي ترطب نفسيهما، إذ اجتباهما ربُّ العزة لهذا الشرف الجليل من دون سائر العالمين، كانا يدعوان الله أن يتقبل منهما، وأن يجعل ذريتهما مسلمة، وأن يتوب عليهما، وأن يبعث رسولاً يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وهذا كله جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

وتمَّ بناء بيت الله تعالى، وراح إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومن معهم من المسلمين يطهِّرونه للطائفين والقائمين والركَّع السجود، غسلوه بماء زمزم؛ ومِنْ ثَمَّ جاءت الأوامر من الله لإبراهيم تقول: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ..﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أمره الله تعالى أن يؤذِّن في الناس بالحجِّ، فقال إبراهيم: يا ربِّ، وما يبلغ صوتي؟

قال: أذّن، وعليّ البلاغ.

فعَلا على جبل أبي قبيس؛ وقال: يا أيها الناس؛ إن ربكم قد بنى بيتاً، فحجّوه، فأسمع من في أصلاب الرجال، وأرحامِ النساء ممن سبق في علم الله أن يحجَّ، فأجابوهُ: لبيك اللهم لبيك»[1]. وجاءَت وفود الحجيج من كل فجٍّ عميق، وأدّت مناسك الحج.

وفي هاتيك الأيام المباركات كانت هاجر ترى الطائفين والعاكفين والركع السجود، وترى الذين يسعون بين الصَّفا والمروة، اغرورقت عيناها بدموع الشكر لله الذي غمرها بإنعامه، إذ وهب لها إسماعيل، وأكرمهما بزمزم، وشاركت ببناء البيت، وأضحى سعيُها بين الصفا والمروة من شعائر الله، لقد كانت هاجر صفية صافية، مؤمنة مسلمة، قانتة عابدة، فجزاها الله أفضل جزاء، والله يختص برحمته وفضله من يشاء، والله ذو فضل عظيم وهو أعلم بالشاكرين.

«وعندما أذن إبراهيم عليه السلام في الناس بالحجِّ كانت هاجر زوجه أول امرأة في الدنيا ـ يوم ذاك ـ تلبّي النداء، وسجّلت بذلك أولية طيبة في سجل نساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[2].

وعاشت هاجر حميدة، عاشت قرب الكعبة، وذكروا أنها كانت تملأ حياة مكة علماً، فقد كانت تجمع صبيان جُرهم، وتعلمهم صحف إبراهيم، كما تعلمهم الكتابة، فقد ورد أنها كانت أول من خط القلم في مكة.

وعاشت هاجر وهي مثال الزوجة الصالحة في البيت الإبراهيمي المبارك، عاشت حتى بلغت تسعين عاماً[3] قضتها في طاعة الله؛ ولما جاءتها سكرة الموت بالحق، صعدت روحُها إلى ربها راضية مرضية، وشاء الله تعالى أن

---

(١) زاد المسير (ص ٩٥٥).

(٢) نساء الأنبياء (ص ٢٦٠).

(٣) انظر في هذا طبقات ابن سعد (١/ ٥٢).

تُدفَن هاجر في الحِجْر[1] في الحرم، في المكان الطاهر الذي تتردد فيه همسات الذاكرين والطائفين والركع السجود.

رحم الله هاجرَ الزوجة المثالية، فهي بحقٍّ من النساء اللواتي يُحتذىٰ بهنّ، وحبذا هاجر من قدوة للنساء في كل زمان ومكان

* * *

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤١٧)، وشفاء الغرام (٢/ ٢٢)، وذكر الإمام السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥١٧) نقلاً عن ابن سعد أن قبر أم إسماعيل تحت الميزاب بين الركن والبيت، والله أعلم.

الفصل الرابع

حياة موسى الزوجية

في القرآن الكريم عددٌ كبير من الزوجات الصالحات اللواتي لهنَّ كبيرُ الأثر في حياة الأنبياء الزوجية، ومن بين هؤلاء النساء الصالحات زوجة نبيِّ الله موسى الكليم عليه السلام.

وقصة هذه المرأة الصالحة من القصص القرآني الشائق الجميل الذي ينبغي أن تقتدي به نساء الأمة في كل عصر ومصر.

وقد وردت سيرة هذه الزوجة في بضعة مواضع من القرآن الكريم، وفي واحدٍ من هذه المواضع نعرف أنها ذات حياء يزينها ويزيد من قدرها، وذات عفّة وبر بوالدها، وذات وفاء لزوجها.

وذكرت كتب التفسير والتواريخ وعلوم القرآن أن اسمها صفورا أو صفوريا بنت الرجل الصالح في مدين[1].

أما زوجها موسى عليه السلام فيذكر جماعة من أعلام المفسرين والمؤرخين بأنه موسى بن عمران، ويرجعون نسبه إلى نبي الله يعقوب عليه السلام، وكانت ولادة موسى في مصر، في عهد كانت فيه بنو إسرائيل في أعظم محنة مرَّت عليهم، إذ كان فرعونها يذبح أبنائهم، ويستحيي نساءَهم، وذكر مؤرخو ذلك

---

(١) انظر مثلاً: تفسير الخازن بهامشه البغوي (٥/ ١٧١)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٦١)، والدر المنثور للسيوطي (٦/ ٤٠٥)، والكامل لابن الأثير (١/ ١٦٩)، وتاريخ الطبري (١/ ٢٣١)، وترويح أولى الدماثة (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٧/ ١١٤)، وآثار البلاد (ص ٢٤٩)، وغيرها كثير جداً.

العهد أنه لم يكن هناك ملكٌ تولّى في مصر أقسى قلباً لبني إسرائيل منه، فقد كان يعذبهم، وكان يستعبدهم، ويجعلهم خدماً أذلّة، ووزّعهم في أعمالهم، فقِسْم يبنون، وصنف يحرثون، وآخرون يتولون الأعمال القذرة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩].

قال البغوي في تفسيره هذه الآية: «يسومونكم: يكلِّفونكم ويذيقونكم أشدَّ العذاب وأسوأه؛ وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة هكذا، ومرة هكذا كالإبل السائمة في البراري. وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وخولاً، وصنّفهم في الأعمال؛ فصنف يبنون، وصنف يحرثون ويزرعون، وصنف يخدمونه، ومن لم يكن منهم في عمل وضع عليه الجزية»[(١)].

ونقل البغوي عن وهب بن منبه ما مفاده قال: «كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فذوو القوة ينحتون السَّواري من الجبال، وطائفة ينقلون الحجارة والطين يبنون له القصور، وطائفة منهم يصنعون اللّبن والآجر، وآخرون نجارون وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج، جزية يؤدونها كل يوم؛ والنساء يغزلن الكتان وينسجن»[(٢)].

وسبب هذا الظُّلم هو أن فرعون رأى حلماً يدل على نهايته، فأحضر الكهنة، ففسروا له بأن غلاماً يولد من بني إسرائيل يكون ذهاب المُلْك والسلطان بمصر على يده، هنالك أمر فرعون بقتل كلِّ غلام يولد في بني إسرائيل؛ ولكن إرادة الله أقوى، وأمره سينفذ، وهو الأول والآخر، فقد شاء سبحانه وتعالى أن يُولد موسى، وأن ينشأ في بيت فرعون كما نعلم من خلال القرآن الكريم.

إذن، لقد نشأ موسى عليه السلام في بيت فرعون، بعد أن تبناه هو وامرأته المؤمنة آسية بنت مُزاحم، وكان من الطبيعي أن يعطفا عليه، ويبذلا كلَّ جهد في سبيل تربيته وتعليمه حتى بلغ أشده واستوى؛ وكانت عناية الله تعالى تحوطه وتحرسه وتحميه.

---

(١) تفسير البغوي (ص ٣١).

(٢) تفسير البغوي (ص ٣١) باختصار وتصرف.

وكان موسى يعلم أنه من نسل نبيِّ الله يعقوب عليه السلام، وأنه دخيل على البيت الفرعوني، وكان يعلم ما يعانيه قومه من العذاب؛ ولكنهم عزّوا بموسى.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم، حتى امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزّوا بمكان موسى، لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم»[1].

وذات يوم حدث ما لم يكن في حسبان الناس؛ ولكنه جارٍ بأمر الله، فقد صادف أن دخل موسى يوماً المدينة، وذلك على حين غفلة من أهلها، ولعل الوقت كان عند القيلولة، أو بين المغرب والعشاء، وهناك وجد رجلين يقتتلان؛ أحدهما مصري، والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الأخير لينصره على المصري، إذ هو عدوّ لكليهما، فجاء موسى وكان قوياً، فوكز القبطي بيده وكزة أراد بها إبعاده، فمات، ولم يرد موسى قتله، لكنما أراد فضّ القتال بينهما، وأراد الله تعالى أن يموت ذلك المصري من هاتيك الوكزة.

وحزن موسى عليه السلام لِما حصل، واستعاذ بالله من الشيطان، وبات يرجو المغفرة من الله ويدعوه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦][2].

واستجاب الله لموسى ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]؛ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكْز الذي كان فيه ذهابُ النفس، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه[3].

قال قتادة: عرفَ واللهِ المخرجَ فاستغفرَ، ثم لم يزلْ يعدِّد ذلك على نفسه،

---

(١) تفسير البغوي (٩٧٦).

(٢) قال الزمخشري معلقاً ومتسائلاً في تفسير هذه الآية: «فإن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؟ قلت: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فكان ذنباً يستغفر منه. وعن ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر» (تفسير الكشاف ص ٧٩٦).

(٣) تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٣).

مع علمه بأنه قد غفر له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلتُ نفساً لم أؤمر بقتلها، وإنما عدده على نفسه ذنباً، وقال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يقتل حتى يؤمر، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم.

قال النقاش: لم يقتله عن عمد مريداً للقتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه. قال: وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة[1].

وكانت رحمة الله تعالى ومغفرته قريبة من موسى عليه السلام، فقد استجاب له الله دعاءه ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وعاهد موسى ربَّه عهداً جميلاً عقب المغفرة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

قال ابن عطية في تفسيره لهذه الآية: «ثم قال موسى عليه السلام معاهداً لربه عز وجل: ربِّ بنعمتك عليّ وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألا أكون معيناً للمجرمين»[2].

وقال البغوي: «قال ابن عباس: للمجرمين: للكافرين، وهذا يدلُّ على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً»[3].

وقال القرطبي ما مفاده وملخصه: «رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون إن عصمْتَني ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمّى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدَّتْ مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدِّية إلى القتل الذي لم يحلّ له قتله.

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٣)؛ وقال كعب: «كان قتله خطأً، وإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل».

(٢) تفسير ابن عطية (١١/ ٢٧٦).

(٣) تفسير البغوي (ص ٩٧٦).

وقيل: أراد: إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أؤمر به، فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين»[1].

وفي اليوم التالي أشرقت الشمس بأشعتها الفضيّة على دنيا مصر، بينما أصبح موسى عليه السلام في المدينة خائفاً مضطرباً بما وقع منه بالأمس، وبينما كان موسى في هذه الحال من الخوف، فوجىء بالإسرائيلي نفسه يستغيث به مرة أخرى على قبطي آخر وهو يقول بأعلى صوته: انصرني يا موسى.

غير أن موسى عليه السلام غضب من غواية وضلال الإسرائيلي، ومن كثرة شرِّه ومخاصمته، وقال يصفه بهذا الوصف: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]. ولكنه مع هذا كلِّه اندفع نحوه كي ينصره، وهنا ظن أنه يريد أن يبطش به وأن يقتله، وكشف عن السرِّ المخبوء، وقال له بعبارة صريحة والخوف يملأُ جوفه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

وكان قوم فرعون وشيعته قد عثروا على القتيل الذي وكزه موسى، ولم يعرفوا خبره ولا أثر القاتل، بل لم يعثروا على علامةٍ تدلّ على القاتل، وهنا نشروا رجالَهم ليعرفوا الأسرار ويكشفوا الأستار عن حقيقة هذه الجريمة، وكانوا يعتقدون أن الجاني من بني إسرائيل، ولكن مَنْ تراه يكون ؟! وأين الشاهد والدليل؟!

وحينما جاؤوا لفرعون قال له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذْ لنا بحقِّنا منهم. فقال لهم: أبلغوني قاتله، ومن يشهد عليه، لأنه لا يستقيم أن نقضي بغير بيّنة أو دون برهان واضح. ومن أجل ذلك كانت صيحة الإسرائيلي المشاغب لموسى أقوى دليل يكشف المخبوء، ويرشد إلى القاتل.

وبسرعة البرق نُمي الخبر إلى فرعون، فاستشاط غضباً، وعبس وبسر، وامتلأ قلبه غمّاً وحزناً وحقداً، وعادت به ذاكرته إلى الماضي البعيد عندما أخبره المنجِّمون بخراب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل، وأخذ يسبح

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٤).

بأفكاره السوداء في أمواج الظنون، ثم أفاق من شروده وركبته الشَّياطين واستولت عليه، فلم يلبث إلا القليل حتى أرسل زبانيته في طلب موسى ليقضي عليه قبل أن يستفحلَ أمره.

ولكن الله تعالى مع عبده موسى، فهو الذي يرعى المحسنين من عباده، ومن ألوان رعايته أن هيّأ لموسى رجلاً شديداً قوياً ناصحاً، جاء من أقصى المدينة يسعى، وسبق جنود فرعون وزبانيته، وأخبر موسى بما يدبِّره فرعون وجنوده من مؤامرة لقتله والقضاء عليه، وراح الرجلُ ينصح موسى بأن يخرج من مصر، وينجو بنفسه.

وقبِلَ موسى هذه النصيحة العظيمة الغالية الصادقة، وبادَر مسرعاً تاركاً مصر وراء ظهره، ومولياً وجهه شطر مدين، وهو خائف يترقب؛ خرج وقد ودَّع النهارُ الدنيا، وجاء الليل مرخياً ستوره على الكون، خرج موسى إلى مدين وحيداً لم يتزوَّدْ لهذا السفر غير المتوقع، لم يتزود إلا بالأنْسِ مع الله، وهو يرجو أن يهديه سواء السبيل، فكان الطريق الذي سلكه هو الطريق الموصل إلى المقصود[1].

خرج موسى تلقاء مدين وهو يقول: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ قال المفسرون: «كان بين مصر ومَدْين مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له بالطريق علم، فقال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل؛ أي قصده. قال ابن عباس: لم يكن له علم بالطريق إلا حُسن ظنّه بربه. وقال السّدّي: بعث الله له ملكاً فدلّه»[2].

وقال القرطبي: «لما خرج موسى عليه السلام فارّاً بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، وأسند أمره إلى الله تعالى. وروي أنه كان يتقوّت ورقَ الشجر، وما وصل حتى سقط خفّ قدميه، وكان فرعون قد وجّه في طلبه وقال لهم: اطلبوه في ثنيّات الطريق، فإن موسى

---

(١) انظر: قصص الأنبياء (ص ٣١٦) بشيء من التصرف.
(٢) زاد المسير (ص ١٠٦١)، وتفسير البغوي (ص ٩٧٧).

لا يعرف الطريق، فجاءه مَلَكٌ راكباً فرساً ومعه عنَزَة ـ عصا ـ، فقال لموسى: اتبعني، فاتبعه فهداه إلى الطريق»(١).

وصل موسى إلى مكان يُسَمّى مَدْيَن؛ وفي مدين جلس موسى عليه السلام ليستريح من وعثاء السفر، جلس قرب بئر مشهورة هناك يسقي الناس منها أنعامهم ومواشيهم. وقد وجد موسى على البئر جماعة كثيفة العدد من أناس مختلفين، وهم يتزاحمون على الماء.

وحانت من موسى عليه السلام التفاتةٌ إلى مكانٍ أسفل من مكان الناس، فوجد امرأتين تحبسان وتمنعان غنمهما عن الماء لئلا تختلط بغنم القوم، وإذا ما انتهى الناس من السقاية فإنهما تسقيان الماشية، ولم تفعلا هذا إلا لضعفهما، ولأنهما كانتا تكرهان مخالطة الناس؛ وتكرهان الزحام، وقد ذكرت المصادر المتنوعة أنهما كانتا أختين، وأن الكبرى تدعى (ليا)، والصغرى تدعى (صفورا).

ولما رآهما موسى عليه السلام على تلك الصورة، نسيَ حاله وما هو عليه من جوع وعطش وتعب، شعر بأن المرأتين بحاجة إلى من يساعدهما في سقاية مواشيهما، تحركت الرحمة بقلبه الكبير، ونهض من مكانه وتقدم نحوهما في أخلاق الأنبياء وباختصار شديد: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾(٢) [القصص: ٢٣]؟! يعني: ما خبركما وما شأنكما، ولِمَ لا تسقيان غَنَمَكُما مع هؤلاء القوم؟!

وأجابته المرأتان قالتا: أيُّها الرجل الطيب، لا نستطيع أن نُزاحم الرجال والرِّعاء، حتى يذهب الرِّعاء عن الماء ويخلو منهم، وذلك عجزاً منّا عن مدافعتهم وحذراً من مخالطتهم.

فقال موسى عليه السلام: ولِمَ ترعيان؟

قالتا: إن أبانا شيخٌ كبير، يعجز عن الخروج والسقي، وليس لنا رجلٌ يقوم

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٦) باختصار.

(٢) ما خطبكما: قال الماوردي في تفسيره في شرح هذه الكلمة: «في الخطب تضخيم الشيء، ومنه الخطبة، لأنه من الأمر المعظم» (تفسير الماوردي ٣/ ٢٢٤).

بذلك إلا هو، وقد أضعفه الكِبَر أن يباشر أمر غنمه، فاضطرَّنا الحالُ على ما ترى من الانتظار حتى يفرغ الرعاء من سقي أغنامهم، وينصرفوا وأغنامهم عن الماء، فنستطيع عند ذلك سقي أغنامنا بعدهم، فلا بد لنا من التأنِّي والانتظار، ولو نتأخر ويطول انتظارنا[١].

وبعد هذه المحاورة من موسى عليه السلام مع المرأتين اللتين وجدهما عند ماء مدين، لم يتأخر موسى عن تقديم المساعدة لهما وقال لهما: سأسقي لكما إن أحببتما.

قال البغوي: «فلما سمع موسى قولهما رحمهما، فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعَها إلا جماعةٌ من الناس. وقال ابن إسحاق: إن موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر، فسقى غنم المرأتين. ويُروى: أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر، فجاء موسى، ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين»[٢].

وقد ذكر الله هذا كلَّه في القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٤].

إذن فقد سقى موسى عليه السلام غنمهما لأجلهما[٣]، وذلك من غير أجر، ثم تحوَّل إلى ظلٍّ شجرة صغيرة الورق، وجلس تحتها من شِدَّة الحرّ وهو

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣)، وتفسير القاسمي (١٣/ ١٠١) بشيء من التصرف اليسير.

(٢) تفسير البغوي (ص ٩٧٨).

(٣) تساءل الزمخشري عن سقاية المرأتين الماشية وهما ابنتا نبي فقال: «فإن قلتَ: كيف ساغ لنبي الله شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟
قلت: الأمر في نفسه ليس بمحظور، فالدِّين لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادات متباينة، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة» (تفسير الكشاف ص ٧٩٧).

جائع، وسأل الله تعالى الطعام ليقيم به صُلْبَه، وكان قد بلغ به الجوعُ كلَّ مبلغٍ، وتغيَّر لونه، وإنّه لأكْرم الخلْق على الله.

ويحتمل أن موسى أراد بقوله: فقير: أي فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين، لأنه كان عند فرعون في مُلْك وثروة، قال ذلك رضاً بالبدل السني، وفرحاً به، وشكراً له، وكان الظلُّ ظلَّ شجرة؛ هكذا قال الزمخشري.

شكرت المرأتان لموسى صنيعه ومروءته، ورجعتا سريعاً بالغنم إلى أبيهما الشيخ الكبير الصالح، فأنكر حالهما، ودُهش لمجيئهما سريعاً وعادتهما غير ذلك، وسألهما أبوهما عن خبرهما؛قائلاً: ما لكما عُدْتما اليوم سريعاً على غير عادتكما، ما الأمر في ذلك؟

وعندها حدّثتاه بما فعله موسى عليه السلام من قيامه بالسقي لهما، ورعاية أمرهما؛ ثم استدركت الصغيرة صفورا قائلة: يا أبتِ، يبدو أن هذا الرجل الكريم من الغرباء، ولعله آتٍ من مكان بعيد، حيث تلوح عليه علامات السفر، والتعب، والجوع.

قال لها أبوها: يا بنيتي، اذهبي إليه، ثم قولي له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]. وأسرعت ابنته كي تدعو موسى إلى بيت أبيها كما ذكر القرآن الكريم ذلك ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾[1] [القصص: ٢٥].

أي جاءته مستحية شديدةَ الحياءِ قد سَتَرتْ وجهها بكمٍّ درعها، وهذه الصفة، صفة الحياء قد امتدح الله بها هذه الفتاة صفورا؛ بل إنه وصفها بالحياء، وكما نعلم أن الحياءَ خيرٌ كلّه، وهو أجمل لباس ترتديه المرأة في كل عصر

---

(١) قال الماوردي رحمه الله: «وفي سبب استحيائها ثلاثة أقاويل:
أحدها: أنها دعته لتكافئه، وكان الأجمل مكافأته من غير عناء.
الثاني: لأنها كانت رسولة أبيها.
الثالث: ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليست بِسَلْفع من النساء خرّاجة ولاّجة» (تفسير الماوردي: ٣/ ٢٢٥).

ومصر، وتتحلى به ليكون علامة بارزة لها.

ومن المعلوم في اللغة أن الاستحياء: مبالغة في الحياء، لقد وصف الله هذه الفتاة بالحياء ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا[1] تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص: ٢٥]، وهذا دليل على ما كانت عليه من عظم الحياء والاستحياء.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وفي سبب استحيائها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان من صفتها الحياء، فهي تمشي مشي من لم يعتدِ الخروج والدخول. والثاني: لأنها دعتْهُ لتكافئه، وكان الأجمل عندها أن تدعوه من غير مكافأة. والثالث: لأنها رسولُ أبيها»[2].

جاءت صفورا تدعو موسى وهي مستحيية في مشيتها، قال أبو السعود في مشيتها: «بأنها كانت تمشي غير متبخْتِرة ولا مُتثنِّية»[3].

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله نقلاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإسناد صحيح: «أن صفورا كانت ساترة وجهها بثوبها مبالغة في الحياء، لأن سترَ وجهها غير واجب عليها»[4].

جاءت هذه الابنة الحيّة، ووقفت أمام موسى تحت ظلِّ الشجرة، وأبلغته رسالة أبيها الشفوية التي حملتها بأدبٍ واستحياء، قالت له كما أوصاها أبوها قولي لهذا الرجل الشهم: ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ... ﴾ [القصص: ٢٥].

نعم فهذه الفتاة ستكون زوجاً لهذا النبي وستكون ذات أثر كريم في حياته الزوجية كما سنرى ونقرأ إن شاء الله.

ومن الملاحظ أنها كانت أديبة في كلامها، موجزة أشدَّ الإيجاز، ظاهرة العفة والعفاف، نقلت رسالة أبيها في بساطة ووضوح من غير ريبة.

---

(١) أكثر المفسرين أنها الصغرى واسمها صفورا، ولا يتعلق بمعرفة اسمها حكم شرعي.
(٢) زاد المسير (ص ١٠٦١).
(٣) تفسير أبي السعود (٧/ ٩).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠) بشيء من التصرف.

«كانت تحمل دعوة أبيها وقد جاءت موسى تمشي على استحياء مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة، حينما تَلْقى الرجال على استحياء، في غير ما تبذُّل، ولا تبرّج، ولا إغراء. جاءت صفورا لتؤدي إلى موسى دعوة في أقصر لفظ، وكانت أمينة هي الأخرى في أداء ما أمرها به أبوها بأدائه، وفي هذا دليل على فطرتها السليمة، وتربيتها القويمة المستقيمة. كانت أمينة، وكانت قوية لم تضطرب عند لقائها بموسى لثقتها بطهارتها، ولثقتها بعفافها، وقد تحدثت بالقدر المطلوب، فلم تزِدْ ولم تُنْقِص، وبذلك دلَّت على كمال تربيتها، وجمال صلاحها، وأدب طهارتها وعفتها[1].

وفي هذه اللحظات تذكر موسى عليه السلام أن الله تعالى قد أَكْرمه في أمرين اثنين، وعجّلهما له وهما:

أولاً: استجابة الله تعالى لدعاء موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، فوفّق الله له من يضيفه ويسدّ حاجته، بل ويزوجه.

ثانياً: إن أبا الفتاتين الشيخ الصالح لم يتريّث في الإرسال وراءه، فأرسل إحدى ابنتيه، فجاءته وهو لم يزل جالساً مستظلاً في مكانه الذي تركته فيه تحت الشجرة بعد أن سقى لهما.

كما أنّ موسى عليه السلام لم يسقِ للمرأتين غنمهما من أجل الأجر منهما أو من أبيهما، إنه يبتغي الأجر من الذي يجزي الجزاء الأوفى، الله ربّ العالمين.

لم ينظر موسى إلى الفتاة التي دعَتْه، بل إن كلامها الموجز يدلّ على الحياء الفطري الذي لازم شخصيتها، ويدلّ على أدبها وكمال تربيتها، فهي لم تطلبه طلباً مطلقاً، وهي تعلم علم اليقين أدب الدعوات وأدب الضيافة، ولذا فإنها أسندت الدعوة إلى أبيها، ثم إنها علّلت الدعوة بالجزاء، وذلك لئلا يوهم كلامها ريبة، فيشكّ في حالها، وأمرها؛ وفي كلامها الموجز أيضاً إظهارٌ

---

(١) نساء الأنبياء (ص ١٦٨ و١٦٩).

لعفَّتِها[1]، كما أنها بيّنت له الغرض من دعوته مبادرة إليه بالإكرام.

ومما لا شك فيه، بأن هذه الصفات الكريمة الفاضلة التي أسبغها الله على هذه المرأة، هي صفات عظيمة ينبغي أن تتوفر في المرأة بعامة، وهذه المرأة الفاضلة ستكون زوجاً للنبي الكريم موسى، أحد أولي العزم من الرسل، وستكون أماً للذرية التي اختارها الله خليفة له في الأرض، وستكون مبعث الخيرات، وقدوة لكل النساء في العفة والحياء والعمل الذي يرضي الله سبحانه وتعالى[2].

وقد أورد بعض المفسرين والعلماء بأن الفتاة التي جاءت موسى هي صفورا، وهي الصغرى، وهي التي اختارها موسى زوجةً له، لأنه قد عرف أخلاقها باستحيائها[3] وكلامها ومشيتها وصلاحها.

وأجاب موسى عليه السلام دعوةَ الرجلِ الصَّالح أبي الفتاة، وصحب الفتاة إلى بيته، ولكن كيف ذهب معها وهما لا يعرفان بعضهما؟

ذكر أهل التفسير أن موسى عليه السلام قال لها: امشِ خلفي، وانعتي لي الطريق؛[4] أو قال: يا أمةَ اللهِ، كوني ورائي، ودلّيني على الطريق، يميناً أو يساراً[5].

ولما وصل موسى إلى أبيها[6]، ألقى عليه السلام، وأخبره بنسبه، وقصّ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠) بتصرف.

(٢) انظر: نساء الأنبياء (ص ١٦٩ ـ ١٧٠)، باختصار وتصرُّف.

(٣) قال أبو بكر بن طاهر: لتمام إيمانها، وشرف عنصرها، وكريم نسبها أتته على استحياء. وفي الحديث: «الحياء من الإيمان» أي: شعبة منه.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٤).

(٥) تفسير الماوردي (٣/ ٢٢٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٧٩) مع الجمع والتصرُّف.

(٦) ها هنا وقفة مهمة يحسن بنا أن نوضِّحها لنكون على بيّنة من أمرنا في هذا البحث الدقيق، وهي أن معظم المفسرين والعلماء قد أدلوا دلوهم في مسألة مفادها: مَنْ هو أبو المرأتين اللتين سقى موسى لهما؟!
أقول: لقد اختلف المفسرون والعلماء وأهل التاريخ في هذا على ثلاث أقوال شهيرة:
الأول: وهو المشهور عند أكثرهم بأن الأب هو نبي الله شعيب عليه السلام، حيث إن شعيب=

عليه قصته، قال له الشيخ: لا تخف، فلا سلطان لفرعون في أرضنا، وأرضنا تابعة لملك الكنعانيين.

وللزمخشري تعليقٌ لطيف على هذا الموقف فيقول: «فإن قلت: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة، وأن يمشي معها وهي أجنبية؟

قلت: أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرّاً كان أو عبداً، ذكراً كان أو أنثى في الأخبار، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه؛ وأما مماشاته امرأةً أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورُّع.

فإن قلت: كيف صحّ له أخذ الأجر على البر والمعروف؟ قلتُ: يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلىٰ سبيل البر والمعروف؛ وقبل طعام شعيب وإحسانه، لا على سبيل أخذ الأجر، ولكن على سبيل التقبُّل لمعروف مبتدأ، كيف وقد قصَّ عليه قصصه، وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب، ومثله حقيق بأن يضيّف ويكرم خصوصاً في دار نبيٍّ من أنبياء الله، وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقرة والفاقة طلباً للأجر، وقد روي ما يعضد كلا القولين؛ روي أنها لما قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ كره ذلك، ولما قدّم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهباً، ولا نأخذ على

= كان في مدين.

الثاني: قال بعضهم: هو يثرون ابن أخي شعيب.

الثالث: قال آخرون: بل هو مؤمن صالح من قوم نبيِّ الله شعيب عليه السلام.

وهناك من توقّف في هذا الأمر، فلم يجزم بأنه شعيب أو يثرون أو رجل مؤمن، أو رجل آخر. وهذا علمه عند الله تعالى.

وإن الذي تميل إليه النفس في هذه الوقفة هو التوقف، وعدم ترجيح أي قول على آخر، لأن ذلك لم يذكره القرآن الكريم، ولم توضحه سيرة صحيحة، أو يوثقه خبر أكيد، ثم هو لا يفيد في هذا الأمر في ناحية العقيدة أو يضر، المهم إن المرأة كانت ذات أدب وحياء، وأباها شيخ كبير صالح عرف قدر موسى ومكانته فأحسن نزله وزوجه. وفي هذا المجال يقول الطبري في تفسيره سورة القصص: «وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه» والله أعلم بحقيقة الأمر.

المعروف ثمناً، حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينـزل بنا»[1].

ولقي موسى في بيت الرجل الصالح أهلاً وتكريماً، ونزل سهلاً وتعظيماً، فقد وجد في رحاب الشيخ الصَّالح الكريم ما ردّ عليه الراحة والسكينة والأمن والطمأنينة، ووجد برد السعادة في هذا المنـزل الكريم، فهدأت نفسه، واطمأنَّ قلبه، وسكنت جوارحه اطمئناناً وراحة.

وكان موسى عليه السلام صادقاً أميناً، وقوياً فتياً، وكانت هذه الصفات الكريمة مبعث حب وإعجاب من الشيخ وابنتيه، فاتجهت نفوسهم إلى الانتفاع بمزاياه، والإبقاء عليه في منـزلهم فترة طويلة.

فقد كانت صفورا وأختها ليا تجدان المشقة من عملهما وسقاية غنمهما كل يوم، وهذا العمل عمل شاق على النساء، ففيه الانتظار المملُّ عند الماء، وفيه مزاحمة الناس على الماء، وهذا يؤذي هاتين المرأتين اللتين تصبوان إلى من يكفل عنهما هذه المهمة الصعبة.

وقفزت إلى ذهن صفورا فكرةٌ جميلة، حيث عرضت على أبيها أن يستأجر موسى، فهو قويٌّ أمين، يجمع مكارمَ الأخلاق، ولعلّ صفورا أحبّت أن تمكث وتقرّ في بيتها، وتحب أن تكون عفيفة مصونة لا تحتك بالرجال في أعمالهم وفي سقيهم للغنم والماشية، وقد وافقت الآن موسى الذي قد يحقِّق لها ذلك من طهارة الأخلاق، وكمال التربية، وتمام الأدب. وقد غدا الوقت مناسباً لكل ما تصبو إليه، فأبوها شيخ كبير لا يقدر على القيام بأمور الحياة المعيشية، وهي فتاة في ريعان الشباب، وموسى قويٌّ أمين، رأت هذا كله بفراستها وذكائها ومعرفتها ما جرى لها أمس مع موسى.

وتوجَّهت صفورا إلى أبيها وقالت له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. والمعنى: يا أبت إن خير من أردت جعله أجيراً القوي الأمين على العمل المؤتمن فيه[2].

---

(١) تفسير الكشاف (ص ٧٩٨).

(٢) تفسير القاسمي (١٣/ ١٠٢).

وكلام ابنة الرجل الصالح كلام عظيم، فيه مدحٌ وحشمة، قال الزمخشري عن كلام صفورا لأبيها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾: كلام حكيم جامع لا يُزاد عليه، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخَصْلتان ـ أعني الكفاية والأمانة ـ في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك، وتمَّ مرادك، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوّته وأمانته»[1].

وقال المراغي: «قالت واحدة من بناته[2]: استأجر موسى ليرعى عليك ماشيتك، فإن خير من تستأجره للرعي القوي على حفظ الماشية، والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، الأمين: الذي لا تخاف خيانته فيما تأتمنه عليه منها، ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة، لأنه متى اجتمعتْ هاتان الصفتان: الأمانة والكفاية في القائم بأداء أمر من الأمور تكلّل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجاح»[3].

ولما وصفت ابنة الشيخ الصالح موسى بالقوة والأمانة قال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا منه؟

فقالت: أما قوته ففي رفْع الصخرة عن البئر ليسقي لنا غنمنا؛ وأما أمانته ففي طلبه مني أن أسير خلفه، فإذا اختلفت عليه الطريق قال: فارمِ لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه[4].

وقال صاحب تفسير روح البيان: «روي أن شعيباً قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟

فذكرت له ما شاهدت منه من إقلال الحجر عن رأس البئر، ونزع الدلو الكبير، وأنه خفض رأسه عند الدعوة، ولم ينظر إلى وجهها تورُّعاً، حتى بلغته رسالته، وأنه أمرها بالمشي خلفه، فخصت هاتين الخصلتين بالذكر، لأنها

---

(١) تفسير الكشاف (ص ٧٩٨).
(٢) الصواب أن يقال: من ابنتيه.
(٣) تفسير المراغي (٧/ ١٦٤).
(٤) تفسير ابن عطية (٢٨٩١١)، وتفسير ابن كثير (/ ٣٨٥).

كانت تحتاج إليهما من ذلك الوقت؛ أما القوة فلسقي الماء؛ وأما الأمانة فلحفظ البصر، وصيانة النفس عنها كما قال يوسف عليه السلام:

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]»[١].

ولا شك في أن كلام صفورا ﴿ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ هو كلام يجمع الخير كلَّه، لأنه إذا اجتمعت صفتا القوة والأمانة في الرجل، فقد حصل المقصود، فالقوة تساعد موسى على حفظ الماشية، والأمانة تتوج قوّته، فلا يخشى من خيانته فيما يؤتمن عليه ويُوكل إليه أي أمر.

كما أن كلام صفورا نفسها يدلُّ دلالة واضحة على كرم أعراقها، وحسن تربيتها، فأبوها رجل حصيف، لم يستنكر ما أبدته ابنته من رأي في موسى، وفي أن يستأجره، كما أنه يظهر من كلامها بأنها حكيمة عاقلة، فهي لم تضطرب بكلامها أمام والدها، ولم تخشَ من سوءِ الظَّن، فهي نظيفةٌ طاهرة في كلِّ شيء: في كلامها، وفي إحساسها، وفي تربيتها، وفي مشيتها، وفي أمانتها، لذا فإنها لم تضطرب وهي تعرض اقتراحها أمام أبيها.

ولذا فقد اتصل حديث صفورا بقلب أبيها عندما سمعتْه أذناه، ووعاه قلبه، وأدرك أن ابنته ذات فراسة[٢] صادقة صحيحة. ورأى الشيخ الجليل بعين البصيرة بأن هذا الفتى موسى ممن أخلص لله إخلاصاً ظهرت علائمه على جوارحه، ولذلك عرض عليه، بل صارحه برغبة تموجُ في نفسه، إذ أبلغه برغبته في أن يزوجه إحدى ابنتيه، شريطة أن يعاونه بأعباء الحياة لمدة ثمان سنوات أو عشر سنوات، وذكر القرآن هذا فقال على لسان الشيخ الصالح: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ

---

(١) تفسير روح البيان (٦/ ٥٠٨ و٥٠٩).

(٢) تحدث عبد الله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه عن فراسة صفورا فقال:
«أفرس الناس ثلاثة:
ـ صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ ﴾.
ـ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾.
ـ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما» (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦١).

عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

ولقد وجد موسى عليه السلام في طلب شيخ مدين الجليل ما تطلبه نفسُه، فابتسمت له الحياة، وأشرق في قلبه الأمل، وكان عند حسن ظن الشيخ الجليل[1]، الذي عرض على موسى أن يزوِّجه ابنته صفورا، فعاش موسى في كنف هذه الأسرة المباركة عشرة أعوام، كان خلالها أميناً قوياً مخلصاً، راضياً بما تمَّ عليه الاتفاق مع الشيخ الجليل المبارك الذي عرض عليه ابنته ليتزوَّجها[2]، وذلك ما ذكره القرآن الكريم: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ

---

(١) أود أن أذَكِّر مرة أخرى بأمر شيخ مدين، إذ ذكره كثيرون بأنه شعيب، بينما رأى آخرون تفويض الأمر في هذا الشيخ إلى الله تعالى، فهو أعلم به.
وأود هنا أن أسوق رأي الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» حيث رأى أن تفويض الأمر إلى الله هو الأصوب فقال:
«ولقد راودتُ نفسي على أن أقول: إن الشيخ الكبير هو شعيب النبي عليه الصلاة والسلام، فتمثَّل لي شيخ المعرة ـ أبو العلاء المعري ـ وهو يقول:
لا تظلموا الموتى وإنْ طالَ المدى ... إنـي أخـافُ عليكـمُ أنْ تلتقـوا
وخشيت أن يلقاني شعيب عليه السلام في عرصات القيامة، فيلببني إلى الله ويقول: أي ربِّ؛ سَلْ عبدكَ هذا لِمَ جعلني صاحب موسى الذي استأجره، ولم أكن صاحبه، ولا وُجدتُ في زمنه؟! وليس بيدي حينئذ حجة ولا برهان، ووجدت الجزم بأن الشيخ الكبير هو شعيب قول مني على الله بما لا أعلم، وهو منهيٌّ عنه بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. لذلك كله آثرت تفويض العلم باسم الشيخ الكبير إلى الله تعالى، إذ من المحتمل أن يكون هو شعيب عليه الصلاة والسلام، ومن المحتمل أيضاً أن يكون ابن أخيه، أو أن يكون رجلاً صالحاً من أهل مدين، كل ذلك محتمل والله أعلم».

(٢) نستفيد من قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ جواز أن يعرض الرجل ابنته أو أخته على الرجل الصالح ليتزوَّجها، ولا غضاضة في ذلك، فعله الرجل الصالح مع موسى عليه السلام، وفعله كذلك العلماء والصالحون من أمة محمد ﷺ، مما يدلّ على أنّ هذا الأمر سنّة قديمة، وهو سنة قائمة في الشريعة الإسلامية. وهذا الأمر لا شيء فيه، ولا غبار عليه، بل هو أمر مستحبٌّ ومقرر في السنّة النبوية المطهرة، فإنه متى ما رأى الولي رجلاً صالحاً لأن يكون زوجاً لابنته، فله أن يخبره، ويطلب منه الزواج، ولا يُلام على هذا ولا يُلتفت إلى بعض العادات التي تخالف الشرع في هذا المجال.
فقد جاء عند الإمام البخاري في صحيحه بابٌ في كتاب النكاح عنوانه: «باب عرض الإنسان=

﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨].

وهنا وفي هذا الموقف الكريم ظهر موسى عليه السلام ليمثِّل الأمانة والوفاء عملياً، وأشهد الله تعالى على ما يقول أمام الشيخ الصالح، وما يقوله الشيخ الصالح أيضاً، وأراد موسى عليه السلام من إشهاده الله تعالى: «أنه إذا أخلَّ أحدهما بشيء، فإن الله مؤاخذه بتفريطه، ولا سبيل لأحدهما إلى الخروج عن شيء من ذلك»[١].

وأفاض القرطبي التعليق الجميل على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فقال: «قيل: هو من قول موسى؛ وقيل: هو من قول والد المرأة. فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله، ولم يُشْهِدا أحداً من الخلق»[٢].

وقال صاحب تفسير (روح البيان) ما مفادُه وملخصه: «قال موسى ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيني وبينك جميعاً، لا أنا أخرج عما شرطت عليّ، ولا أنت تخرج عما شرطتَ على نفسك، أيما الأجلين قضيت، أكثرهما أو أقصرهما وفيتك بأداء الخدمة فيه، ولا تعدي ولا تجاوز بطلب الزيادة، فكما لا أطالب بالزيادة على العشر، لا أطالب بالزيادة على الثماني، أو أيما الأجلين قضيت فلا إثم عليّ والله على ما نقول شهيد وحفيظ، ولا سبيل لأحد منا إلى الخروج عنه أصلاً. فجمع شعيب المؤمنين من أهل

= ابنته أو أخته على أهل الخير»؛ وذكر من خلاله قصة أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكيف عرضها عمر على عثمان بن عفان، ولمَّا لم يبدِ رغبةً في نكاحها، عرضها على أبي بكر، فصمت أبو بكر، فمكث ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها.
وأفرد البخاري أيضاً باباً عنوانه: عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، وذلك فيه أيضاً: أن امرأة عرضت نفسها على النبي ﷺ، فقال له رجل: يا رسول الله؛ زوجنيها... الحديث ... إذن، فهذا مقرَّر في الشرع وله محاسن جمة تعود بالفائدة على المجتمع.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٦٦ ـ ٦٧) بشيء من التصرف.
(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥).

مدين وزوجه ابنته صفوريا، ودخل موسى البيت، وأقام يرعى غنم شعيب عشر سنين»[1].

وقضى موسى عليه السلام الأجل المضروب بينه وبين الشيخ الكبير، وهو عشرة أعوام كوامل، كما يذهبُ إليه كثيرٌ من المفسرين. وقد أكَّدت المصادر التي وصلت إلينا أن موسى عليه السلام قضى أطولَ الأجلين، فقد جاء في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: «سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله؛ فقدمت فسألت ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إن رسول الله إذا قال فعل»[2].

وذكر السُّيوطي نقلاً عن الخطيب البغدادي في تاريخه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا سُئِلْتَ: أي الأجلين قضى موسى؟ فقُلْ: خيرهما وأبرهما، وإذا سُئِلتَ: أي المرأتين تزوّج؟ فقل:

---

(١) انظر: روح البيان (٦/ ٥١١) باختصار وانتقاء وتصرُّف. وذكر البروسوي قصة عصا موسى فقال: «روي أنه لمّا أتمّ العقد قال شعيب لموسى: ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي، وكانت عنده عصي الأنبياء، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب فمسّها، وكان مكفوفاً، فلم يرضها له خوفاً من أن لا يكون لها أهلاً وقال: غيّرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلم أن لموسى شأناً، وحين خرج للرعي قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق، فلا تأخذ عن يمينك، فإن الكلأ وإن كان بها أكثر، إلا أن فيها تنيناً أخشى منه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدر على كفّها، ومشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم يرَ مثله؛ فنام؛ فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته، وعادت إلى جنب موسى دامية، فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً سُرّ، ولما رجع إلى شعيب أخبره بالشأن، ففرح شعيب وعلم أن لموسى والعصا شأناً وقال: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء، والدرع بياض في صدور الشاء ونحورها، وسواد في الفخذ. فأوحى الله إليه في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي هو في مستقى الأغنام، ففعل ثم سقى، فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وامرأته، فوفى له بالشرط، وسلم إليه الأغنام» (روح البيان ٦/ ٥١١). وفي النفس شيء من هذه القصة.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات برقم (٢٦٨٤).

الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ فقال: ما رأيتِ من قوته؟

قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه في البئر.

قال: وما الذي رأيتِ من أمانته؟

قالت: قال لي: امشي خلفي، ولا تمشي أمامي»(١).

وفي تفسيره الكبير أورد الفخرُ الرازي أن موسى قضى أوفى الأجلين فقال: (اعلم أنه رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «تزوّج صغراهما وقضى أوفاهما» أي: قضى أوفى الأجلين. وقال مجاهد: قضى الأجل عشر سنين)(٢).

وسئل رسول الله ﷺ: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: «أبعدهما وأبطأهما»(٣). ورُوي أنه قال: «قضى أوفاهما وتزوَّج صغراهما»(٤).

وتم الزواج المبارك من الفتاة الحصيفة صفورا، وغدت سيدة المنزل الموسوي المبارك، وغدت حياتها الزوجية مرتبطة بهذا الفتى الميمون الأمين الوفي، فكانت خير زوجة.

وخلال تلك الفترة التي تساوي عقداً من الزمن، كان موسى يقوم بشؤون البيت، وأعمال الشَّيخ الجليل، كما أنه صُنع أيامها على عين الله تعالى، لأنه سيكون النبيَّ الكليم، وخلال ذلك كانت عناية الله تحرسه؛ ولله درُّ القاضي الفاضل حيث يقول:

وإذا السّعادةُ لاحظَتْك عيونُها ... نَمْ فالمخاوفُ كلّهنّ أمانُ

---

(١) الدر المنثور (٦/ ٤١٠)، وانظر: الإتقان (٢/ ١٢٦٧)، وتفسيري الخازن والبغوي (٥/ ١٧١)، انظر: المستدرك (٢/ ٤٠٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٠٨)؛ وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦١)، وتفسير الماوردي (٣/ ٢٢٧)، وتاريخ الطبري (١/ ٢٣٨).

(٣) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري (ص ٧٩٩)؛ والحديث أخرجه أبو داود برقم (٤٨٣٦)، وابن ماجه برقم (٢٢٨٧).

(٤) تفسير الكشاف (ص ٨٠٠)؛ والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٧)، وانظر فتح القدير للشوكاني (ص ١١٠٠ و ١١٠١) وقد استوفى جميع الروايات السابقة.

اصطَـدْ بهـا العنقـاءَ فهـيَ حبـائـلٌ   واقْتَـدْ بهـا الجـوزاء فهـي عِنـانُ[1]

ولما قضى موسى الأجل، تحرَّكت جوانحه إلى وطنه الذي وُلِد فوق أرضه، واستيقظ في قلبه الكبير الصافي الحنين إلى مصر، وإلى أمه المؤمنة التي ربط الله على قلبها مرة أخرى عندما فارقها ابنها موسى مهاجراً إلى مدين؛ اشتاق موسى إلى وطنه، وما أجمل أن نتذكر هذه الأبيات الجميلة لابن الرومي، والتي يتحدث من خلالها عن حبه لوطنه فيقول من قصيدة:

ولـي وطـنٌ آليـتُ ألا أبيعَـهُ   وألاّ أرى غيـري لـه الـدّهـرَ مـالِكـا
عهـدتُ بـه شَـرْخَ الشَّبـابِ ونعمـةً   كنعمـةِ قـومٍ أصبحـوا فـي ظـلالكـا
فقـد أَلِفَتْـهُ النّفـسُ حتـى كـأنـه   لهـا جَسَـدٌ إنْ بـانَ غُـودِرْتُ هـالكـا
وحبّـبَ أوطـانَ الـرجـالِ إليهـم   مـآربُ قضّـاهـا الشبـابُ هُنـالكـا
إذا ذكـروا أوطـانَهـم ذكّـرتـه   عهودَ الصّبا فيها فحنّوا لذلكا[2]

اشتاق موسى إلى أمِّه وأخته التي قصّت خبره وهو في اليمِّ، وأرشدت آل فرعون إلى من يكفله، وينصح له، ويرعاه، اشتاق إلى أخيه هارون النقي التقي، وربما شعر بالحنين إلى امرأةِ فرعون الصالحة التي أحبَّتْه وقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ﴾.

ومن المتوقَّع أن يفضي موسى لزوجه صفورا ما يعتلجُ في نفسه، ولعله قال لها: يا بنة الرجل الصالح الوفيّ، لقد شعرت بالحنين إلى موطني، وإلى أحبّتي هناك، وفي مقدمتهم: أمي، وأختي، وأخي هارون... فاستعدّي لكي نسافر إلى مصر، وجهّزي أمورك وما تحتاجين إليه في الطريق، فإنّي عازم على الرحيل، فقد أديت الأجل ووفيت مع أبيك.

وفي سكون العابدات وأدب الخَفِرات، راحت السيدة صفورا تعدُّ العدَّة للسفر، فقد كانت هذه السيدة من أكمل نساء عصرها ديناً ووفاء وحياء، ولما حزمت متاعها، وما يحتاج إليه السفر من أدوات وأمور وطعام وماء؛ ولما

(١) انظر النجوم الزاهرة (٦/ ١٥٧).
(٢) ديوان ابن الرومي (٣/ ١٤)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٤م.

اكتملت أمورُها، أبلغت زوجها موسى، بأنها مستعدة للرحيل مع ولَدَيْها، وخرجت الأسرة الموسوية المؤلفة من موسى وصفورا وولديهما، خرجت هذه الأسرة المباركة من مدين بعد أن ودعت شيخها الجليل وابنته ليا، وقد راح الشيخ الصالح يدعو الله لابنته وصهره وحفيدَيْه.

سار موسى بأهله[1] متوكلاً على الله تعالى، ولما ابتعد عن مدين، يمَّم وجهته نحو سيناء ليصلَ مصر، بيد أنه أخطأ الطريق، فأخذ يسير نحو جانب الطور الأيمن في ليلة ممطرةٍ باردةٍ، ورياح شديدة، ويظهر أن النجوم قد تلاشت أنوارها خلف السحب الداكنة، وقد اشتدَّ البرق، وراحت السماء تقصف بالرعد، وتمنحُ الأرض مطراً غزيراً، وفي هذه الأثناء توقفت الأسرة عن السَّيْر، ونزل موسى ونصب خيمته، وآوى بداخلها زوجه وولديه، ومن ثم وقف أمام الخيمة ينظر لعله يجد ناراً، أو جذوة من قبس، يخفف بها ما داهمهم من البرد القارس، والظلام الدامس.

وفي هاتيك الليلة المباركة، نظر موسى فآنس ناراً من جانب الطور الأيمن، شعر بالارتياح والطُّمأنينة، التفت إلى زوجته صفورا وأولاده وقال: امكثوا قليلاً، إنـي آنستُ ناراً، وسأذهب نحوها لعلي آتيكم منها بخبر، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، أو لعليَّ أجد أحداً أسأله عن الطريق التي توصلنا إلى مصر، وعن هذه اللحظات الدقيقة يحدثنا الله تعالى في القرآن الكريم فيقول: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[2] [النمل: ٧].

---

(١) قال الماوردي وغيره من أهل التفسير وأهل العلم: أهله: زوجته صفورا.
قال القرطبي: «﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ قيل: فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما له عليها من فضل القوامية، وزيادة الدرجة إلا أنه يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج» (تفسير القرطبي ١٣/ ١٨٦).

(٢) معنى آنست: أي أبصرت إبصاراً لي به أُنْسٌ. ومعنى بخبر: أي عن الطريق وحاله. بشهاب: أي بشعلة من نار. قَبَس: أي قطعة من النار مقبوسة ومأخوذة من أصلها. تصطلون: أي تستدفئون بها، قال الشاعر:

النـارُ فـاكهـة الشتـاء فمـن يُـرِدْ   أكـل الفـواكـهِ شـاتيـاً فليصطـلِ

والمعنى: قال موسى لأهله وقد سار بهم فَضَلّ الطريق في ليلٍ دامسٍ وظلام حالك، فرأى ناراً تأجج وتضطرب: «إني أبصرت ناراً سآتيكم منها إما بخبر عن الطريق، أو آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها».

وكان كما قال: فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس نوراً جليلاً.

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر، ولم يكن معه سوى امرأته، وكانا يسيران ليلاً، فاشتبه عليهما الطريق؛ والبردُ شديدٌ. وفي مثل هذه الحال يستبشر الناس بمشاهدة النار من بُعْدٍ لما يرجى فيها من زوال الحيرة، وأمن الطريق، ومن الانتفاع بها للاصطلاء، ومن ثم قال موسى لها هذه المقالة[1].

وفسّر الزمخشري كلمة ﴿لِأَهْلِهِ﴾ امرأته، فقال: «وروي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته، وقد كنى الله عنها بالأهل»[2].

وقال أبو زكريا الفراء: «آنست ناراً: وجدت ناراً، والعرب تقول: اخرج فاستأنس هل ترى شيئاً، ومن أمثال العرب: بعد اطلاع إيناس»[3].

«انطلق موسى مسرعاً في الوادي المقدس يتوكأ على عصاه باتجاه النار التي تراءت له عن بُعد، كان الماء قد بلّل جسمه، وظلّ يسير في وادي طوى، بعد دقائق لاحظ شيئاً غريباً في هذا الوادي، لم يكن هناك رعدٌ ولا برقٌ ولا رياح، كان الكون قد لفّه خشوع عجيب، وسكون مفعم بالتسبيح، وصمتٌ عظيم ساكن خاشع. أحس موسى بشيء ما يحرِّك نفسه، لكنه لم يعرف ماهية هذا الشيء؛ اقترب من النار، ولم يكد يقترب منها حتى نودي من ربّ العزة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨]»[4].

لم يكدْ موسى يسمع هذا الكلام حتى تملكه الخوف، ولم يستطع تحديد جهة الصوت، ثم إنه دنا من النار ليقتبسَ منها، ولكن رأى المكان هادئاً

---

(١) انظر: تفسير المراغي (٧/ ١٠١).
(٢) تفسير الكشاف (ص ٧٧٥).
(٣) معاني القرآن (٢/ ١٧٤).
(٤) نساء الأنبياء (ص ١٨٠).

خاشعاً، يتّسِم بالرهبة والنور، وإذا به يسمع الله تعالى يقول: ﴿. . . يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١١ ـ ١٢]. ولم يملك موسى نفسه من الدهشة، فإذا بالنداء الرباني يُدخل الهدوء والطمأنينة إلى قلبه، سمع النداء يقول: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٣ - ١٦].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي ما مفاده في تفسير هذه الآيات الكريمة: «وأنا اخترتك؛ أي تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنّة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر، ما يليق بها، ولهذا قال: ألْقِ سمعك للذي أوحى إليك فإنه حقيقٌ بذلك، لأنه أصل الدِّين وعماد الدعوة الإسلامية، ثم بيّنَ الذي يوحيه إليه بقوله: إنني أنا الله لا إلٰه إلا أنا، الله المستحقُّ للألوهية، المُتَّصفُ بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له، ولا مثيل، ولا كفو، ولا سميّ. فاعبدني بجميع أنواع العبادة؛ ظاهرها وباطنها، وخص الصلاة بالذكر، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب، واللسان، والجوارح»[1].

كان موسى عليه السلام يسمع كلام الله العليَ الكبير المتعال، وكانت الدنيا من حوله ساكنة، وعندها أَنِسَتْ نفسُه بنداء ربه، وذابت روحه فيما كان، إنه الآن في الحضرة الإلٰهية مستغرقٌ في مناجاة ربه الإلٰه الواحد، غاب في هذه الحال النورانية عن أهله وولده، وها هو النداء الرباني يسأله: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]؛ والسؤال هنا هو سؤال تقرير؛ والحكمة في هذا السؤال الكريم: تنبيه موسى عليه السلام وتوقيفه على أنها عصا، حتى إذا قلبها حيّة علم أنها معجزة عظيمة، هذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره: هل تعرف هذا وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد أن ينضمَّ إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٥٢) باختصار وتصرف.

قال ابن الجوزي: «لما اطَّلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم، أراد أن يؤانسه ويخفف عنه ثِقَل ما كان فيه من الخوف، فأجرى هذا الكلام للاستئناس»[١].

وقال الزمخشري: «إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عزّ وعلا في الخشبة اليابسة من قَلْبِها حية نضناضة، وليقرّر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة. ونظيره: أنْ يُريك الزّرّاد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجب الصنعة وأنيق السرد»[٢].

وأجاب موسى ربّه بعد هذا السؤال المؤنس الموقظ، معدداً لما للعصا من فوائد ومزايا بحسب ما وصلت إليه معرفة البشر: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨].

وهنا بيّنَ موسى للعصا فائدتين على سبيل التفصيل، وواحدة على سبيل الإجمال فقال: أعتمدُ عليها إذا مشيت، أو تعبتُ، أو وقفت على رأس القطيع من الغنم، وأخبط ورقَ الشجر بها، ليسقط على غنمي فتأكله؛ ولي فيها مصالحُ ومنافع أخرى غير ذلك، كحمل الزاد، والسقي، وطرد السباع عن الغنم، وإذا شئت ألقيتها على عاتقي، فعلقت بها قوسي وكنانتي ومخلاتي وثوبي، وإذا وردتُ ماءً قصر عنه الحبل وصلته بها..[٣].

ولا شك في أن العصا لها منافعها الكثيرة، وفوائدها العميمة، وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما بعضاً من منافعها فقال: «إذا انتهيت إلى رأس البئر فقصر الرشأ ـ الحبل ـ وصلته بالعصا؛ وإذا أصابني حرّ الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلّني، وإذا خفت شيئاً من هوامّ الأرض قتلته بها، وإذا مشيت

---

(١) زاد المسير (ص ٩٠٢).

(٢) تفسير الكشاف (ص ٦٥٣).

(٣) تفسير المراغي (٦/ ٨٦) بتصرف يسير جداً.

ألقيتها على عاتقي، وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة، وأقاتل بها السباع عن الغنم».

ويروي أهل الأخبار والأسمار: «أن الحجاج بن يوسف الثقفي لقي أعرابياً، فقال: من أين أقبلتَ يا أعرابي؟

قال: من البادية.

قال: وما في يدك؟

قال: عصاي أركِّزها لصلاتي، وأعدها لعداتي، وأسوق بها دابَّتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي، وأثِبُ النهر، وتؤمنني من العثر، وألقي عليها كسائي فيقيني الحر، ويدفئني من القرّ، وتدني إليّ ما بعد عني، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقر الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وأورثها من بعدي ابني، وأهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى كثيرة لا تحصى».

وقد يكون نبي الله موسى عليه السلام قد قصد كل تلك المنافع العظيمة، ولكن الله تعالى أراد أن يبيّن له من منافع عصاه ما لا يتسنى لأحد سواه فقال له: ﴿ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٩]. وألقى موسى عصاه، فإذا بها قد أضحت ثعباناً عظيماً، وعندها امتلأت نفسه بالخوف، وولى مدبراً ولم يعقب، فسمع نداء العليِّ الكبير: ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠]، وبهذا النداء وجبت نبوته، وثبتت رسالته، واطمأنت نفسه لنداء الله تعالى، وعلم أن عصاه ليست ثعباناً ولا جاناً، وإنما هي معجزة أراد الله بها الرمز والإشارة لما سيكون لموسى مع فرعون بعد ذلك.

ثم توَجَّه ربّه بمعجزة أخرى يزداد بها يقيناً واطمئناناً بأن الله تعالى قد اختاره نبياً ورسولاً، فقال له: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢]. وضع موسى يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي تتلألأ وصارت بيضاء من غير سوء، وضمّ يديه إلى صدره، ووضعهما على قلبه فسكن ما به من خوف واضطراب، وعادت إليه نفسه.

وبعد ذلك سمع نداء العليِّ الكبير: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]. وعرف موسى أنه قد أُمِرَ بالرسالة من الله الأحد، وأن عليه أن يبلغ ما أمره به، فقد اصطفاه الله لنفسه، وسيتمّ أمر الله تعالى.

وفي هذه الأثناء كانت السيدة صفورا في مكانها تنتظر عودة زوجها موسى الذي ذهب ليأتي بالنار، أو بالخبر، فكان كما قال ابن كثير: «وقد أتاهم منها بخبرٍ وأي خبر، ووجد عندها هدى وأي هدى، واقتبس منها نوراً وأي نور؟!»[1].

«ولا ندري ما الوقت الذي استغرقه موسى في مناجاته، ولا ندري ما دارَ بذهن صفورا، كل ما نتوقّعه أن الله سبحانه وتعالى قد ربط على قلبها، ولم تساورها المخاوف إلى أن عاد زوجها موسى، وزفّ إليها بشارة النبوة والرسالة، ثم انحدر بها إلى مصر»[2].

وفي مصر عاشت صفورا حياتها الزوجية مع موسى، وكانت خير زوجة، وخير أمٍّ، وخير معوان لنبيِّ الله موسى على أداء مهمته الربانية، تبعث في نفسه الثبات والمضي في أمر الله. ولعلها كانت تقرأ ما يتنـزَّل عليه من التوراة ومن الصُّحف، وتعمل على ما يرضي الله تعالى، ويرضي رسوله موسى عليه السلام.

وهذا ما توصلنا إليه في البحث عن حياة السيدة صفورا زوج موسى عليه السلام، ونرجو أن تكون سيرتُها قدوةً للنساء في جميع العصور.

* * *

(١) قصص الأنبياء (ص ٣٢٣).
(٢) نساء الأنبياء (ص ١٨٢).

الفصل الخامس

حياةُ أيوب الزوجية

لئن كان أنبياءُ الله جمعياً قد عُرفوا بالصبر، إلا أن نبيَّ الله أيوب عليه السلام كان من أصبرهم، وقد اشتهر بالصبر، حتى ضُرب به المثل في الصبر، حيث تُروى قصته ليرتوي من خلالها المصابون في أنفسهم، وفي أهليهم، وفي أموالهم.

وفي ثنايا القرآن الحكيم وقفات ندية، وشهادات إلٰهية تثني على هذا النبي الصابر، ومنها قول الله تعالى: ﴿. . . إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: ٤٤].

ومن المؤكد أن أنبياءَ الله الأخيار، ورسله المصطفون الأطهار، وصفوته الأبرار، يعيشون معظم حياتهم في ظلالِ الصبر الجميل، وبين أفيائه الوارفة، لا تمسّهم البأساء، ولا يلفحهم هجيرُ الضراء، ولا تؤذيهم متاعب الحياة، ولا ترهقهم آلامها، بل يستوي لديهم ليلُ الحياة ونهارُها، وسراؤها وضراؤها، وغناها وفقرها، لأن أنوار الإيمان يجعلُ ليل الحياة نهاراً، وبشاشة الإيمان تحيل الضّرّاء إلى سرّاء، والقناعة التي يغرسها الإيمان في النفوس، تسوِّي بين الغنى والفقر، إذ ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس.

وإذا كان الصبرُ الجميل روحَ وريحان حياة المؤمنين فإنه ألزم ما ينبغي أن يكون في ساعات المحن التي يبتلي الله تعالى عباده بها، وها هنا يكون الصبر مفروضاً على هؤلاء المبتلين، وذلك حتى تنقلب المحنة في حقهم إلى منحة ربانية، وتتحول البلية إلى عطية؛ وما أجمل ما قاله ابن قيم الجوزية عن الابتلاء والصبر في كتابه القيم (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب): «إن الله سبحانه

وتعالى لم يَبْتلهِ ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحنَ صبرَه، وعبوديته».

وهكذا عاش نبيُّ الله أيوب عليه السلام في أفياء الصبر، وهو يشعر بالسعادة الروحية والنفسية، هذه السعادة التي جعلت من ألمهِ أملاً، وبدلت خوفَه أمناً، وحوَّلت المتاعب والآلام إلى راحة وطمأنينة.

ومن الواضح أن اسم نبي الله أيوب عليه السلام يقترن دائماً بالصبر، حيث إنه كان من أشد الأنبياء بلاء، وكان ابتلاؤه بالنعمة والغنى، لا يقل عن ابتلائه بالمصاعب والكوارث، والفقر والجوع.

ومن الطريفِ والـمُعجب أن زوجته قد عاشت معه كل أيامه صابرة ذاكرة مؤمنة موحّدة. وأورد أهل التفسير، والأخبار، والتاريخ أن اسم هذه الزوجة الصابرة هو: ليا بنت يعقوب(١).

وقال آخرون: إن اسمها: ليا بنت منسا بن يعقوب.

وذهب آخرون إلى أن اسمها: رحمة بنت أفراثيم، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وعلّق ابن كثير على هذه الآية بقوله: «ومَنْ فهمَ مِنْ هذا اسم امرأته فقال: هي (رحمة) من هذه الآية فقد أبعد النَّجْعة، وأغرق النـزع»(٢).

إن الاختلاف والخلاف في تحديد اسم هذه المرأة الصالحة لا يزيد من قيمة بحثنا، ولا ينقص، وإنما ذكرنا بعض هذه الآراء التي استخرناها ونحن نبحر في عباب المصادر، وأمّات الكتب، والتفاسير؛ ولكن الذي يهمنا تماماً، هو تلكم الحياة الزوجية العظيمة التي كانت هذه المرأة ركنها الحصين، ثم إننا نسرد

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (١/١٢٨)، وتاريخ الطبري (١/٣٢٢)، والروضة الفيحاء (ص ٦٧-٧١)، والبداية والنهاية (١/٢٢١)، وترويح أولي الدماثة (٢/١٠٩)، والتعريف والإعلام (ص ٢٨٠)، والمنتظم لابن الجوزي (١/٣٢١)، وتفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٢/٤٣٥)، وتفسير القرطبي (١٥/١٣٦)، وغيرها كثير.

(٢) قصص الأنبياء (ص ٢٨٥).

جوانب من سيرتها هنا لتقف نساؤنا وبناتنا اليوم على فضائلها وصبرها وحسن عشرتها لزوجها، فلعلهن يقتدين بها، وينهجن نهجَها، ويعملن بعملها، وخصوصاً إذا أصيب الزوج بضائقة مالية، أو مصيبة ما، فقد لاحظنا أن بعض النسوة يتأفَّفن من هذه الحياة بعد أن كنّ يرفلن في حلل النعم، فهذه الزوجة الصالحة نموذج جليل لجميع النساء في دنيا الحياة الزوجية، كما سنرى في الفقرات التاليات.

كانت ليا زوجة نبي الله أيوب واحدة من نساء الدنيا فضلاً وكرماً وصبراً، آمنت بدعوة أيوب وصدَّقته في حين لم يستجبْ له أحدٌ سوى ثلاثة من الناس[١].

ومن الجدير بالذكر أن نبي الله أيوب عليه السلام هو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣].

وأيوب أيضاً من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، فهو إذن من الذرية الإبراهيمية المباركة التي نصّ عليها القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤] فالضمير هنا ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام[٢].

كان أيوب عليه السلام قد اصطفاه الله بالنبوة، وأتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع الأموال والأولاد، وكان شاكراً لأنْعُمِ الله، مواسياً لعباد الله برّاً رحيماً، ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر[٣].

أما عن مكان وبلد أيوب، فقد أوْرَد الفيروزآبادي نبذةً بسيطة عن ذلك فقال: «وكان أيوب ببلاد حَوْران من الشام، وقبره فيها بقرب نَوَى، عليه مَشْهد

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ١٣٦) بشيء من التصرف، وانظر: تفسير البغوي (ص ٨٤٥).
(٢) قصص الأنبياء (ص ٢٨٠) بتصرف يسير، وانظر: تفسير البغوي (ص ٨٤٤).
(٣) انظر هذا في تفسير القرطبي (١٥/ ١٣٥ ـ ١٣٦) بتصرف يسير.

ومسجد وقريةٌ موقوفةٌ على مصالحه، وعين جارية فيها قَدَمٌ في حَجَرٍ يقولون إنها أثَرُ قَدمِهِ، والناس يغتسلون من العَيْن، ويشربون متبركين، ويقولون: إنها المذكورة في القرآن، وهناك صخرة عليها مشهد، يقولون إنه كان يستند إليها»(١).

أما الحافظ ابن عساكر فيحدثنا عن المدينة التي كان يسكنها أيوب وزوجته، ويحدد اسمها وناحيتها فيذكر ما مفاده «بأن أيوب عليه السلام كان يسكن بالشّام، وديره معروف بناحية بلد تدعى البَثَنِيّة(٢) من نواحي دمشق، بقرب نَوَى من أرض حَوْران، وموضع مسجده، ومُغْتَسله، وأندرته(٣)، بتلك القرية معروف»(٤).

وفي (مروجه) قال المسعودي: «وهو المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة نوى، أو نحو ذلك، والحجر الذي كان يأوي إليه في حال بلائه هو وزوجته في ذلك المسجد إلى هذا الوقت»(٥).

وأما الحديث عن ليا زوج النبيِّ أيوب ودورها في الحياة الزوجية؛ فهو ممّا يُطْرِبُ النفوس ويهذبها، ويضفي عليها سِمَة الجلال والإعجاب، بهذه المرأة الصابرة التي ضربت مثلاً شروداً للنساء في مضمار الفضائل، وفي كلِّ مجالات المكارم التي تشد من عضد الحياة الزوجية في سرائها وضرائها، وشدتها ورخائها.

تشير المصادر المتنوعة وفي مقدمتها كتب التفسير إلى قصة الحياة الزوجية

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٦/ ٦٠).

(٢) قال ياقوت الحموي: «البثنية والبثنة: اسم ناحية من نواحي دمشق، وكان النبي أيوب عليه السلام منها» (معجم البلدان ١/ ٣٣٨).

(٣) أندرته: الأندرة؛ جمع أندر، وهو البيدر.

(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٠٥) بشيء من التصرف؛ وانظر تفسير البغوي (ص ١٤٤).

(٥) مروج الذهب للمسعودي (١/ ٤٨). وذكر علماء التفسير والتاريخ وغيرهم «أن أيوب كان رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشي، والأراضي المتسعة بأرض البثنية من حوران، وحكى ابن عساكر: أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير» (قصص الأنبياء ص ٢٨١).

الموفقة للسيدة الجليلة ليا بنت يعقوب امرأة نبي الله أيوب، وتُجمّل سيرتها في صورٍ جميلة عنوانها التضحية والصبر، وتذكر حياتها العظيمة مع زوجها حينما تخلّى عنه القريب والبعيد سواها، فقد حفظت ودّه وعشرته لإيمانها بالله وبرسوله، فلازمته ملازمة الظلّ، ولم تفارقه قِيْدَ أنملة، وقامت على خدمته بلا ضجر ولا ملل مدة ابتلائه والتي امتدَّتْ إلى ثماني عشرة سنة؛[1] وهي مدة طويلة وفترة مضنية لا تقدر على الثبات أمامها إلا الصابرات اللواتي أفرغ الله على قلوبهن جميل الصبر، وحسن التسليم، وجلال الرضا، وكمال العبادة والخضوع لله تعالى.

فقد ورد أن نبيَّ الله أيوب عليه السلام كان ذا مالٍ وافر، وثروة عظيمة، أكرمه الله من فيض إنعامه من سائر أنواع النعم، ومنها: بلدة كاملة تدعى البَثَنية وكانت ذات مساحة واسعة، وأرض خيّرة خصبة، ويضاف إلى هذا أن حظائره تحفل بعدد كبير من الخيول الأصيلة التي تُعجب الناس، وتستهوي قلوبهم، إذ بطونُها كَنْزٌ، وظهورُها حِرْزٌ، كما كان عنده قطعان من الأنعام: من البقر، والغنم، وسائر الماشية، وأورد أهل التواريخ أنه كان لنبيِّ الله أيوب ألفُ شاة برعاتها، مع عدد لا يُحصى من العبيد والخدم الذين يرعون مصالحه وشؤونه، ويديرون أعماله، ويخدمون ما يحتاج إليه من أمور متنوعة.

ومع هذا الغنى والثراء الواسع والخير الممدود كان نبيُّ الله أيوب شاكراً لأنعم الله، رحيماً بالمساكين، عطوفاً بأهل الحاجات، كافلاً للأرامل والأيتام، وكان يكرم الضيوف، ويبلّغ أبناء السبيل، ويعمل الخيرات.

وقد أكرم الله تعالى عبده أيوب بزوجة ذات خِصال كريمة، وكذلك أكرمه بعددٍ من الأولاد والأهلين؛ فأما زوجه ليا، فكانت تدرك بعين بصيرتها بأن زوجها نبيٌّ كريم، أعطاه الله ما يشاء من النعيم، فكانت غارقة في أداء العبادة، شاكرة لهذه النعم الغزيرة تحتاج إلى مواصلة الشكر والذكر، كانت أمّاً لعدد من البنين والبنات، وكانت تربيهم وفق محاسن الفضائل، وتؤدي إلى كل ذي حَقٍّ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٩٣) بتصرف يسير.

حقَّه ممن حولها من الأهل والأولاد، ومَنْ يلوذ بها وبزوجها، وكانت تحرص في كل ما تقوم به على مرضاةِ الله تعالى الذي فضّلها وزوجها على كثيرٍ من العباد في تلك البلاد.

غير أن الحال التي عاشتها ليا في ألوان النعيم قد انقلبت، إذ أصيب زوجها نبيُّ الله أيوب في محنة قاربت عقْدَين من الزمن، وكانت سنواتُها سنواتٍ عجافاً، ولكنها برهنت بأنها امرأة صُنعت على عين النبوة التي ترعاها عين الله، فكانت خلال هذه السنوات مثالاً كريماً للمرأة البارَّة، والزوجة الوفيَّة الصابرة الراضية بقضاء العليم الخبير.

واكتسبت السيدةُ الفاضلةُ ليا من زوجها نبيِّ الله أيوب مكارم الأخلاق، وعملت بها، فقد ذكروا أن أيوب عليه السلام كان لا يشبع حتى يُطعمَ الجائعين، ولا يكتسي حتى يكسُوَ العارين، وكان أعبدَ أهل زمانه، وأكثرهم صلاحاً.

وذكر ابن عساكر بأن شريعة أيوب بعد التوحيد كانت إصلاحَ ذات البين، وإذا طلب حاجة إلى الله تعالى خرّ ساجداً، ثم طلب ما يريد[1].

وتحدث ابن كثير بأن الله قد منح أيوب نعمة القوة والصحة، ووهبه زوجة صالحة حسنة الـخَلْق والـخُلُق، وكل هذه النعم لم تفتنْهُ، بل كان لسانه يلهجُ بالشكر والذكر.

ثم شاء الله تعالى أن تتبدل هذه الأوضاع، وتتغير تلكم الأحوالُ، فقد ذبل الزهر، وجفَّ الضَّرْع، وتلاشت الأموال، ومات الأولاد، وذهب الثراء الذي أنعم الله به على عبده ونبيّه أيوب، وهاجمه الفقرُ في كل النواحي، ولم يكن الفقر هو الذي هاجمه، وإنما داهمته الأمراضُ والنصب، وثبت ثبات المؤمنين الصادقين، فما وهَن لما أصِيبَ به من هذا البلاء الفادح، وما ضعف وما استكان، وإنما قابل ذلك جميعه بالصبر الجميل، والإيمان العظيم.

صبر أيوب عليه السلام صبراً جميلاً، وصبرت السيدة ليا زوجته أجملَ

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٠٥) بشيء من التصرف.

الصبر، وواسته أجمل المواساة، فقد كانت ليا قد تعلمت من زوجها أيوب كثيراً من الخصال المحمودة، وقبست من أخلاقه ما ساعدها على الصبر معه تجاه الفوادح التي أصابته، إذ سُلِب من جميع ماله، وأرضه، وأملاكه.

قال الحسن البصري رحمه الله: «ضُرب أيوب بالبلاء، ثم البلاء بعد البلاء بذهاب الأهل والمال»[1].

غير أن أيوب أثبت بإيمانه وتسليمه لله أن كل ما أُخِذَ منه إنما هو وديعة أدَّاها لأصحابها، وكأني بالشاعر الهذلي عناه بقوله:

وما المالُ والأهلون إلاّ ودائعٌ ولا بدّ يوماً أنْ تُردّ الودائعُ

ومن جميل الصبر الذي تحلى به أيوب عليه السلام أن المرض بات حيناً من الدهر في عظامه وسائر جسده، ومسّه الضر، وطال عليه البلاء سنوات، ولا يزال صابراً محتسباً، يرطِّب قلبه بذكر الله، وتطمئن نفسه بالتسبيح، وتتغذى جوارحه بالحمد والتهليل.

وخلال هذه السنوات العصيبة انقطع عنه الناس، وتناساه الأصحاب والأحباب، لم يثبت معه في ميدان الصبر إلا زوجته ليا بنت يعقوب، هذه الزوجة الوفية وحدها ظلّت تحنو عليه حنو المرضعات على الفطيم، فلم تؤثر الأمراض التي أصابت زوجها في عزيمتها، بل ظلَّتْ تتوكأ على عصا الصبر والمصابرة والإيمان والتسليم، وظلت ترعى حقّه حقّ الرعاية، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها عندما كان في خفض مع العيش، وبسطة من الصحة والجسم والمال؛ وكانت تنظر بعين الإيمان إلى زوجها أيوب الذي يصارع الأمراض وتصارعه البلايا، وهو صابر ماضٍ مع الذي شاءه الله له، وهنا تتذرَّع السيدة ليا بالصبر، وتتمسك بحلى الإيمان، وتواظب على حسن صحبته، ومواساته حتى تنال بذلك ثواب رعايته، والقيام على شؤونه.

وكانت السيدة الصابرة ليا تزداد قُرباً من زوجها أيوب، في حين اعتزله المقربون، ونأى عنه الأصحاب، أما أيوب فراح يلهجُ بذكر الله تعالى وحمده

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٠٦).

وتسبيحه، وكان موصولاً بالله على أساسٍ صحيح؛ وأما ليا فإنها كانت تتألم ممن انفضّ عن زوجها في وقت شدته، ولكنها حاولت أن تملأ عليه دنياه بصبرها، وابتسامتها الرَّاضية بقضاء الله تعالى، وراحت تسعى سَعْيَ المجتهدات في التفاني بخدمته، والقيام بمصالحه، حتى قلّ مالها، وساءت حالها، وبقيت صابرة مع أيوب على ما حلَّ بهما من فقد الولد والمال، وحلول المرض بأيوب.

وها هنا تتألق هذه الصابرة في عالم الصبر لتسجل سبقاً ميموناً، ولتسجل أعظم الأثر النسوي في مضمار حُسن العشرة الزوجية، حتى إننا نجد أن الحافظ ابن كثير يثني عليها ثناءً عطراً فيقول: «الصابرة، المحتسبة، المكابدة، الصِّدّيقة، البارّة، الراشدة، رضي الله عنها»[1].

ولعلنا نلمح من هذا الواقع لحال نبي الله أيوب وزوجته ليا، بأن الله تعالى قد امتحنهما بالبلايا، وألقى عليهما الصبر والمحبة، فإذا بالمنح الربانية تتنزل عليهما، وإذا بالبلايا تحولت إلى عطايا؛ ومن هنا ندرك أن البلاء اختبار لأنبياء الله تعالى، وللصَّالحين من عباده، كي يرقيهم الله به أرفعَ الدرجات، في الجنات.

فالله تعالى يمتحن عبادَه المخلصين في طاعته بما يشاء وكيف يشاء، ليكونوا نماذج يُحتذى بها، ويُقتدى بصبرها وبلائها، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد ابن أبي وقاص، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله؛ أي الناس أشد بلاء؟

قال: «الأنبياءُ، ثمّ الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثلُ من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقّة خُفِّفَ عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»[2].

---

(١) قصص الأنبياء (ص ٢٨٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بهذا اللفظ في المسند (١/ ١٧٢)؛ وانظر المسند أيضاً (١/ ١٧٤و١٨٠و١٨٥). وأخرجه الترمذي في الزهد برقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن برقم (٤٠٢٣)، وانظر: فيض القدير (١/ ٥١٩).

«وكان نبي الله أيوب عليه السلام أشدّ الناس صبراً وتحملاً للمكاره، وأرضاهم بقضاء الله وقدره، وأحسنهم تسليماً واستسلاماً لأمر الله تعالى؛ كان أيوب مطمئن القلب، رضيّ النفس، مقراً بالعبودية، عارفاً بالله حقَّ المعرفة، وكأن القائل يقصده بقوله:

أرحْ قلبكَ العاني وسلِّمْ له القَضا　　تَفُزْ بالرِّضا فالأصْلُ لا يتحوّلُ

علامةُ أهلِ اللهِ فينا ثلاثةٌ:　　أمانٌ وتسليمٌ وصبرٌ مجمّلُ

وأما ليا زوجه الصابرة المؤمنة التقيّة، فقد أشفقت عليه إشفاقاً شديداً، ورثت لحاله، في حين أن زوجها أيوب كلما طال عليه البلاء، لم يزدد إلا شكراً وتسليماً للعليم الخبير»[1].

ويصور الحافظ ابن كثير رحمه الله موقف الزوجة المؤمنة ليا بنت يعقوب، ويرسم رعايتها لحقِّ أيوب عليه السلام النبيِّ الصابر المحتسب الذاكر الشاكر لله في ليله ونهاره وصباحه ومسائه، فيقول ما نصّه: «وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأُخْرِج من بلده، وأُلقيَ على مزبلة خارجها[2] وانقطع عنه الناس، ولم يبقَ أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقّه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها؛ فكانت تتردّد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته، وضَعف حالها، وقلّ مالُها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر؛[3] لتطعمه وتقوم بأوده، رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حلّ بهما من فراق المال والولد، وما يختصّ بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[4].

ويتابع ابن كثير في رسم بعض الجوانب من صبر الزوجين الكريمين: أيوب

---

(١) نساء الأنبياء (ص ١٤٧) بشيء من التصرُّف والاختصار.

(٢) نعتقد أن هذا الكلام وأشباهه مدخول به على ابن كثير، أو هو من الإسرائيليات التي لا تنسجم من مقام الأنبياء.

(٣) هذا بعيد عن المنطق والعقل، فلا يُعقل أن تخدم امرأة نبيٍّ في البيوت!!

(٤) انظر: قصص الأنبياء (ص ٢٨١).

وليا، فيقول: «قال السُّدي: تساقط لحمه حتى لم يبقَ إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها قالت: يا أيوب؛ لو دعوت ربّك لفرّج عنك.

فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل قليلٌ أن أصبر له سبعين سنة؟

فجزعت من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتُطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفاً من أن ينالهم من بلائه، أو تعذيبهم بمخالطته، فلما لم تجدْ أحداً يستخدمها، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها[1] بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناساً، فلما كان من الغد لم تجدْ أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام أتته به، فأنكره أيضاً، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]»[2].

وقال البغوي: «قال الحسن: مكث أيوب مطروحاً على كُناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً تختلف فيه الدوابّ، لا يقربه أحد غير امرأته (رحمة) صبرت معه بصدق، وتأتيه بطعام، وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب مع ذلك لا يفترُ عن ذكر الله والصبر على ما ابتلاه به...»[3].

ولما لمست السيدة ليا من زوجها جميلَ الصبر، وكمال الانقياد والتسليم لله، علمت أنه نسيج وحده في ميدان الصبر، وفي مجال الاستسلام التام للأمر الإلٰهي ومشيئته وقضائه، هنالك علمت أيضاً أنه لا يقدر أحد أن يدرك منـزلته،

---

(١) في النفس شيء من هذه القصة والله أعلم بالصواب!!

(٢) المصدر السابق (ص ٢٨٢).

(٣) تفسير البغوي (ص ٨٤٨)؛ وقد ذكر البغوي بقية القصة وهي طويلة وفيها أشياء منكرة تنافي عصمة الأنبياء.

فضاعفت من همَّتِها في الإحسان إليه، وحفظت ودّه لحسن إيمانها بالله تعالى وبرسوله الصابر، إلى أن جاءت بداية النهاية، وظهرت بوادر الفرج إذ كشف الله عنه الضُّرَّ، ومسّته العناية الإلهية ببرد رعايتها، فعاد معافىً صحيحاً كأن شيئاً لم يكن به من المرض والألم، وقد جاء الثناء الإلهي عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ(1) نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صَ: ٤٤].

أما كيف استجاب الله تعالى لأيوب عليه السلام وكشف عنه الضر، فهذا ما تفصح عنه الآيتين التاليتين في قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

وها هنا ترسم الآيتان حياةَ الصبر الأيوبيّة النبويّة، وذلك حينما ابتلى الله تعالى أيوب ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سُلِّط على جسده، ابتلاء من الله تعالى، وامتحاناً، ومكث مدةً طويلة، واشتد به البلاء، فمات أهلُه، وذهب ماله، فتوسل على خالقه بالإخبار عن نفسه وحالها، وأنه قد بلغ منه الضرّ كل مبلغ، وبرحمة الله الواسعة العامة استجاب له، وردَّ عليه أهله وماله، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً، قبل ثواب

---

(١) وجدناه صابراً: أي علمناه صابراً. وقال الطبري: «قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ يقول: إنا وجدنا أيوب صابراً على البلاء، لا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة الله، والدخول في معصيته ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يقول: إنه إلى طاعة الله مقبل، وإلى رضاه رجّاع».

وقد علّق الزمخشري على هذه الآية تعليقاً نفيساً مطرباً فقال:

«فإن قلت: كيف وجدناه صابراً، وقد شكا إليه ما به واسترحمه؟

قلت: الشكوى إلى الله عزّ وعَلا لا تسمى جزعاً، ولقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها، فإذا صحّ أن يسمى صابراً مع تمني العافية وطلب الشفاء فليسم صابراً، مع اللجأ إلى الله تعالى والدعاء بكشف ما به، ومع التعالج ومشاورة الأطباء على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم، كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبقَ منه إلا القلب واللسان...» (تفسير الكشاف ص ٩٢٨).

الآخرة، وجعله مناراً وقُدوة للعابدين الذي ينتفعون بالصبر، فإذا رأوا ما أصاب أيوب عليه السلام من البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر؛ فجعلوه أسوة وقدوة، عندما يصيبهم الضرُّ.

قال الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسير هاتين الآيتين ما يوضح مكانة الحياة الزوجيّة عند ليا بنت يعقوب ويجعلها قدوةً للنساء: «اذكرْ نبأ أيوب حين دعا ربّه وقد مسّه الضر والبلاء فقال: رب إني قد مسني الضرُّ وأنت أعظم رحمة من كل رحيم. وقد وصف أيوب نفسَه بما يستحق به الرحمة، ووصف ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بمطلوبه إيماناً منه بأنّ ربّه به عليم، فكأنه يقول: أنا أهل لأن أُرحَم، وأنت الكريم الجواد الذي يَرحَم، فأَفِضْ عليّ من جودك ورحمتك ما يسعفني، ويدفع الضرَّ عني، فأنت أرحم الراحمين. وهذا أسلوب من الطلب دقيق المسلك، حكيم المنحى.

روي أن امرأته قالت له يوماً: لو دعوت الله، فقال: كم كانت مدة الرخاء؟

فقالت: ثمانين سنة.

فقال: أستحي من الله أن أدعوه؛ ما بلغت مدة بلائي مدة رخائي.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ أي: فاستجبنا له دعاءه، فكشفنا ضره، وقد كان الذي نزل به امتحاناً من الله، واختباراً له، وأعطيناه في الدنيا مثل أهله عدداً مع زيادة مِثْلٍ آخر، فوُلِد له من الأولاد ضعف ما كان؛ وآتيناه ما ذَكَرَ رحمة منا لأيوب، وتذكرة للعابدين ليصبروا كما صبر، فيُثابوا كما أثيبَ في الدنيا والآخرة.

وخلاصة ما سلف: إن أيوب ابتلي في نفسه وولده وماله، فابتلي بالمرض، وهلاك الأولاد، وضياع الأموال امتحاناً منه تعالى، واختباراً له، ثم كشف عنه ما به من ضرٍّ فشفي من أمراضه التي أصيب بها، وأنجب من الأولاد ضعف ما كان، وحَسُن حاله في ماله، فزال ما به من عُدْمٍ وإقتار. ولم يصرح القرآن الكريم بما صار إليه أمره من كثرة الولد»[1].

---

(١) تفسير المراغي (٦/ ١٩١ ـ ١٩٢) بشيء من التصرف اليسير.

وفي قصص النبي ﷺ نجد مكاناً رحباً لأيوب عليه السلام أمير الصابرين وإمامهم في عصره، فما أجملَ أن نقرأ سيرة الشِّفاء الربانية لأيوب التي تشفي النفوس، وتعطر الأجواء، وتندّي الأرواح والقلوب، وتثبت المؤمنين العابدين المبتلين.

جاء عند ابن حبان وغيره بسند عن محمد بن شهاب الزُّهري عن الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ نبيَّ الله أيوب ﷺ لبثَ به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريبُ والبعيدُ، إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان عليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين.

فقال له صاحبه: وما ذاك؟

قال: منذ ثماني عشر سنة لم يرحمْه الله فيكشف ما به.

فلما راحا إلى أيوب، لم يصبرِ الرجل حتى ذَكرَ ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمرّ بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفِّر عنهما، كراهية أنْ يُذكر الله إلا في حقٍّ.

قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذاتَ يوم أبطأ عليها، وأوحي إلى أيوب أن ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ [صٓ: ٤٢]؛ فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن مما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبيَّ الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما أريت أشبه منك إذ كان صحيحاً.

فقال: فإني أنا هو.

وكان له أندران ـ أي بيدران ـ: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذَّهب حتى فاضَ،

وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض»[1].

هذا ما جاء في السّنّة عن النبي أيوب وزوجته البارة به، مع اثنين من كرام أصحابه يغدوان عليه، ومن ثم يأنس بهما، إلى أن ردَّ الله عليه عافيته.

قال أبو بكر ابن العربي موضحاً ذلك: «ولم يصحّ عن أيوب في أمرِهِ إلا ما أخبرنا عنه في كتابه في آيتين: الأولى؛ قوله تعالى: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، والثانية؛ ﴿ . . . أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [صٓ: ٤١]».

وفي الصحيح أخرج البخاري جانباً من قصة نبي الله أيوب عليه السلام، فيما أخرجه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرّ عليه رِجْلُ جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربُّه: يا أيوب، أَلَمْ أكنْ أغنيتك عما ترى؟

فقال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك»[2].

وذكرت المصادر أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته في مرضه، فنذر إن شفاه الله تعالى أن يضربَها مئة سوط، أو مئة ضربة، وذلك لأنها ذهبت في بعض الأيام في مهمة، فأبطأت قليلاً على أيوب عليه السلام، فنذر أن يضربها.

وعزّ على أيوب بعد شفائه أن يكون جزاء ليا زوجته الضرب، وذلك لأنها

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٢٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٥٨١ و ٥٨٢)، وانظر: مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٨)، وأبو يعلى (٦/ ٢٩٩ و ٣٠٠) برقم (٣٦١٧)، وحلية الأولياء (٣/ ٣٧٤ و ١٧٥)، والدر المنثور للسيوطي (٥/ ٦٥٩ و ٦٦٠)، والتفسير الكبير (٢٦/ ١٨٦)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٤)، وتفسير البغوي (ص ٨٤٨)، وفتح الباري (٦/ ٤٨٥)، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ١١١) وغيرها كثير.

(٢) انظر فتح الباري (٦/ ٤٨٤) حديث رقم (٣٣٩١)، وجامع الأصول (٨/ ٥٢١)، ومعنى: رجل جراد: جماعة جراد. ويحثي: يلتقط. ونستفيد من هذا الحديث أن الله قادر على أن يرزق عباده بطرق لم يعتادها البشر، فقدْ جاء أيوب بالمال الوفير من الذهب والفضة سحابتان، وخرّ عليه الجراد مصنوعاً من ذهب.

صبرت معه صبراً جميلاً وواسته ورعَتْه وأحاطته بعنايتها، وصَعُبَ عليه ألا يفي بنذره لله تعالى، وها هنا جاءه الفرج القريب من الهم الذي أمسى فيه، وجاءه المخرج الرباني، حيث أمره الله تعالى أن يأخذ حزمة صغيرة من ريحان أو من قش القمح أو الشعير، وهذه الحزمة تبلغ مئةً، فيجمعها كلَّها، ومن ثم يضربها بها ضربة واحدة، وبالتالي يكون أيوب قد وفّى بنذره، وبرّ ولم يحنث ولم يضر زوجته البارة المؤمنة التقية، وبهذا أكرم الله ليا بهذه الرخصة اللطيفة الموقظة جزاء وفاقاً لإخلاصها وصبرها، قال تعالى في ذلك لأيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [صٓ: ٤٤][(١)].

وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى جواز ضرب من أصاب حداً كالزاني غير المحصن، والقاذف؛ بمثل ما ضرب به أيوب إن كان المحدود مريضاً يُخشى هلاكه بالضرب، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يضربوا رجلاً مريضاً زنى بجارية بعثكال من نخل فيه مئة شمروخ ضربة واحدة[(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور، وتوسّع آخرون لها، حتى وضعوا كتاب الحِيَل في الخلاص من الأيْمان»[(٣)].

هذه أهمُّ الملامح العامة للحياة الزوجية للسيدة ليا زوجة نبي الله أيوب عليه السلام، الزوجة الصابرة.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (ص ١١١٧)، وزاد المسير (ص ١٢١٦ و ١٢١٧) مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٩٨). وذكر ابن قيم الجوزية أنه لم يكن في شَرْع نبي الله أيوب آنذاك كفارة، فقال: «فإنه لو كان فيها ـ أي شريعتهم ـ كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه، وامرأته كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة. (إغاثة اللهفان ٢/ ٩٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١).

ومن المهمّ في هذا البحث أن نشير إلى أن القرآن الكريم قد تحدَّث عن المحنة الأليمة التي مرَّ بها أيوب والتي مرت على أيوب عليه السلام، وكيف أنه لجأ إلى الله طالباً كشف الضرِّ عنه، وراجياً رحمته، فاستجابَ الله لدعائه، وكشفَ الضرَّ عنه، وأبدله خيراً مما فَقَدَ منه، قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

ومما لا ريب فيه أن الأسلوب القرآني يتحدث بصفاء ووضوح إلى ما وقع به أيوب من الابتلاء، ويشير إلى ما ينبغي أن يفعلَه العبد إذا أصابته المصائب، ونزلت به الكوارث، وهو اللُّجوء إلى الله دون أحدٍ سواه، ويشير إلى أن رحمة الله قريب من المحسنين، وأنه وحده هو السميع العليم.

كما تحدَّث القرآن العظيم عن شفاء أيوب بوصفةٍ ربانية برأ من ساعته عندما استخدمها، قال تعالى مخاطباً أيوب بعد أن دعاه أنّه مسَّه الشيطان بنصب وعذاب: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [صٓ: ٤٢].

وهذا الدواء الطاهر لم يكن يتوقَّعه أيوب عليه السلام، ولكنه امتثل للأمر الإلٰهي، وضرب الأرض برجله، ولحظتها، انبثق ماء نقيٌّ عذْب، فشرب منه أيوب، فشفاه الله مما كان في داخله، ثم إنه اغتسل فبرئ من ظاهره، فما كان يضع الماء على عضو من أعضائه إلا عاد أحسن مما كان من قبل بإذن الله تعالى، ولم يعدْ يجد ألماً ولا نصباً(١).

لعل الماء كان مباركاً، وكان من أنواع ما يسمى بالمياه الكبريتية، وكانت الأوامر الربانية للماء هذا بأن يشفي أيوب عليه السلام، كما أن الماء كان من قبل بإذن الله برداً وسلاماً على نبي الله إبراهيم.

---

(١) قال القرطبي: «فاغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان، ثم شرب فأذهب الله كل ما كان في جوفه من ألم وضعف، وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ثم أقبل يمشي إلى منزله...» (تفسير القرطبي ١/ ١٤١).

ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن أطباء المسلمين القدامى قد نبّهوا وتنبّهوا لفوائد المياه الكبريتية، ومنهم العلامة الطبيب الأديب الموفق عبد اللطيف البغدادي حيث قال: «والاغتسالُ بالمياه الكبريتية يزيل الجرب والحكّة، وينفع من الأمراض الباردة»[1].

وقال ابن قيم الجوزية في (الزاد): «والماء الذي ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المعدن، ويؤثر في البدن تأثيره، والماء العذب نافع للمرضى والأصحّاء».

ومن هنا نرى أن بعض الأطباء اليوم ينصحون بعض المرضى المصابين بالأمراض الجلدية أن يغتسلوا في إحدى العيون الكبريتية، لأن بعض الأمراض الجلدية تشفيها المياه المعدنية، أو الكبريتية، وقد أثبت الطبُّ الحديث ذلك.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [صَ: ٤٢] يقول المراغي: «حرِّكِ الأرض برجلك واضربْها بها، يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب، فتبرأ مما أنت فيه من المرض... وفي هذا إيماءٌ إلى نوع المرض الذي كان به، وأنه من الأمراض الجلدية غير الـمُعدية، كالأكزيما، والحكّة، ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء، لكنه ليس بقتّال، وكلما تقدم الطب أمكن الطبيب أن يبين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد، كما أن في ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجحة في تلك الأمراض، وهي كما تفيد بالاستعمال الظاهري، تفيد بالشرب أيضاً، كما نرى في العيون التي في البلاد التي أنشئت فيها الحمامات في أوروبة ومصر وغيرها، واستعملت مشاتي ومصحّات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية كمياه فيشى، وسويسرا، وحلوان»[2].

ونأتي الآن إلى محنة أيوب عليه السلام، فقد روى عدد من المفسرين في محنته كلاماً عجيباً يحتاج إلى كثير من التأمُّل، ولا بدّ لنا الآن من أن نشير إليه،

---

(١) الطب النبوي للموفق عبد اللطيف البغدادي (ص ٥٥).
(٢) انظر: تفسير المراغي (٨/ ٢٢٦).

ونذكر تعليقنا عليه، ثم نشير إلى الأقوال في ذلك لتتم الفائدة.

فبعض هؤلاء المفسِّرين يقولون: إن جسم أيوب عليه السلام قد أنتن لـمّا استفحل به المرض، وإنه استسلم لهذا المرض، حتى إن دودة سقطت من لحمه، فأخذها وردَّها إلى موضعها، وإن الدود كان يتناول بدنه، فصبر حتى تناولت دودة قلبه، وأخرى لسانه، وإنه قد وصل إلى درجة من المرض جعلت الناس ينفرون منه حتى أخرجوه ورَمَوْه في مزبلة بعيدة عن مساكنهم لشدة نتنه وقذارة مرضه.

إننا نقول: إن كثيراً من هذه الروايات وأشباهها يشوبُها الجهلُ، وتعتريها الخرافات المضلِّلَة، لأن الله تعالى جعل أنبيائه في غاية الكمال، وأبعدهم عن كل مظاهر القذارة المنفرة، ومثل هذه الروايات المنتشرة تحمل في طيَّاتها ما يبطلها ويهدمها.

فهل يتصور عاقل أو من له أدنى بصيرة من نبي كريم أن يرد الداء إلى بدنه إذا خرج منه، فكلما سقطت دودة من جسمه أعادها إلى مكانها ؟!

أم كيف يتصور امرؤ محب للأنبياء الكرام جميعهم أن أحداً منهم يصبر على القذارة حتى ينفر الناس منه، وهو نبي يجب أن تتهيَّأ له الأسباب التي تؤلف إليه القلوب، وتجمع حوله الناس؟!

إن الذي يجب على المؤمن العاقل تصديقه ما جاءت به آيات الله في القرآن الكريم، وما جاءت به السنة المطهرة، أو الأخبار الموافقة للقرآن والسنة، فنحن نؤمن بأن أيوب عليه السلام قد ابتُلِي بمرض شديد، ولكنه غير منفِّر، وابتلي بفقد أهله وأمواله، ومن ثم أخلف الله عليه وعوضه خير العوض، وردَّ عليه ضعف ما فُقِدَ منه، وذلك فضل الله تعالى.

ومن الجدير بالذكر أن العلماء والفقهاء وكثيراً من المفسرين قد فنَّدوا هذه الأقوال الباطلة وردوا عليها، وبيّنوا الخبيث من الطيب، ومنهم القاضي أبو بكر ابن العربي الذي نقل عنه القرطبي في تفسيره قوله عن نبي الله أيوب عليه السلام: «وإذا لم يصحَّ عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ـ يعني الأدلة التي

ذكرها من القرآن والحديث الصحيح ـ، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أي لسان سمعه؟ والإسرائيليات[1] مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، واصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلى خبالاً»[2].

نعم لقد أوردت بعضُ الكتب التاريخية وبعضُ كتب التفسير والأسمار في ابتلاء نبي الله أيوب عليه السلام، وموقف زوجته ليا الصابرة صوراً منفّرة، تتنافى مع منصب النبوة، ومع ما ذكره علماء التوحيد من أن أنبياء الله ورسله معصومون عن كل ما ينفر الناس منهم: كالجدري، أو الجذام، أو السل، وسائر الأمراض المنفرة، وإلا أقعدهم المرض المنفّر للناس عن القرب منهم، وبالتالي لن تحصل الفائدة المرجوّة من بعثتهم.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن عدداً من أهل التفسير في عالمنا المعاصر، قد تصدّوا لدحر ما ورد من الروايات الباطلة عن نبي الله أيوب، بل عن الأنبياء جميعهم، وممن أدلى دلوه في هذا المضمار الشيخ محمد رشيد رضا صاحب (المنار) المتوفى سنة (١٩٣٥م) حيث يقول: «والذي عليه المسلمون ولا سيما أهل السنة منهم، أن الله تعالى حفظ الأنبياء من العاهات المنفرة للطباع، لأنها منافية لحكمة التبليغ، وقالوا: إن هذا من أصول الإيمان الواجب اعتقادها، وتكذيب من خالفها».

وتحدث الشيخ محمد رشيد رضا عن مرض وبلاء أيوب عليه السلام فقال: «أما عن حقيقة بلاء أيوب ومرضه، فالظّاهر أنه كان مرض من النوع الذي يشتد

---

(١) من الجدير بالذكر أن الإسرائيليات ليست جميعها مرفوضة على البتات، وعلى الإطلاق، كما ذكر ابن العربي رحمة الله عليه، وإنما قبل منها علماء وفقهاء المسلمين ما وافق الشريعة الإسلامية.
وذكر بعض العلماء أن بعض الإسرائيليات ينبغي أن يتوقف فيه، ولكن تجوز روايته، ورفض جميعهم بالإجماع ما خالف الشرع وما جاء ثابتاً بالقرآن والسنة.
ولعل الذي يظهر من كلام ابن العربي أنه ذكر ما يتعلق بقصة نبي الله أيوب وما ورد فيها من الروايات التي لا تليق بمنصب النبوة والأنبياء، ولا تليق بعصمتهم.

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ١٣٧).

ألمه، ولا يظهر أثره على الجسم، أو على الجلد، كبعض الأمراض الباطنية، وربما الأمراض العصبية، أو آلام العظام والمفاصل».

وقال أحمد مصطفى المراغي المتوفى عام (١٩٥٢م) ما نصه: «وما روي من مقدار ما لحقه من الضّرّ في نفسه حتى وصل إلى حدِّ النفرة منه، وإنّ الناس جميعاً تحاموه وطردوه من مقامه إلى ظاهر المدينة في موضع الكُناسة ولم يكن يتصل به إلا امرأته التي تذهب إليه بالزَّاد والقوت؛ فكل ذلك من الإسرائيليات التي يجب الاعتقاد بكذبها، لأنه ليس لها من سند صحيح يؤيدها، ولأن من شروط النبوة ألا يكون في النبيِّ من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه، ولأنه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم، وتبليغ الشرائع والأحكام إليهم»[١].

لقد انتهت حياة أيوب على ما يحبّ ويرضى من صبر وطاعة، وكانت زوجته ليا مثال المرأة المواتية الصابرة الراضية بقضاء الله وقدره، ولم تتغيّر مع تغيّر الأحداث على زوجها، فهل تقتدي بها النساء ؟!.

إننا نأمل من نسائنا الآن أن يقرأن في تمعن السِّيرة الأيوبية، وينظرن إلى الحياة الزوجية خلالها، ويقتفين أثرها في وفائها لزوجها، وصلاحها، وصبرها معه في أسوأ الأحوال، فقد صبرت امرأة أيوب على زوجها، فكان مما جازاها الله تعالى به أن خفف عنها عقاب زوجها، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٦]، وقال رسول الله ﷺ: «إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً»[٢].

لقد ضربت السيدة ليا زوجة أيوب للنساء المؤمنات مثلاً مباركاً في معاملة أزواجهن، والإحسان إليهم، مما جعلها من النساء الخالدات اللواتي أثنى عليهنَّ القرآن الكريم، فهل بعد هذا من فخر ؟!.

* * *

---

(١) تفسير المراغي (٦/ ١٩٢).

(٢) المسند (١/ ٣٠٧).

الفصل السادس

حياة زكريّا الزوجية

من الطريف في الحديث عن النساء، وعن الحياة الزوجية في القرآن الكريم، أننا نلاحظ في جميع آياتِ كتاب الله تعالى، أن الله تبارك وتعالى لم يذكر امرأة وسماها باسمها، إلا السيدة الجليلة الطَّاهرة المصطفاة الصفيّة الصافية مريم بنت عمران القانتة التي اصطفاها الله على نساء العالمين.

أما أختها امرأة نبي الله زكريّا، فإن القرآن الكريم لم يذكر اسمها صراحة، بل أشار إلى سيرتها وحياتها الزوجية في بضعةِ مواضع وعدّة مواقف مقترنة باسم زوجها نبي الله زكريا عليه السلام.

ومن اللَّطيف أن كثيراً من المفسِّرين والمؤرخين وأهل المجالس والمسامرات تبرَّعوا في البحث عن اسم امرأة زكريا وقالوا: إن اسمها إيشاع بنت عمران[1]، أو إيشاع بنت فاقوذ، وهي أخت حنة أم مريم بنت عمران[2].

وفي بيتٍ عامر بالإيمان، يُذكر فيه اسم الله كثيراً، كانت حياة السيدة الطاهرة إيشاع زوجة زكريا عليه السلام، فقد تربَّت في حجر الفضيلةِ، وتغذت على مائدة التقوى، كانت تسبّح لله صباح مساء مع زوجها نبيِّ الله زكريا، وكانت حياتهما الزوجية تسير في ضوء مرضاة الله تعالى، حتى أثنى الله على هذا البيت

---

(١) التعريف والإعلام للسهيلي (ص ٢٠٢ و ٢١١)، وتاريخ الطبري (١/ ٣٤٥)، ومروج الذهب (١/ ٦٢). والمنتظم لابن الجوزي (٢/ ٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٥٤)، وتفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٢/ ١٩٣ و ٢٢٣)، وغرر التبيان (ص ٢٢٥)، ومفحمات الأقران (ص ٦١)، والمعارف (ص ٥٢)، وتفسير الرازي (٨/ ٢٢)، والفتوحات الإلٰهية (٥/ ٥) وغيرها كثير.

(٢) التعريف والإعلام (ص ٢٠٢) باختصار.

الطيِّب العابد الخاشع المحبّ للخيرات.

بدأت قصة إيشاع تشتهر منذ أن هبطت رحماتُ الله عليها وعلى زوجها زكريا، بأن حملت وولدت بعد أن كانت عاقراً لا تلد.

نعم كانت إيشاعُ امرأةً عاقراً لا تلد، وشاء الله تعالى لها أن تلد نبياً حصوراً، ومن الصالحين، فهو سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٥]. نعم فقدرة الله سبحانه تعالى ليس لها حدٌّ أو ضابط ندركه، بل إن الإنسان المؤمن بالله على عقيدة سليمة، يسلّم الأمر لله، ويعيش مع الذين قال الله عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣].

ومعنى ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يصدِّقون بالقلب، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وهو في الشريعة: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. والغيب: كل ما أُمرتَ بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث، والجنة والنار، والصراط والميزان[١].

إذن هناك أمور يجب الإيمان والتسليم فيها، لأن أمرها بيد الله وحده، ومنها قصةُ الحياة الزوجية لزكريا وزوجته، تلك القصة التي كانت آية للناس.

عرفنا من خلال القرآن الكريم بأن إيشاع امرأة زكريا عليه السلام، كانت عاقراً وهي لا تزال فتيّة شابّة في زهرة عمرها، ولما غدت عجوزاً كان من أن تلازمها صفة العُقم، ثم إن نبيَّ الله زكريا زوجها قد غدا هو الآخر شيخاً كبيراً، قد وهَنَ العظمُ منه وضعف، ومن الواضح بأن العظم هو عمود البدن وبه قوامه، فإذا ضعف ووهن كان ما وراءهُ أوهن وأضعف، ثم إن الشَّيب قد انتشر في رأسه وكثر واشتعل كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]. قال ابن الجوزي: «يعني: انتشر الشيب فيه، كما ينتشر شعاع النار في الحطب، وهذا من أحسن الاستعارات»[٢].

---

(١) تفسير البغوي (ص ١٤، ١٥) باختصار وتصرف.
(٢) زاد المسير (ص ٨٧٧).

وكفل نبيُّ الله زكريا عليه السلام مريم بنت عمران، وأخذ يرى الكرامات الإلٰهية لمريم الصالحة المصطفاة التي تقبّلها ربُّها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وربّاها التربية الصَّالحة التي تشمل الروحية والجسدية[1].

وكانت المصطفاة مريم تعبد الله في محراب، وكانت تصل اللّيل بالنهار في الذكر والدعاء، والعبادة والصلاح والصلاة والمناجاة؛ وكان نبيُّ الله زكريا يزور مريم في المحراب، فيجد عندها رزقاً ساقه الله إليها، فيجد ألواناً من الطعام لم تكن توجد في مثل تلك الأحيان.

روى المفسرون فقالوا: «إن زكريا كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف»[2].

رأى زكريا ذلك مرات ومرات، لا ريب في أن هذا الأمر كرامة لفضلها وعفتها ومكانتها عند الله تعالى، ففي حديثه عن الكرامة تحدث الإمام الطحاوي في (العقيدة الطحاوية) عن أولياء الله الصالحين، فكان مما قال عنهم: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحّ عن الثقات من رواياتهم».

كان نبيُّ الله زكريـا يسأل مريـم عن هذا الرزق المبارك فيقول: مَنْ يأتيك بهذا الرزق؟! والأيام أيام جدبٍ وقحط؟!! وببساطة وإيجاز تقول مريم: من عند الله.

وقد أوجزَ القرآنُ هذا كله في آية واحدة حيث قال الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

رأى زكريا عليه السلام هذه الكرامات الجليّة لمريم بنت عمران، وها هنا تحركت بداخله غريزة الأبوة، و ودّ أن يهبَهُ الله الذرية بعد أن رأى ما رأى من خوارق العادات؛ مع علمه بأن زوجته لم تلد في حال الصبا والشباب، وأنه

---

(١) تفسير المراغي (١/ ٤٩٣) باختصار.

(٢) تفسير المراغي (١/ ٤٩٣). وقال المراغي معقباً على ذلك بقوله: «وليس لدينا مستند صحيح من كتاب أو سنة يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية»، (تفسير المراغي ١/ ٤٩٣).

أمسى شيخاً كبير السن، غير أنَّ رحمةَ الله وقدرته تتخطَّى كل ذلك و: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: «لما رأى حالَ مريم في كرامتها على الله ومنـزلتها، رغِب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنّة في النَّجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً، فقد كانت أختها كذلك.

وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر»[١].

وقال القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المتوفى سنة (٤١٥ هـ) في تفسيره: (تنـزيه القرآن عن المطاعن) معلقاً على هذه الآية الكريمة بما محصّله: «إن ذلك من معجزات نبيِّ الله زكريا عليه السلام، كي يعرف حال الصدّيقة مريم بنت عمران، وما تعتقده في الرزق الذي عندها، فعندما قالت مريم: هو من عند الله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ لأنه قد عرف منها تمامَ اليقين، فلما أعجبه ذلك، توجّه إلى الله تعالى، وسأله أن يرزقَه ولداً، فبشّره الله بيحيى على ما نطق به القرآن الكريم».

وفي سورة مريم جاءت القصة مفصَّلةً تحكي سؤال زكريا ربه كي يرزقه الولي الصالح الرضي، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢ ـ ٦].

ومن الملاحظ أن دعاء نبي الله زكريا كان بعيداً عن الجهر، لأن الله يعلم دعاء القلب التقي النقي، ويسمع الصوت الدقيق الخفي، كان دعاء زكريا يحمل في طياته الولد بعد الكبر ليرث النبوة بعده، ويحفظ أمر الدِّين.

كان زكريا يدعو ربَّه ونفسه قد تعلقت بالله، لم يبقَ بنفسه أي شيء إلا حبّ الله، وإلا مرضاته، هناك سمع النداء الذي يحمل ما تصبو إليه نفسُه، سمع

---

(١) تفسير الكشاف (ص ١٧١).

البشارة بأذنيه، ووعاها بقلبه، كانت البشارةُ واضحةً وضوحَ الشمس في وسط السماء وفي رابعة النهار، سمع البُشرى تقول: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٧].

ما أجمل هذه البشرى! وما أعظمها! غلام ذكر، غلام سماه الله يحيى، إن هذا الاسم الأول في عالم الأسماء، اسم جليل أحيا الله به عقر إيشاع أمه، وكذلك أحيا الله قلبه بالإيمان وقلب زكريا عليهم جميعاً السلام.

قال القاضي عبد الجبار الهمذاني موضحاً هذه الآية: «ربما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ ما الفائدة في ذكر الاسم واللقب والكلّ في ذلك سواء؛ وما الفائدة في قوله: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ ولو جعل له سمياً لم تتغيرِ البشرى؟!

وجوابنا: إنّ من تمام نعمة الله أنْ يرزقه المسمّى وتولى اسمه، لأن ذلك يكون في الإنعام أزيد، كذلك إذا لم يكن له من قبل من يساويه في الاسم كان الإحساس أعظم»[١].

وقال القرطبي: «تضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء:

أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة.

الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة.

الثالث: أن يفرد بتسميته»[٢].

كان زكريا عليه السلام ما زال في محرابه، وما زالت البشرى تأخذ من نفسه مكاناً رحباً، ما زال يجدُ بردها في قلبه، وحلاوتها في أضالعه، ولكنه أحبَّ أن يستخبر كيف يرزق بالولد وحاله وحال زوجته يعلمها الله تعالى، لنسمع إليه حيث: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨]. لقد أدهشته البشارة الربانية العجيبة، هذه البشارة التي تنطق

---

(١) تنزيه الأنبياء عن المطاعن (ص ٢٤٦).

(٢) تفسير القرطبي (١١/٥٦).

قائلة بأنه سينجب وهو شيخ كبير، وامرأته عجوز وعاقر، لا تلد في جميع الأحوال!! ولكنَّه موقنٌ بأن الله قادرٌ على كلِّ شيءٍ، كان سؤاله على سبيل الاستفسار، كما قال الماوردي رحمه الله: «لم يقل ـ زكريا ـ ذلك عن شكٍّ بعد الوحي، ولكن على وجه الاستخبار، أتعيدنا شابّين؟ أو ترزقنا الولد شيخين»[1].

وفي تفسيره الجامع لأحكام القرآن أدْلى القرطبيُّ دلْوَه في تفسير هذه الآية الكريمة، فجاء بما يعجب ويطرب فقال: «ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولداً من امرأة عاقر، وشيخ كبير، بلغ النهاية في الكبر واليبس والجفاف»[2].

وقال الشَّوْكاني رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: وفي معنى هذا الاستفهام وجهان: أحدهما أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر، أو من غيرها؟ وقيل: معناه: بأي سبب أستوجبُ هذا، وأنا وامرأتي على هذه الحال؟ قيل: كان يوم التبشير كبيراً ابن تسعين سنة، أو ابن عشرين ومئة سنة، فجاء الجواب بأن الله يفعل ما يشاء من الأفعال العجيبة، وهو إيجاد الولد من الشيخ الكبير، والمرأة العاقر»[3].

ولم يلبث زكريا عليه السلام أن جاءته العنايةُ الربانية لتفهمه بأن هذا الأمر هيّن على الله، فلنسمع إلى القرآن الكريم: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

وبدأت العناية الإلٰهية تعمل عملها، فغدت السيدة إيشاع تصلح للإنجاب بعد أن كانت عاقراً، استجاب الله لدعاء زكريا الذي نادى ربه نداء خفياً، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. قال جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين: «كانت زوج زكريا عاقراً

---

(١) انظر: تفسير الماوردي (٢/ ٥١٧).
(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٥٧) باختصار.
(٣) فتح القدير للشوكاني (ص ٢١٦ و٢١٧) باختصار وتصرف.

لا تلد فولدت» ، وقال القرطبي: «جُعلت حَسَنة الخلق ولوداً»[1] .

ومما يضاف إلى هذا أن البشارةَ الربّانية قد لامست أسماعَ السيدة إيشاع زوجة نبيِّ الله زكريا، فغلب عليها السرور حتى أبكاها فرحاً وخشية من الله القادر، ولم تملك لسانها الذي أخذ يلهج بالحمد والشكر والثناء على الله والتسبيح له.

ولم تكن السيدة إيشاع وحدها في مضمار الثناء على الله تعالى، بل كان زكريا يشدُّ أزرها بذلك، وطفقا يسارعان بحمد الله والتسبيح والذكر لله، وعمل الخيرات والمسارعة إلى الفضائل والمكارم.

ومن باب الطمأنينة القلبية، والاستقرار النفسي، والتسليم لأمر الله، سأل نبيُّ الله زكريا ربه أن يجعل له آية ودليلاً على وجود الحمل عند زوجته إيشاع، فكانت الآية والعلامة كما في القرآن الكريم: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ، والمعنى: يا زكريا إن علامتك على وجود المبشر به، وحصول الحَمْل، ألّا تقدر على أن تكلم الناس بكلامهم المعروف في محاوراتهم ثلاث ليال وأنت صحيح، سوي الخلق، سليم الجوارح ليس بك علَّةٌ ولا مرض ولا خرس.

قال جمهور من العلماء من الصحابة والتابعين: «اعتُقل لسان زكريا عليه السلام من غير مرض ولا عِلَّة، وذلك كما ذكر الله تعالى في آية آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]».

قال الزمخشري: «دلّ ذِكْر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام، استمرّ به ثلاثة أيام ولياليهنّ»[2] .

ظلَّ زكريا عليه السلام يذكر الله تعالى في الإصباح والإمساء، ويسبح الله في

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٢٢٢).
(٢) تفسير الكشاف (ص ٦٣٣).

غاية السلامة والقدرة على النطق، إلا أنه يعتقل لسانه عند التكلم مع الناس، وهذه هي العلامة[1].

عاينَ زكريا العلامة الربانية حيث أعطاه الله إياها، وأمره بالذكر والتسبيح، فاطمأنَّتْ نفس زكريا، وخرج من المحراب الذي بُشّر فيه بيحيى، ثم أوحى إلى من حوله من الناس بإشارة خفيفة سريعة باليد أو بالرأس بالذكر والتسبيح موافقة له فيما أُمِرَ به في هذه الأيام الثلاثة، كما ذكر الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١]، فقد كان نبيُّ الله زكريا ذا منـزلة عالية رفيعة في قومه، وهو نبيهم وخيرهم، وعالمهم وإمامهم.

وتم حمل السيدة إيشاع بيحيى عليه السلام، لم تشعرْ بالتعب كغيرها من النساء؛ ولما انقضت مدة الحمل، ولدت ابنها يحيى، واكتمل عقد حياتها الزوجية بهذا المولود التقي، الذي جاء بعد دعوة تقية نقية مباركة من أعمال زكريا عليه السلام.

سُعد بالمولود يحيى أبواه، وخصوصاً بعد أن أينَعَ، وبعد أن أخبر الله تعالى عن مكانته وفضله بقوله: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾[2] [مريم: ١٢]. ومما زاد من سرور الحياة الزوجية لزكريا وامرأته أنَّ الله جعل يحيى ذا شمائل خاصة كريمة، فقد جعله ذا حكمة وفقه وخير وهو لا يزال صبياً: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

كما أن الله تعالى جعل يحيى ذا حنان وشفقة ورحمة، قال تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٥١٨)، وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٧) مع الجمع والتصرف.

(٢) معنى الكتاب هنا: التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام. والقوة: معناها هنا: الجدُّ والعزم والثبات.
والباء هنا: للملابسة، أي: أخذاً ملابساً للثبات على الكتاب، أي على العمل به، وحمل الأمانة على اتباعه، إذ قد أخذ الوهن والضعف يتطرّق بني إسرائيل في العمل بدينها. (تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٥) بتصرف يسير.

لقد آتاهُ الله تعالى رحمةً من عنده، وتحنّناً على العباد ليدعوهم إلى طاعة ربهم.

قال القرطبي: «قال جمهور المفسرين: الحنان: الشفقة والرحمة والمحبة؛ وهو فعل من أفعال النفس. وفي معنى الحنان عن ابن عباس قولان:

أحدهما: تعطّف الله عزّ وجل عليه بالرحمة.

والآخر: ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك، وأصله من حنين الناقة على ولدها. والعرب تقول: حنانك يا رب، وحنانيك يا رب بمعنى واحد، أي نريد: رحمتك.

وقال الزمخشري: حناناً: رحمةً لأبويه وغيرهما وتعطُّفاً وشفقة.

وقال ابن الأعرابي: الحنّان من صفة الله تعالى مشدّداً: الرحيم. الحنَان: مخفف: العطف والرحمة. الحنان: الرزق والبركة.

وقال ابن عطية: والحنان في كلام العرب أيضاً: ما عظم من الأمور في ذات الله تعالى. فالحنان هو العطف. وزكاة: الزكاة: التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر، والمعنى: جعلنا يحيى مباركاً للناس يهديهم، أو زكيناه بحسن الثناء عليه.

وكان تقياً: أي مطيعاً لله تعالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يلمَّ بها»[1].

ولتمام الحياة الزوجية جعل الله تعالى يحيى براً بوالديه، بعيداً عن العقوق قولاً وفعلاً، وأمراً ونهياً، قال تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ [مريم: ١٤]. والمعنى: أنه كثير البرِّ بهما، والإحسان إليهما، والحدب عليهما، وقد جعل الله طاعة الوالدين في المرتبة التي تلي مرتبة طاعته فقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومسك الختام أن حظي يحيى بثناء الله وتحيته وسلامه في ثلاثة مواقف ذكرها الله: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥].

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٥٩ ـ ٦٠) باختصار وتصرف يسير.

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «وتحية من الله عليه أول ما يرى الدنيا، وأول يوم يرى فيه أمر الآخرة، وأول يوم يرى فيه الجنة والنار. وإنما خص هذه المواضعَ الثلاثة، لأن العبدَ أحوجُ ما يكون إلى رضا ربّه فيها لضعفه وحاجته وقلة حيلته، وافتقاره إلى رحمة ربه ورأفته به»[1].

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن:

يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه.

ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم.

ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشرٍ عظيم، فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه».

ولابن كثير تعليق نفيس على قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ فلنستمع إليه إذ يقول: «هذه الأوقات الثلاثة أشدّ ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كلٍّ منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعد ما كان ألِفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء، وفارق لينها وضمّها، وينتقل من هذه الدار ليكابد همومها وغمها. وكذلك إذا فارق هذه الدار، وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدّور والقصور إلى عرصة الأمواتِ سكان القبور، وانتظر هناك نفخة في الصور، ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور، وما بين مجبور ومكسور، وفريق في الجنة وفريق في السعير! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمّك باكياً مُستصرخاً ... والناس حولك يضحكون سرورا
فاحرصْ لنفسكَ أنْ تكون إذا بكوا ... في يومِ موتك ضاحكاً مسرورا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما يكون على ابن آدم؛ سلّم الله على يحيى في موطن منها»[2].

---

(١) تفسير المراغي (٦/ ٣٤).

(٢) قصص الأنبياء (ص ٥٦١).

وقال الحسنُ البصريُّ: «إن يحيى وعيسى التقيَا، فقال له عيسى: استغفرْ لي أنت خيرٌ مني.

فقال له يحيى: استغفر لي أنت خيرٌ مني.

فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، وسلّم الله عليك، فعُرف والله فضلهما»(١).

هذه هي شَذَرات من حياة زوجة نبيِّ الله زكريّا، المرأة الصالحة، زوج نبيّ، وأم نبيّ، وخالة نبيّ، كانت امرأة خيّرة كريمة، عابدة طائعة، ذاكرة خاشعة، عملت على ما يحبُّ الله تعالى في سبيل أن تكون حياتها الزوجية مع نبيِّ الله زكريا مثالاً يُحتذى، وقدوة لكل النساء في كل زمان ومكان.

كانت إيشاع نِعْمَ الزوج، ونعم الصاحبة لزكريّا عليه السلام، ونعم الأم ليحيى عليه السلام، فقد كان هذا البيت السعيد يسارع في طاعة الله، والعمل بما يقرِّبهم إليه؛ قال تعالى في وصفهم ووصف من سبقهم من الأنبياء: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ألا يا معاشر النساء، أكثروا من قراءة ومطالعة سير هؤلاء الفاضلات، لتنشروا السعادة في بيوتكن، وتجعلوا من أولادكن بناة للمجتمعات فيما يُرضي الله تعالى ورسوله.

فرحم الله امرأة زكريّا، ورضي عنها، وألهَمَ نساءنا الاقتداء بسيرتها وسير الزوجات الصالحات ليكنّ من اللواتي يحظين برحمةِ الله ومرضاته.

* * *

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٥٦١)، وانظر: تفسير القرطبي (١١/ ٦١).

الفصل السابع

حياة محمد ـ ﷺ ـ الزوجية مع عائشة

في مفتَتَح ترجمته لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قال الإمام الذهبي في (سير أعلام النبلاء) موضِّحاً ومبيناً صورة وشخصية هذه الزوجة المباركة ما نصّه: «عائشة أم المؤمنين بنت الإمام الصّدّيق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرة بن كعب بن لؤي؛ القرشية التّيمية، المكيّة، النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي ﷺ، أفقهُ نساء الأمة على الإطلاق.

وأمُّها هي أم رُومان بنت عامر بن عويمر، بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة الكنانية.

هاجر بعائشة أبواها، وتزوّجها نبيُّ الله قبل مهاجره بعد وفاة الصِّدِّيقة خديجة بنت خويلد، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً، وقيل: بعامين؛ ودخل بها في شوال سنة اثنتين، منصرفه عليه الصلاة والسلام من غزوة بدر، وهي ابنة تسع؛ فروت عنه علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه»[1].

كانت السيدة أمُّ المؤمنين عائشة ميمونةَ النقيبة، لها أربعون منقبة لم تكن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/١٣٥-٢٠١)، ومجمع الزوائد (٩/٢٢٥-٢٤٤)، والمستدرك (٤/٤-١٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (انظر الفهارس ٧/١٥٥)، وأعلام النساء (٣/٩-١٣١)، وتفسير القرطبي (انظر الفهارس ٢١/٤١٧ و ٤١٨)، وطبقات ابن سعد (٨/٥٨-٨١)، وحلية الأولياء (٢/٤٣-٥١)، وكتب السيرة والتاريخ والأدب مما لا يحصى ولا يعد.

لغيرها، وكانت حياتها الزوجية مع النبي ﷺ مثالاً يُحتذى به.

ومن ألمع مناقب أم المؤمنين عائشة أن النبي ﷺ رآها زوجةً له في المنام أكثر من مرة، جاء هذا في الصحيحين بسند عن هشام بن عُروة عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أريتُك في المنام ثلاث ليالٍ، جاءني بك الـمَلَك في سَرقَة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشفُ عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يكُ هذا من عند الله يمضِهِ»[1].

ولِدت عائشة والإسلام يعطر الدنيا بعطره الشذيّ النديّ، نشأت بين أبوين مؤمنين بالله ورسوله، تقول عائشة: «لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين»[2].

وعرف الأبوان الكريمان أن طفلتهما الجميلة عائشة ذات يمن وبركة، لكنهما لم يكونا يعرفان أنها ستكون أماً للمؤمنين، وحاملة لراية العلم والفقه لأكثر من نصف قرن من الزمان في بيت الزوجية عند النبي ﷺ.

جاءت أوصاف أم المؤمنين عائشة عند الذهبيّ حيث قال: «وكانت امرأةً بيضاءَ جميلة، ومن ثَمّ يقال لها: الحميراء؛ ولم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها، ولا أحب امرأة حبها. ولا أعلم في أمة محمد ﷺ، بل ولا في النساء مطلقاً، امرأة أعلم منها، وذهب بعض العلماء إلى أنها أفضل من أبيها؛ وهذا مردود، وقد جعل الله لكلِّ شيء قدراً، بل نشهد أنها زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك فخر؟»[3].

وقد نزلت عائشة من قلب النبي ﷺ منـزلاً كريماً، حيث إنه لم يتزوج امرأة بكراً سواها، وأحبها حباً شديداً كان يتظاهر به، فقد كانت أحبَّ الناس إليه، وأبوها أحب الرجال إليه، قال الذهبي: «أحبَّ ـ ﷺ ـ أفضلَ رجل من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغضَ حبيبَيْ رسول الله ﷺ، فهو حريٌّ أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٨٩٥ و٥٠٧٨ و٥١٢٥ و٧٠١١ و٧٠١٢) ومسلم برقم (٢٤٣٨) واللفظ له، ومعنى سرقة: الشقق البيض من الحرير، وأن صورة عائشة كانت بها.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٤٠).

بغيضاً إلى الله ورسوله؛ وحبّه ﷺ لعائشة كان أمراً مستفيضاً، ألا تراهم كانوا يتحرون بهداياهم يومها تقرباً إلى مرضاته»[1].

وجاء عن عائشة أنها قالت: «كان الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة. قالت: فاجتمعن صواحبي إلى أم سلمة، فقلن لها: إن الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فقولي: رسول الله ﷺ يأمر الناس أن يهدوا له أينما كان. فذكرت أم سلمة له ذلك، فسكتَ، فلم يردّ عليها، فعادت إليه الثانية، فلم يردّ عليها، فلما كانت الثالثة قال: «يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها»[2].

وهذا الجواب منه ﷺ دالٌّ على أن فضل عائشة على سائر أمهات المؤمنين، بأمر إلٰهي وراء حبّه لها، وأنّ ذلك الأمر من أسباب حبّه لها[3].

وفي الحقيقة كان لأمِّ المؤمنين عائشة فضائل ومناقب تفرَّدت بها بين نساء الأمة، ورزقت بهذه المكارم من لدن حكيم مجيد.

فتعالوا نستمع إلى هذه المناقب الحِسان العظيمة التي كانت أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها ترويها فتقول: «لقد أعطيتُ تسعاً ما أعْطِيَتْها امرأةٌ بعد مريم بنت عمران.

لقد نزل جبريلُ بصورتي في راحته حتى أمِرَ رسولُ الله ﷺ أن يتزوجني.

ولقد تزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري.

ولقد قُبضَ ورأسه في حجري.

ولقد قبرته في بيتي.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٤٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣) والحديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٣).

ولقد حفّت الملائكة بيتي؛ وإن كان الوحي لينـزل عليه، وإني لَمَعه في لحافه.

وإني لابنة خليفته وصِدّيقه.

ولقد نزل عذري من السماء.

ولقد خلقت طيبة عند طيب.

ولقد وُعْدِت مغفرة ورزقاً كريماً»[1].

لقد انتقلت عائشة من بيت أبيها إلى بيت النبوة، وذلك في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة بُعيد غزوة بدر، انتقلت عائشة إلى بيت الزوجية، هذا البيت الذي غدا بيت النبوة ومهبط الوحي، وكان هذا في حجرةٍ ملاصقةٍ للمسجد النبوي، ولما غدت عائشة أمّاً للمؤمنين كنّاها النبي ﷺ أم عبد الله، وكانت حينئذٍ في عمر الزهر، حديثة السن، تلعب أحياناً مع صويحبات لها، وكان النبي ﷺ يُسرّبهنّ إلى عائشة أحياناً كي يلعبن معها، وكان ﷺ يُسرُّ لسرورها.

تروي السيدة العالمة أم المؤمنين عائشة جانباً من هذه المشاهد فتقول: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب بالبنات ـ اللعب ـ فقال: «ما هذا يا عائشة»؟

فقلت: خيل سليمان ولها أجنحة، فضحك[2].

إذن فقد كانت صويحبات عائشة وأترابها يأتينها بالإشارة الميمونة من سيد الكائنات محمد ﷺ، الذي كان يقدِّر حداثة سنها، وحاجتها إلى اللهو المباح لتستكمل حياتها الزوجية الناجحة. ومن هذا المنطلق العظيم عرفت عائشة اللطف النبوي بها، لذلك نجدها توجّه هذه الدعوة التربوية العظيمة إلى أولياء الأمور لكي يقدِّروا سنّ بناتهم فتقول: «فاقدروا قَدْرَ الجارية الحديث السّن،

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٢٤١)، وتفسير الكشاف (٧٤٢)، وأزواج النبي للصالحي (ص ١٢٠ ـ ١٢١)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٦٣ ـ ٦٤) وغيرها.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٦٢)، وأخرجه أبو داود في الأدب برقم (٤٩٣٢). والنسائي في عشرة النساء (١/ ٧٥).

الحريصة على اللهو». وفي رواية أخرى بنفس المعنى تقول: «فاقدروا قدر الجارية الحديث السنِ، التي تسمع اللهو».

ولما أذن الله بالقتال، وفُتح بابُ الجهاد، كان لعائشة دورٌ ميمون في المغازي النبوية، ولعل أول غزوة شهدتها كانت غزوة أحد، فكانت تسقي المجاهدين مع أربعة عشرة امرأة من نساء الصحابة وخيارهن ومنهن: السيدة المصونة فاطمة الزهراء، وأم أيمن الحبشية، وأم سليم بنت ملحان، وحمنة بنت جحش وأخريات.

وقد رسم الصحابيُ العالمُ أنس بن مالك صورةً واضحة المعالم لما قدمته عائشة وأمّه أم سليم في غزوة أحد فيقول: «. . . ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمِّرتان؛ أرى خَدَمَ ـ خلخال ـ سوقهما، تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم»[1].

وشاركت عائشة كذلك في غزوة الأحزاب، وغزوة بني المصطلق، تلك الغزوة التي نجم فيها رأس النفاق، وظهرت حادثة الإفك التي كذَّبها القرآنُ الكريم وأنزل براءة عائشة من فوق سبع سماوات.

ومجمل حديث الإفك الطويل الذي جاء في كتب الصحيح والسنن والسيرة وغيرها يتلخص في أنه لـمّا رجع النبي ﷺ بأصحابه من غزوة بني المصطلق، وكانت السيدتان المصونتان عائشةُ ابنة الصديق، وأم سلمة رضي الله عنهما بمعيَّة النبي ﷺ، بات الجيش في مكان على مسافة من المدينة المنورة، وقبل أن يؤذن الناس بالرحيل، ذهبت عائشة تقضي حاجتها، فجاوزت الجيش، وفي عودتها إلى رحلها، أحسَّت أنها فقدت عقداً لها، فرجعت إلى المحلِّ الذي كانت فيه تلتمسه، وأمِرَ الجيش بالرحيل وهي لا تزال في التماسه، وأقبل الموكلون بها فحملوا هودَجَها، ووضعوه على البعير الذي كانت تركبه وهم يظنون أنها فيه، ثم سار الجيش، وعادت عائشة فلم تجد أحداً، وغلبتها عينها

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٧٦)، والحديث متفق عليه.

فنامت مكانها، وكان صفوان بن المعطّل السلمي على ساقة الجيش، فتخلف عنه، وأصبح عند المنـزل الذي بقيت فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فرأى سواد إنسان نائم، واقترب منه، ولما عرفها أخذه الحزن، ورفع صوته قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ فاستيقظت على صوته، وخمَّرت وجهها بجلبابها، وصمت صفوان بعد ذلك فلم يزد على أن أناخ راحلته وقال: أمَّه، قومي فاركبي، ثم سار بها فأدرك الجيشَ بعدما نزل عند الظهر، قالت عائشة رضي الله عنها: فلما نزلنا هلك من هلك بالقول والافتراء، والذي تولى كِبْره عبد الله بن أبي ابن سلول، فإنه أول من أشاع الإفك بالمعسكر؛ ثم إن الله تعالى برأها، فشُرح صدر النبي ﷺ والمؤمنين بهذه البراءة إذ نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى بقية العشر آيات من سورة النور.

وبهذا التنـزيل العظيم، حُسِم أمر المنافقين، وكان شهادةً ربانيةً مباركة لأمّ المؤمنين عائشة وتنـزيهاً لساحتها مما رُميتْ به من السوء، وإعزازاً للنبي ﷺ، وتكريماً لآل أبي بكر الصديق الذين بلغت بهم المحنة مبلغاً هزَّت كيانهم حتى قالت عنهم عائشة: «والله ما أعلم أهلَ بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام».

وهكذا دُفنت حادثة الإفك التي أثارها زعيم المنافقين ورأس النفاق ابن سلول، فخاب سعيه وسعي جماعته، وحفظ الله الحياة الزوجية العائشية، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وقد شهد لعائشة سميتها في بيت النبوة، شهدت لها بالفضل والخير، تلك هي زينب بنت جحش[١] رضي الله عنها، فقد سألها النبي ﷺ عن عائشة قبل نزول براءتها، فقال لها: «ما علمتِ أو رأيتِ»؟.

فقالت: «يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيراً».

---

(١) اقرأ دورها في بيت الزوجية المحمدي في هذه الرسالة.

ومن الجدير بالذكر أن السيدةَ كبشة بنت رافع أم الصحابي الجليل سعد بن معاذ الأنصاري الأوسي، قد مدحت السيدة عائشة أم المؤمنين، وشهدت بطهارتها وطيب عنصرها فقالت هذه الأبيات:

تتقي اللهَ في المغيبِ عليها ... نعمةُ اللهِ سرّها ما يريمُ
خيرُ هدي النّساء حالاً ونفساً ... وأباً للعُلا نَماها كريمُ
للموالي إذْ رموها بإفكٍ ... أخذتهم مقامعٌ وجحيمُ
ليت مَنْ كان قد قَفَاها بسوءٍ ... في حطام حتى يسولَ اللئيمُ[1]

وقال عروة بن الزبير: «لو لم يكن لعائشة رضي الله عنها من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً وعلوَّ مجدٍ، فإنها نزل فيها من القرآن ما يُتلى إلى يوم القيامة»[2].

وما أجمل أن نثبت قصيدة أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي المعروف بابن بهيج، وهذه القصيدة النادرة في مدح أمِّ المؤمنين السيدة عائشة، واسمها القصيدة الوضاحية، وقد أحببت أن أثبتها كاملة في هذا المقام لندرتها، والقصيدة هي:

ما شانُ أمِّ المؤمنين وشاني ... هُدِيَ المحبُّ لها وضلّ الشّاني
إني أقولُ مبيّناً عن فضْلِهَا ... ومترجماً عَنْ قولِها بلساني
يا مبغضي لا تأتِ قَبْرَ محمدٍ ... فالبيت بيتي والمكانُ مكاني
إنّي خُصِصْتُ على نساء محمدٍ ... بصفاتِ برٍّ تحتهنَّ معاني
وسبقتهنّ إلى الفضائلِ كُلّها ... فالسَّبْقُ سبقي والعِنانُ عِناني
مَرِضَ النبيُّ ومات بين ترائبي ... فاليوم يومي والزمانُ زماني
زَوْجي رسولُ الله لم أرَ غيرهُ ... اللهُ زوّجني به وحَباني
وأتاه جبريلُ الأمين بصورتي ... فأحبني المختارُ حين رآني
أنا بِكْرُهُ العذراءُ عندي سرّهُ ... وضجيعهُ في منزلي قمرانِ

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٢٣٥).
(٢) أسد الغابة ترجمةر قم (٧٠٨٥).

وتكلّـــم اللهُ العظيـــمُ بحُجَّتـــي ... وبــراءتــي فــي مُحْكــمِ القــرآنِ
والله خفّــرنــي وعظّــم حُــرْمَتــي ... وعلــى لســان نبيّــه بــرّانــي
والله فــي القــرآن قــد لعــنَ الــذي ... بعــد البــراءةِ بــالقبيــحِ رمــانــي
والله وبّـــخَ مَـــنْ أراد تنقصـــي ... إفْكــاً وسَبّــحَ نفسَــهُ فــي شــانــي
إنـــي لَمُحصَنَـــةُ الإزارِ بـــريئـــةٌ ... دليــلُ حُسْــنِ طهــارتــي إحْصــانــي
والله أحصننـــي بخـــاتـــم رسْلِـــهِ ... وأذلّ أهْـــلَ الإفـــكِ والبهتـــان
وسمعْـــتُ وَحْـــيَ الله عنـــد محمـــدٍ ... مـــن جِبْـــرَئيـــلَ ونـــوره يغشـــانـــي
أوْحـــى إليـــهِ وكنـــتُ تحـــتَ ثيـــابـــهِ ... فحنـــى علـــيّ بثـــوبـــه وخبّـــانـــي
مَـــنْ ذا يفـــاخـــرُنـــي وينْكِـــرُ صحبتـــي ... ومحمـــدٌ فـــي حجـــره ربّـــانـــي؟
وأخـــذتُ عـــن أبـــويّ ديـــنَ محمـــدٍ ... وَهمـــا علـــى الإســـلام مصْطحبـــان
والفخْرُ فخري والخلافةُ في أبي ... حسْبـــي بهـــذا مفخـــراً وكفـــانـــي
وأنا ابنةُ الصِّدّيق صاحبِ أحمدٍ ... وحبيبـــهِ فـــي السّـــرِّ والإعـــلانِ
نَصـــرَ النبـــيَّ بمـــالـــهِ وفِعـــالـــهِ ... وخُـــرُوجـــهِ معـــه مِـــنَ الأوطـــان
ثـــانيـــه فـــي الغـــارِ الـــذي ســـدّ الكُـــوَى ... بـــردائـــهِ أكْـــرم بـــهِ مـــن ثـــانِ
وجفـــا الغنِـــى حتـــى تخلّـــل بـــالعَبَـــا ... زُهـــداً وأذعـــنَ أيّمـــا إذْعـــانِ
وتخلّلـــت معـــهُ مـــلائكـــةُ السّمـــا ... وأتتْـــهُ بُشـــرى الله بـــالـــرِّضـــوانِ
وهـــو الـــذي لَـــمْ يَخْـــشَ لـــومـــةَ لائـــمٍ ... فـــي قَتْـــلِ أهـــلِ البغْـــي والعُـــدوانِ
قَتَـــلَ الأُلَـــى مَنعوا الـــزكـــاة بكفـــرهـــم ... وأذل أهْـــلَ الكفـــر والطغيـــانِ
سبـــقَ الصحـــابـــةَ والقـــرابـــةَ للهـــدى ... هُوَ شيخهم في الفضلِ والإحسانِ
والله مـــا استبقـــوا لنيْـــلِ فضيلـــةٍ ... مثْـــلَ استبـــاق الخيـــل يـــومَ رِهـــانِ
إلا وطـــارَ أبـــي إلـــى عَلْيـــائهـــا ... فمكـــانـــه منهـــا أجَـــلُّ مكـــانِ
وَيْـــلٌ لعبـــدٍ خـــانَ آلَ محمـــدٍ ... بَعـــــدواةِ الأزواج والأخْتـــــان
طـــوبـــى لمـــن والـــى جمـــاعـــةَ صحبـــهِ ... ويكـــونُ مـــن أحبـــابـــهِ الحَسَنـــانِ
بيـــنَ الصحـــابـــة والقـــرابـــةِ ألفَـــةٌ ... لا تستحيـــلُ بنـــزغـــةِ الشيطـــانِ
هُمْ كالأصابع في اليدين تواصلاً ... هـــل يسْتـــوي كـــفٌ بغيـــر بنـــانِ؟
حَصِرتْ صُدورُ الكافرين بوالدي ... وقلـــوبُهـــم مُلِئـــتْ مـــن الأضغـــانِ
حُـــبّ البتـــولِ وبَعْلِهـــا لـــم يختلـــفْ ... مـــن ملّـــةِ الإســـلام فيـــه اثنـــانِ

أكـرم بـأربعـةٍ أئمـةِ شَـرْعنـا ... فهُـمُ لِبيـتِ الـديـنِ كـالأركـانِ
نُسِجتْ مودّتهم سَدىً في لُحْمةٍ ... فبنـاؤهـا مِـنْ أثْبـتِ البُنيـانِ
اللهُ ألّـفَ بيـن ودِّ قلـوبهـمْ ... ليَغيـظَ كـلَّ منـافـقٍ طعّـانِ
رُحمـاءُ بينهـم صَفَـتْ أخـلاقُهـم ... وخَلَـتْ قلـوبُهـمُ مِـنَ الشنـآنِ
فـدُخـولهـم بيـنَ الأحبّـةِ كُلْفـةٌ ... أسبـابُهُـم سَبَـبٌ إلـى الحـرمـانِ
جَمَـعَ الإلٰـهُ المسلميـن علـى أبـي ... وَاستُبـدلـوا مِنْ خـوفهـم بـأمـانِ
وإذا أراد الله نُصـرةَ عبـدهِ ... مَـنْ ذا يُطيـقُ لـه علـى خُـذلانِ
مَـنْ حبّنـي فلْيجتنـبْ مَـنْ سبّنـي ... إنْ كـان صـادقَ محبّتـي ورعـانـي
وإذا مُحبِّـي قـد ألَـظَّ بِمُبغضـي ... فكـلاهمـا فـي البُغـضِ مُستـويـانِ
إنـي لطيّبـةٌ خُلِقـتُ لطيّـبٍ ... ونسـاءُ أحمـدَ أطيـبُ النّسـوانِ
إنـي لأمُّ المـؤمنيـنَ فَمـنْ أبـى ... حبّـي فسـوف يبـوءُ بـالخُسـرانِ
الله حبّبَنـي لقلـبِ نبيّـهِ ... وإلـى الصـراط المستقيـم هـدانـي
والله يُكـرمُ مَـنْ أراد كـرامتـي ... ويُهيـنُ ربّـي مـن أراد هـوانـي
واللهُ أسـألـهُ زيـادة فضلـهِ ... وحَمِـدْتـهُ شكْـراً لمـا أوْلانـي
يـا مـن يلـوذُ بـأهـلِ بيـتِ محمـدٍ ... يـرجـو بـذلـك رحمـةَ الـرحمـانِ
صِـلْ أمّهـاتِ المـؤمنيـنَ ولا تَحُـدْ ... عنّـا فَتُسلَـبُ حُلّـةَ الإيمـانِ
إنـي لصـادقـةُ المقـالِ كـريمـةٌ ... إيْ والـذي ذلّـتْ لـه الثقـلانِ
خُـذْهـا إليـك فـإنّمـا هـي رَوْضـةٌ ... محفـوفـةٌ بـالـروحِ والـرّيحـانِ
صلّـى الإلٰـهُ علـى النبـيّ وآلـهِ ... فبِهـمْ تُشـمُّ أزاهِـرُ البستـانِ[1]

وقد شاركَ كثير من محبّي أمِّ المؤمنين عائشة في نظم قصتها شعراً، ومنهم من المعاصرين أحمد محرم في ديوانه (مجد الإسلام)[2] حيث نظم نونيته بلغت (٨٣ بيتاً) في قصة حادثة الإفك وبراءة السيدة عائشة رضي الله عنها.

إن حياةَ أم المؤمنين عائشة حياةٌ مفعَمَةٌ بالأحداث المباركة، وقد سجَّل

---

(١) انظر: القصيدة الوضّاحية في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) انظر: مجد الإسلام (ص ٢٠٠ ـ ٢٠٦).

القرآنُ الكريم بعضَها مشيراً إلى يمنها وبركتها، فقد كانت نِعمَ الزوجة المعينة على عمل الخيرات، المؤمنة التي تطلب رضا ربِّ السماوات، الحريصة على أداء جميع الطاعات، ومن ذلك أنه لما نزلت آية التخيير من سورة الأحزاب، كان للسيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها موقف مبارك سرّ النبي ﷺ، حتى رُؤي الفرحُ في وجهه الشريف، فقد بدأ النبي ﷺ بعائشة وسألها فقال: «إني ذاكر لكِ أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك»، وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: إن الله قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ .. ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلتُ له: ففي أيِّ هذا أستأمر أبوي؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[1].

قالت: ثم فعلت أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت، واخترْنَ اختيارها، فشكر الله لهن ذلك فأنزل: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٢][2].

ومن يمن أم المؤمنين عائشة على المسلمين أنْ نزلت آية التيمم بسببها تيسيراً على المؤمنين؛ فقد أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنّا بالبيداء ـ أو بذات الجيش ـ انقطع عِقْدٌ لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسِهِ، وأقام الناس معه، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسولُ الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبستِ رسولَ الله ﷺ والناسَ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء!

قالت: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول: وجعل يطعَنُني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي. فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا. فقال أُسَيد

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٤٦) برقم (٤٧٨٥ و ٤٧٨٦)، ومسلم برقم (١٤٧٥)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٥٩٦)، وتفسير الكشاف (ص ٨٥٣).

(٢) انظر تفسير الطبري للآية (٥٢) من سورة الأحزاب.

بن الحضير ـ وهو أحد النقباء ـ: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر!

فقالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه، فوجدنا العقد تحته»(١).

وفي هذه المناسبة المباركة تقول أمُّ المؤمنين عائشة عن أبيها: «يقول أبي حين جاء من الله الرخصة للمسلمين: والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة! ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر»(٢).

وعندما أنزل الله آية التيمم، قال أسيد بن الحضير رضي الله عنه لأم المؤمنين عائشة: «جزاكِ الله خيراً، فواللهِ ما نزل بك أمر قط تكرهينه إلا جعل الله لكِ فيه خيراً»(٣).

وقال أسيد بن الحضير أيضاً في هذه المناسبة الميمونة: «لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم»(٤).

وكان في حياة السيدة الصديقة الصادقة عائشة أم المؤمنين مواقف جميلة، إذ كانت حياتها الزوجية مع رسول الله ﷺ مثل سائر النساء، تغضب وترضى، ولنستمع إلى الصَّحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري وهو يروي لنا هذه الصورة الجميلة واللطيفة من الحياة الزوجية العائشية في بيت النبوة فيقول:

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض، باب التيمم برقم (١٠٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣١). قال النووي رحمه الله ما ملخصه في شرحه لهذا الحديث: «التيمم في اللغة: هو القصد. واعلم أن التيمم ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو خصيصة خصّ الله سبحانه وتعالى به هذه الأمة زادها الله تعالى شرفاً. وأجمعت الأمة على أن التيمم لا يكون إلا في الوجه واليدين، سواء كان على حدث أصغر أو أكبر، وسواء تيمم عن الأعضاء كلها أو بعضها والله أعلم.
والبيداء وذات الجيش موضعان بين المدينة وخيبر. والعِقد: كل ما يعلّق في العنق، فيسمى عقداً وقلادة. ومعنى: فعاتبني. . . وجعل يطعُن بيده في خاصرتي: فيه تأديب الرجل ولده بالقول والفعل والضرب ونحوه. وفيه تأديب الرجل ابنته وإن كانت كبيرة متزوجة خارجة عن بيته» (المنهاج ص ٤٠٨-٤١٠) باختصار.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧١) نقلاً عن المسند (٦/ ٢٧٢). وفي المسند أن عائشة قالت بآخر الحديث: «فأنزل الله الرخصة في التيمم، فتيمم القوم وصلوا».

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٠) وانظر تخريج الحديث فيه.

(٤) الحديث رواه البخاري (٦/ ٤٦)، وانظر: السيرة الحلبية (٢/ ٦٢٧).

«استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، فقال: يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ!!

فحال النبي ﷺ بينه وبينها، ثم خرج أبو بكر، فجعل النبي ﷺ يترضّاها، وقال: «أَلَمْ ترِيْني حُلْتُ بين الرجل وبينك»؟ ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى، فسمع تضاحكهما، فقال: أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما، قالا: قد فعلنا»[1].

ومن وسائل الرعاية النبوية الزوجية لأم المؤمنين عائشة ما جاء في الصحيح عنها قالت: «قدم وفد الحبشة على رسول الله ﷺ، فقاموا يلعبون في المسجد، فرأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إليهم حتى أكون أنا التي أسأم»[2].

ومن ألوان الحياة الزوجية اللَّطيفة أن النبيَّ ﷺ كان يسابقها ويمزح معها، فقد روتْ هذا أمُّ المؤمنين عائشة قالت: «سابقني النبي ﷺ فسبقته ما شاء، حتى إذا رهقني اللحم، سابقني فسبقني فقال: «يا عائشة هذه بتلك»[3]

لقد عاشت أمُّنا عائشة رضي الله عنها في كنف النبي ﷺ الذي كان بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم، فلم يفقدْها إحساسَها بصباها وزهرة حياتها الزوجية الأولى، فكانت تمرح كبقية الصبايا اللواتي كُنّ في مثل سنّها.

ولكن هذه الفترة الجميلة لم تَطُلْ في الحياة الزوجية لعائشة في البيت النبوي، فسرعان ما شعرت السيدة عائشة بأنها صارت أمّاً للمؤمنين، وعرفت أن لهذه الأمومة ضريبتها، فاقتربت من النبي ﷺ تسمع منه، وتحفظ عنه، تعي

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣١)، وللحديث أصل عند أحمد في المسند (٢/ ٢٧١ و٢٧٢)؛ وأخرجه أبو داود في الأدب برقم (٤٩٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في مواضع برقم (٤٥٤و ٩٥٠و ٥٢٣٦) وانظر أيضاً الأحاديث رقم (٤٥٥و ٩٨٨و ٢٩٠٦و ٣٩٣١و ٥١٩٠)، ومسلم برقم (٨٩٢)، وأحمد في المسند (١/ ٨٤و ٨٥و ١١٦و ٢٧٠)، والنسائي (٣/ ١٩٥)؛ وانظر: السمط الثمين (ص ٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٧٨)، وابن ماجه برقم (١٩٧٩)، والنسائي (٢/ ٧٤)، وأحمد في المسند (٦/ ٣٩و ١٢٩و ١٨٢و ٢٦١و ٢٨٠و ٣٦٤).

وتستفسر عما غمض عنها، وتشرح للنساء ما ينبغي أن يعرفنه من أمور دينهنّ.

وعندما توفِّي رسول الله ﷺ، كانت عائشة رضي الله عنها في حدود الثامنة عشر من العمر، ولكنها ملأتْ أرجاءَ الأرض علماً وفقهاً، وصدقاً في الأمانة والرواية، وكان أصحاب النبيِّ الأكابر إذا أشكل عليهم أمر في الفرائض، طاروا إليها، فأوضحت لهم ما أشكل، وأبانت الحقيقة والهدف.

ومما ساعد أمَّ المؤمنين عائشةَ على الإتقان، معرفتها القراءة آنذاك، لذلك تفوّقت على نساء الصحابة في هذا المجال، ولكن يحسن بنا أن ننصف باقي أمهات المؤمنين فنقول: لا ريبَ في أن أزواج النبيِّ الطاهرات كنّ مصدر علم ورواية أيضاً، وأفدن الأمة في العلم والفقه والفتوى.

أما عائشة فقد روت علماً مباركاً عن النبي ﷺ وعن كبار الصحابة، وروى عنها عدد من فضلاء الصحابة والتابعين والتابعيات، تكفّلت بعض المصادر بذكر أسمائهم[1].

بلغت مرويات عائشة (٢٢١٠ أحاديث)، وهي معدودة من أصحاب الألوف في الرواية، وكانوا سبعةً من الصحابة وهم على الترتيب حسب مروياتهم: أبو هريرة، عبد الله بن عمر، أنس بن مالك، عائشة بنت أبي بكر، عبد الله ابن عباس، جابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم.

كما كانت من الصحابة المكثرين في الفتيا، وهم سبعة أيضاً وأسماؤهم: عائشة أم المؤمنين، عمر بن الخطاب، ابنه عبد الله بن عمر، علي بن أبي طالب، عبد الله بن عباس، عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم[2].

وذكر عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: «كانت عائشةُ قد اشتغلت

---

(١) انظر مثلاً: تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٣٣-٤٣٦)؛ وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥-١٣٩) وغيرهما.

(٢) الإحكام لابن حزم (٢/ ٨٩).

بالفتوى في خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وهلم جرّ إلى أن ماتت وكنت ملازماً لها»[1].

ولهذا كان أكابر العلماء من الصحابة والتابعين يثنون على أم المؤمنين عائشة وعلى عِلْمها، فيقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكلَ علينا أصحابُ محمد ﷺ حديثاً قطُّ، فسألنا عنه عائشة، إلا وجدنا عندها منه علماً»[2].

وقال مسروق بن الأجدع: «والله، لقد رأيت أصحابَ محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض»[3].

أما الزهري فيقول: «لو جمع علم عائشة إلى علم جميع نسائه ﷺ لكان علم عائشة أفضل»[4].

وأما ابن أخت عائشة عروة بن الزبير، وهو من علماء التابعين الأكابر فيقول عن خالته: «صحبتُ عائشة، فما رأيتُ أحداً قطُّ كان أعلمَ بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنّة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، لا بقضاء، ولا طبّ منها؛ فقلت لها: يا خالة، الطبّ من أين عُلّمتيهِ؟ فقالت: كنتُ أمرض، فيُنْعَت لي الشيء، ويمرض المريض فيُنعت له، وأسمع الناس ينعتُ بعضهم لبعض فأحفظه»[5].

ولأم المؤمنين عائشة وقفات جميلة مع بناء الحياة الزوجية للنساء، من ذلك نصائحها للمتزوجات أو من أردْنَ الزواج أن يتزينّ للزوج فتقول لإحدى النساء ناصحةً ومعلِّمة وموجهة: «أميطي عنك الأذى، وتصنّعي لزوجك كما تصنعين

---

(١) أنساب الأشراف (١/ ٤١٨).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٩٧٠).
(٣) أسد الغابة (٦/ ١٩١).
(٤) مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٣)، والمستدرك (٤/ ١١).
(٥) حلية الأولياء (٢/ ٤٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٣)، وقال عروة: «فلقد ذهب عامة علمها، لم أسأل عنه».

للزيارة، وإذا أمرك فلْتطيعيه، وإذا أقسم عليك فأبرِّيه، ولا تأذني في بيته لمن يكره».

لوكانت عائشة تحبُّ المرأة الصَّناع التي تعمل بيدها وفي ذلك تنصح بنات حواء بقولها المأثور: «المغزل بيد المرأة أحسنُ من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله»[1].

وعاشت أمُّ المؤمنين قرابة نصف قرن بعد وفاة النبي ﷺ وبيتها ينبوع العلم وموئل العلماء إلى أن لقيت ربها في رمضان عام (٥٨ هـ) حيث رحلت بعد أن ملأت الدنيا علماً وخلّفت علماً جماً، فرضي الله عنها وأرضاها، وغفر لنا وجمعنا وإياها في الجنة.

* * *

---

(١) أعلام النساء (٣/ ١٨٨).

الفصل الثامن

حياة محمد ـ ﷺ ـ الزوجيّة مع زينب بنتِ جحش

في الرِّحلةِ الميمونة مع الحياة الزوجية في حياةِ الأنبياء، نعيش مع سيدةٍ عظيمة كان لها كبير الأثَرِ في حياة سيِّد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، وجاءت قصتُها واضحةً في القرآن الكريم والسنة المطهرة، بالإضافة إلى كتب السيرة النبوية وكتب التراجم والطبقات والتاريخ والتفاسير.

هذه المرأة النجيبة الحسيبة هي زينبُ بنت جحش بن رياب الأسدية القرشية[1]، ابنة عمة النبي ﷺ، حيث إن أمَّها هي أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية، وزينب هي أخت حمنة، وعبد الله، وأبي أحمد رضي الله عنهم جميعاً.

كانت السيدة المصونة زينبُ من المهاجرات الأُوَل، وكانت تكنى أم الحكم.

ولِدت زينب بمكة، وولد معها نصيب كبير من شرف السيادة، وحسن الأحدوثة، وطيب العنصر، حتى إنها كانت تفتخر بهذه العراقة والأصالة والحسب والنسب الزاكي، وكانت تقول أحياناً: «أنا سيدة أبناء عبد شمس»[2].

---

(١) المسند (٦/ ٣٢٤)، وطبقات ابن سعد (٨/ ١٠١)، وحلية الأولياء (٢/ ٥١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٢١١-٢١٤)، والكامل في التاريخ (٢/ ١٧٧و١٩٧ و٣٠٩و ٣١٧و ٥٦٩)، وغرر التبيان (ص ٤٢٠ و ٤٤١و ٤٤٢و ٥١٢)، وتفسير القرطبي (الفهارس ٢١/ ٤١٥)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٤٦-٢٤٨) وغيرها كثير.

(٢) السمط الثمين (ص ١٢٩).

وفي الحقيقة صدقت فراستها حينما أضْحَتْ من أمهات المؤمنين وغدت زوجةً لخير المرسلين.

وتاريخُ السيدةِ زينب بنت جحش رضي الله عنها تاريخٌ وضيءٌ مشرق منذ أن عطرت أنسام الإيمان مكة المكرمة، إذ بادرت إلى الدخول في دين الله مع ثلة ميمونة من نساء عشيرتها الأسديات وغيرهن ممن دخل الإيمانُ في قلوبهنَّ.

وفي تاريخ الهجرة المباركة إلى المدينة المنورة سجَّلت نساء بني أسد سبقاً محموداً في هذا المِضمار، فعندما ذكر ابنُ إسحاق المهاجرين إلى المدينة المنورة، أورد أسماءَ طائفةٍ منهن فقال عن المهاجرات: «ومن نسائهم: زينبُ بنت جحش، وأمُّ حبيب بنت جحش، وجُذامة بنت جندل، وأم قيس بنت مِحْصَن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم، وحمنة بنت جحش»[1].

ومن الطَّريف أن أبا أحمد بن جحش قد سجّل ورسم بأشعاره الجميلة هجرة قومه بني أسد، من ذلك هذه الأبيات:

ولو حلفتْ بين الصّفا أمُّ أحمد ... ومَرْوتها باللهِ برّت يمينُها
لَنَحنُ الأُلى كنا بها ثمّ لم نزلْ ... بمكةَ حتى عادَ غثاً سمينُها
إلى الله نغدو بين مثنى وواحدٍ ... ودينُ رسولِ الله بالحقّ دينُهَا[2]

وفي أرض طيبة الطيبة أخذت زينب مكانتها بين رعيل المهاجرات الأول، بل كان قومُها بنو أسد أهلَ هجرة وإسلام وتضحية وإيمان، حتى ذكرت كتب السيرة أن دورَ بني أسد قد غُلِّقت بسبب الهجرة، وغدت خلاءً من أهلها، ليس فيها ساكن، مما جعل بعض رجال قريش يتأثر من هذه الهجرة ويتوجَّع، واستولى أبو سفيان على دورهم وتملّكها وباعها، فذكر عبد الله بن جحش الأسدي ذلك لرسول الله ﷺ وشكا له فِعْلة أبي سفيان، قال له: «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً في الجنة خيراً منها»؟

---

(١) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ١٢٦).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٢٧)، والبداية والنهاية (٤/ ١٧٠ ـ ١٧٢).

قال عبد الله: بلى يا رسول الله.

قال: «فذلك لك»[١].

فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلّمه أبو أحمد في دارهِمْ، فأبطأ رسولُ الله ﷺ، فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد، إنَّ رسولَ الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالِكُم أصيبَ منكم في الله عزَّ وجلَّ، فأمسك عن كلامِ رسول الله ﷺ؛ وقال لأبي سفيان:

أبلـــغ أبـــا سفيـــان عـــن ... أمـــرٍ عـــواقِبُـــه نـــدامَـــهْ
دارَ ابْـــنِ عمِّـــك بِعْتَهَـــا ... تقضـــي بهـــا عنـــك الغـــرامَـــهْ
وحليفكـــم بـــالله ربّ الـــنـــاس مجتهـــدُ القســـامَـــهْ
اذهـــبْ بهـــا اذهـــبْ بهـــا ... طـــوّقتهـــا طـــوق الحمـــامـــهْ[٢]

كانت زينب بنت جحش رضي الله عنها ذات صفات حميدة بين النساء، ذكرها أبو نعيم الأصفهاني في مفتتح ترجمته لها فقالَ: «الخاشعةُ الرّاضية، الأوّاهة الداعية»[٣]، وكانت كذلك من سادة النساء في الدِّين والورع والجود والمعروف وعمل الخيرات والكرم المشهور.

ولعل هذه الصفات والعناصر الكريمة التي جُمعت واجتمعت في زينب قد جعلتها مثلاً طيباً بين النساء في الامتثالِ لأمرِ الله وأمر رسوله، وبالتالي وصفها الله تعالى ودعاها بلفظ «مؤمنة» في القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فالمؤمنةُ المقصودةُ في هذه الآية هي السيدةُ زينبُ بنتُ جحشٍ رضي الله عنها، وهي الأديبةُ الشريفةُ الحسيبة الممتثلة للأوامر الإلٰهية ليتحقق التقوى وتزول حمية الجاهلية.

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ١٦٥)، والحديث ضعيف كما قال محققا السيرة لأن في سنده الواقدي.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٥١).

وتتلخَّصُ قصةُ ذلك بأن خطبَ النبيُّ ﷺ ابنة عمته زينب لمولاه وحِبِّه زيدِ بن حارثة رضي الله عنه لكي تزولَ الفوارقُ ويتحقق أمر الله. وعندما سمعت زينب بذلك دُهِشت، حيث لم تتوقع أن تتزوج من زيدٍ وهو مولى، وأما هي فذاتُ نسبٍ رفيع، وقالت للنبيِّ ﷺ: «يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أيِّم قريش»[١]، وفي رواية أنها قالت: «لا أتزوج أبداً، وأنا سيدة عبد شمس»؛ وشاركَها في رأيها أيضاً أخوها عبد الله بن جحش الذي شقّ عليه أمرُ هذا الزواج، حيث كانت عاداتُ العرب لا تسمح ولا تقبل بهذا مطلقاً، ولكنَّ الإسلام جعل التقوى ميزان العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ وأقبل النبيُّ ﷺ على زينب وقال لها: «بل انكحيه، فإني قد رضيتُه لك».

قال ابن قيم الجوزية في هذا المجال موضِّحاً مقصد النبي ﷺ: «فالذي يقتضيه حكمُهُ ﷺ اعتبار الدِّين في الكفاءة أصلاً وكمالاً، فلا تتزوج مسلمةٌ بكافرٍ، ولا عفيفةٌ بفاجرٍ، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمراً وراء ذلك، فإنه حرّم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبرْ نسباً ولا صناعة، ولا غنى ولا حرية، فجوّزَ للعبد القِنّ نكاح الحرة الحسيبة الغنية إذا كان عفيفاً مسلماً، وجوّزَ لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات، وللفقراء نكاح الموسرات»[٢].

وقد طبق النبيُّ الكريمُ هذه القاعدةَ عملياً، فقد ورد أنه قالَ لبني بياضة: «أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه»، وكان أبو هند هذا حجاماً والعرب تستقذر هذه الحرفة، وقد زوّج النبيُّ ﷺ الحسيبةَ الجميلةَ الأريبة زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة، كما زوَّج فاطمة بنت قيس الفهرية القرشية من أسامةَ بن زيد، وتزوج بلال بن رباح من أختِ الصَّحابي الجليل الحسيب النسيب عبد الرحمن ابن عوف القرشية، وقد قال تعالى في هذا: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠١). والأيِّم: مَنْ لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً.
(٢) زاد المعاد (٥/ ١٥٩ و١٦٠).

وأذعنت زينبُ للأمر الإلهي، وسمعت كلامَ الله ورسوله، وتزوجت من زيدٍ، فهي من المؤمنات اللواتي سمعْنَ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وسارع أخوها عبدُ الله أيضاً إلى طاعةِ الله، وقالا للنبي ﷺ بلسان الإيمان والتسليم: «رضينا يا رسولَ الله».

أما زينب فقد قالت للنبي ﷺ: «قد رضيتُه يا رسول الله منكحاً».

فقال لها ﷺ: «قد رضيتُه لكِ».

فأجابته زينب: «إذن لا أعصي رسول الله ﷺ، وقد أنكحته نفسي».

ورضيت زينبُ بالقضاء الإلهي، ورضيت بما قاله لها النبي ﷺ، وسيق لها المهر، وبنى بها زيدٌ، وتقرَّرت المساواة بينهما على أساس التقوى.

وسارت الحياة بين زيد وزينب هادئة بسيطة باديَ الأمر، ثم ما لبثت الخلافات تنمو بينهما، وغابت السعادة الزوجية عن بيتهما، ولم يستطع زيد أن ينسجم مع زينب التي كانت تعمدُ إلى التَّعالي عليه في الحسبِ والنسبِ الرفيع.

وكان زيد رضي الله عنه ربيب بيت النبوة الطاهر، فقد صُنِع على عيني سيدِنا رسولِ الله ﷺ، وآلمه تعالي زينب عليه، فاشتكى للنبي ﷺ مراراً يقول له: «يا رسول الله، إنَّ زينبَ تتعظَّم عليَّ لشرفِها، وإن فيها كبراً، وهي تؤذيني بلسانِها».

وكان النبي ﷺ يخفِّفُ عن زيدٍ وينصحُهُ بإمساكِها والصبر عليها ويقول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فيرجع زيد إلى زينب، ولكن أموره لم تستقر لحكمة إلهية بالغة من الله تعالى، إذ شاء سبحانه أن تتلاشى عادة التبنّي[1]، وتُلغى التقاليد الجاهلية وظواهرها في بعض العادات؛ ومنها عادة

---

(١) التبنّي: هو أن يتخذ أحدٌ ابنَ غيره ابناً له، ويعطيه من الحقوق ما يعطيه لابنه الحقيقي؛ ومن ظواهر التبني: أن أحكامه تقضي بالتوارث بين الأب وابنه بالتبني، فكأنه ابنه الحقيقي ما في قول رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة عندما تبنّاه: «اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني». وقوله ﷺ لزيد هنا ليس شرعاً سماوياً، لأن ذلك كان قبل البعثة استصحاباً للحال الذي عليه أهل زمانه، فلا يعتبر هذا دليلاً على مشروعية التبني في الإسلام. =

التبنِّي، تلك العادة التي كانت سائدة عصر ذاك.

ومن الواضحِ أنّ ظاهرةَ التبني كانت ظاهرةً مألوفة لدى الناس، ومتغلغلةً في نفوسهم ومشاعرهم وعاداتهم، وليس من السَّهل أن يتغلبَ عليها أحدٌ دون أن يكسرَ طوقَها القديم، ويخرقَ مألوفَها، ولذا فلا بد لذلك من الـمَثَل الكامل والقدوة الحسنة للناس؛ ومن هنا كان لا بدَّ من مباشرة ذلك من إمام الأمة وقائدها ومعلِّمها، ليكون أدعى للاستجابة، وأسرع في التنفيذ، وأحكم في القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية المضرَّة بكيان الأسر والمجتمعات في بنائها على غير وضعها الطبيعي، وهل يقومُ على مخالفة مألوف العرب، وتحطيم أغلال عاداتهم وخرافاتهم إلا رجلٌ ملك الإيمانُ نفسَه، وملأ الحقُّ قلبَه، وتغلغلت فيه الشجاعةُ الخلقية؟ ذلك هو النبي ﷺ، فقد باشر ذلك بنفسه سَنّاً للشرائع، وإيضاحاً لأمور الدين، وتبياناً للعالمين؛ وتصحيحاً لأوهام الناس وأعرافهم، وصَهْرها في قالب الحق والعدالة؛ وقد خرج النبي ﷺ على مألوف العرب، وغيّر وجهة أحوالهم ومعتقداتهم، لأنهم كانوا يدعون للدّعيّ ما للابن من الحقوق من إرثٍ ونسبٍ، ورسخَ في أذهانهم حتى حطم النبي ﷺ ذلك بنفسه الظاهرة الصافية الشريفة.

ولهذا كلِّه لما غدت الحياة الزينبية الزيدية لا تُطاق، وأمستْ تتعثر في كل خطوة، جاء السماح لزيد بالطلاق تحقيقاً وتنفيذاً لأمر الله تعالى عندما خاطب رسوله بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

= ومن أحكام هذا التبني أنه يسري الحكم في المحرمات، فزوجة الابن المتبنَّى مثلاً تحرُم على أبيه المتبني. ولما كان في هذه الأحكام والأمور الجاهلية من أضرار بالحقوق الأسرية، وإقامة العلاقات العائلية على غير وضعها الطبيعي، جاء الإسلام ليبطل التبني بالتدريج، لأن عادة التبني كانت متأصلة في نفوس الناس، وليس من السهل أن تزولَ بين يوم وليلة دون أن يكون للناس قدوة مثلى تباشر التغيير بنفسها، فكان الرسول ﷺ هو الذي صنع ذلك بأمر الله.

وفي تفسير هذه الآية يقولُ الشيخ عبد الرحمن السعدي ما مجمله ومحصله:
«وكان سببُ نزولِ هذه الآيات، أنَّ الله تعالى، أرادَ أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين، أنّ الأدعياء ليسوا في حُكْم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه، وأن أزواجَهم لا جناحَ على مَنْ تبنَّاهم في نكاحهنّ. وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادثٍ كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً. فكان زيد بن حارثة يدعى: زيد بن محمد، قد تبنَّاه النبي ﷺ، فصار يدعى عليه حتى نزل: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ [الأحزاب: ٥]، فقيل له: زيد بن حارثة. وكانت تحته زينب بنت جحش، ابنة عمَّةِ رسول الله ﷺ، وكان قد وقع في قلب الرَّسُول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدّر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها، فقال: أمسكْ عليك زوجَك، ولا تفارقْها واصبر على ما جاءك منها، واتَّقِ الله تعالى في أمورك عامَّة، وفي أمرِ زوجك خاصة، فإن التقوى تحثُّ على الصبر، وتأمر به.

وتُخفي في نفسِك أنه لو طلقها زيدٌ لتزوجها ﷺ، وتخشى الناس في عدم إبداءِ ما في نفسك، والله أحق أن تخشاه، فإن خشيته جالبةٌ لكل خير، مانعة من كل شر، ولما طابت نفسُ زيد، ورغب عن زينب، وفارقها زوجناكها، وإنما فعلنا ذلك لفائدةٍ عظيمة وهي لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم حيث رأوك تزوجت زوجَ زيد بن حارثة الذي كان من قبل ينتسب إليك، ولا شكَّ في أن أمر الله لا بد من فعله ولا مانع.

وفي هذه الآيةِ والآيات قبلَها والتي تشتمل على هذه القصة فوائد منها: الثناء على زيدِ بن حارثة، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الله سمَّاه في القرآن، ولم يسمّ من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن الله أخبره أنه أنعم عليه بنعمةِ الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمنٌ ظاهراً وباطناً، وإلا فلا وجه لَتخصيصه بالنعمة، إلا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن الـمُعْتَق في نعمة الـمُعْتِق.

ومنها: جوازُ تزوُّج زوجة الدّعي، كما صرح به.

ومنها: أن التعليمَ الفعلي أبلغُ من القولي، خصوصاً إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين، فلم يَدعْ شيئاً مما أوحي إليه إلا وبلّغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه. وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحيَ إليه، ولا يريدُ تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشارَ مؤتمَن.

ومنها: أن الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: أنه يتعين أن يقدِّم العبدُ خشيةَ الله على خشيةِ الناس، وأنها أحقُّ منها وأولى.

ومنها: فضيلة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث تولى الله تزويجَها من رسوله ﷺ، دون خطبةٍ ولا شهودٍ، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات»[(1)].

وهكذا تمَّ الانفصال بين زيد وزينب، ونزل قول الله تعالى على النبي ﷺ يقول: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٨ ـ ٣٩].

وتمَّ الأمر الإلهي، ونفَذَ النبي ﷺ أمرَ ربه من غيرِ حرج، ثم جاءت المرحلةُ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦١٣ و٦١٤) باختصار وتصرف.

الثانية، مرحلةُ زواج زينب بنت جحش من النبيِّ ﷺ، وقد جاءت قصة هذا الزواج في المصادر الموثوقة جميعِها، فقد أخرج مسلم في صحيحه بسند عن أنس بن مالك قال: لما انقضت عِدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليّ».

قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّرُ عجينها.

قال: فلما رأيتُها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أنّ رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك.

قال: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أُوَامر ربي.

فقامت إلى مسجدِها، ونزل القرآنُ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغيرِ إذنٍ»[1].

إن السيدة المحجَّبة المصونة رضي الله عنها لما سلَّمت أمرها إلى الله، تولى زواجها، فقال: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ولما أعلم الله نبيه بذلك دخل على زينب من غير إذن، ولا تقرير صداق ولا تجديد عقد، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحدٌ بإجماع من المسلمين، لهذا كانت السيدة زينب رضي الله عنها تفاخر نساء النبي ﷺ بهذه الخصوصية التي اختصت بها من دونهن، بأن الله تعالى قد زوجها فنعم المولى ونعم النصير، وكانت تقول: «زوَّجكن أهاليكُنَّ وزوجني اللهُ من فوقِ سبع سماوات»[2].

وقد ظهرت السيدةُ المؤمنة زينب بنت جحش في هذا الموقف على أتقى

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٢٨)، وأخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٩٥)، والنسائي (٦/ ٧٩ و٨٠)، وطبقات ابن سعد (٨/ ١٠٣)، والترمذي برقم (٢٦٦ و٢٦٧)، بالإضافة إلى كتب التفسير للآية (٣٧) من سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد برقم (٧٤٢٠).

التقى، وأفضل الصلة الصحيحة بالله تعالى، فعندما جاء زيدٌ يخطبها للنبي ﷺ، فرحت واستبشرت وقالت: «ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامرَ ربي»، ثم قامت إلى مسجدها، فاستخارتِ الله تعالى، فأكرمها بزواجها من رسوله محمد ﷺ.

ولا شك في أن زواج رسول الله ﷺ من زينب لم يكن مبعثه العاطفة كما يتصوَّر بعض المستشرقين[1]، بل أكثرهم ممن يحقدون على الإسلام، ويَرون بأن زواجه ﷺ منها كان سياسياً، أو بسبب إعجاب؛ ونسوا بذلك حكمةَ إبطال التبني التي سادت العصر الجاهلي.

ومن ناحية أخرى نلحظ من خلال هذا الزواج النبوي بزينب مكافأتها على طاعتها الأولى لله ولرسوله، وامتثالها للأمر بالزواج من زيد بن حارثة على الرّغم مما تواجه من ظروف اجتماعية صعبة، ولكنها في النهاية رضيت بما رضيَ لها النبي ﷺ تاركة همسات الناس وما يتنابزون به جانباً، وهذه تضحية عظمى أرادت بها رضوانَ الله تعالى، وامتثالَ أمر رسوله، وها هنا جنَتْ ثمار الطاعة والتقوى والامتثال، وفازت بشرفِ الدنيا والآخرة، إذ تزوَّجها النبي ﷺ، وغدت من العقد الثمين الذي ينظم أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله عنهن أجمعين. وكان هذا الزواجُ المبارك رفعاً لمكانتها، وسموّاً بشخصيتها التي كانت تطمح إلى الذوائب من قريش قبل ذلك، فحقق الله لها الزواج من سيد الأولين والآخرين محمد رسول الله ﷺ؛ ولا يمكن أن يرقى بها وبنفسيتها الكبيرة إلا رسول الله ﷺ، وربما أدركَ ذلك رسولُ الله فكان عاملاً من عوامل زواجه بزينب، وأرسل زيداً وسيطاً في خطبتها.

ولعل سائلاً يسأل: لِمَ اختار النبي ﷺ زيداً وسيطاً في خِطبة السيدة زينب؟!

والجواب عن هذا التساؤل يقدمه لنا الحافظ ابن حجر العسقلاني بما فتح الله

---

(١) مثل: إميل در منغم في كتابه (محمد)؛ وغوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) وغيرهما كثير.

عليه في (الفتح) فيقول: «وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكونَ الذي كان زوجَها هو الخاطبُ لئلا يظن أحدٌ أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا . . .»[1].

نعم لقد جاء الإسلام الحنيف ليمحو آثار الشطط الجاهلي من نفوس المؤمنين، فما كان الإسلام ليلقي بالاً لمنطق البيئة أو العادات التي تخالف الفطرة، بل جاء ليجتثَّ من نفوس المؤمنين العادات أو التقاليد الظالمة؛ ولذا فقد كان زواج رسول الله ﷺ من السيِّدة المؤمنة زينب بنت جحش مطلقة مولاه زيد أمراً خرقَ مألوفَ العرب، ومزّق تقاليدهم، وغيّر أحوالهم ووجهة معتقداتهم الموروثة، ونزل القرآن الكريم واضعاً الأمور في الميزان الصحيح السليم، وأخبر بأن محمداً رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، وأسكتَ أولئك المنافقين والذين في قلوبهم مرض؛ والذين يقولون: إن محمداً ينهى عن زوجات الأبناء، ويتزوج هو زوجة ابنه زيد.

ومن العجيب أن أعداء الحقيقة والحق من المغرضين والمنافقين قديماً وحديثاً، وكذلك معظم المستشرقين والمستغربين راحوا يصطادون في الماء العَكِر، وقد اتفقوا بسوءِ طويَّةٍ ونية على الغضِّ من زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، وزعموا بأن هذا الزواج ذو مطعن في النبي ﷺ، وقد استقوا سمومَهُم من عددٍ من الروايات الإسرائيلية التي دسّها مغرضون حاقدون من قبل، ومنهم يوحنا الدمشقي[2] الذي دسّ هذه الفرية وهذه الأكذوبة في العهد الأموي،

---

(١) فتح الباري (٨/ ٤٠٤)، وكان زواجه ﷺ من زينب في سنة خمس من الهجرة.

(٢) يوحنا الدمشقي (٨١ ـ ١٣٧) واحد من الذين حملوا راية التضليل والدسّ على الإسلام، وإلقاء الشُّبه، وكان في عهد عبد الملك بن مروان، وكان اسمه العربي «منصور». وهذا الرجل هو الذي دس أول فرية مما يتناقله الناس بعده من أن النبي ﷺ عشق زينب بنت جحش وأراد زواجها وذلك عندما رآها في حالٍ أثارت عشقه.
ومن ذلك النصراني الخبيث راجت هذه الفرية بين تابعي التابعين، حتى جاءت على لسان قتادة منسوبة إليه، وأخذها ابن جرير الطبري ونقلها عنه غيره، مع العِلْم أنه لم يثبت في الصحاح شيء من هذا، ولا لأحد من الصحابة بطريق مقبول.
كان يوحنا وأمثاله يجادلون بحرارة، ويستدلون بالإسرائيليات، فإذا وجدوا الفرصة سانحة =

ولكن الله تعالى متم نوره، وموهن كيد الخائنين.

ومن الأخبار التي تضاف إلى أم المؤمنين زينب، نزول آية الحجابِ في صبيحة بناء النبي ﷺ بها، وهذا ما جعل الحياة الزوجية مُصانةً لجميع نساء الدنيا، بل جعل النساء مصوناتٍ بالحجاب، أما كيفية نزول آية، فهذا ما جاء في دواوين الحديث وكتب التفسير والتراجم والطبقات.

جاء في الصحيح عند البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بُني على النبي ﷺ بزينبَ بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلتُ على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعو.

فقلت: يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه.

قال: «فارفعوا طعامكم».

وبقي ثلاثة رهط يتحدَّثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله».

فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟

فتقرّى حُجَرَ نسائه كلِّهنّ، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة.

ثم رجع النبي ﷺ، فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ

= دسوا ما يريدون دسه على المسلمين، ولقد راجت تلك الإسرائيليات عند بعض التابعين ممن لهم عناية بالتفسير، وكان الإمام مالك يتشكّك في بعض روايات التفسير عن قتادة، فكان لا يروي عنه في التفسير ولا يروي عمن روى عن قتادة في التفسير.
وإذا كان يوحنا وأحزابه، وكثير من أعداء الإسلام قد حملوا رايات التشكيك والدسّ على الإسلام في لباقة فائقة، فإنهم لم يكونوا في الميدان وحدهم، بل ظهرت حركات هدامة قام بها بعض الشعوبيين في القرنين الثالث والرابع حيث كانوا يحاولون هدم الإسلام وتقويض أركانه، وتشويهه بكثير من الدسائس والمقالات. =

شديدَ الحياءِ، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أأخبرته أو أُخْبِر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أسْكُفّة الباب داخلة، وأخرى خارجة، أرخى السّتْر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب»[1]. وآية الحجاب هي الآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

وعندما تزوّج النبي ﷺ زينب بنت جحش أوْلَمَ عليها، وأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، وأهدت له أم سليم بنت ملحان طعاماً ليلة دخوله بزينب، فأطعم منه خلقاً كثيراً، وبورك في هذا الطعام الذي كان من تمر وسمن وأَقِط، كما جاء في الصحيح وغيره.

وفي البيت النبوي أخذت زينب مكانَتَها، وشهدت لها ضرائرها بالورع والتقوى، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ».

وكان النبي ﷺ يثني عليها، ويذكر بأنها أطول زوجاته يداً في المعروف، فقد أخرج مسلم بسنده عن عائشة أم المؤمنين: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً».

قالت: فكنّ يتطاولن أيتهن أطول يداً.

قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدّق[2].

وعن عبد الله بن شداد أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن زينب بنت جحش أوّاهة».

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٧٩١) ورواه في مواضع أخرى من صحيحه هي بالأرقام: (٤٧٩٢ و٤٧٩٣ و٤٧٩٤ و٥١٥٤ و٥١٦٣ و٥١٦٦ و٥١٦٨ و٥١٧٠ و٥١٧١ و٥٤٦٦ و٦٢٣٨ و٦٢٣٩ و٦٢٧١ و٧٤٢١)، وأخرجه مسلم برقم (١٤٢٨)، والترمذي برقم (٣٢٧٠ و٣٢٧١ و٢٣٧٢) انظر تحفة الأحوذي (٩/٧٨-٨٤)، وانظر تفسير الكشاف (ص ٨٦٢ و٨٦٣)، والمراغي (٨/٢٣-٢٦) وغيرها من التفاسير للآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٤٥٣). وانظر: أزواج النبي للصالحي (ص ١٨٧).

قيل: يا رسول الله، ما الأواهة؟

قال ﷺ: «الخاشعة المتضرعة» ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥][1].

ولزينب فضائل كثيرة ذكرتها المصادر، ومنها أنها ممن روى الحديث عن النبي ﷺ، حيث روت (١١ حديثاً).

وعاشت زينب إلى سنة عشرين من الهجرة وهي تكثر من الأعمال الطيبة، وكانت وفاتُها في المدينة المنورة، وهي أولُ زوجات النبي ﷺ لحوقاً به.

وكانتْ أم المؤمنين عائشة تقول: «يرحمُ الله زينب بنت جحش، لقد نالت في هذه الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، أن الله عز وجل زوجها نبيه ﷺ في الدنيا ونطق به القرآن».

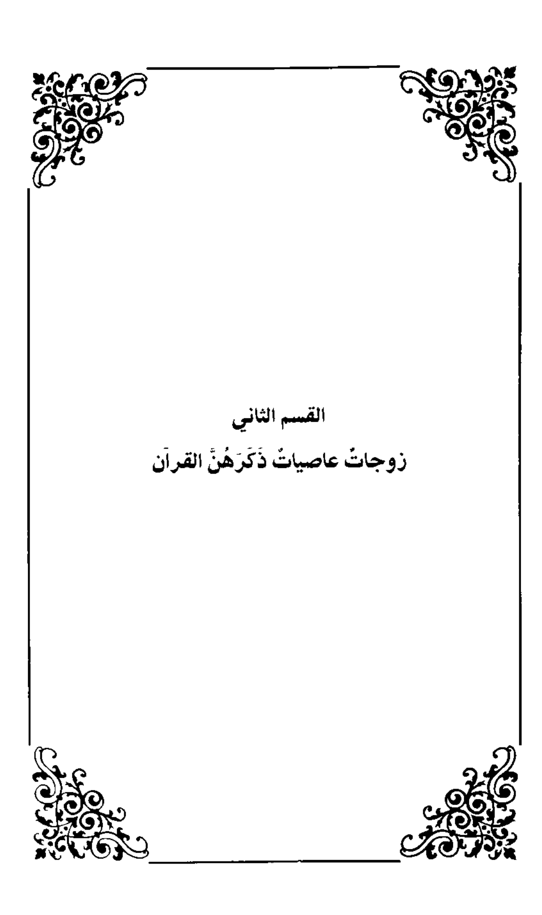
وقالت عنها أم المؤمنين أم سلمة: «كانت امرأةً صالحةً صوامةً قوامةً».

رضي الله عن أم المؤمنين زينب فقد كانت بحقٍّ قدوةً صالحة للنساء.

* * *

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٢/ ٥٣ و٥٤)، وعيون الأثر (٢/ ٣٨٣).



القسم الثاني

زوجاتٌ عاصياتٌ ذَكَرَهُنَّ القرآن

الفصل التاسع

امرأة نوح

كانت دعوةُ نبيِّ الله نوح عليه السلام دعوةً إلى التوحيد، وإلى الحقِّ والخير، تنـزلت من عند الله لإنقاذ الناس مما كانوا يتخبَّطون فيه من الزَّيْغ والشر والفساد والضلال والإضلال.

وقد نشأ نبيُّ الله نوحٌ بين قوم يعكفون على أصنام لهم، فيتَّخِذونها آلهة، ويعبدونها من دون الواحد القهار، فأوحى الله إليه برسالته، وأمره أن يبلِّغَها لقومه ليهديهم إلى الحق، وليدعوهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له، ولينذر الذين يخالفون أمر الله، ويبتعدون عن طريق التقوى والرَّشاد.

وكان من المتوقع أن يستجيبَ لنوح أكبرُ عدد من قومه، وممن حوله من أهله، بَيْدَ أن الواقع أثبت غير ذلك، فقد لعبَ الشيطانُ بقوم نوح وصدَّهم عن التوحيد فهم لا يهتدون، ولم يكتفِ هؤلاء بالإعراض عن عبادة الله والاستكبار عنها، وإنما أذاقوا نوحاً من ألوان العذاب ما لا يعلمه إلا الله.

ذكروا أن الكفار من قومه كانوا يصدُّون عن دعوته بكل سبيل، وكانوا يدخلون عليه داره، ثم يجتمعون حوله فيخنقونه خنقاً شديداً حتى يتركوه قعيداً مُتعباً مجهداً، وكانوا يضربونه في المجالس، بل ويطرُدونه ولا يسمعون قوله، ومع هذا وذاك كله كان نوحٌ يثابر على دعوتهم إلى صراط العزيز الحميد وهو يقول: يا ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون؛ اللهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[1].

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٦٠١) بتصرف.

ورسم القرآن العظيم صورة واضحة المعالم لإعراضهم عن الدعوة الإيمانية التي جاءهم بها نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]. إذن، كان نوح يدعوهم إلى الله تعالى، ولكن دعوته الغراء الزهراء لا تزيدهم إلا فراراً وإعراضاً، فإذا ما كلّم أحدهم أو مجموعة منهم ودعاهم إلى الله، لفّوا رؤوسهم بثيابهم، وجعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا كلامه، ثم يقول بعضهم لبعض في كيد واستهزاء: قوموا وأسرعوا وابتعدوا عن نوح فإنه كذاب، واتركوه فإنه مجنون.

قال المراغي في تفسيرِهِ لهذه الآية: «وإني كلّما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك، والعمل لطاعتك، والبراءة من عبادة كلِّ ما سواك، لتغفر لهم ذنوبهم؛ سدّوا مسامعهم حتى لا يسمعوا دعائي، وتغطوا بثيابهم كراهة النظر إليّ، وأكبّوا على الكفر والمعاصي، وتعاظموا عن الإذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النُّصْح»[١].

لم يكن متوقَّعاً أن يصنع هؤلاء هذا الصنيع المنفّر، ولكن شيطان الغرور ركِبَهم، وزيَّن لهم أعمالهم، ولعب بهم ذات اليمين وذات الشمال، واستطاع أن يجتذبَ إلى صفوفهم امرأةً من بيت النبوة، فقد انضمَّ إلى الكفرة الفجرة امرأةُ نوح التي عاندت زوجها، وكفرت، وكالت في ميزانهم، وأدلت في دلائهم.

وقد تبارى الأخباريون وبعض المفسرين في رسم اسم امرأة نوح، فقالوا: واعلة، وقالوا: والهة، أو واغلة، وقالوا: والعة[٢]. ومهما تعدَّدتِ الأسماء لهذه المرأة الكافرة إنه لن ينفعنا معرفة اسمها، ولا يضرّنا جهله.

---

(١) تفسير المراغي (١٠/٢٠٩).

(٢) التعريف والإعلام (ص ٢٣٠)، وتفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٢/ ٣٥ و ٢٧٧)، وتفسير القرطبي (١٥/ ٢٥)، و(١٨/ ١٣١)، وترويح أولي الدمائة (٢/ ٦١) وتفسير الخازن وبهامشه البغوي (٧/ ١٢٢)، وتفسير الماوردي (٤/ ٢٦٨)، والإتقان (٢/ ١١٠١)، والبداية والنهاية (١/ ١٨١)، وغرر التبيان (ص ٥١٤)، وقصص الأنبياء (ص ٢١٥) وغيرها كثير.

وبكفر امرأة نوح زادَ البلاءُ عليه، وصبر صبراً عظيماً لا يُطاق، فكان ينتظرُ الجيلَ بعد الجيل، والقرنَ بعد القرن، فلا يأتي الناس إلا أخبث من سابقيهم، وأظلم وأطغى وأعتى وأشد كفراً وعناداً.

رَوَتِ المصادر أن الرجلِ من قوم نوح كان يقول لمن يأتي بعده: وَيْحَكُمْ، لقد كان نوح هذا من آبائنا، بل وأجدادنا وممن قبلهم، ولم يزل يهذي، فهو مجنون، فلا تصدقوه، وقد ذكر الله تعالى هذا بقوله: ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعهم قرن مكذب، وقالوا: هو مجنونٌ، وانْتَهَرُوه بالشتم والضرب والوعيد»[1].

وكان الرجل من قوم نوح إذا دنا أجلُه وحضرتْه الوفاةُ، جمعَ أولادَه وذويه ثم أوصاهم قائلاً: إياكم أن تقربوا نوحاً فإنه مجنون، فقد ذكر لي آبائي بأن هلاكَ الناس على يديه، فاحذروه.

وظلُّوا يتوارثون هذه الوصيةَ الخادعةَ، فكان أحدهم يحمل ابنه على عاتقه، ثم يقف به على نوحٍ، ويقول لابنه: انظر يا بني، إن عشتَ ومتُّ أنا، فاحذر هذا الشيخ فإنه مجنون، ويكون هلاكُ الناس على يديه.

ومما زاد الطين بلّة، والأمر سوءاً أن امرأة نوح عاضدت القومَ الكافرين فيما يقولون، وأخذت تقول للناس عن نوح: إنه يهذي، ويتكلم عن أشياء غريبة، إنه مجنون، فهو يقول بأن أصنامكم لا تضرُّ ولا تنفع أحداً.

لم ترعَ امرأة نوح الحياة الزوجية، ولم تحافظْ على المودة والرحمة، بل إنها كانت إذا آمن أحدٌ من قومها بدعوة نوح ثارت ثائرتُها، وغضبت، وأسرعت إلى جبابرة القوم وشذّاذهم وأخبرتهم بأن فلاناً قد أسلم وآمن بنوح، وهناك يقوم هؤلاء بدور الشر والضلال والفساد، فإما يعذِّبونه ويزجرونه حتى تريد، أو

---

(١) تفسير الكشاف (ص ١٠٦٥) باختصار.

يفتنونه بشتى الوسائل حتى يكفر بنوح وبما يدعو إليه.

ومن الطبيعي أن المرأة بشكل عام تعرفُ مدخلَ ومخرج زوجِها، وبالتالي فإنها تعرف ما يضرُّه وما ينفعه، فقد كانت هذه الكافرة امرأة نوح ترقب نوحاً وترصدُ جميع أعماله، وجميع مَنْ يدخل في دينه، وتطّلع على كل ما يفعله، وهنا تساعد الشيطانَ في مهمته، وتعمل بكل ما أوتيت من قوة على قتل الفضائل، وإحباط كلِّ شيء، وتضليلِ الناس، مما ساعد الكفار على أن ينالوا من نبي الله نوح بسببها، فقد نسيت هذه الكافرة الضالّة حرمةَ الحياة الزوجية، وفشت بأسرار زوجها، وأخذت تسدُّ الضياء والنور عن أن يصل إلى الناس، وغلبت عليها الشقاوة، حتى كانت مَثَل سوء في عدم المحافظة على الحياة الزوجية ورعاية الزوج في أمور دعوته، وكُتبت في ديوان النساء الطالحات، وفي زمرةِ العاصيات المحرومة من النعيم، وعاشت عيشة الشقيات اللواتي حُرِمْنَ الخير العميم الذي ينبعث من بيوتهنّ، وعُدّت في جماعة الأشقياء المبلسين.

وطال بلاءُ نوح عليه السلام منها ومن قومه، ظلّ يدعوهم إلى الله قرابة ألف سنة، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، لم يفترْ نوح عن الدعوة ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، كان يذكّرهم ويَعِظهم، ويدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويرغّبهم في الرزق والخيرات والمغفرة... ومن العجيب حقاً أنه لم يؤمن برسالته سوى فئة بسيطة من الناس، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة بعدد الذين آمنوا مع نوح، وقيل: كانوا ثمانيةً: نوحاً عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم، ولم يبيّن الله ورسوله لنا عددهم، فحصره في عدد معيَّن من قبيل الحدْس والتخمين.

وكان من طبيعة الحال، وصعوبة الدعوة التي واجهت نوحاً، أن تكون امرأته من المسارعين إلى الاستجابة لدعوته، ومن أوائل المؤمنين بها، وممن يشدّون أزره، ويمضون معه في تبليغ رسالة ربه، غير أنها كفرت بالنعمة وبالإيمان،

وغلبت عليها الشقاوة، وجذبت ابنها كنعان[1] إلى دائرة الكفر، وجعلته من أعداءِ الكفار، يسلك مسلكهم، ويرمي بقوسهم، ويخالف والدَه نوحاً في دينه وعمله، ويصدُّ عن دعوته، ويكفرُ بما أنزل الله، كل هذا عمله هذا الولد بإغواء أمه التي زيَّنت له سوء عمله فرآه حسناً.

وقد أورد الطبريُّ وغيره من المفسرين والعلماء، أنه وُلِد لنبي الله نوح عليه السلام أولاده: سام، وحام، ويافث، وكنعان ـ الذي غرق ـ، وأم هؤلاء واحدة.

ومن العجيب أن قومَ نوحٍ قد سبقوا العالمين إلى الشرك بالله تعالى، فعبدوا الأوثان والأصنام، واتخذوها آلهة من دون الله الواحد القهار، ومن خلال عقولهم القاصرة اعتقدوا بأن أصنامهم تجلِبُ النفع وتدفع الضرر، بل زعموا أنها تُبصر وتسمع وتعقل، وتدفع عنا السوء، وتغنينا عن كلِّ شيء.

لقد كان هؤلاء الظالمون لأنفسهم أولَ من عبد الأصنام على وجه الأرض، وكان الناس من قبلهم لا يزالون على عقيدة التوحيد والإيمان بالله تعالى، ويشير القرآن الكريم إلى هذا بقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

اتخذ قومُ نوح أنصاباً قدَّسوها، ثم تدرَّجوا حتى عبدوا الأصنام التي وردت في هذه الآية: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣].

قال أهل التفسير: «هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبدْ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِخ العِلْم عُبدت»[2].

---

(١) انظر المعارف (ص ٢٤)، والبداية والنهاية (١/ ١١٥)، والتعرف والإعلام (ص ١٣٨).

(٢) زاد المسير (ص ١٤٧٦ و١٤٧٧) بتصرف.

وانخرطتْ امرأةُ نوح مع الماكرين، وأعرضتْ عن زوجها وعن دعوته، بل اتبعت مكر من مكروا مكراً كباراً لشلِّ دعوة نوح إلى التوحيد، وإغلاق كل الطرق والسُّبُل في وجهه، وكانت تسير في طريق الشر، وتفعل ما لا يفعله أكابر المجرمين، راحت تكيد أعظم الكيد لدعوة زوجها نوح، وتضع العقبات في طريق دعوته.

لم يركن نوح إليها، ولم تهزَّه أعمالُها، ولم ينصرف عن دعوته، بل ظلَّ ماضياً في طريق الحق لا يخشى أحداً إلا الله تعالى، وكان يدعو امرأته لتترك سبيل القوم المجرمين، ويذكّرها بالله، وبوحدانيته، لكنها كانت أولَ من أعرض وولى عنه بعيداً، وأولَ من استكبر، بل زعمت أنها تخاف على نوح من الآلهة التي يزدريها ويحتقرها، فكانت تتمسَّحُ بها وتقدم ما استطاعت من القرابين لكيلا تضرَّها بسبب زعمها أن زوجها لا يطيق رؤيتها لأنها السبب في الشرك. لذلك ظلَّ قلبُها معلَّقاً بالأصنام، وسوّل لها الشيطان عملها وزينه في قلبها المضطرب.

لم تستفدِ امرأةُ نوح من دعوته، وكذلك كبار قومه، بل استكبروا بعد أن غدت امرأة نوح تكيل بمُدّهم وصاعهم، وأخذوا يقولون له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأعراف: ٦٠]؛ ولكن نوحاً أجابهم ووضح لهم أنه مكلّف بالرسالة من الله: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦١].

ووجدت دعوة نوح مكاناً خالياً في قلوب بعض الناس من قومه، فاتبعوه، وآمنوا بالله رباً وبنوح نبياً، وبدأت فوادح البلاء تنصب عليهم من أكابر المجرمين، وطلبوا من نوح أن يطردهم، فأجابهم: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [هود: ٢٩].

وتمادى القومُ في عصيان نوح، وتمادوا في عمل الموبقات، فمارسوا الفواحش، وشربوا الخمور، وظلَّ نوحٌ يدعوهم لا يفتر، واشتد عليه البلاء، فلا يأتي زمن إلا كان أخبث وأنكى من الذي قبله، وكلما اقترب منهم نوحٌ زادوا له بالأذى، وعاندوا وتمادوا في الضلال والفساد.

وكانت امرأة نوح تساهم معهم في أعمالهم العفنة، فقد اتخذت الكفر شعاراً لها، والعناد سلوكاً ومنهجاً، أما السخرية فكان الأسلوب الذي جعلته دَيْدَنَها.

أخذت هذه المرأةُ الظالمةُ تسير مرخيةً العنان لشقاوتها، وبدأت رحلة السخرية بزوجها نوح الذي كان أول رسول من الله، وأول الرسل من أولي العزم، وكانت تخبر الناس أنه مجنون.

ذكر القرطبي جانباً من سخريتها فقال عنها:

«قالت له ـ لنوح ـ: أما ينصرك ربك؟

فقال لها: نعم.

قالت: فمتى؟

قال: إذا فار التّـنّور.

فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربُّه إلا أن يفور هذا التنور»[1].

كان الملأُ الكافرُ يسمع من امرأة نوح ما يسمع من همز ولمز، فانطلق يسعى في الفساد وإفساد من آمن، بل راحوا يضايقون نوحاً أكثر من قبل، حتى بلغ الحقدُ بهم وعمى القلوب أن ضربوه، وأسالوا دمه الطاهر وهو ساجد يدعو الله ويناجيه.

ذكر القرطبي في قصة طريفة تبين مدى ضلال قوم نوح وتماديهم في الغواية والعناد والفجور، فقال: «بينما كان نبي الله نوحاً عليه السلام ساجداً ذات يوم من الأيام، إذ مرّ به أحد الكفار الفجار من قومه، وكان يحمل على عاتقه حفيداً له، فقال الجد لحفيده وهو يوصيه ويحذره من نوح: يا بني إن هذا الشيخ الكذاب الذي دعانا إلى عبادة رب لا نعرفه، وأوعدنا وعيداً بلا أمد، فتحفّظْ منه حتى لا يضلّك!

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٣٢).

فقال الحفيد الفاجر لجده: إذا كان هذا الشيخ على حاله هذه، فلماذا تركتموه حياً إلى الآن؟!

فقال الجد الأثيم الكفور: وما كنّا نصنع به؟

قال الحفيد: أنزلني، وانظر ما أصنع به.

فأنزله من على عاتقه، فانطلق فأخذ حجراً، ثم أهوى به على رأس نوح فشجّه»[1].

وكان نوحٌ عليه السلام يسمع قول الجد والحفيد، ورأى فعلةَ الحفيد الخبيثة، وعلم أنهم لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً، عندها دعا الله قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد قال نوح ذلك بعدما قنط من اهتدائهم قنوطاً تاماً، بالأمارات الغالبة، وبأخبار الله تعالى له بأنه لن يؤمنَ أحدٌ إلا مَنْ قد آمن معك الآن.

دعا نوح ربه بألا يترك على الأرض من الكافرين أحداً يدور، فإنهم إذا تركوا على الأرض يضلوا العباد عن طريق الحق، ولا يلدوا إلا مثلهم بل أكثر فجوراً، فلا تلدُ الحيةُ إلا الحيةَ، والولد سرّ أبيه، قال بعضهم في توجيهه: «إن الولد إذا كبر إنما يتعلم من أوصاف أبيه، أو يسرق من طباعه، بل قد يصحب المرء رجلاً فيسرق من طباعه في الخير والشر».

لقد كان دعاءُ نوح عليه السلام بالأمارات، حيث جرّبهم قريباً من ألف سنة، فلم يظهر منهم إلا الكفر والفجور، وإلا العناد والاستكبار.

قال الزمخشري موضحاً سبب دعاء نوح على قومه: «فإن قلتَ: بِمَ علم أنّ أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفار عند الولادة؟!

قلتُ: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فذاقهم وأكلهم، وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجلُ منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذرْ هذا فإنه

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠٠) بتصرف.

كذّاب، وإن أبي حَذّرَنيهِ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقد أخبره الله عز وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن»[1].

ومن العجيب أن امرأة نوح لم تَلِنْ قناتُها، ولم تتحركِ الشفقةُ في قلبها على ما حدث لنوح عليه السلام، بل ظلت تعانده وتنعته بالجنون والهذيان، وراحت تتصدى للدعوى، وتصد عن سبيل الله وهي تزعم بأنها على حق، وكانت تقول: «لو كان في دعوته خيراً، ولو كان ما يقولُه حقاً، لما انصرفت عنه، ولما تركته، ولتبعته ونصرته، ولكن عبادة الأصنام والآلهة أنفع مما يدعونا إلى عبادته، ولو أن دعوتَهُ كانت على حقٍّ لاتبعه الأكابر من قومنا، ولكن اتبعه أراذلُنا وعددٌ قليل من الضعفاء».

ومع هذا كله، ومع أذاها العظيم، كان نوحٌ يصبر على شرها وكفرها، وكفر قومه، وأخذ يحذرهم من سوء تماديهم، حتى قالوا له: يا نوح ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، فقال لهم: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣].

وجاءت الأوامر الإلهية إلى نوح بأن يصنع السفينة، وأوحى الله إليه صنعها، وعلَّمه كيف ينبغي أن تكون؛ قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وامتثل نوح الأمر الإلهي، وشرع يصنع السفينة، وأحضر كل ما يلزمه، وبدأ العمل بجد ونشاط، ومن المتوقع أن امرأته كانت تنظر إلى عمله، وتعجب من شكل السفينة، حيث لا بحر ولا نهر قريب منها، فلماذا يصنعها؟!

وذات يوم اقتربت منه، وسألته في سخرية وتهكُّمٍ: يا نوح؛ ما تصنع بهذه الأخشاب؟

فقال لها: أصنع سفينة بأمر ربي، لكي أنجو عليها أنا ومن اتبعني من المؤمنين عندما يفور التنور.

---

(١) تفسير الكشاف (ص ١١٤٤).

فقالت في سُخريةٍ وصَلَفٍ: وأين ذلك الماء الذي تزعم، والذي ستجري عليه سفينتك؟! لا ريب في أنك جُننت، أو ربما أصابتك آلهتُنا بسوء، فهل تمشي السفينة على اليبس؟!

وتتابع هذه الشقيةُ رحلةَ الاستهزاء وتقول لنوح: ليس ها هنا ماء، ولن تستطيع أن تنقلها إلى البحر أو النهر، وسيذهب عملك سدىً.

ويأتي الملأ الكافر إلى نوح وهو يصنع الفُلك، فيقولون في سخرية وهم ضاحكون متسافهون متغامزون: ما هذا يا نوح؛ لقد صرت بعد النبوة نجاراً تصنعُ السفنَ في اليابسة ولا يوجد بحر ولا ماء!

وتابعوا إسرافهم في الاستهزاء والسخرية، ثم تمادوا فقالوا: يا نوح، إنك لو كنت صادقاً في دعواك، وفيما تقوله لنا، لكان إلٰهك الذي تصفه لنا وتدعونا إلى عبادته قد ساعدك في عملك هذا، أو أنه كان يغنيك عن هذا العمل الشاق المُضني.

كان قوم نوح يعدُّون عمله في بناء السفينة سَفَهاً وجنوناً، فكانوا يسخرون منه لذلك، ولأنهم لم يروا قبلها سفينة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

قال الماوردي: «إنهم لما رأوه يبني السفينة، ولم يشاهدوا قبلها سفينةً بُنيت قالوا: يا نوح، ما تصنع؟

قال: أبني بيتاً على الماء، فعجبوا من قوله وسخروا منه»[1].

ولم يعبأ نوحٌ بهم ولا بسخريتهم، ولما أغرقوا وتمادوا في سخريتهم قال: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]. وتعلُو ضحكات الكفار عندما يسمعون قول نوح، ويقولون: مسكين نوح، لقد جُنّ.

ولكن نوحاً عمل بصمت حتى انتهى من صنع السفينة، وجاءت نذُرُ الدَّمار، ظهرت العلامات العظيمة، وفار التنورُ، وانفتحت أبوابُ السماء بماءٍ منهمر،

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٢١٣).

وتفجرت عيونُ الأرض، وعندها صعد نوحٌ والمؤمنون إلى الفلك، قال لهم نوح: ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١].

وخلال وقت قصير ارتفعتِ السفينةُ فوق الماء، وعلَتْ أصوات المؤمنين بالتسبيح والتهليل والتكبير، وانتصر طوفانُ الإيمان على طوفانِ العصيان والسخرية، وعمَّ الماء الأرض وغرق الكافرون، وغرقت امرأة نوح، وهلكت مع الهالكين، فلم تركب في السفينة مع نوح، وحسبت أن بيتَها يمنعها من الماء، ونسيت أنه لا عاصم اليوم من أمر الله.

وكان ابن نوح قربَ السفينة، ناداه أبوه: يا بني اركبْ معنا لئلا تغرق، فقال الابنُ المغرور: سآوي إلى ذروة جبل تمنعني من الماء والطوفان.

فقال له نوح: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣]، وتلاشى الحوار، وغرق الابنُ، فكان من الهالكين مع الكفرة والمعاندين.

قال ابن كثير: «أجمع أهل الأديان، الناقلون عن رسلِ الرحمن، مع تواتر عند الناس في سائر الأزمان، على وقع الطوفان، وأنه عمّ جميع البلاد، ولم يُبقِ الله أحداً من كفرة العباد، واستجابة لدعوة نبيّه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم»[1].

لقد صبر نبيُّ الله نوح على امرأته المعاندة وعلى شرِّها، وخيانتها لدعوته، فخسرت وكانت مع الداخلين إلى النار، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

إن امرأة نوح لم تكن من أهل نوح الذين وعد اللهُ نوحاً بإنجائهم، وإنما كانت من الذين سبق عليهم حكمُ الله بالغرق لكفرهم، وعلمنا ذلك بإخبار الله لنا بأن امرأتَهُ كانت من الكافرين، ولذلك استحقَّت دخول النار، وإن كانت تحت العبد الصالح نوح، لكنها خانته في الإيمان، ولم توافقه على دينه، ولا صدَّقته في رسالته، وكل هذا لم ينفعْها، لأنها كانت تخبر بأنه مجنون،

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١١٨).

وتُطلِعُ الكفارَ على سرِّه، فاستحقت العذاب والنار لأعمالها، وكذلك صاحبتها امرأة لوط خانت زوجها في دينه وكفرت، فاستحقت كلتاهما النار.

وأوضح الإمام الرازي معنى الخيانة التي ارتكبتْها امرأةُ نوح وامرأةُ لوط فقال: «ما كانت خيانتهما؟ قال: نفاقهما وإخفاؤهما الكفر، وتظاهرهما على الرسولين؛ فامرأة نوح قالت لقومه: إنه لمجنون... وامرأة لوط كانت تدل على نزول ضيف إبراهيم، ولا يجوز أن تكون خيانتهما بالفجور»[1].

وقال المراغي عن امرأة نوح وامرأة لوط: «ضرب الله مثلاً يبيِّن به حالَ الكافرين... امرأة نوح وامرأة لوط، إذ كانتا في عصمة نبيّين يمكنهما أن ينتفعا بهديهما، ويحصّلا ما فيه سعادتهما في معاشهما ومعادهما، لكنهما أبَتا ذلك، وعملتا ما يعلو على الخيانة والكفر، فاتهمت الأولى زوجَها بالجنون، وكانت الثانية ترشدُ قوم لوط إلى ضيوفه لمآرب خبيثة، فلم يدفع عنهما قربهما من ذينك العبدين الصالحين شيئاً، وحاق بهما سوء ما عملتا، وسيحل بهما عقاب الله، وسيدخلان النار في زمرة داخليها جزاءً وفاقاً لما اجترحتا من السيئات، وما دسّتا به أنفسهما من كبير الآثام، وعظيم المعاصي»[2].

لقد أشار القرآن الكريم إلى أنه لا تنفع شفاعة نوحٍ لامرأته الكافرة، لأنها ابتعدت عن الحقِّ، فالعذاب يُدفع بالطاعة، لا بالوسيلة والقرابة، بل إن القرآن قد بشّرها بالنار، وأنها ستكون من عِداد داخليها الذين يصلَوْنها.

وبهذا تنطوي صحيفةُ هذه المرأة العاصية لله ولرسوله، ولم تنتفع بالإيمان، ولم تستفد من دعوة زوجها إلى النجاة، فكانت مَثَلَ سوءٍ لمن تعصي الله وتعصي زوجها. نسأل الله المغفرة وحسن الختام.

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٤٤).

(٢) تفسير المراغي (١٠/ ١٤٢).

الفصل العاشر

امرأة لوط

هذه امرأة ذكرها القرآن الكريم بأنها كانت عدواً لدوداً وخصيماً معانداً لزوجها، أما زوجُها فهو نبيٌّ كريم جاء ذكره كثيراً في القرآن العظيم، في سبعة وعشرين موضعاً، وهذا النبيُّ هو لوطٌ عليه السلام.

أما امرأته التي رغبت عن طريقه، ورغبت في طريق الشيطان فهي والهة[1]، أو وهلة، أو واهلة، وكانت عجوزاً نكدة خالفت زوجَها النبيَّ لوطاً، واشترت الضلالةَ بالهدى، فخسرت وما ربحت، واستحقت دارَ البوار، وحقَّ عليها العذاب؛ وقد وردت قصتها في ثمانية مواضع من القرآن الكريم، وفي ثماني سور مختلفة هي: سورة الأعراف آية (٨٣)، وسورة هود آية (٨١)، وسورة الحجر آية (٦٠)، وسورة الشعراء آية (١٧٠ و١٧١)، وسورة النمل آية (٥٧)، وسورة الصافات آية (١٣٤ و١٣٥)، وسورة التحريم آية (١٠).

ولسنا نستغربُ في أن تكون المرأة عدواً لزوجها، وأن تكون خصيماً له، ولو كان الزوج تقياً مخلصاً نقياً، أو نبياً من أنبياء الله الذين دعوا الناس إلى دوحة الإيمان، وإننا نلمسُ هذا العداءَ مذكوراً في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤]. وقد ذكر القرآن الكريم أكثر من امرأة من هذا الصنف من النساء

---

(١) تفسير مبهمات القرآن (٢/ ٣٥ و٢٧٧ و٥٤٤)، والمحبّر لابن حبيب (ص ٣٨٣)، والتعريف والإعلام (ص ١٤٠)، وترويح أولي الدماثة (٢/ ١٦٠)، وغرر التبيان (ص ٥١٤)، وتفسير الرازي (٣٠/ ٤٥)، وتفسير الخازن وبهامشه البغوي (٧/ ١٢٢)، وتفسير القرطبي (١٨/ ١٣١)، والبداية والنهاية (١/ ١٨١)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٨٢) وغيرها.

كانت بئسَ الصاحب لزوجها وحياتها الزوجية، أعانت على زوجها الكفارَ والمجرمين، وتركت دينَ الله، وركنت إلى الذين ظلموا.

ونلاحظ في هذه الآية أنّ الله تعالى قد ذكر أنّ من الزوجاتِ يكنَّ عدوّاتٍ لأزواجهن، وأن من الأولاد أعداء لآبائهم، وهؤلاء جميعاً يثبطونهم عن طاعة الله، وإعلاء كلمته، فخاطب الأزواج أن يحذروهم ولا يتبعوا أهواءهم، قال المراغي في تفسيره لهذه الآية: «يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله: إن من أزواجكم وأولادكم أعداءً لكم، يحولون بينكم وبين الطاعات التي تقربكم من ربكم، والأعمال الصالحة التي تنفعكم في آخرتكم، وربما حملوكم على السعي في اكتساب الحرام، واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم. روي أن النبي ﷺ قال: «يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاكُ الرجل على يد زوجه وولده، يعيّرانه بالفقر، فيركب مراكب السوء فيهلك». ومن الناس من يحمله حبُّهم والشفقةُ عليهم، ليكونوا في عيش رغد في حياته، وبعد مماته، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك، وإن لم يطالبوه فيهلك. ومن المفسرين من حمل العداوة الأخروية على العداوة الدنيوية وقالوا: إن الزوجات والأولاد ربما آذوا أزواجهم وآباءهم، وجرعوهم الغُصص والآلام، وربما جرّ ذلك إلى وضع السّم في الدسم، أو إلى قتلهم، وفي المشاهد أكبر عبرة لمن اعتبر. والخلاصة: إنه إما يراد بالعداوة؛ العداوة الأخروية، فإن الأزواج والأولاد ربما أضروا بأزواجهم وآبائهم فيها إذا منعوهم عن عمل الخير لها، وإما أن يراد العداوة في الدنيا، فتكون عداوة حقيقية بينهم لها آثارها الدنيوية»[1].

وأورد الشيخ إسماعيل حقي البروسوي صاحب تفسير (روح البيان) في تفسير هذه الآية ما يوضح عداوة الزوجة والأولاد، فقال ما مفاده: «يا أيها الذين آمنوا إيماناً خالصاً؛ إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم يشغلونكم عن طاعة الله، وإن لم يكن لهم عداوة ظاهرة، فإن العدو لا يكون عدواً بذاته، وإنما يكون عدواً بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعل أقبح

---

(١) تفسير المراغي (٩/١٠٨ و١٠٩).

من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة، أو يخاصمونكم في أمور الدين أو الدنيا، وأشد المكر ما يكون في الدين، فإن ضرره أشد من ضرر ما يكون في الدنيا»[1].

عاصر لوط عليه السلام خليل الله إبراهيم، وتدل بعض الروايات بأن لوطاً ابن أخي نبي الله إبراهيم، وقد آمن لوط برسالة عمه إبراهيم، قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وتدلُّ الروايات بأن لوطاً هاجر مع عمِّه من العراق، وتبعه في أسفاره، إلى أن استقرَّ إبراهيم بفلسطين، ونزل لوط في الأردن[2].

وفي هاتيك النواحي، وفي قرية سدوم أرسل الله لوطاً إليها، وإلى ما يليها، فامتثل أمْرَ ربه، وأخذ يبلّغ ما أمِرَ به، ويزرع في أعماقهم بذور التوحيد، غير أنهم لم يستجيبوا له، بل لم يؤمنْ به إلا أهلُ بيته خلا امرأته التي ضلت السبيل وكفرت.

وكانت سدومُ قريةً خاسرة فاجرة تعمل الخبائث، وتشيع فيها الرذائل، وتنتشر بين ظهرانيها العاداتُ المنكرة التي تتنافى مع المبادئ القويمة، ولا يقرها الطبعُ السليم، والذوقُ الصحيح.

كان هؤلاء الفجرة أهل ضلال وكفر، مكروا مكراً كُبّاراً، وجاؤوا بفواحش قبيحة ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، حتى بلغوا بمعاصيهم الدَّرْك الأسفل من المخازي والرذائل والنجاسات.

ومن الغريب أن الشيطان قد سوّل لهم أعمالهم، واستولى على عقولهم، فغدوا والوقاحة سلاحهم، لا يبالون بما يقترفون من الفواحش التي تأنفُ منها أحطُّ الحيوانات والحشرات.

رأى نبي الله لوط ضلالهم وفسادهم ومخالفتهم، فدعاهم إلى تقوى الله

---

(١) تفسير روح البيان (١٠/ ٢٠).
(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٨١) ترجمة رقم (٥٣٥) بتصرف.

قائلاً: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٦٢ ـ ١٦٣].

يقول ابن كثير رحمه الله عن شنيع وقبيح قوم لوط: «ابتدعوا فاحشةً لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وتَرْك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين. فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادَوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحلَّ الله بهم من البأس الذي لا يردّ ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مُثْلةً في العالمين، وعبرةً يتَّعِظ بها الألبّاء من العالمين»[1].

واشتهرت قرية سدوم من بين القرى والمدن بسوء المعاملة، وبالظلم والجور وسلب الغرباء، بل وتدليس القضاء، حتى ضُرِب بها المثل، وفي ذلك يقول شاعر المعرة أبو العلاء المعري:

وأيّ امرئٍ في الناس ألفى قاضياً ولم يمضِ أحكاماً كحكْم سَدوم

وأجمع أهل العلم والمفسرون والرواة بأن قوم لوط كانوا لا يستقبحون قبيحاً، ولا يستترون من منكر، قد فسدت ضمائرُهم ونفوسهم، وقست قلوبُهم، وانحرفت طبائعُهم، وتلوثت أخلاقُهم، وتلاشت فضائلُهم، وما أجمل قول الشاعر في القوم الذين فقدوا الأخلاق:

وإذا أُصِيبَ القومُ في أخلاقهم فأقمْ عليهم مأتماً وعويلا

وتابع نبي الله لوط دعوتهم إلى الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟!

الحافظ ابن كثير عنده مِنْ هذا خبرٌ يقينٌ، فيقول: «... لـمّا دعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله، لم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما نهوا، بل استمروا على حالهم، ولم يرعووا ـ يرتدعوا ويرجعوا ـ عن غيّهم وضلالهم، وهمّوا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم،

(١) قصص الأنبياء (ص ٢٠٦).

وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون؛ إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فجمعوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج؛ وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج. فطهَّره الله وأهله، إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلتهم خالدين، لكن بعد ما صيّرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة ناراً تأجج، وحرّ يتوهج، وماؤها ملح أجاج.

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الفاحشة الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من أهل الدنيا، ولهذا صاروا مُثْلَةً فيها، وعبرة لمن عليها.

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم ـ وهو مجتمعهم ومحلّ حديثهم وسمرهم ـ المنكرَ من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحون من مجالسيهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوَعْظِ واعظ، ولا كلمة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً»[1].

ولم تغادر المصادر أعمالهم، بل رسمتها لتكون آيةً وعبرةً، بل إن القرآن الكريم العظيم استنكر عليهم إتيانهم الفاحشة، فقال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

أخرج الطبري في تفسيره لهذه الآية عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها أنها قالت: سألت النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ

---

(١) قصص الأنبياء (ص ٢١٠).

﴿ ٱلْمُنكَرَ ﴾ قال: «كانوا يجلسون بالطريق، فيحذفون أبناء السبيل، ويسخرون منهم»[1].

وقال بعضهم: كان إتيانهم الفاحشة في مجالسهم. وقيل: كان يجامع بعضهم بعضاً في المجالس، وكانوا يتعرضون للراكب والمسافر ويحذفونه ويسخرون منه، وقيل: كانوا يلعبون بالشطرنج. قال ابن زيد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴾ السبيل: طريق المسافر إذا مرَّ بهم، وهو ابن السبيل، قطعوا به وعملوا به ذلك العمل الخبيث[2].

وقال الشوكاني في تفسيره هذه الآية ما مفاده: «قيل: إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء: كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث. وقيل: كانوا يقطعون الطريق على المارة بقتلهم، ونَهْبِهم. والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاصٍّ. وقيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقيل: كانوا يحذفون الناس بالحصباء، ويستخفون بالغريب، وكانوا يتضارطون في مجالسهم، ويأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً، وقيل: كانوا يلعبون بالحمام، أو يخضِبُون أصابعهم بالحناء، أو يناقرون بين الدِّيَكة، ويناطحون بين الكباش، ويلعبون بالنرد والشطرنج، ويلبسون المصبغات. ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج: وفي هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر، وألا يجتمعوا على الهُزُؤِ والمناهي»[3].

لم يسمع قوم لوط لنبيهم، بل غرقوا في غيهم وأصروا على المعاصي، وقالوا: كيف نتبع بشراً منا، ثم خاطبوا لوطاً قائلين له: أنت كذاب، ورموه بكل قبيح وأعرضوا قائلين: إن قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر.

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٤٥ و١٤٦).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٧٥).

(٣) تفسير الشوكاني فتح القدير (ص ١١١٩) بتصرف يسير.

وزادوا من فسوقهم بأن راحوا يخططون لطرد لوط وآله لأنهم كرهوا دعوَتَـهُ التي وقفت تفضح مخازيهم وأحوالهم، ثم إنهم أجمعوا كيدهم، وهموا بإخراج لوط وآله إلا امرأته الخبيثة التي كانت تناصرهم في فسادهم، وزعموا بأن لوطاً وآله أناس يتطهرون، قال تعالى مصوراً حالهم: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

إنهم خبثاءُ انحرفت طبيعتُهم، والتوَتْ أخلاقُهم، إذ ضاقوا ذرعاً بالطُّهْر والطهارة، لا ريب في أن النفوس التي تشبُّ على الخبائث والأوبئة، لا تقدر أن تعيش في مكان الطهارة والنقاء، ولعل امرأة لوط كانت تشير على قومها بأن يسخروا من طهره وطهارته، فهي تعرف جميعَ أحواله أكثر من قومها، وتطَّلع على خفايا حياته أكثر منهم، فهي شطر الحياة الزوجية في بيته، ولكن أساسها كان على باطل وفساد، حيث وافقت قومها على انحرافهم وعلى شذوذهم وطغيانهم.

كان لوط رجلاً كريماً، وكانت الأضياف تنـزل برحب داره، فيجدون سعة الصدر وحسن الترحاب، وكانت امرأة لوط عندما يدخل بيت زوجها ضيوف غرباء تسارع كالطير إلى نادي قومها تنم عمن دخل بيت زوجها، ومن ثم يأتي الفجرة لكي يفسدوا وينشروا ألوانَ الفساد الذي تأنف النفوس البشرية من ذِكْره، فكيف وهم يمارسونه عملياً؟!

كان القومُ المجرمون يعتدون على الأضياف بكلِّ سبيل، يفتكون بهم، وبشرفهم، وأعراضهم، لا يبالون أوَقَعوا على الفاحشة، أم الفاحشة وقعت عليهم، وكانت امرأة لوط مفتاحَ الشرِّ لهم، تهيئ لهم زمن ومكان الفاحشة، وتساعدهم على سلوك هذا الطريق الوعر، وتشجعهم على ارتكاب جرائم بشعة حقيرة.

عرفت امرأة لوط أن قومها قد غرقوا تماماً في الفساد والإفساد، ولجوا في الكفر والفسوق والعصيان، وخالفوا الفطرةَ السوية، واستغنوا عن النساء، ومارسوا أبشعَ ألوان الفاحشة، ولذا فإنها عملت لهم جاسوساً على زوجها، فكانت ترشدهم إلى ضيوفه بخبثٍ وفسادِ طويَّةٍ ومكر لا يطاله أكابر الأبالسة.

فقد ذكر أهل التفسير والأخباريون والرواة أن هذه الخبيثة المعاندة كانت

عيناً على زوجها، وعوناً لأعدائه من قومها، فكان إذا حلّ ضيف عند نبي الله لوط في الليل، تلجأ إلى إخبار قومها بإيقاد النار إذا لم تستطع أن تخبرهم شفوياً، وإذا ما نزل به ضيفٌ في وضَحِ النهار، ولم تقدر على الخروج لتخبرهم بالضيف الغريب، دخّنت ليعرف قومه بأن ضيفاً قد نزل عليه، وكانت هذه إشارات بينها وبينهم، وعندها يأتون كي يعملوا السوء، ويفعلوا الفاحشة بهذا القادم إلى قريتهم.

ولم تكتفِ امرأة لوط بكفرها، ولم تتوقَّفْ عند ذلك العمل الشنيع، والخيانة السوداء؛ خيانة دين الله، ومحاربته، ومساعدة المجرمين على نيل مآربهم، ولكنها راحت إلى أسوأ من ذلك، فقد أخذت تُغري بزوجها لوط السفهاء والعتاة من المجرمين ليكذبوه، ويمنعوه عن نشر دعوته، ونشر دين الله، وإفشاء الفضيلة في صفوفهم، وزادت الطين بلة والأمر سوءاً بأن عملت على معاداته علناً في دينه، فكانت تفشي سرَّه لقومها، وتُبْطِن النفاقَ، وتظاهر على لوط على الرغم من أن الحياة الزوجية قد تمنع مثل هذه الأعمال المقرفة الشنيعة.

لهذا كله لم يُغْنِ عنها لوط على الرغم من حياتهما الزوجية، وسيقت إلى النار مع امرأة نوح من قبل، حيث جاء الحكم الإلٰهي العادل لهاتين المرأتين الخبيثتين بأنهما من أهل النار، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

قال الفراء: «لم يمنعِ امرأةَ نوحٍ وامرأة لوط إيمانُ زوجيهما، ولم يضرَّ زوجيهما نفاقُهما»[١].

وقال ابن كثير: «ضرب الله مثلاً للذين كفروا في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت نبيَّيْن رسولَيْن،

---

(١) معاني القرآن (٣/ ١٦٩).

وهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانِهما ويصاحبانها ويعاشرانهما أشد المعاشرة والاختلاط، فخانتاهما في الإيمان ولم يوافقانهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم ينفعهما ذلك شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً بسبب كفرهما، قيل للمرأتين: ادخلا النار مع الداخلين؛ وليس المراد بقوله: فخانتاهما في فاحشة؛ بل في الدّين، فإن نساءَ الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به؛ وأما امرأة لوط فكانت على غير دين لوط، وكانت تخبر قومها بضيوف لوط»[1].

إن عذاب الله تعالى وغضبه لا يُدفع بالاعتماد على القرابة الصالحة، لأن العذاب يُدفع بالطاعات والإيمان، فكل نفس بما كسبت رهينة، ولا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى، وبهذا لم تستفدْ امرأة لوط من ذلك، بل كانت امرأة سوء؛ امرأة خبيثة معادية في تصرفاتها لدين الله، وخائنة لتعاليمه، ومفسدة لحبل الودّ الزوجي، مما جعلهما من أصحاب النار، بل وممن يُضرب بها المثل في السوء.

يقول الرازي: «وأما ضَرْب المثل بامرأة نوح المسماة بواعلة، وامرأة لوط المسماة بواهلة، فمشتمل على فوائد متعددة لا يعرفها بتمامها إلا الله تعالى؛ منها: التّنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم، والعذاب الأليم؛ ومنها: العلم بأن صلاحَ الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضرُّ المصلح؛ ومنها: أن الرجل وإن كان في غاية الصلاح فلا يأمن المرأة، ولا يأمن نفسه، كالصادر من امرأتي نوح ولوط»[2].

وتمضي الأيام والشهور والأعوام، وقوم لوط لا يرجعون عما يقترفون من آثام، ولم يستجبْ أيُّ بيت من قرية سدوم إلى لوط، عندها نادى ربه نداءً

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٣).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٤٥).

صريحاً واضحاً قال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

واستجابَ اللهُ دعاءَ نبيه لوط، وجاءت بدايةُ النهاية للقوم المجرمين، جاء وفد التدمير الإلٰهي ليجعل عالي القرية سافلها، كان الوفد مؤلفاً من كرام الملائكة وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل، مرّ هؤلاء الملائكة الكرام على نبي الله إبراهيم، وبشروه بغلام عليم، ثم أخبروه أنهم قادمون لتدمير وإهلاك سدوم قالوا له: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ [العنكبوت: ٣١]. وراح نبي الله إبراهيم الأوّاه الحليم يجادلهم في قوم لوط لعلَّهم يتوبوا.

قالت الملائكة له: إنا مهلكوا أهل هذه القرية، فهم ظالمون.

قال إبراهيم: أرأيتُم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟

قالوا: إن كان فيهم خمسون من المؤمنين فلن نعذبهم.

قال: وأربعون؟

قالوا: وأربعون.

قال: وإن كان فيهم ثلاثون من المؤمنين؟

قالوا: وإن كان فيهم ثلاثون فلن نعذبهم.

فقال إبراهيم: وإن كان فيهم عشرون مسلماً؟

قالوا: وعشرون.

قال: وعشرة من المسلمين؟

قالوا: وإن كانوا عشرة فلن يُهلكوا.

عندها قال إبراهيم: ما مِنْ قوم لا يكون فيهم عشرة من المسلمين ليس فيهم خير.

وأكَّد الملائكة الكرام لإبراهيم أن قوم لوط ليس فيهم عشرة من المؤمنين، وقالوا له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٦٧].

وخرج الملائكةُ رسلُ الله من عند إبراهيم، ومن ثم قصدوا قرية سدوم، وأقبلوا في صور شبان حِسان الشكل والهيئة، فاستضافوا لوطاً، ورحب بهم، وخشيَ من قومه عليهم خصوصاً لمَّا عاين جمالَهم، ودار في خلده أن يومه سيكون يوماً عصيباً، ثم أخذ يقول لأضيافه الذين ظنهم من البشر: يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، قال لهم هذه الجملة أربع مرات ليلفتَ انتباهَهُم إلى فساد ضمائر أهل قرية سدوم.

قال قتادة: «وكانوا أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهدَ عليهم نبيُّهم بذلك».

كان الوقت قبيل غروب الشمس، وكان لوط يعمل في أرض له عندما جاءه الضيفان، مشى أمامهم خائفاً يترقَّبُ، ويرقب قومه لئلا يراه أحد منهم ومعه هؤلاء الضيوف الغرباء.

وفي بساطة سأله الضيوف: أيها الرجل الكريم ما بك؟

قال: أُشْهِدُ اللهَ أن أهل هذه القرية شرّ قرية على وجه الأرض عملاً، أَشْهد أنهم أهل سوء وخبث وفساد.

وكان الليل قد أرخى سدوله على القرية عندما دخلها لوط وضيوفه، ودخل لوط بيته وبصحبته ضيوفه، شكر الله حيث لم يره أحد من سدوم، ولكن امرأته قد علمت بهم، أما ابنتاه ـ ريثا ورغوثا ـ فكانتا مؤمنتين ولم تكونا من أهواء الظالمين، وقد رأتا الضيوف مع أبيهما، وخافتا من بلاء يحيط بهم.

وكان ما توقَّعَتاه صحيحاً، فما أن رأت امرأة لوط هؤلاء الضيوف حتى ركبتها وساوس الشيطان، ولم تتوقف عن بث الخبر في القرية، فأشعلت النار ليعلم أهل سدوم بالضيوف؛ ثم خرجت وأخبرت بعضهم بالضيوف الذين هبطوا عليهم في الظلام، وقالت لهم: إني رأيت رجالاً حِسان الوجوه عند لوط، وإن ابنتيه تعدَّان الطعامَ لهم، ثم أخبرت بقية القوم بنبأ الضيوف وقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف هذه الليلة فتية غرباء لا يوجد مثل جمالهم، ولا مثل طيب رائحتهم...

وجاء قومه يهرعون إليه كأنهم حُمرٌ مستنفرة، كان سُعار الفاحشة يتوثّب في

نفوسهم العفنة، جاؤوا يركبون شهواتهم المسعورة المقلوبة، والشيطانُ يقودُهم بحبل الضلال؛ قالوا: يا لوط؛ أوَ لم ننهكَ عن استقبال الضيوف؟! إنك تعلم ما نريد!!

شعر نبيُّ الله لوطٌ بالإحراج الشديد، أحب أن يحرك مشاعرهم وإحساسهم، وأراد أن يذكرهم بالفطرة الطبيعية، أرشدهم إلى غشيان نسائهم، إذ النساء حرث للرجال، فقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]؛ ثم أخذ يعظهم، ويتلطَّف ويثير مكمن الخير بنفوسهم فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [هود: ٧٨]، ولكن التقوى غابت عنهم غيبة بعيدة لن ترجع مطلقاً، فلجأ عليه السلام إلى الأعراف الاجتماعية لعلهم يرجعون عن غيهم، ولا يحرجوه أمام ضيوفه ولا يخزوه بأعمالهم الشائنة فقال: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] ؟!!

في الحقيقة أفلسَ قومُه من جميع القيم الخلقية والتربوية والاجتماعية، وكانوا سفهاءَ يجمعهم الفجورُ، ويفرقهم الضلالُ، ويقودهم الكفرُ، ركبوا رؤوسَهم، وغاصوا في أوحال الرذيلة، ولم يرعوا حال لوط، ولم يعرفوا كرامة ضيوفه، ففقدوا كل ذرة من ذرات الرشد، وطارت من أدمغتهم معاني الحياء، خرجوا عن الوقار، وركنوا إلى الصَّغار، فحلّت عليهم لعنة الجبار، وفي كل خسة ونذالة رفعوا أصواتهم: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]؛ وأشاروا إلى الأضياف.

ولما رأى لوط استمرارهم في غيّهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عوناً على ردِّهم، فقال لهم على جهة التفجُّع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. والمعنى لو أجد أنصاراً وأعواناً لرددت أهل الفساد، وحُلْتُ بينهم وبين ما يريدون أو ألجأ إلى عشيرة ذات كثرة ومنعة.

قال ابن عباس وأهل التفسير: «أغلق لوط بابه، والملائكة معه في الدار، وهو يجادل قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يحاولون تسوّر الجدار، والدخول عليه؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا: يا لوطُ، إن ركنكَ لشديدٌ، وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردود، وإنا

رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم. ففتح الباب، فضربهم جبريل فطمس أعينهم، وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب، فأذراها في وجوههم فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقاً ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء، النجاء، فإن في بيت لوط قوماً هم أسحر مَنْ على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى، يتوعَّدونه»[1].

ودعا لوطٌ ربَّه أن ينجيه وأهله، وأن يهلك القوم الظالمين: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٩ ـ ١٧٢].

وشعر لوطٌ بالاطمئنان على ضيوفه وعلى نفسه، وجاءته الأوامر الإلهٰية بأن يسري بأهله بعد مضي صدر الليل الذي أناء بكلكله في ذلك الوقت، وألا يلتفت أحد منهم ولا يتخلف ولا ينظر وراءه عند سماع صوت العذاب إذا نزل بقومه، وذكّرته الأوامر بامرأته الكافرة الظالمة بأنه سيصيبها ما أصاب قومها، فلا تَسْرِ بها، لقد أسرفت على نفسها، وتجاوزت الحدود مراراً، فحقّ عليه العذاب، ولن تكون من الناجين، جاء الأمر الإلٰهي واضحاً، قال تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

كانت الأوامر قد أخبرت لوطاً بأن يخرج بابنتيه لأن موعد هلاك القوم الصبح: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، نعم إن الصبح قريب وعسير على هؤلاء الطغاة الفسقة الفجرة، الذين قست قلوبهم وغلظت أكبادهم.

خرج لوط مسرعاً من القرية الظالم أهلها، خرج لوط وابنتاه في السحر، ولما ابتعد عن سدوم جاءت جنود الله تنفِّذ المهمة الربانية والمؤلفة من أمور منظمة كانت على النحو الآتي:

١ ـ قلب القرى بالكفرة الفجرة، حيث جعلوا عاليها سافلها.

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٥٢ و٥٣) بتصرف واختصار.

٢ ـ جاءتهم صيحة عظيمة من السماء في الصباح.

٣ ـ أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود معلّمة.

ونفذ جنود الرحمن المهمة على أكمل وجه، وهلك قوم لوط أجمعون، وهلكت الخبيثة الكافرة امرأة لوط، ورافقت امرأة نوح في النار وبئس القرار.

بعد لحظات تلاشت سدومُ وقرى قوم لوط التي كانت تعمل الخبائث، انمحى الظالمون جميعاً، لم يعدْ لهم أثر على هذه الأرض، ولم يأسف عليهم أحد، وما بكت عليهم السماء والأرض، حتى أرضهم غدت بحيرة مالحة لا حياة فيها، لم تعد امرأةُ لوط تُذكر إلا للعظة والعبرة... قال ابن كثير: «يقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها. ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً، وقالت: واقوماه، فسقط عليها حجر فدفعها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضِّيفان»[1].

تلاشى القوم المجرمون، وظلت قصتهم عبرة وآية للذين يخافون العذاب الأليم، ظلت آثارهم للعبرة فقط، آثار تدل على عظمة الله وعزته، نعم «لقد جعل الله تعالى مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعِظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذَّب رسله، واتّبع هواه، وعصى مولاه، ودليل على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم إلى النور من الظلمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨ ـ ٩]»[2].

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٨٢).

(٢) قصص الأنبياء (ص ٢١٧).

لقد نجى اللهُ لوطاً إلا امرأتَهُ الكافرة التي غضب الله عليها، فجعلها من أصحاب السّعير.

لقد كانت امرأة لوط مثالَ الشَّرِّ، ومثال السوء، ومثال الزوجة العاقَّةِ، مع العلم أنها تعيش في منبع النور ومهبط الوحي، ولكنها لم تستثمرْ ذلك، فخسرت، ونالت جزاءها وعقابها في الدنيا، فصعقها الله ودمرها، ولا يزال عذاب الآخرة ينتظرها جزاءً وفاقاً لعملها، فقد ضرب الله بها المثل في القرآن الكريم لتكون نذيراً للكافرين والكافرات بسوء المصير.

وعلى النساء العاقلات أن يستفدْنَ من قصة امرأة لوط، فيبتعدن عن كل ما يسوء الزوج ويسيء إليه، ويعملن على طاعة الله ورسوله وطاعة الزوج فيما يرضي الله ليكنّ من السعيدات ومن زمرةِ الناجين.

* * *

الفصل الحادي عشر

امرأة أبي لهب

في رحلةِ العداء الأعمى للدعوةِ الإسلامية في مشرق بدايتها، تظهر هذه المرأة المعادية التي كانت من ألدِّ أعداء النبي محمد ﷺ، ومن العجيب حقاً أن عداوتها كانت نابعةً من الحسد والكبر والعناد، على الرغم من وشائجِ القُربى التي كفرت بها، وتركتها ونسيتها، وسارت خلف أذيتها، وكوّنت مع زوجها حزباً معارضاً لرسول الله ﷺ، وكانا عالِمَيْن بصدقه وصدقِ رسالته، لكنهما ما آمنا كبراً وحجوداً وغيّاً، وعندها استحقا البشارة بالنار في سورة كاملة تتلى في المحاريب إلى ما شاء الله تعالى.

هذه المرأة الكفورة المعاندة الحاسدة هي أم جميل أروى أو العوراء بنت حرب بن عبد شمس الأموية[1]، امرأة أبي لهب الخبيث الذي ما انفكَّ يعادي النبي ﷺ من أول يوم أمِرَ فيه بالجهر إلى أن مات غمّاً عُقيب غزوة بدر الكبرى. وكان أبو لهب وامرأته من أخبثِ المعاندين وأحطِّ الكفرة في عداوتهم للنبي ﷺ، وقد وافقته ووافقها، وانطلقا من مستنقع الحقد يصبّان العداوة في طريق دعوة التوحيد، ونبذِ الأصنام، فكانا بيتَ سوءٍ، وكان كلاهما زوجين جمعهما الخُبْثُ، واللؤم، والعناد، وصدق الله إذ وصف أمثال هؤلاء بقوله: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦٣)، وترويح أولي الدماثة (٢/ ٢٥٨ و٢٧٦)، والإصابة (٢/ ١٧٢)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٣٣٧)، وتفسير المراغي (١٠/ ٥١٣)، وتفسير روح البيان (١٠/ ٦٤٩)، والتعريف والإعلام (ص ٣٩٨)، وتفسير مبهمات القرآن (٢/ ٧٢٥ و ٧٥٨)، والفتوحات الإلٰهية (٨/ ٤٥١)، وبلاغات النساء (ص ٤٥)، والمحبر (ص ٥٣)، والمعارف (ص ١٢٥)، ونسب قريش (ص ٨٩) وغيرها كثير.

﴿لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

بدأت عداوة أم جميل منذ أن صَدَعَ النبي ﷺ بأمرِ ربِّه، وراح يبلِّغ رسالته، وينذر عشيرته الأقربين، فدعا بني هاشم وأعمامه منهم، فلم يدعْهُ أبو لهب يتكلَّم، ثم دعاهم ثانية، وأخبرهم برسالته قال: «الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له؛ ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إلٰه إلا هو إني رسول الله إليكم خاصّة، وإلى الناس عامّة، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، وإنها الجنة أبداً والنار أبداً»[١].

وسكت النبي ﷺ، فتكلم أبو طالب، وخاطب النبي ﷺ بكلام لطيف وقال: «ما أحبّ إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدّ تصديقنا لحديثك! فامضِ لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب».

واعتذر أبو طالب اعتذاراً رفيقاً رقيقاً عن الإسلام، أما أبو لهب فثار وغضب وقال: «هذه والله السّوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذَ غيرُكم على يده، وإن أسلمتموه ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم».

فقال أبو طالب: «والله لنمنعنَّه ما بَقِينا»[٢].

وكان حال الناس عند البعثة كما ذكر البوصيري في همزيّته:

ثم قام النبيُّ يدعو الإلٰـ ـه وفي الكفْر شدةٌ وإباءُ
أمماً أُشرِبَتْ قلوبُهم الكفْر فَدَ اءُ الضّلال فيهم عياءُ

ولكن النبي ﷺ مضى ممتثلاً أمر ربه، يدعوهم إلى التوحيد والإيمان برسالته، فكان أبو لهب وامرأته أول المكذبين من عشيرته.

أخرج البخاري بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النبي ﷺ

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٦١).
(٢) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١١٩).

على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فِهْر! يا بني عَديّ ـ لبطون قريش ـ» حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغيرَ عليكم أكنتم مصدقيّ؟»».

قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقاً.

قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد».

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟!

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١ ـ ٢]»[1].

وهذه الصيحةُ العاليةُ هي غايةُ البلاغ، حيث بيّن رسول الله ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصِّلات بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة قد تلاشت في حرارة هذا الإنذار العظيم.

وبدأت رؤوسُ الشرِّ تنبثق من رأس أبي لهب وامرأته، وكانت الخبيثة أم جميل امرأته عوناً له على فجوره وعناده وكفره، وكانت من أشد نساء المشركين إيذاءً للنبي ﷺ، ولم تتركْ فرصة فيها الأذية إلا سارعتْ إليها.

ومن العجيب أن امرأة أبي لهب كانت من أشدِّ النساء العاصيات عداوةً للإسلام ولنبي الإسلام، فكانت تصف النبي ﷺ بالفقر، وأحياناً تعيِّره بموت البنين، وتثير الفتنة، وتؤذي النبي ﷺ شخصياً، فتضع الشوك في طريقه لكي تتأذى قدماه الشريفتان.

أخرج البيهقيُّ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، قال: «كانت تحمل الشوك فتطرحه

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٦٠) حديث رقم (٤٧٧٠)، وانظر تفسير الرازي (٣٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، ومصادر أخرى كثيرة.

على طريق النبي ﷺ ليعقره وأصحابه، ويقال: حمالة الحطب: نقّالة الحديث»[1].

ومن الطبيعي أن تكونَ هذه المرأةُ امرأةً وقحةً، سليطةَ اللسان، لا ترعى حرمةً لقرابة، ولا تعرف حياءً، كانت كالحية الرقطاء تنفث سمّها، وتجهر بعداوتها، وتقول: إن محمداً ساحر.

ولم تتوقف أم جميل ـ بل أم قبيح ـ عند هذا كله، بل تمادت وأوغلت في الإيذاء للنبي ﷺ، فقد كانت دارُها ملاصقةً وقريبة من دار النبي ﷺ، فكانت تضع الأقذار والأوساخ على بابه، فيبعده النبي ﷺ ويقول: «أي جوارٍ هذا يا بني عبد مناف»؟! ثم يلقيه بالطريق[2].

وكان أبو لهب زوجها يطرح النجاسات والفروث على باب النبي ﷺ، حتى منعه حمزة أخوه، ذكر هذا البلاذري قال: «كان أبو لهب يطرح القذرَ والنتنَ على باب النبي ﷺ، فرآه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وقد طرح من ذلك شيئاً، فأخذه وطرحه على رأسه، فجعل أبو لهب ينفضُ رأسه ويقول: صابئ أحمق، فأقصرَ عما كان يفعل، ولكنه كان يدسُّ من كان يفعله»[3]. ولعله كان يدسُّ امرأتَـهُ لتتابع مسيرةَ الأذى والعداوة.

ومن الواضح أن أمَّ جميل بنت حرب كانت حاقدةً على النبي ﷺ حقداً عجيباً، فكانت تثير الفتن، وتسعى بين القوم بالنميمة لتفسد قلوبهم على النبي ﷺ، فوصفها الله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وهي صفة النمَّامة الواشية التي تشعل نارَ الفتنة بين الناس، فتحرق ما بينهم من صلات القرابة والتراحم.

قال الشَّوْكاني في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]: «وتصلى امرأته ناراً ذات لهب، وهي أم جميل بنت حرب، وكانت تحمل الغضى والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ . وقال بعضهم: إنها

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي.
(٢) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٠١).
(٣) أنساب الأشراف (١/ ١٣١).

كانت تمشي بالنميمة بين الناس، والعرب تقول: فلان يحطب على فلان؛ إذا نمّ به، ومنه قول الشاعر:

من البيضِ لم يصطدْ على ظَهْر لامةٍ ولم يمشِ بين الناسِ بالحطبِ الرطبِ

وجعل الحطب في هذا البيت رطباً لما فيه من التدخين الذي هو زيادة في الشرِّ، ومن الموافقة للمشي بالنميمة.

وقال سعد بن جبير: معنى حمالة الحطب: أنها حمالة الخطايا والذنوب؛ من قولهم: فلان يحتطب على ظهره كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقيل: المعنى حمالة الحطب في النار»[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾: «وكانت شديدة الأذيّة لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها الأوزار، بمنـزلة من يجمع حطباً»[٢].

وأجمع المفسرون على أنها كانت تؤذي رسولَ الله ﷺ بكل ما تقدر عليه من القول والفعل، وقد نقل البغوي عن جماعة من التابعين «بأنها كانت تحمل الشوك والعضاة فتطرحه في طريقِ رسولِ الله ﷺ ؛ وكانت كذلك تمشي بالنميمة وتنقلُ الحديث، فتلقي العداوة بين الناس، وتوقدُ نارَها، كما توقد النار بالحطب، يقال: فلان يحطب على فلان؛ إذا كان يُغري به»[٣].

وأشار الزمخشري إلى أنها «كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ، وكانت تمشي بالنميمة، ويقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم النائرة ويوقد الشر»[٤].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (ص ١٦٦٥) باختصار يسير.
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٦٦).
(٣) تفسير البغوي (ص ١٤٤٦ و١٤٤٧) مخلصاً.
(٤) تفسير الزمخشري (ص ١٢٢٧).

ويشير بعض المفسرين إلى أن أمَّ جميل بنت حرب كانت من بيت عزّ وشرف، لكنها كانت بخيلة حاقدة؛ فقد نقل صاحب (الفتوحات الإلٰهية) عن تفسير (الخازن) قوله: «فإن قلت: إنها كانت من بيت العزِّ والشرف، فكيف يليق بها حملُ الحطب؟

قلت: يحتمل أنها كانت مع كثرة مالها وشرفها في نهاية البخلِ والخِسَّة، فكان يحملها بخلها على حمل الحطب بنفسها، ويحتمل أنها كانت تفعل ذلك لشدة عداوتها لرسول الله ﷺ، ولا ترى أنها تستعين في ذلك بأحد، بل تفعله بنفسها»[١].

وأشار صاحب (روح البيان) إلى أنها: «كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام يطأه كما يطأ الحرير. وفي تفسير أبي الليث: حتى صار النبي ﷺ، وأصحابه في شدةٍ وعناء»[٢].

وجمع ابن الجوزي والقرطبي أقوال من سبقهم من المفسرين، وانفرد القرطبي بقوله: (وامرأته: أم جميل. قال ابن العربي: العوراء أم قبيح، وكانت عوراء. و﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ كانت تمشي بالنميمة بين الناس؛ تقول العرب: فلان يحطب على فلان: إذا وَرّشَ عليه، قال الشاعر:

إنّ بنـي الأدرمِ حمّـالـو الحطـبْ هم الوشاةُ في الرضا وفي الغضبْ

عليهـمُ اللعنـةُ تتـرى والحَـرَبْ

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: إياكم والنميمة! فإنها نارٌ محرِقةٌ، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر. أخذه بعض الشعراء فقال:

إنّ النميمـةَ نـارٌ ويْـكَ محـرقـةٌ فَفِرّ عنهـا وجـانـبْ مَنْ تعـاطـاهـا

---

(١) الفتوحات الإلٰهية (٨/ ٤٥١).

(٢) روح البيان (١/ ٦٤٩).

ولذلك قيل: نار الحقد لا تخبو، وثَبَتَ عن النبي ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ نمّامٌ»[1].

وأوغلت أم جميل في العداوة إيغالَ الموتورين، حتى إنها زعمت أنها تهجو النبي ﷺ، وكانت تقول عنه: مذمّم بدلاً من محمد.

ومن العجيب في تاريخ الحقد والكراهية والعداوة أن حمالَةَ الحطب أم قبيح بل أم القبائح والمخازي، من عِظم حقدهم على رسول الله ﷺ لا يَدْعُونه ولا يسمونه باسمه الذي يدل على المدح والرفعة، وإنما ينصرفون إلى عكسه فيقولون: مذمّم، وإذا أرادوا أن يذكروه بسوء قالوا: فعل الله بمذمَّم.

وكان هذا الذي يبدُرُ منهم في هذا المجال مصروفاً إلى غيره، وكانت أم جميل تقول: مذمماً عصينا. وكانت تزعم بأنها شاعرة تفهم مقاصد الكلام، لذا فهي تستطيع أن تهجو رسول الله ﷺ.

ذكرت بعض المصادر أنه «لما أنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ السورة كلها، وسمعت أم جميل ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن الكريم، أتت رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد عند الكعبة المشرّفة، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وفي يدها فِهْر - حجر - فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها، وصرفه عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر رضي الله عنه، فقالت له:

يا أبا بكر؛ أين صاحبك؟! لقد بلغني أنه يهجوني؛ والله؛ لو وجدته لضربتُ بهذا الفِهر فاه، أما والله إني لشاعرة، فكما هجاني لأهجونّه، ثم اندفعت تقول:

مذمّماً عصينا ... أمرهُ أبَيْنَا

ودينَه قَلَيْنا

فقال أبو بكر رضي الله عنه: واللهِ ما هجاك، ولا هجا زوجك، وما ينطق بالشعر وما ينبغي له. فقالت: إنك لمصدَّق، ووالله ما أنت بكذاب، وإن الناس

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦٣) باختصار، وانظر: زاد المسير (ص ١٦٠١).

ليقولون ذلك. ثم ولّت ذاهبة وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها.

وبعد أن انصرفت قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني»؛ وفي رواية: «حال بيني وبينها جبريل عليه السلام»[(١)].

وفي همزيته الجميلة أشار البوصيري إلى حمالة الحطب عندما حملت الحجر وأرادت أن تضرب به النبي ﷺ، فأعماها الله عنه؛ يقول البوصيري:

وأعدّتْ حمّالةُ الحطبِ الفِهـ ـرَ وجاءتْ كأنها الورقاءُ
يوم جاءتْ غضبى تقولُ أفي مثلي من أحمدَ يُقَال الهجاءُ
وتولّتْ وما رأتْه ومِنْ أيـ ـن ترى الشمسَ مقلةٌ عمياءُ

وبلغ الحقدُ أقصاه عند أم قبيح حمالة الحطب، فكانت إذا ما تعثرت بثوبها تقول: تَعِس مذمَّم؛ وإذا سألت عنه ﷺ تقول: أين مذمَّم؟ وكثيراً ما تقول: مذمّماً عصينا، وتعس مذمّم، ومات صبيان مذمّم، وافتقر مذمّم، وهجوتُ مذمماً، ومثل هذا كثير، وقد صرف الله تعالى كيدها وكيد قريش بأن كانوا يقولون: «مذمّم» وليس هذا اسمه ﷺ ولا يُعرف به؛ ولذلك قال ﷺ فيما أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتمَ قريش ولعْنَهم؟ يشتمون مذمَّماً، ويلعنون مذمَّماً، وأنا محمدٌ»[(٢)].

ومن بدائع اللطائف والمنن الإلٰهية، أن صرف الله تعالى الشتائم والسُّباب باللسان عن النبي ﷺ، كما صرف عنه وصول الأذى بالنعال، وحجب عنه الأذى، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

قال سعيد بن جبير رحمه الله: «لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٣٥٥ و ٣٥٦)، وتفسير الماوردي (٤/ ٥٤٣) مع الجمع والتصرف. وانظر: السيرة الحلبية (١/ ٤٦٦ و٤٦٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٩٥ ـ ١٩٧). وغيرها كثير من تفسير القرطبي (١٠/ ١٧٤ و ١٧٥) وغيره.

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٤١) حديث رقم (٣٥٣٣) طبعة مصر. وانظر: الروض الأنف للسهيلي(٢/ ١١٤ و ١١٥).

[المسد: ١]، جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: لو تنحيت عنها لئلا تُسْمعَك ما يؤذيك، فإنها امرأة بذيّة.

فقال النبي ﷺ: «إنه سيُحال بيني وبينها»، فلم تَرَهُ.

فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك!

فقال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله.

فقالت: وإنك لمصدّقه؛ فاندفعت راجعة.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، أما رأتك؟

قال: «لا، ما زال مَلَكٌ بيني وبينها يسترني حتى ذهبت»[١].

وقيل: «نزلت هذه الآية في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل، وأبو سفيان، والنضر بن الحارث، وأم جميل امرأة أبي لهب، وحويطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرون به ولا يرونه»[٢].

ومن المفيد في هذا المقام أن نذكر ما أورده القرطبي عن كعب قال: «كان النبي ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات:

الآية التي في الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

والآية التي في النحل: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

والآية التي في الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] الآية.

فكان النبي ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين.

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٧٥).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ١٧٦).

قال كعب: فحدثت بهن رجلاً من أهل الشام، فأتى أرضَ الرُّوم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه فقرأ بهنَّ، فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه»[1].

قال القرطبي: «قلتُ: ويزاد إلى هذه الآي أوّلُ سورة يٰس إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فإن في السيرة في هجرة النبي ﷺ، ومقام عليّ رضي الله عنه في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يٰس: ﴿يسٓ ۝ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩]، حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب»[2].

ويذكر القرطبيُّ قصةً حدثت معه وهو في الأندلس حيث أنجاه الله من العدو فقال: «قلتُ: ولقد اتّفق لي ببلادنا الأندلس بحصن (منثور) من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربتُ أمام العدو، وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبثْ أن خرج في طلبي فارسان؛ وأنا في فضاء من الأرض، قاعدٌ ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليّ، ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا (ديْبَله)؛ يعنون شيطاناً؛ وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك»[3].

ونعود إلى حمالة الحطب، امرأة أبي لهب، تلك المرأة التي عاهدت الشيطان على العداوة للإسلام ما دامت حية، فقد كانت هذه الخبيثة تتبع وترقب ما يقوم به النبي ﷺ، وخصوصاً في أول البعثة، حيث حسبت أنَّ الوحيَ نوع من

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٧٥).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق (١٠/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

أنواع همزات الشياطين، وأنه يتحدث بما يبثونه.

جاء عند البخاري بسنده عن جُندُب بن سفيان رضي الله عنه قال: «اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني أرجو أن يكون شيطانك قد تركَكَ، لم أرَهُ قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾»[1].

قال ابن حجر في الفتح: المرأة: هي أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب، ولكونها كافرة عبّرت بلفظ شيطانك وقالت ذلك شماتة.

ولم تطُلْ شماتةُ حمالة الحطب، فنزل الوحي على النبي ﷺ، وفضح الكفار، وأمره الله بأن يتابع الخطى في الدعوة، وفي تبليغ الأوامر الربانية إلى الإنس والجن.

وظلَّتِ العداوةُ تسبح في جوارح أم جميل، وبقيت معاداتُها الخسيسة الخبيثة تصاحبها إلى آخر أيامها، حتى كُتبت منذ أن أعلنت عداءها في ديوان الأشقياء، وصار لقبها حمالة الحطب؛ هذا اللقب الذي يشير إلى التحقير والصغار. حتى إن الزمخشري قال: «وقد تُوسِّل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل»[2]، وذلك لكثرة ما حملت من الأوزار والآثام في عداوتها للنبي ﷺ، لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار.

ولأجل هذا كله استحقت أم جميل النار بصحبة زوجها أبي لهب. قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ٣-٥].

وقال ابن كثير: «وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾: في عنقها حبل من نار جهنم، تُرفع به إلى شفيرِها، ثم تُرمى إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً».

وقال قتادة: «هو قلادة من وَدَع كانت لها».

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٨٠) حديث رقم (٤٩٥٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٥) وغيره.

(٢) تفسير الكشاف (ص ١٢٢٧).

وقال سعيد بن المسيب: «كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى، لأنفقنها في عداوة محمد، فيكون ذلك عذاباً في جسدها يوم القيامة»[1].

وقال جمهور من المفسرين: «سيكون حالُ امرأةِ أبي لهب في النار على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحملُ حزمةَ الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمةٌ من حطب النار من شجرة الزقوم، أو من الضريع، وفي جيدها حَبْل من سلاسل النار، لأنه سبحانه يُعذّب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه»[2].

وإن هذه المجرمة النمامة المؤذية لرسول الله ﷺ لا حليّ لها في الآخرة إلا الحبل المجعول في عنقها، ألا وهو سلسلة من النار، أو سلسلة من نار تدخل من فمها إلى جوفها، أو سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً، تكون في عنقها.

قال الزمخشري: «والمعنى: في جيدِها حبل من مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها، كما يفعل الحطّابون، تخسيساً لحالها، وتحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن، لتمتعضَ من ذلك، ويمتعضَ بعلُها وهما في بيت العزِّ والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة».

وفي ذكر أم جميل بأن في جيدها حبلاً من مسد، نجد فنَّ التهكُّم الواضح الصحيح، حيث إن القرآن الكريم قد صوَّرها هذا التصوير الذي فيه منتهى الخسة.

ومن الطريف هنا أن بعض الشعراء الظرفاء قد أعجبته هذه الصورة، وهذه السخرية من حمالة الحطب، فقد ذكرت كتبُ الأدب والأسمار أن الشاعر الأحوص الأنصاري المشهور قد عيَّر الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب

---

(١) فتح القدير (ص ١٦٦٦).

(٢) انظر تفسير سورة المسد في: الكشاف، والقرطبي، وابن كثير، والرازي، والمراغي، وغيرها. وانظر: الروض الأنف للسهيلي (٢/ ١١١).

وكان الفضل شاعراً بليغاً، وهو أحد أحفاد حمالة الحطب؛ فقال الأحوص يسخرُ من لقب أم جميل حمالة الحطب ويخاطب الفضل:

مـا ذاتُ حَبْـلٍ يـراهُ النـاسُ كلُّهـمُ   وسطَ الجحيمِ ولا يخفى على أحدِ
كلُّ الحبالِ حبالِ الناسِ من شَعَرٍ   وحبلها وسطَ أهلِ النارِ من مَسَدِ

فقال الفضل بن العباس يرد عليه:

مـاذا تـريـدُ إلـى شَتْمـي ومنقصتـي   أمْـا تُعَيِّـرُ مـن حمّـالـةِ الحطـبِ
غـرّاءَ شَـادخـةٍ فـي المجـدِ عـزّتهـا   كانت سليلة شيخٍ ثاقبِ الحسَبِ

وظلت أم جميل حمالة الحطب تسعى بكل جهدها لتقديم الأذى للنبي ﷺ، ولمحاربة الدعوة الإسلامية حتى ماتت شرَّ ميتة.

ذكر المفسرون أنها ذات يوم كانت تحمل حزمتها من الشوك، فقعدت على حجر لتستريح، فأتاها مَلَك فجذبها من خلفها، فأهلكها خنقاً بحبلها، فماتت في الطريق شرّ ميتة، في أبشع صورة، وتركت أوقح صورة للمرأة العاصية لله وللرسول وللإسلام.

نسأل الله اللُّطف، والتوفيق والسَّداد في القول والعمل، وأن يلهمنا الأعمال الصالحة، والقول الطيب في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني عشر
أمُّ سعد بن أبي وقاص

لا ريب في أن طاعة الله تعالى هي سَلْوةُ المؤمنين، فبأدائها عرفوا لذة العبادة، وصفاء النفس، وإذا هم بطاعته تعالى عن اللهو واللغو معرضون، إذ هم بالأسحار يستغفرون، وإذا هم في كل وقت يرتِّلون: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، فهاموا حباً في عمل الطاعات، ليفوزوا بجنةٍ عرضها الأرض والسماوات، وهناك ينادون: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]و:

قد خصّكم فيها برضوانه ... وروضةٍ أنتم بها تُحبرون
في جنّةٍ دانيةِ المُجتنى ... قطوفُها قد ذُلّلتْ والغُصون

ذلك هو مَقرُّ الطائعين، ومَوْئلُ المؤمنين العاملين، ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

إن قصص الطائعين جميلة ومفيدة، وفيها دروس وعِبَر عظيمة، ومن هذه القصص قصة الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مع أمِّه العاصية التي رفضت أن تستجيب لدعوة الإسلام، ولِما جاء به خير الأنام محمدٌ ﷺ.

أسلم سعد بن أبي وقاص وهو في سن الزهر وعنفوان الصبا، كان عمره سبعة عشر ربيعاً، وكان حارساً بادئَ الأمر للنبي ﷺ، وهو من بني زهرة أخوال النبي ﷺ، ولذلك قال عنه: «هذا خالي، فليرني امرؤ خاله»[1].

أما أمه فهي حَمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن مناف[2]، كانت ذات

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٧٥٣).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٩٦)، والمستدرك (٣/ ٤٩٥)، والإصابة (٤/ ١٦٠)، وتفسير =

مكانة وحسب ونسب وشرف؛ وقد ربّت ابنها سعداً وإخوته تربية متميِّزة جعلت سعداً باراً بها إلى حدّ كبيرٍ ضمن مرضاة الله تعالى.

كان سعد ميمونَ النقيبة، مرزوقَ الظفر، أحبَّ الناس إلى قريش، وكان رقمه في صفحة السابقين الأولين، بل كان في الأرقام الأولى. وكان ثلث الإسلام كما جاء عنه في الصحيح: «ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمتُ، ولقد مكثت سبع ليال وإني لثلث الإسلام»[١].

وقالت ابنته عائشة: «مكث أبي يوماً إلى الليل وإنه لثلث الإسلام»[٢].

وذكر ابن عساكر قصة طريفة تدل على يُمْنِ سعد، وسبقه إلى الإسلام، يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «رأيت في المنام، قبل أن أسلم بثلاث كأني في ظلمة لا أبصر شيئاً، إذ أضاء لي قمر فاتَّبَعْتُه، فكأني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك القمر، فأنظر إلى زيد بن حارثة، وإلى علي بن أبي طالب، وإلى أبي بكر رضي الله عنهم؛ وكأني أسألهم: متى انتهيتم إلى ها هنا؟

قالوا: الساعة.

وبلغني أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام مستخفياً، فلقيته في شِعْب أجياد، وقد صلى العصر، فقلت: إلامَ تدعو؟

قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله».

قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله، فما تقدمني أحد إلا هم»[٣].

= مبهمات القرآن (٢/ ٣١٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢١٧)، وترويح أولي الدماثة (٢/ ٧٨)، وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨)، وغرر التبيان (ص ٤٠١)، والدر المنثور للسيوطي (٥/ ٢٧٠) وغيرها.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٢٦و ٣٧٢٧) وكذلك برقم (٣٨٥٨)، وابن ماجه برقم (١٣٢)، وانظر: حلية الأولياء (١/ ٩٢).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٩٨).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٦).

أسلم سعد إسلام المخبتين المؤمنين، إسلام ذوي الفطرة النقية، وجد الإيمانُ قلبَهُ خالياً فتمكَّنَ فيه، وعمَّره بكل الودِّ والمحبة لله ولرسوله وللمؤمنين.

كان سعد مسروراً بإسلامه، رغيداً بإيمانه، أحسَّ بأن دنياه الآن هي النور وهي الحياة عما سلف في أيامه الأولى، أصبحت أنوار الإسلام مرتسمة على وجهه، وتصرفاته وكل أعماله، ونمي الخبر إلى أمه حمنة بنت سفيان بأن سعداً قد غدا من حزب محمد ﷺ، وقد آمن بما يدعو إليه؛ هنالك قامت ولما تقعد، وأخذها ما قَرُبَ وبَعُد، ولعب بها شيطان الغرور ذات اليمين وذات الشمال، وغضبت غضباً شديداً ما عليه من مزيد، ونفثت من سموم غيظها ما لا يطاق، وعبس وجهها وبَسَر، ثم فكرت بابنها سعد ذلك الابن الحفيّ بها الذي لم يَعْصِها يوماً واحداً، ولا عصى لها أمراً من يوم أن عقل إلى الآن، فما الذي جعله ينصرف عن دين آبائه وأجداده إلى دين لم تعرف كنهه؟!

ثم إن حمنة بنت سفيان زين لها الشيطان فكرة سقيمة، فقد حلفت وأغلظت في أيمانها أن لن تذوق طعاماً، ولا تشرب شراباً، بل ولا تستظلّ بظلٍّ حتى يرجع ابنها سعد عن الإسلام وعن الإيمان بهذا الدين المحمدي.

وعلم سعد بما عزمت عليه أمُّه حمنة، ولكن ما عليه أن يفعل وهو البارُّ بها؟!

لم يترك سعد العواطف تتجاذبه من هنا وهناك، ولم يترك همسات الأمومة تسحب قلبه من جوفه ليترك الإيمان، لم يستجب سعد للأهواء والعواطف، فالإيمان بالله تعالى ومحبة رسوله محمد ﷺ أقوى من عواصف هذه العواطف المبتورة التي تقوم على الغشِّ والبعد عن الله تعالى.

لا شك في أن هذا الابتلاء الذي مرّ به سعد إنما هو ابتلاء في الدّين ابتلي به سعد من قِبَل أمه التي حاولت أن تستخدم معه سلاح الأمومة والعاطفة والرحم، غير أن كل حق باطلٌ إذا عارض حقّ الله تعالى، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقد أدرك سعد هذه الناحية منذ أن أسلم وسلك سبيل المؤمنين.

ولكن ماذا حدث لأم سعد بعد أن امتنعت عن الطعام والشراب والظلّ؟!

هذه الإجابة نسمعها من سعد بن أبي وقاص نفسه حيث يروي لنا قصة إسلامه، ويرسم صورة واضحة لغضب أمه وإضرابها عن الطعام والشراب فيقول: «كنت رجلاً برّاً بأمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعد! ما هذا الدين الذي قد أحدثتَ؟ لتدعنّ دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتُعيّر بي، فيُقال: يا قاتل أمّه.

قلتُ: لا تفعلي يا أمّه! إني لا أَدَعُ ديني هذا لشيء. فمكثتْ يوماً وليلة لا تأكل، ولا تشرب، وأصبحتْ وقد جُهِدتْ، ومكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل، فأصبحت وقد اشتد جهدها؛ فلما رأيت ذلك قلتُ: يا أمّه! تعلمين والله لو كانت لك مئة نَفْس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكُلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]»[(١)].

ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾عدم جواز متابعة الأبوين في الكفر، وذلك لأن الإحسان إلى الوالدين وجب بأمر الله تعالى، فلو ترك العبد عبادة الله بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى.

ولهذا فإن نفس سعد رضي الله عنه عزيزةٌ، عاليةٌ، شامخةٌ، قوية بدين الله تعالى، إذ إن دين الله عزيز لديه، ولا يمكن لسعد مهما كانت الظروف والأحوال أن يفرّط في دينه من أدنى كلمة تُقال له من أمه حمنة بنت سفيان، لأن سعداً مستقيم على طريق الاستقامة الحقة والدين الحق، ولن ينحرف عن جادة الصواب، ولن يضعف أمام العواطف.

---

(١) انظر هذه الرواية في مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٦١). ولهذه الرواية جذور وأصول في كتب الحديث، حيث أخرجه مسلم في الفضائل برقم (١٧٤٨)، والترمذي برقم (٣٠٨٠و٣١٨٨)، وأبو داود برقم (٣٧٤٠)، وانظر تفسير البغوي (ص ٩٦٢)، والبداية والنهاية (٤/ ٧٤و ٧٥) وغيرها كثير جداً.

ولقد تحدَّث القرطبي في تفسيره عما ينبغي في الطاعة، وعما لا ينبغي فقال: «إن طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة»[1].

إن نزول هذه الآية الكريمة جعلت سعداً وغيره من جماعة المؤمنين يَثْبُتُون في وجه آبائهم وأمهاتهم وأقربائهم، وبالتالي انتصر الإيمان، وبقي الإحسان إلى الوالدين، وظل تصرف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مثلاً شروداً يلوح للناس الذين يودون الاقتداء بطاعة الله تعالى.

إن سعداً لم تَلِنْ قناته أمام عاطفة أمه، ولم تهتز شخصيته أمام القرابة، بل وضع أمام عينيه مرضاة الله تعالى، ومرضاة رسوله ﷺ.

إن موقف سعد رضي الله عنه مع أمه ينفحنا بنموذج مثالي للمؤمن الصادق الصابر الذي لا يضعف أمام العاطفة، ولا يُساوم على دينه بعاطفة، فلم تؤثر فيه على دينه، ويقينه عاطفة الأمومة.

ولا شكَّ في أن عاطفة الأمومة أمرٌ شاقٌّ وعسير على الأولاد البارِّين بأمهاتهم، وقد يصعب على كثيرين أن يتخطوا هذا الحاجز، أو أن يثبتوا أمامه، ولكن سعداً بقوة إيمانه ثبت ولم يلتفت إلى العاطفة التي ستجرُّه إلى العذاب، وصبر ونجح في صبره، فنال مرضاة الله ورسوله.

ومن الجدير بالذكر، أن سعداً رضي الله عنه تابع رحلة البر بأمه، حيث أمره رسول الله ﷺ أن يترضى ويتلطف بأمه حمنة بنت سفيان، وحذره ألا يطيعها في شركها وكفرها بالله تعالى، إذ إن الشرك ظلم عظيم.

رضي الله عن سعد وجعلنا في جملة المرضيين.

* * *

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٤٣و ٤٤).

الخاتمة

خلاصة ونتائج

أختم هذه الرسالة بخلاصة لأهم وأبرز ما ورد فيها من خطوط ونتائج:

ففي المقدمة:

بدأت بحمد الله تعالى، والثناء عليه بما هو أهله، مقتبساً من الآيات القرآنية ما يتوافق مع عنوان الرسالة: «الحياة الزوجية في القرآن الكريم».

ثم ثنّيتُ بالصلاة والسلام على خير الأنام، الذي بيّن للناس سبل السعادة في حياتهم الزوجية المرتبطة بمنهج القرآن الكريم.

ثم بيّنتُ أهمية موضوع الرسالة وسبب اختياري لها، إذ إن السعادة في الحياة الزوجية مطلب كل إنسان في هذه الحياة، لأن الحياة الزوجية الهانئة هي بلسم استقرار المجتمعات الإنسانية، خصوصاً إذا كانت تنبثق من شرع الله وهَدْيِهِ.

ثم شرحت بإيجاز معنى العنوان وكيفية جمع مادته العلمية من المصادر، وخلاصة بابي الرسالة في فصول بلغت أربعاً وعشرين فصلاً شملت معظم مفاهيم وصور الحياة الزوجية في ضوء القرآن الكريم.

ثم ذكرت عدة أمور مهمة لبيان مجال هذه الرسالة وخصائصها، ومنها:

١ ـ توجيهها للمسلمين ابتداءً كي يسيروا في أمور حياتهم الزوجية على ما جاء في المنهج الإلٰهي الذي رسمه القرآن الكريم؛ وأوضحته الأحاديث النبوية.

٢ ـ معالجة بعض القضايا المهمة التي تتعلق بالحياة الزوجية وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً كالحقوق والواجبات.

٣ ـ بيّنتُ اهتمام القرآن الكريم بأمر الزواج وفوائده ثم أسسه السليمة من خلال الآيات الكريمة، ومن خلال سير الزوجات الصالحات ودورهن في بناء صرح الحياة الزوجية.

٤ ـ أوضحت من خلال الباب الأول بفصوله الكاملة معظم ما يتعلق بأحوال الزواج وأمور الحياة الزوجية مع ربط ذلك بواقعنا المعاصر، مع التوجيه الهادف لنسائنا وبناتنا في العصر الحالي لينضوين تحت راية القرآن، وليجعلن من بيوتهن جنة ينعم فيها الزوج والأولاد، وأوردت نماذج وصوراً من قصص الحياة الزوجية الموفقة عبر التاريخ.

٥ ـ عرضتُ في الباب الثاني بفصوله لطائفتين من النساء:

طائفة تستحق أن يُقتدى بها وهن صوالح النساء، وطائفة تبتعد الزوجات عن طريقها وهن العاصيات.

ففي الطائفة الأولى رسمت حياة ثماني نساء مختارات من القرآن الكريم كنّ ذات تأثير كبير في حياة الأنبياء والرسل، وبينت دورهن العظيم وكيف تقتدي بهن النساء في كل بقاع الأرض ليؤدين دورهن الإيجابي ورسالتهن في حياتهن الزوجية.

أما الطائفة الثانية فقد تحدثت عن أربع نسوة اجتالتهن الشياطين، وخالفن نهج الحق، فكنّ من زمرة الأشقياء الذين قيل لهم: ادخلوا النار مع الداخلين.

٦ ـ أبرزت في مجمع الرسالة أن المرأة المسلمة هي روح بناء الأجيال، فهي تغرس الفضائل وتثبت القيم بنفوس الناشئة، وتشيع المودة والسكينة في حياتها الزوجية والأسرية، وخصوصاً إذا تمسكت بهدي القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة إذ إن هذين الأصلين هما ينبوع النقاء لتعزيز الأمن والاستقرار في الحياة، بالإضافة إلى دور الرجل الإيجابي في تدعيم هذا البناء بما يرضي الله ورسوله.

وبذلك تمت الرسالة، ولله الحمد في الأولى والآخرة.

وختاماً: أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الرسالة، راجياً دعوة صالحة بظهر الغيب ممن يقرؤها.

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم.
وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.
واجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم.
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث
عبد الفتاح أحمد الخطيب

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **آثار البلاد وأخبار العباد**: للقزويني ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.

٣ ـ **إبراهيم أبو الأنبياء**: لعبد الحميد جودة السحار ـ دار مصر للطباعة ـ دون تاريخ.

٤ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: للسيوطي ـ تقديم وتعليق د. مصطفى البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٧٩م.

٥ ـ **الإحسان في القرآن الكريم**: للدكتور أحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.

٦ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**: لابن حزم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.

٧ ـ **أحكام القرآن**: لابن العربي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٨ ـ **أخبار مكة** ـ للأزرقي ـ تحقيق رشدي الصالح ملحس ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٣م.

٩ ـ **أدب الدنيا والدين**: للماوردي ـ تحقيق ياسين السواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.

١٠ ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**: لأبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١١ ـ **أزواج النبي**: للصالحي ـ تحقيق محمد نظام الدين الفتيح ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.
١٢ ـ **أسباب النـزول**: للواحدي ـ تحقيق كمال بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.
١٣ ـ **الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار**: لابن قدامة المقدسي ـ تحقيق علي نويهض ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٤ ـ **الاستيعاب بهامش الإصابة**: لابن عبد البر الأندلسي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٥ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: لابن الأثير ـ دار الفكر ـ بيروت ـ طبعة مصورة ـ ١٩٨٩م.
١٦ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٧ ـ **أضواء البيان**: للشنقيطي ـ طبعة مصورة ببيروت.
١٨ ـ **الأعلام**: للزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط٨ ـ ١٩٨٤م.
١٩ ـ **أعلام النساء**: لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٩ ـ ١٩٨٩م.
٢٠ ـ **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
٢١ ـ **الأغاني**: لأبي الفرج الأصفهاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٢م.
٢٢ ـ **الاقتباس من القرآن الكريم**: لأبي منصور الثعالبي ـ تحقيق د. ابتسام الصفار، ود. مجاهد بهجت ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.
٢٣ ـ **أنساب الأشراف**: للبلاذري ـ تحقيق محمد حميد الله ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.
٢٤ ـ **أنوار التنـزيل وأسرار التأويل**: للبيضاوي ـ مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٥ ـ **البداية والنهاية**: لابن كثير ـ دار الفكر ـ بيروت ـ طبعة مصورة ـ ١٩٧٨م.

٢٦ - **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: للفيروزآبادي - تحقيق محمد علي النجار - المكتبة العلمية - بيروت - دون تاريخ.
٢٧ - **بلاغات النساء**: لطيفور - صححه وشرحه أحمد الألفي - مطبعة مدرسة والدة عباس الأول - القاهرة - ١٩٠٨م.
٢٨ - **بلوغ الأرب**: للألوسي - تحقيق محمد بهجة الأثري - المطبعة الرحمانية - القاهرة - ط٢ - ١٩٢٤م.
٢٩ - **بهجة المجالس**: لابن عبد البر - تحقيق محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية - بيروت - دون تاريخ.
٣٠ - **التاج الجامع للأصول**: لمنصور علي ناصف - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ط٤ - دون تاريخ.
٣١ - **تأخر سن الزواج**: للدكتور عبد الرب نواب الدين - دار العاصمة - السعودية - الرياض - ط١ - ١٤١٥هـ.
٣٢ - **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: للذهبي - تحقيق د. عمر تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - ط١ - ١٩٧٨م.
٣٣ - **تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)**: للطبري - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ - ١٩٨٨م - وطبعة دار المعارف بمصر.
٣٤ - **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**: للمباركفوري - صححه عبد الوهاب عبد اللطيف - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ط٣ - ١٩٧٨م.
٣٥ - **الترغيب والترهيب**: للمنذري - بعناية مصطفى عمارة - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ط٣ - ١٩٦٨م.
٣٦ - **التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام**: لعبد الرحمن السهيلي - تحقيق عبد الله محمد علي النقراط - كلية الدعوة الإسلامية - ليبيا - ١٩٩٢م.
٣٧ - **ترويح أولي الدماثة بمنتقى الكتب الثلاثة**: للأدكاوي - تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة - مكتبة العبيكان - الرياض - ط١ - ٢٠٠١م.
٣٨ - **تفسير ابن رجب الحنبلي**: لابن رجب - جمع وتأليف طارق عوض محمد - دار العاصمة - الرياض - ط١ - ٢٠٠١م.

٣٩ ـ **تفسير ابن كثير (القرآن العظيم)**: لابن كثير ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٩٠م وطبعة دار الكتب العلمية ببيروت.
٤٠ ـ **تفسير البحر المحيط**: لأبي حيان الأندلسي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٣م.
٤١ ـ **تفسير البغوي**: للبغوي ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
٤٢ ـ **تفسير الخازن وبهامشه البغوي**: للخازن والبغوي: مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٥٥م.
٤٣ ـ **تفسير الرازي**: لأبي بكر الرازي ـ تحقيق د. محمد رضوان الداية ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
٤٤ ـ **تفسير روح البيان**: لإسماعيل حقي البروسوي ـ تعليق أحمد عزو عناية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.
٤٥ ـ **تفسير الطبري**: للطبري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨٤م.
٤٦ ـ **تفسير القاسمي**: للقاسمي ـ علق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٨م.
٤٧ ـ **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**: للقرطبي ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.
٤٨ ـ **التفسير الكبير** (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
٤٩ ـ **تفسير الكشاف**: للزمخشري ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
٥٠ ـ **تفسير الماوردي (النكت والعيون)**: للماوردي ـ تحقيق خضر محمد خضر ـ وزارة الأوقاف ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٩٨٢م.
٥١ ـ **تفسير مبهمات القرآن**: للبلنسي ـ تحقيق عبد الله عبد الكريم محمد ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.
٥٢ ـ **تفسير المراغي**: لأحمد مصطفى المراغي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.
٥٣ ـ **تفسير المنار**: لمحمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢ ـ دون تاريخ.

٥٤ ـ **تفسير النسفي**: للنسفي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٢م.
٥٥ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**: للنووي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
٥٦ ـ **تهذيب التهذيب**: لابن حجر العسقلاني ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م. وطبعة مصر المصورة.
٥٧ ـ **تيسير الكريم الرحمن (تفسير السعدي)**: لعبد الرحمن السعدي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
٥٨ ـ **جامع الأصول**: لابن الأثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ دمشق ـ ١٩٧٣م.
٥٩ ـ **جوامع السيرة النبوية**: لابن حزم ـ تحقيق د. إحسان عباس و د. ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.
٦٠ ـ **حاشية الصاوي على الجلالين**: للصاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر ـ دون تاريخ.
٦١ ـ **حدائق الإنعام**: لعبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار الضياء ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٩م.
٦٢ ـ **حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة**: للقنوجي ـ تحقيق د. مصطفى الخن ورفيقه ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٥ ـ ١٩٨٥م.
٦٣ ـ **حلية الأولياء**: لأبي نعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٧م.
٦٤ ـ **حياة الحيوان**: للدميري ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٥ ـ ١٩٧٨م.
٦٥ ـ **حياة الصحابة**: للكاندهلوي ـ بعناية نايف العباس ورفيقه ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٦م.
٦٦ ـ **الحيوان**: للجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٦٥م.
٦٧ ـ **الدر المنثور في التفسير المأثور** ـ للسيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣م.
٦٨ ـ **الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**: لزينب فواز ـ طبعة مصورة في الكويت بمكتبة ابن قتيبة.

٦٩ ـ **دلائل النبوة**: للبيهقي ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١٠ ـ ١٩٨٥م.
٧٠ ـ **ديوان ابن الرومي**: لابن الرومي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٤م.
٧١ ـ **ديوان المتنبي**: للمتنبي ـ طبقة البرقوقي وغيرها.
٧٢ ـ **ديوان مجد الإسلام**: لأحمد محرم ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٤١٢ هـ.
٧٣ ـ **ذم الهوى**: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ١٩٦٢م.
٧٤ ـ **الرحلة الأنسية في الرحلة القدسية**: لعبد الغني النابلسي ـ تحقيق أكرم حسن العلبي ـ دار المصادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
٧٥ ـ **رسائل في الزواج والحياة الزوجية**: لمحمد إبراهيم الحمد ـ دار ابن خزيمة ـ الرياض ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
٧٦ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**: للآلوسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٧٧ ـ **الروض الأنف**: للسهيلي ـ بهامش السيرة النبوية ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر ـ ١٩٧١م.
٧٨ ـ **الروضة الفيحاء في تواريخ النساء**: للعمري ـ تحقيق حسام عبد الحكيم ـ مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م، وطبعة الدار العربية للموسوعات بتحقيق د. رجاء السامرائي ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.
٧٩ ـ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق الدكتور أحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
٨٠ ـ **رياض الصالحين**: للنووي تحقيق يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩م.
٨١ ـ **زاد المسير في علم التفسير**: لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢٠م.
٨٢ ـ **زاد المعاد**: لابن قيم الجوزية ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٦ ـ ١٩٨٤م.

٨٣ ـ **الزهد**: للإمام أحمد بن حنبل ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣م.
٨٤ ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**: للحصري القيرواني ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٥٣م.
٨٥ ـ **الزواج في الشريعة الإسلامية**: لعلي حسب الله ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٧١م.
٨٦ ـ **الزواج والمهور**: لعبد العزيز المسند ـ مطابع الفرزدق ـ الرياض ـ ط٣ ـ ١٤٠٢هـ.
٨٧ ـ **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**: للصالحي ـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد وآخرون ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٣م.
٨٨ ـ **السمط الثمين**: للمحب الطبري ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ حلب ـ دون تاريخ ـ وطبعات أخرى.
٨٩ ـ **سنن ابن ماجه**: تحقيق فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٥م.
٩٠ ـ **سنن أبي داود**: إعداد وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩١ ـ **سنن الترمذي**: إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس ـ حمص ـ ط١ ـ ١٩٦٦م.
٩٢ ـ **سنن الدار قطني**: بعناية عبد الله اليماني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٦٦م ـ وطبعة دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٩٦م.
٩٣ ـ **سنن الدرامي**: دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩٤ ـ **السنن الكبرى**: للبيهقي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩٥ ـ **سنن النسائي**: بشرح السيوطي وحاشية السندي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩٦ ـ **سير أعلام النبلاء**: للذهبي ـ تحقيق ثلة من الأساتذة والعلماء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٥م.

٩٧ ـ **السيرة الحلبية**: لبرهان الدين الحلبي ـ مطابع البابي الحلبي ـ مصر ـ ط١ ـ ١٩٦٤م.
٩٨ ـ **السيرة النبوية**: لابن هشام ـ تحقيق السقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٥٥م.
٩٩ ـ **السيرة النبوية**: لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني ـ تحقيق د. همام سعيد ومحمد أبو صعيليك ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٠٠ ـ **شاعرات العرب**: جمع وتحقيق عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٦٧م.
١٠١ ـ **شذرات الذهب**: لابن العماد الحنبلي ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
١٠٢ ـ **شرح مقامات الحريري**: للشّريشي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مصورة المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ١٩٩٢م.
١٠٣ ـ **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**: للفاسي ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.
١٠٤ ـ **صحيح ابن حبان**: بعناية كمال الحوت ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.
١٠٥ ـ **صحيح البخاري**: طبعات مختلفة.
١٠٦ ـ **صحيح مسلم**: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٠٧ـ **صفة الصفوة**: لابن الجوزي ـ تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٩م.
١٠٨ـ **الطبقات الكبرى**: لابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٠٩ ـ **الطب النبوي**: لعبد اللطيف البغدادي ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
١١٠ ـ **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**: للفاسي ـ تحقيق فؤاد سيد ـ القاهرة ـ ١٣٥٨هـ.

١١١ ـ **عقد الزواج**: للدكتور محمد رأفت عثمان ـ الكتاب الجامعي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٧٧م.
١١٢ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**: لأبي الطيب الآبادي ـ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط٣ ـ ١٩٨٧م.
١١٣ ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والسير**: لابن سيد الناس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٢م.
١١٤ ـ **عيون الأخبار**: لابن قتيبة ـ مصورة عن دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٣ م.
١١٥ ـ **غرر التبيان في مَنْ لم يُسَمّ في القرآن**: لابن جماعة الحموي ـ تحقيق د. عبد الجواد خلف ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
١١٦ ـ **فتح الباري**: لابن حجر ـ تحقيق محب الدين الخطيب وترقيم فؤاد عبد الباقي ـ المكتبة السلفية ـ القاهرة ـ ط٤ ـ ١٤٠٨ هـ.
١١٧ ـ **فتح القدير (تفسير الشوكاني)**: للشوكاني ـ اعتنى به يوسف الغوش ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
١١٨ ـ **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**: لسليمان بن عمر الجمل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.
١١٩ ـ **فوائد في مشكل القرآن**: للعز بن عبد السلام ـ تحقيق د. سيد رضوان علي الندوي ـ دار الشروق ـ جدة ـ ط٢ ـ ١٩٨٢م.
١٢٠ ـ **الفوائد المجموعة**: للشوكاني ـ تحقيق عبد الرحمن اليماني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٧٩ هـ.
١٢١ ـ **في أصول تاريخ العرب الإسلامي**: لمحمد شُرّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٣م.
١٢٢ـ **القاموس المحيط**: للفيروز آبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٧م.
١٢٣ ـ **قصص الأنبياء**: لابن كثير ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.
١٢٤ ـ **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٢٥ ـ **الكامل في اللغة والأدب**: للمبرد ـ تحقيق محمد أحمد الوالي ـ مؤسسة

الرسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م ـ وطبعة مصر بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم بدار الفكر العربي.
١٢٦ ـ **الكليات**: لأبي البقاء الكفوي ـ تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٨م.
١٢٧ ـ **كنـز العمال**: للمتقي الهندي ـ بعناية حياني والسقا ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٥ ـ ١٩٨٥م. وطبعة بيت الأفكار الدولية.
١٢٨ ـ **لباب النقول**: للسيوطي ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٣م.
١٢٩ ـ **لسان العرب**: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
١٣٠ ـ **المبسوط**: للسرخسي ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ١٣٢٤ هـ ـ وطبعة مصورة ببيروت.
١٣١ ـ **المجتبى من المجتنى**: لابن الجوزي ـ تحقيق د. علي حسين البواب ـ دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٣٢ ـ **مجمع الأمثال**: للميداني ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٩٨٧م.
١٣٣ ـ **مجمع الزوائد**: للهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٣٤ ـ **محاضرات الأدباء**: للراغب الأصفهاني ـ تحقيق د. عمر الطباع ـ دار الأرقم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٩م.
١٣٥ ـ **المحبر**: لابن حبيب ـ رواية السكري ـ صححه الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٣٦ ـ **مختار الصحاح**: للرازي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٣٧ ـ **مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر**: لابن منظور ـ تحقيق عدد من الأساتذة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
١٣٨ ـ **مروج الذهب**: للمسعودي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٣٩ ـ **المستدرك على الصحيحين**: للنيسابوري ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ـ دون تاريخ.

١٤٠ ـ **المستطرف في كل فن مستظرف**: للأبشيهي ـ طبعة مصورة عن طبعة مصر ١٣٠٨هـ بدار الفكر.
١٤١ ـ **مسند أبي يعلى الموصلي**: لأبي يعلى ـ تحقيق حسين أسد ـ دار المأمون للتراث ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٤م.
١٤٢ـ **المسند**: للإمام أحمد ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٨م وطبعة بيت الأفكار الدولية.
١٤٣ ـ **المعارف**: لابن قتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٤ ـ ١٩٧٧م.
١٤٤ ـ **معاني القرآن**: للفراء ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٣م.
١٤٥ ـ **معجم البلدان**: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٤٦ ـ **معجم ما استعجم**: للبكري الأندلسي ـ تحقيق مصطفى السقا ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٣م.
١٤٧ ـ **المعرفة والتاريخ**: للبسوي ـ تحقيق د. أكرم ضياء العمري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨١م.
١٤٨ ـ **المغني**: لابن قدامة ـ بعناية جماعة من العلماء ـ دار الكتاب العربية ـ بيروت ـ ١٩٧٢م.
١٤٩ ـ **مفحمات الأقران**: للسيوطي ـ تحقيق إياد الطباع ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٨م.
١٥٠ ـ **المنمق في أخبار قريش**: لابن حبيب البغدادي ـ تحقيق خورشيد أحمد فارق ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.
١٥١ ـ **المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج**: للنووي ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
١٥٢ ـ **المهذب من إحياء علوم الدين**: للغزالي ـ إعداد صالح أحمد الشامي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٨م.
١٥٣ ـ **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**: للقسطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.

١٥٤ ـ **الموطأ** ـ للإمام مالك ـ صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ دون تاريخ ـ وطبعة ابن كثير المحققة .
١٥٥ ـ **ميزان الاعتدال** : للذهبي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٦٣م .
١٥٦ ـ **نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة** : للدكتور أحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٨م .
١٥٧ ـ **نسب قريش** : لمصعب الزبيري ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٣م .
١٥٨ ـ **نهاية الأرب** : للنويري ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب بمصر .
١٥٩ ـ **نوادر المخطوطات** : تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٢م .
١٦٠ ـ **وفاء الوفا** : للسمهودي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٤م .
١٦١ ـ **وفيات الأعيان** : لابن خلكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ .
بالإضافة إلى مصادر كثيرة جداً وردت في ثنايا الدراسة .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
بين يدي الكتاب	٧
المقدمة وعرض البحث	١١
الباب الأول: من مفاهيم الزواج في القرآن الكريم	١٧
الفصل الأول: مفهوم الزواج في اللغة والأدب والشرع	١٩
الفصل الثاني: اهتمام القرآن بالزواج وصفته	٢٧
الفصل الثالث: من فوائد الزواج وآثاره في القرآن الكريم	٤٣
الفصل الرابع: كيف يتم اختيار المرأة للزواج	٥١
الفصل الخامس: الأسس المهمة في اختيار الزوج	٦١
الفصل السادس: هل يجوز النظر إلى المخطوبة؟	٧٩
الفصل السابع: الخطبة وبعض ما يتعلق بها	٨٥
الفصل الثامن: عقد الزواج	٩٦
الفصل التاسع: من حقوق المرأة في الحياة الزوجية	١٠١
الفصل العاشر: من حقوق الزوج على زوجته	١١٣
الفصل الحادي عشر: الحقوق المشتركة بين الزوجين	١٢٧
الفصل الثاني عشر: قصص من الزواج الموفق	١٢٩
الباب الثاني: صور من الحياة الزوجية في القرآن الكريم	١٥٩
القسم الأول: زوجات صالحات في حياة الأنبياء	١٦١

الفصل الأول: حياة آدم الزوجية ١٦٣
الفصل الثاني: حياة إبراهيم الزوجية مع سارة ١٩٥
الفصل الثالث: حياة إبراهيم الزوجية مع هاجر ٢١٧
الفصل الرابع: حياة موسى الزوجية ٢٤٥
الفصل الخامس: حياة أيوب الزوجية ٢٧٣
الفصل السادس: حياة زكريا الزوجية ٢٩٣
الفصل السابع: حياة محمد ﷺ الزوجية مع عائشة ٣٠٥
الفصل الثامن: حياة محمد ﷺ الزوجية مع زينب بنت جحش .. ٣٢١
القسم الثاني: زوجات عاصيات ذكرهن القرآن ٣٣٥
الفصل التاسع: امرأة نوح عليه السلام ٣٣٧
الفصل العاشر: امرأة لوط ٣٤٩
الفصل الحادي عشر: امرأة أبي لهب ٣٦٥
الفصل الثاني عشر: أم سعد بن أبي وقاص ٣٧٩
الخاتمة ٣٨٤
فهرس المصادر والمراجع ٣٨٧
فهرس الموضوعات ٣٩٩

* * *